تفسير السعدي

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

تأليف العلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله
(١٣٠٧هـ - ١٣٦٧هـ)

تهذيب وترتيب وتنسيق دون حذف أو اختصار

اعتنى به
إسلام بن منصور بن عبد الحميد

المجلد الأول

الحضارة

تفسير السعدي

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

١

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبد الحميد ، اسلام منصور

تفسير السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

المجلد الاول / اسلام منصور عبدالحميد - الرياض ١٤٤٢هـ

٨٥٦ ص ؛ ١٤× ٢٠ سم

ردمك: ٣-٦٣-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - التفسير الحديث أ-العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٥٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٧٧٣

ردمك: ٣-٦٣-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩- ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

تفسير السعدي

تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان

تأليف العلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله
(١٣٠٧هـ - ١٣٦٧هـ)

تهذيب وترتيب وتنسيق دون حذف أو اختصار

اعتنى به
إسلام بن منصور بن عبد الحميد

المجلد الأول

دار الحضارة

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أمة الإسلام التي تنتظر بعثًا قريبًا

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]

إلى كل الموحدين في زمن الغربة

إلى كل المجاهدين بأنفسهم وأموالهم في نصرة الإسلام ورفع رايته

إلى كل طلبة العلم المبتغين به وجه الله

إلى إخوتي الصالحين الناصحين المخلصين

إلى زوجتي الحبيبة العزيزة الغالية

مقدمة المُعتَنِي

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، صلىٰ الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وبعد: ترجع قصة هذا العمل إلىٰ قبل أكثر من عشرين سنة.. عندما كانت تتفتح عيوننا ويطرق مسامعنا ذلك العنوان المهيب: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، بمجلداته السبع، وعباراته الجميلة وأسلوبه اليسير المحبب إلىٰ النفوس.. وكنا نقرأ حينئذ ونُؤشِّر علىٰ كثير من المواضع ونقول -في أنفسنا- ربما لو رُتِّبت هذه الفوائد بعد هذا المعنىٰ كان أقرب للتناول وأدعىٰ للفهم.

وكان يعتبر وقتها غالي الثمن، كثير الأجزاء، علىٰ الفئة المستهدفة لقراءته، إذ كان جمال أسلوبه وكثرة فوائده تغري كل مشتغل بالدعوة أن يرشد الناس إليه ويحثهم عليه، فما كان من بعض الناشرين إلا أن أرادوا التيسير علىٰ الناس -بحسب ظنهم- فراحوا يطبعونه في مجلد واحد ضخم، علىٰ هيئة أعمدة، بخط دقيق، علىٰ هامش المصحف، الذي طبع هو أيضًا بمقاس صغير في الصفحة بحيث يتيح إدراج أكبر عدد متاح من الكلمات في الصفحة الواحدة.

ورغم أن هذه الهيئة ربما انتفع بها خلقٌ كثير، وسمحت للكتاب بالتداول بشكل ضخم، إلا أنه تسبب في مشكلة كبيرة ظهرت بعد ذلك، وهي..

أن ذلك التفسير المفيد الذي كتبه صاحبه لتدبر معاني القرآن الكريم وربطها بالتطبيق العملي الناتج عن فهم المعنىٰ، وما ينبني عليه من عمل القلوب والجوارح وارتباطها بالسلوك أو الأحكام..

إلىٰ كتاب يلجأ إليه البعض بين فينة وأخرىٰ لمعرفة معنىٰ إجمالي أو للبحث عن معنىٰ مفردة قرآنية، ثم لا يطيق أن يكمل إلّا وأحس بإرهاق الشديد، وجهد في عينه جراء دقة الخط وصورة الأعمدة المتراصفة في الصفحة الواحدة، فضلًا عن المقاس الصغيرة

لصفحة المصحف.

فلا هو يقدر علىٰ اتخاذه مصحفـًا للقراءة الدائمة، ولا يقدر علىٰ قراءة التفسير بصورة متواصلة، **هذا فضلًا عن بقاء المطلب الأول كما هو**، حيث الحاجة إلىٰ ترتيب الفوائد وإظهار للإشارات الرائعة التي يشير إليها الشيخ سردًا أثناء تفسيره.

وكنتُ قبل مدة أعيد قراءة الكتاب مذاكرةً لنفسي، و شرعتُ في تطبيق الطريقة التي فكرت فيها كثيرًا، وطبقتها في ملف منفصل، وأعدت قراءة الترتيب..

فانشرح صدري لأكمل الكتاب كله علىٰ هذا النحو، حبّـًا لمادته، وتقريبًا لفائدته، وترسيخـًا لإشارته الجميلة المنثورة بين الأسطر..

ورأيت أنَّ **ذلك ألصق بمراد الشيخ من الكتاب**، وأقرب لفهم عموم القراء والشباب وكبار السن..

حيث جمعنا هنا بين الأمرين: تقريب الفائدة، وضبط الحجم..

كل ذلك بلا امتهان تعرُّض للكتاب بحذف أو اختصار، كما بينتُ ذلك بعبارة: «**تهذيب وترتيب وتنسيق دون حذف أو اختصار**»، دفعًا لأي توهم أو تصرُّف في الكتاب.

وقد وقفت أثناء العمل علىٰ أمور أخرىٰ تحتاج للعناية غير ما تقدم، ألخصها في التالي:

- يجمع المصنف في كثير من الأحيان بين تفسير أكثر من آية بغير ترتيب، مثاله: ما جاء في تفسير [الكهف:٤٩]، و[آل عمران:٦٢-٦٣].
- يُفرِّق المصنف في كثيرٍ من المواضع ذِكرَ المعنىٰ الواحد في الآية، علىٰ صور:
  - كأن يذكر المعنىٰ ثم يعود لأول الآية مرة أخرىٰ، كما في [الأنبياء:١].
  - أو يفسر آخر الآية قبل أولها، مثالها: كما في [الأنبياء:٧-٨-٩].
  - أو يؤخر تفسير آية عن موضعها، مثالها: كما في [الحج:١٨].
  - أو يؤخر تفسير جملة عن مكانها كما مثالها: في [لقمان:١٤].
- وربما يفسر المصنف بعض الكلمات في آية معينة وهي موجودة في آية أخرىٰ، كما في [النور: ١٢/ ١٦].

وقد عالجت ذلك ورتبته بحيث يكون التفسير أمام الجملة المُفسَّرة من القرآن، ثم جعلته علىٰ طريقة السرد كما هي طريقة المصنف.

ويمكن بيان منهج العمل باختصار كما يلي:

اعتمدت علىٰ النسخة التي بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن بن المعلا اللويحق.. فهي أفضل المطبوع.

- ميزت الآيات المفسرة بلون مخالف، لإبرازها وتمييزها.
- جعلت الآية المفسرة أو المقطع أولًا علىٰ رأس تفسيرها.
- أعدت تنسيق التفسير، بحيث يكون التفسير أمام الجملة المفسرة من القرآن[1].
- إذا عَرَض المصنف للفائدة أثناء التفسير: فصلتها عنه، وجعلتها في نهاية تفسير الآية أو المقطع المذكورة فيه، تحت عنوان منفصل سميته «الفوائد».
- إذا ذكر المصنف الفوائد منفصلة، تركتها كما هي، ثم جمعتها مع باقي الفوائد، ورقمتها.
- إذا فصلت الفائدة من سياق تفسيرها، وكانت الفائدة لا تتضح إلا بذكر مشهودها من الآية، استبدلت اسم الإشارة الذي يشير لمشهودها من الآية بالمشهود نفسه.
- لا أفصل الفوائد التي تتعلق بالمعنىٰ مباشرة، بل لا يفسر المصنف المعنىٰ إلا بها، والتي يعبر عنها المصنف ببعض الألفاظ، مثل: (وفي ضمن ذلك)، أو (وذلك يتضمن)، أو (ويدخل في ذلك)، ونحو هذه العبارات.. ولكني أبرزها بتمييز حجم بعض كلماتها الدالة عليها.
- ضبط كثير من الكلمات المُشكَلة، والتعليق ببيان بعض معاني المفردات.
- جعلت الفصل بين الفقرات والفوائد وخاصة أثناء التفسير بنقطتين متجاورتين، صُورَتُها (..).

(١) ونصيحة لمن أراد أن يذاكر بهذه الطريقة في كتب أخرىٰ، أن يتنبه ويحذر أثناء هذا التقسيم إذ لا بد لمن يفعل ذلك أن يكون متمرسًا من خلال كثرة القراءة في الفن الذي يتعامل فيه بهذه الطريقة، في كتب التفسير أو شروح الأحاديث وغيرها، ليميز المراد بالجملة، والمراد بتفسيرها وشرحها.

- خرجت الأحاديث والآثار التي لم تزد في التفسير كله عن (١٢٠) أثر، وأكثرها في الصحيحين أو أحدهما.

اسأل الله سبحانه أن ينفع به أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها

إسلام منصور عبد الحميد

ظهيرة يوم الخميس

١٦/ ٥/ ١٤٢٢هـ - ٣١/ ١٢/ ٢٠٢٠م

ima101277@gmail.com

واتس 002/01061505329

تعريف مختصر بالمصنف

هو الشيخ أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي، من قبيلة تميم..

ولد في بلدة عُنَيزة، في القصيم، وذلك بتاريخ (١٢ محرم ١٣٠٧هـ)، وتوفيت أمه وله أربع سنين، وتُوفي والده وله سبع سنين، فتربىٰ يتيمًا، ولكنه نشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعىٰ الأنظار منذ حداثة سِنِّه بذكائه ورغبته الشديدة في العلوم..

وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب، وأتقنه وعمره أحد عشر سنة، ثم اشتغل في التعلم علىٰ علماء بلده وعلىٰ من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجد حتىٰ نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم..

ولما بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم، ويقضي جميع أوقاته في ذلك حتىٰ أنه في عام (١٣٥٠هـ) صار التدريس ببلده راجعًا إليه، ومعول جميع الطلبة في التعلم عليه.

- **بعض مشايخه:**

أخذ عن الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر، وهو أول من قرأ عليه وكان المؤلف يصف شيخه بحفظه للحديث، ويتحدث عن روعه ومحبته للفقراء مع حاجته ومواساتهم، وكثيرًا ما يأتيه الفقير في اليوم الشاتي، فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه، وقلة ذات يده رَحِمَهُ ٱللَّهُ..

ومن مشايخ المؤلف الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، قرأ عليه في الفقه وعلوم العربية وغيرهما..

ومنهم الشيخ صالح بن عثمان القاضي «قاضي عنيزة» قرأ عليه في التوحيد والتفسير

والفقه -أصوله وفروعه- وعلوم العربية، وهو أكثر مَن قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتىٰ تُوفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ..

ومنهم الشيخ علىٰ الناصر أبو وادي، قرأ عليه في الحديث، وأخذ عنه الأمهات الست وغيرها وأجازه في ذلك.

● نبذة من أخلاق المؤلف:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، متواضعًا للصغير والكبير والغني والفقير، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم ناديا علميا، حيث أنه يحرص أن يحتوي علىٰ البحوث العلمية والاجتماعية ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمىٰ من هذه البحوث النافعة التي يشغل وقتهم فيها، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأخرىٰ، وكثيراً ما يحل المشاكل برضاء الطرفين في الصلح العادل، وكان ذا شفقة علىٰ الفقراء والمساكين والغرباء مادًا يد المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات، وكان علىٰ جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله، وكان من أحسن الناس تعليمًا وأبلغهم تفهيمًا، مرتبًا لأوقات التعليم، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المُحَصِّلين لشحذ أفكارهم، ويجعل الجُعل لمن يحفظ بعض المتون، وكل من حفظه أعطىٰ الجعل ولا يحرم منه أحد.

وكان يتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال لأنهم يتلذذون من مجالسته، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير.

● مكانة المؤلف بالمعلومات

كان ذا معرفة تامة في الفقه، أصوله وفروعه. وفي أول أمره متمسكًا بالمذهب الحنبلي تبعًا لمشايخه، وحفظ بعض المتون من ذلك، وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ

الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة، وله اليد الطولىٰ في التفسير، إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيه، وألف تفسيره بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره، ودائمًا يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسره ارتجالًا، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده، ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة(١).

• **وفاته:**

وبعد عمر مبارك دام قرابة ٦٩ عامًا في خدمة العلم انتقل إلىٰ جوار ربه في عام (١٣٧٦هـ) في مدينة عنيزة من بلاد القصيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة.

---

(١) وهذا ما يفسر بعض الأمور التي سبقت الإشارة إليها وجرىٰ الاعتناء بها بفضل الله في عملنا هنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل...

وجعله برحمته هدىٰ للناس عمومـًا، وللمتقين خصوصـًا، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلىٰ نور الإيمان والتقوىٰ والعلم..

وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات.. وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها..

وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه.. وذلك لاشتماله علىٰ الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيه..

وأنزله مباركا، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة.. فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة فسببها الاهتداء به واتباعه..

وأخبر أنه مصدِّق ومهيمن علىٰ الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها..

وقال تعالىٰ فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، فهو هاد لدار السلام، مبيِّن لطريق الوصول إليها، وحاث عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلىٰ دار الآلام ومحذر منها..

وقال تعالىٰ مخبرا عنه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فبيَّن آياته أكمل تبيين، وأتقنها أي إتقان.. وفصلها بتبيين الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلًا كاشفا للبس، لكونه صادرًا من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين،

ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهىٰ إلا عن المضار الدينية والدنيوية..

وأقسم تعالىٰ بالقرآن.. وَوَصَفه بأنه (مجيد).. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها.. وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها..

ووصفه بأنه (ذو الذكر)، أي: يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشىٰ..

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١] فأنزله بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار..

فلله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدىٰ وشفاء ورحمة ونورًا، وتبصرة وتذكرة، وبركة، وهدىٰ وبشرىٰ للمسلمين.

فإذا عُلِم هذا..

عُلِم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها..

وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلىٰ ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله..

فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود..

ومن مقصر، يقتصر علىٰ حل بعض الألفاظ اللغوية، بقطع النظر عن المراد.

وكان الذي ينبغي في ذلك..

أن يجعل المعنىٰ هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه..

فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم..

فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين علىٰ معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلىٰ ذلك معرفة علوم العربية علىٰ اختلاف أنواعها..

فمن وُفِّق لذلك، لم يبق عليه إلا **الإقبال علىٰ تدبره وتفهمه وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقـًا ومفهومـًا**..

فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورا لا تدخل تحت كسبه.

ولِمَا مَنَّ الباري عليَّ وعلىٰ إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز، بحسب الحال اللائقة بنا..

أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما مَنَّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين..

ولأقيده خوف الضياع..

ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنىٰ هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود؛ للمعنىٰ الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيرًا.

والله أرجو، وعليه أعتمد..

أن ييسر ما قصدت، ويذلل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله، فلا سبيل إلىٰ حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلىٰ نيل العبد مأموله..

وأسأله تعالىٰ أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم.. اللهم صل علىٰ محمد وآله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا.

فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من (بدائع الفوائد)(١) لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ(٢)..

قال..

---

(١) بدائع الفوائد [٤/ ١٣٠٥ وما بعدها-ط عالم الفوائد].

(٢) الجامع بين هذه الفوائد التي نقلها المصنف، هو أنها قواعد مهمة يستفاد بها في بيان المقصود من كلام الله تعالىٰ، مع أنَّ دليها هو كلام الله نفسه، ومن هنا تظهر أهميتها، وقد استخدمها المصنف كثيرًا في بيان المعنىٰ المراد أثناء تفسيره.

فصل[1]

النكرة في سياق النفي: تعم..

مستفاد من: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وفي الاستفهام من: قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

وفي الشرط من: قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم:٢٦]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة:٦].

وفي النهي من: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود:٨١].

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضىٰ كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤].. **وإذا أضيف إليها (كل):** نحو ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].. **ومن عمومها** بعموم المقتضىٰ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧].

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلىٰ باللام من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ [النبأ: ٤٠].

وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]، (وكتابه)، وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].. **والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم.**

وعموم الجمع المحلىٰ باللام من قوله: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلىٰ آخرها.

---

(١) في هذا الفصل والذي بعده، ذكر القواعد التي تتعلق بفهم العموم من النص.

والمضاف من قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].. **هذا إذا كان الجواب طلباً، مثل هاتين الآيتين.**

فإن كان خبرا ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١].

وإن كان مستقبلا فالتزموا ردَّ العموم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]، قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].. **وقد لا يعم**، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فصل (١)

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب: من ذمِّه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالعاجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم: من ذمه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب علىٰ فعله.

ويستفاد الوجوب بـ: الأمر تارة.. وبـ: التصريح بالإيجاب والفرض والكتب.. ولَفظَةُ

---

(١) في هذا الفصل ذكر قواعد تتعلق بالألفاظ الدالة علىٰ الأحكام التكليفية، وهي خمسة، ذكر منها ثلاثة، وهي (الواجب، والمحرم، والمباح).. وبقي (المندوب، والمكروه).. وهما يفهمان مما ذُكِر، لأن الواجب إذا خلا مما ذُكر صار الأمر للندب، والنهي إذا خلا مما ذُكِر صار مكروهاً.. وسيذكر ما يتعلق بهما أيضاً في ثنايا الفصول الآتية.. والله تعالىٰ أعلم.

(علىٰ).. ولَفظَةُ: حقٌّ علىٰ العباد، وعلىٰ المؤمنين.

ويستفاد التحريم من: النهي، والتصريح بالتحريم، والحظر، والوعيد علىٰ الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل.. **وقوله (لا ينبغي):** فإنَّها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلًا وشرعًا.. **ولفظة:** (ما كان لهم كذا وكذا)، و(لم يكن لهم)، وترتيب الحد علىٰ الفعل، ولفظة (لا يحل)، و(لا يصلح)، ووصف الفعل بأنَّه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالىٰ لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزكي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه، ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من: الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجَناح والحرج والإثم والمؤاخذة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار علىٰ فعله في زمن الوحي، وبالإنكار علىٰ من حرَّم الشيء، والإخبار بأنَّه خَلَق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذام لهم عليه.. **فإن اقترن بإخباره مدحٌ، دل علىٰ رجحانه استحبابًا أو وجوبًا.**

فصل[1]

وكلُّ فعل:

عظَّمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله..

أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن..

أو نصبَه سببًا لمحبته، أو لثواب عاجل أو آجل..

أو نَصَبه سببًا لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله..

أو وصف فاعله بالطيب..

أو وصف الفعل بأنه معروف..

أو نفىٰ الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن..

---

(١) في هذا الفصل ذكر ما يستفاد منه اشتراك الأمر لـ: (الوجوب والندب).

أو نصبه سبباً لولايته..

أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله..

أو وصفه بكونه قربة..

أو أقسم به أو بفاعله، كالقَسَم بخيل المجاهدين وإغارتها، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به..

فهو دليل علىٰ مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل[١]

وكلُّ فِعل:

طلبَ الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عِيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفىٰ محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفىٰ الرضا به، أو الرضا عن فاعله..

أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدىٰ، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه..

أو جعله سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذَمٍّ أو لوم، أو ضلالة أو معصية..

أو وصفه بخبث أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً، أو سببا لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربته، أو الاستهزاء به وسخريته..

أو جُعِل سببا لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلىٰ التوبة منه..

أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبه إلىٰ الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله..

أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلما أو بغيا، أو عدوانا أو إثما، أو تبرأ الأنبياء منه أو من

(١) في هذا الفصل ذكر ما يستفاد منه المنع، وأنه على التحريم، وأشار إلى ما يفيد الكراهة.

فاعله، أو شكوا إلىٰ الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة..

أو نُصِب سبباً لخيبة فاعله عاجلًا أو آجلا، أو رتَّب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره..

أو قيل فيه: (لا ينبغي هذا)، أو (لا يصلح)، أو أمر بالتقوىٰ عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله..

أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه (ليس من الله في شيء)، أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قُرِنَ بمحرم ظاهر التحريم في الحكم، والخبر عنهما بخبر واحد..

أو جُعل اجتنابه سببا للفلاح، أو جُعِل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله (هل أنت منته)، أو نَهىٰ الأنبياء عن الدعاء لفاعله..

أو رتَّب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة (قُتِل من فعله)، أو (قاتل الله من فعله)..

أو أخبر أن فاعله (لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكيه)، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله..

أو نبه علىٰ وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلًا، أو أخبر أنَّ من فعله قيَّض له الشيطان فهو له قرين..

أو جُعِل الفعل سبباً لإزاغة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه..

أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل (لم فعل) نحو: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [آل عمران: ٩٩]، ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، ما لم يقترن به جواب من المسئول فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه..

فهذا ونحوه، يدل علىٰ المنع من الفعل، ودلالته علىٰ التحريم أطرد من دلالته علىٰ مجرد الكراهة..

وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروه، فأكثر ما يستعمل في **المحرم**، **وقد يستعمل في كراهة التنزيه.**

وأما لفظة (وأما أنا فلا أفعل) فالمتحقق منه **الكراهة** كقوله: (أما أنا فلا آكل متكئًا).

وأما لفظة (ما يكون لك)، و(ما يكون لنا) فاطرد استعمالها في **المحرم**، نحو ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

فصل[1]

وتستفاد الإباحة من:

لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو..

و (إن شئت فافعل) و(إن شئت فلا تفعل)..

ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، ونحو: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة[2]

التعجب: كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبوة»[3]، ونحوه.. قد يدل على بغض الفعل، كقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥]، وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١].

---

(١) ذكر في هذا الفصل الألفاظ التي يستدل بها على الإباحة.

(٢) ذكر في هذه الفائدة ما يدل عليه لفظ التعجب.

(٣) أخرجه أحمد في [المسند/ ١٧٦٤٥] وغيره عن ابن لهيعة عن أبي عشانة عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ.

وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٧].

ويدل على حسن المنع منه قَدَرًا، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [آل عمران: ٨٦].

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله:

قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] الآية.

وقد يأتي بين الفاعلِين كقوله: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٠] الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلىٰ:

بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة..

وهو من أعظم القرائن الدالة علىٰ مراد المتكلم..

فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته..

فانظر إلىٰ قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، كيف تجد سياقه يدل علىٰ أنه الذليل الحقير.

فائدة

إخبار الرب عن **المحسوس الواقع** له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكرة.

ومنها: أن يكون شاهدا علىٰ ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتىٰ.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه.

وغير ذلك من الفوائد.

انتهىٰ كلامه[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.. وهو في غاية النفاسة، والاشتمال علىٰ كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيرا.

---

(١) يعني كلام ابن القيم من (بدائع الفوائد).

قلت: وقد اشتمل القرآن علىٰ عدة علوم قد ثنيت فيه وأعيدت

١- فمنها: **ضرب الأمثال**، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

٢- ومنها ذكر **صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:**

● منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل علىٰ محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل علىٰ بغض الله لها وأنها مذمومة..

● ومنها: ما يكرم الله به أولياءه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقابا معجلا..

● ومنها: أن فيه حثا للنفوس علىٰ الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال علىٰ الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله..

● وفيه: الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عامليها ما أثرت..

● ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.. وقد حث تعالىٰ علىٰ الاعتبار، في غير موضع من كتابه.. وحقيقته: العبور من شيء إلىٰ شيء، وقياس الشيء علىٰ نظيره..

● ومنها: أن العبد إذا رأىٰ أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء علىٰ نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلىٰ غير ذلك من الفوائد.

٣- ومنها: ذكر **صفات الله وأسمائه وأفعاله**، وتقديسه عن النقائص، **وفي ذلك فوائد عظيمة:**

● منها: أن هذا العلم -وهو العلم المتعلق بالله تعالىٰ- أشرف العلوم وأجلها علىٰ الإطلاق.. فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلىٰ المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب..

● ومنها: أن معرفة الله تعالىٰ تدعو إلىٰ محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلىٰ معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته،

والتفقه في فهم معانيها.. وقد اشتمل القرآن من ذلك علىٰ ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلىٰ عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه..

• ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له.. وقبيح بعبد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلا بربه معرضا عن معرفته..

• ومنها: أنَّ أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: (آمنت بالله) من غير معرفة بربه.. بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتىٰ يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص.. وأقرب طريق يوصله إلىٰ ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.. والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت له ذلك المعنىٰ وكماله وعمومه، ونزهه عما يضاد ذلك..

• ومنها: أن العلم به تعالىٰ أصل الأشياء كلها، حتىٰ إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله علىٰ ما يفعله، وعلىٰ ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضىٰ أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

٤- وكذلك لا يُشرِّع ما يشرعه من الأحكام، إلا علىٰ حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.. فأخباره كُلُّها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه..

وكيف يصح في الأذهان شيء.. إذا احتاج النهار إلىٰ دليل

٥- ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرىٰ لهم مع أممهم.. **وفي ذلك عدة فوائد:**

• منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيمانا بهم، ومحبة لهم، وتعظيما لهم، وتعزيزا وتوقيرا.

• ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا -خصوصا النبي محمد ﷺ- معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

• ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالىٰ علىٰ ما من به علىٰ المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولا منهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

• ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا علىٰ أيديهم وبسببهم.. فقبيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه.. وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم علىٰ سائر الحقوق بعد حق الله تعالىٰ؟!!

• ومنها: أن في معرفة ما جرىٰ لهم وجرىٰ عليهم، تحصل للمؤمن الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلىٰ بعض ما جرىٰ علىٰ الأنبياء. قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم علىٰ حسب مراتب الخلق، والصبر علىٰ التعليم، والدعوة إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

• ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه.. وفهم المعنىٰ والمراد منها موقوف علىٰ معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافا كثيرا.. فلو أراد إنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط علىٰ الله وعلىٰ رسوله، وعلىٰ مراد الله من كلامه، شيء كثير.. وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله وغير ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

٦- ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، **وفي معرفة ذلك عدة فوائد:**

• منها: أن الله تعالىٰ حث علىٰ معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، وذم من لم يعرف ذلك.

• ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

• ولا سبيل إلىٰ امتثالها، أو اجتنابها، إلا بمعرفتها، ليتأتىٰ فعلها أو تركها، وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولا معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل.. فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

• وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعينا بربه علىٰ تركه، امتثالا لأمر الله، واجتنابا لنهيه، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

• ومنها: أن الدعوة إلىٰ الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهىٰ عنه، والقرآن مشتمل علىٰ ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

٧- ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، **وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:**

• منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه.

• ومنها: أن العلم بذلك حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفظعة.

• وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

• ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة علىٰ الأعمال الصالحة، والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

• وعلىٰ قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

٨- ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين..

وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر..

ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل علىٰ الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح..

فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهىٰ عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة علىٰ صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقا للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث علىٰ الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته ينبه العقول النيرة علىٰ ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهىٰ عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها، وتكريمهم

وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات علىٰ الصلاح، والمحرمات مشتملات علىٰ المفاسد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة علىٰ المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو علىٰ اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباء منثورا.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازا غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فلله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة إن شاء الله..

ينبغي استقراؤها في كل مواردها..

والتنبه لكل ما يرد من هذه المطالب علىٰ وجه التفصيل..

فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعا عظيما.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم

تفسير الفاتحة وهي مكية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة:١]

﴿بِسْمِ﴾ أبتدئ بكل اسم لله تعالىٰ، لأن لفظ ﴿اسم﴾ مفرد مضاف، **فيعم جميع الأسماء الحسنىٰ**..

﴿اللَّهِ﴾ هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال..

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة:١] **اسمان دالان علىٰ أنه تعالىٰ ذو الرحمة الواسعة العظيمة**، التي وسعت كلَّ شيء، وعمَّت كلَّ حيٍّ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها.

🕮 الفوائد

اعلم: أنَّ من القواعد المتفَّق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، **الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكامِ الصفات**، فيؤمنون -مثلًا- بأنَّه رحمنٌ رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم، **فالنعم كلها أثر من آثار رحمته**، وهكذا في سائر الأسماء، يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم كلَّ شيء، قدير: ذو قدرة، يقدر علىٰ كل شيء.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②﴾ [الفاتحة:٢]

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناء علىٰ الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، بجميع الوجوه..

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] الرب هو المربي جميع العالمين -وهم من سوىٰ الله- بـ: خلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء فما بهم من نعمة فمنه تعالىٰ.

📖 الفـوائـد

١- **تربيته تعالىٰ لخلقه نوعان:** عامة، وخاصة..

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا..

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، **وحقيقتها: تربية التوفيق** لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا المعنىٰ هو **السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب**، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

٢- دل قوله ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ علىٰ انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٣-٤]

المالك: هو **من اتصف بصفة الملك التي من آثارها** أنه يأمر وينهىٰ، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات..

وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، **لأنَّ في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور** كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتىٰ إنه يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]

أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة؛ لأن **تقديم المعمول يفيد الحصر**، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه، **فكأنه يقول**: نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين بغيرك.

📖 الفـوائـد

١- قدَّم العبادة علىٰ الاستعانة: من باب **تقديم العام** علىٰ الخاص، واهتماما **بتقديم حقه تعالىٰ** علىٰ حق عبده.

٢- العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة.

٣- الاستعانة: هي الاعتماد علىٰ الله تعالىٰ في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

٤- القيام بعبادة الله والاستعانة به هو **الوسيلة للسعادة الأبدية**، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلىٰ النجاة إلا بالقيام بهما.

٥- إنما تكون **العبادة** عبادة، إذا كانت **مأخوذة عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، مقصودًا بها وجه الله**، فبهذين الأمرين تكون عبادة.

٦- ذكر (الاستعانة) بعد (العبادة) مع دخولها فيها، **لاحتياج العبد في جميع عباداته إلىٰ الاستعانة بالله تعالىٰ**، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]

أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلىٰ الله، وإلىٰ جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلىٰ الصراط واهدنا في الصراط.. وهذا الصراط

المستقيم هو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٧].

🕮 الفـوائـد

١- الهداية إلىٰ الصراط: **لزوم دين الإسلام، وترك** ما سواه من الأديان.

٢- الهداية في الصراط تشمل: **الهداية لجميع التفاصيل الدينية** علما وعملا.

٣- هذا الدعاء **من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد**، ولهذا وجب علىٰ الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلىٰ ذلك.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٧]

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين..

﴿غَيۡرِ﴾ صراط..

﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه، كاليهود ونحوهم..

﴿وَلَا﴾ غير صراط..

﴿ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٧] الذين تركوا الحق علىٰ جهل وضلال، كالنصارىٰ ونحوهم.

🕮 الفـوائـد

١- هذه السورة علىٰ إيجازها، قد احتوت علىٰ ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن.

٢- فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.. وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿ٱللَّهِ﴾، ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.. وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالىٰ، التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل علىٰ ذلك لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ كما تقدم.

٣- وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

٤- وتضمنت إثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

٥- وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافا للقدرية والجبرية، بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك.

٦- وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادة واستعانة، في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فالحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة البقرة وهي مدنية

﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة:١]

وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله تعالىٰ لم ينزلها عبثا بل لحكمة لا نعلمها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢]

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هذا الكتاب العظيم، الذي هو الكتاب علىٰ الحقيقة، المشتمل علىٰ ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين، فـ..

﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه.. فهذا الكتاب مشتمل علىٰ علم اليقين المزيل للشك والريب.. فلما اشتمل علىٰ اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال:..

﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ والهدىٰ: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشُبَه، وما به الهداية إلىٰ سلوك الطرق النافعة.. ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوىٰ لذلك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:٣].

📖 الفـوائـد

١- نفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، وهذه قاعدة مفيدة، أن **النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمنا لضده**، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

٢- قال ﴿هُدٗى﴾ **وحذف المعمول**، فلم يقل: هدىٰ للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، **لإرادة العموم**، وأنه هدىٰ لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل

الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، في دنياهم وأخراهم.

٣- قال في موضع آخر: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥] فعمَّم، وفي هذا الموضع وغيره ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

• لأنه في نفسه هدىٰ لجميع الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأسًا، ولم يقبلوا هدىٰ الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية، وهو التقوىٰ التي حقيقتها اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية.

• ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها، ليست هداية حقيقية تامة.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة:٣]

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ **فليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر**، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله، **فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر**؛ لأنه تصديق مجرد لله ورسله، **فالمؤمن** يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، **بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية**؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدىٰ الله..

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، **فإقامة الصلاة إقامتها ظاهرًا**، بإتمام أركانها، وواجباتها،

وشروطها، **وإقامتها باطنا** بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، **فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها:** ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان من صلاته، إلا ما عقل منها، **ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها**..

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة:٣] **يدخل فيه: النفقات الواجبة**: كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب ونحو ذلك، **والنفقات المستحبة** بجميع طرق الخير.

🕮 الفـوائـد

١- **حقيقة الإيمان:** هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح.

٢- **يدخل في الإيمان بالغيب:** الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها.

٣- أتى بـ (مِن) الدالة على التبعيض؛ لينبههم أنه **لم يرد منهم إلا جزءًا يسيرًا من أموالهم**، غير ضار لهم ولا مثقل، بل **ينتفعون هم بإنفاقه**، وينتفع به إخوانهم.

٤- في قوله: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى أن **هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم**، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

٥- كثيرًا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن؛ لأن **الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده**، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة:٤]

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، **فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول**، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله علىٰ غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة علىٰ خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيمانا حقيقيا..

﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بالكتب السابقة، ويتضمن الإيمانُ بالكتب: الإيمانَ بالرسل وبما اشتملت عليه، خصوصا التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية، وبجميع الرسل، فلا يفرقون بين أحد منهم..

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة:٤] والآخرة: اسم لما يكون بعد الموت، **وخصَّه بالذكر بعد العموم؛ لأن الإيمان** باليوم الآخر أحد أركان الإيمان؛ **ولأنه أعظم** باعث علىٰ الرغبة والرهبة والعمل.. **واليقين**: هو العلم التام -الذي ليس فيه أدنىٰ شك- الموجب للعمل.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:٥]

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة..

﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ علىٰ هدىً عظيم، **لأن التنكير للتعظيم**، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، **وهل الهداية الحقيقية إلا هدايتهم؟!** وما سواها مما خالفها فهو ضلالة..

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:٥] **الفلاح**: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، **حصر الفلاح فيهم؛** لأنه لا سبيل إلىٰ الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلىٰ الهلاك.. فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقا، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم، المعاندين للرسول، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

🕮 الفـوائـد

أتىٰ بـ (عَلَىٰ) في هذا الموضع الدالة علىٰ الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ (فِي) كما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤]، **لأن صاحب الهدىٰ مستعلٍ بالهدىٰ**، مرتفعٌ به، **وصاحبُ الضلالِ منغَمِسٌ فيه محتَقر.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة:٦]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يخبر تعالىٰ أن الذين كفروا، أي: اتصفوا بالكفر، وانصبغوا به، وصار وصفا لهم لازما، لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ، إنهم مستمرون علىٰ كفرهم، فـ..

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة:٦] سواء عليهم أأنذرتهم، أم لم تنذرهم لا يؤمنون.. ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة:٧].

🕮 الفـوائـد

١- حقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه.

٢- هؤلاء الكفار لا تفيدهم الدعوة إلا إقامة الحجة.

٣- كأن في هذا قطعًا لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنك لا تأسَ عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة:٧]

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم..

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ أي: غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم.. ثم ذكر العقاب الآجل، فقال:..

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة:٧] وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.. ثم قال تعالىٰ في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾.

🕮 الفوائد

١- هذه طرق العلم والخير، قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يرجىٰ عندهم.

٢- إنما منعوا ذلك وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعد ما تبين لهم الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام:١١٠] وهذا عقاب عاجل.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة:٨]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله:..

﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة:٨] لأن الإيمان الحقيقي: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

🕮 الفوائد

١- اعلم: أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر.

٢- يدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي، كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[١]، وفي

(١) أخرجه البخاري [٣٣]، ومسلم [٥٩] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

رواية: «وإذا خاصم فجر»[1]، وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها.

٣- لم يكن النفاق موجودا قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلىٰ المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر، وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفًا ومخادعةً، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

٤- من لُطفِ اللهِ بالمؤمنين، أنْ جلا أحوالهم، ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لِئلَّا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضا عن كثير من فجورهم، قال تعالىٰ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [التوبة:٦٤]، فوصفهم الله بأصل النِّفَاق فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [البقرة:٩]

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئًا ويبطنُ خلافَه؛ لكي يتمكن من مقصودِه ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك..

﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ فعاد خداعُهم علىٰ أنفسهم، فإنَّ هذا من العجائب؛ لأن المخادع: إما أن ينتج خداعه ويحصل له ما يريد، أو يَسلَم لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالىٰ لا يتضرر بخداعهم شيئا، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فَسَلِمَت بذلك أموالهم وحُقِنَت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزنُ المستمر

(١) اخرجه البخاري [٣٤]، ومسلم [٥٨] وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو.

بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجع؛ بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم..

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة:٩] والحال أنهم من جهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:١٠]

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق..

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ **بيان لحكمته تعالىٰ في تقدير المعاصي علىٰ العاصين**، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥]، **فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها**، قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ [مريم:٧٦]..

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:١٠]...

🕮 الفوائد

القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢] وهي شهوة الزنا، والمعافىٰ من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة:١١-١٢]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن **الإفساد في الأرض**،

وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين..

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، **قلبًا للحقائق**، وجمعًا بين فعل الباطل واعتقاده حقًا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية فهذا أقرب للسلامة، وأرجىٰ لرجوعه.. ولما كان في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ حصر للإصلاح في جانبهم **-وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح-** قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾..

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم فسادًا ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأولياءه، ووالىٰ المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟!..

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [البقرة:١١- ١٢]..

🕮 الفـوائـد

إنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادًا:

● لأنه يتضمن فساد ما علىٰ وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، بما يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي.

● ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدر لهم الأرزاق، ليستعينوا بها علىٰ طاعته وعبادته، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيًا فيها بالفساد فيها، وإخرابًا لها عما خلقت له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [البقرة:١٣]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وهو الإيمان بالقلب واللسان..

﴿قَالُوٓاْ﴾ بزعمهم الباطل..

﴿أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون -قبحهم الله- الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، بزعمهم أن **سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك**، فنسبوهم إلىٰ السفه؛ **وفي ضمنه أنهم هم العقلاء** أرباب الحجىٰ والنهىٰ، فرد الله ذلك عليهم، وأخبر..

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أنهم هم السفهاء علىٰ الحقيقة، لأن **حقيقة السفه** جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، **كما أن العقل والحجا** معرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه، وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة علىٰ الصحابة والمؤمنين وصادقة عليهم، **فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوىٰ المجردة، والأقوال الفارغة..**

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [البقرة:١٣] ولكن لا يعلمون علما ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علمًا تقوم به عليهم حجة الله.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة:١٤]

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إذا اجتمعوا بالمؤمنين..

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم..

﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر..

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ في الحقيقة..

﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة:١٤] بالمؤمنين بإظهارنا لهم أنا علىٰ طريقتهم.. فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة:١٥]

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ هذا جزاء لهم، علىٰ استهزائهم بعباده..

﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ أي: يزيدهم فجورهم وكفرهم.. **فمن استهزائه بهم**: أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتىٰ ظنوا أنهم مع المؤمنين، لَمَّا لم يسلط الله

المؤمنين عليهم، **ومن استهزائه بهم يوم القيامة**: أنه يعطيهم مع المؤمنين نورًا ظاهرًا، فإذا مشىٰ المؤمنون بنورهم، طفئ نور المنافقين، وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، **فما أعظم اليأس بعد الطمع**، ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد:١٤] الآية..

﴿يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة:١٥] حائرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالىٰ بهم.. ثم قال تعالىٰ كاشفا عن حقيقة أحوالهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾ [البقرة:١٦]

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنافقون الموصوفون بتلك الصفات..

﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ رغبوا في الضلالة، رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة، **وهذا من أحسن الأمثلة**، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدىٰ الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدىٰ رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها، **فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم**، وإذا كان من بذل دينارًا في مقابلة درهم خاسرًا، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهما؟! فكيف من بذل الهدىٰ في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء علىٰ السعادة، ورغب في سافل الأمور عن عاليها؟!..

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ بل خسر فيها **أعظم** خسارة ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥]..

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾ [البقرة:١٦] تحقيق لضلالهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة.. ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال..

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧﴾ [البقرة:١٧]

﴿مَثَلُهُمْ﴾ المطابق لما كانوا عليه..

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلىٰ النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده مُعَدَّة، بل هي خارجة عنه..

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ﴾ النار..

﴿مَا حَوۡلَهُۥ﴾ ونظر المحلَّ الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقَرَّت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ..

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ فذهب عنه النور، وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة، والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق..

﴿وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧﴾ [البقرة:١٧] فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟! **فكذلك هؤلاء المنافقون**، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها وحقنت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم علىٰ ذلك إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاعَ بذلك النور، وحصل لهم كلُّ همٍّ وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمةُ القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظُلَمُ المعاصي علىٰ اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمةُ النار وبئس القرار.. فلهذا قال تعالىٰ عنهم..

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة:١٨]

﴿صُمُّۢ﴾ عن سماع الخير..

﴿بُكۡمٌ﴾ عن النطق به..

﴿عُمۡىٞ﴾عن رؤية الحق..

﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة:١٨] لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، **بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال**، فإنه لا يَعقِل، وهو أقرب رجوعًا منهم.. ثم قال تعالىٰ: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة:١٩-٢٠]

﴿أَوۡ﴾ مثلهم..

﴿كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي يصوب، أي: ينزل بكثرة..

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٞ﴾ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر..

﴿وَرَعۡدٞ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب..

﴿وَبَرۡقٞ﴾ وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب..

﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ **فهكذا حال المنافقين، إذا سمعوا** القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده، فيروعهم وعيده وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، ربما حصلت له السلامة، وأما المنافقون فأنىٰ لهم السلامة..

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ وهو تعالىٰ محيط بهم قدرة وعلمًا، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء..

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ البرق في تلك الظلمات..

﴿مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ وقفوا.. ولما كانوا مبتلين بالصمم، والبكم والعمىٰ المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالىٰ..

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ الحسية، ففيه **تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية**، ليحذروا فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠﴾ [البقرة:١٩-٢٠] فلا يعجزه شيء، **ومن قدرته أنه إذا شاء شيئا فعله**، من غير ممانع ولا معارض.

الفوائد

في هذه الآية وما أشبهها **رد على القدرية**، القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالىٰ، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:٢١-٢٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ هذا أمر **عام لِجَمِيعِ الناس**، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة، لامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالىٰ بما خلقهم له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].. ثم استدل علىٰ وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم..

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم..

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة..

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ **يحتمل أن المعنىٰ**: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك.. **ويحتمل** أن يكون المعنىٰ: أنكم إذا عبدتم الله صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوىٰ.. **وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان**؛ فمن أتىٰ بالعبادة كاملة كان من المتقين، ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه..

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلىٰ محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها..

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم..

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والسماء: هو كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: **المراد بالسماء هاهنا: السحاب،** فأنزل منه تعالىٰ ماء..

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كالحبوب، والثمار، من نخيل، وفواكه، وزروع وغيرها..

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ به ترتزقون، وتقوتون وتعيشون وتفكهون..

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ نظراءً وأشباهًا من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مِثلُكم مخلوقون مرزوقون مُدَّبَرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون..

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:٢١-٢٢] أن الله ليس له شريك ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير ولا في العبادة، فكيف تعبدون معه آلهة أخرىٰ مع علمكم بذلك؟! هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

🕮 الفوائد

هذه الآية جمعت بين: الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه.. وبيان الدليل الباهر علىٰ وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير..

فإذا كان كل أحد مقرًا بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة..

وهذا **أوضح دليل عقلي علىٰ وحدانية الباري، وبطلان الشرك.**

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة:٢٣-٢٤]

وهذا دليل **عقلي علىٰ صدق رسول الله ﷺ**، وصحة ما جاء به، فقال..

﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كَذِبَه..

﴿فِي رَيْبٍ﴾ في شك واشتباه..

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ هل هو حق أو غيره؟ فهاهنا أمر نصف، فيه الفيصلة بينكم وبينه، وهو أنَّه بَشَرٌ مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم، لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب زعم أنَّه من عند الله، وقلتم أنتم أنه تقوَّله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون..

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصًا وأنتم أهل الفصاحة والخطابة، والعداوة العظيمة للرسول..

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم..

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز..

﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا العرض علىٰ وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرىٰ، ودليل واضح جلي علىٰ صدقه وصدق ما جاء به..

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة والشدة، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي إنما تتقد بالحطب..

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٣-٢٤] وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسله. فاحذروا الكفر برسوله، بعد ما تبين لكم أنه رسول الله.

🕮 الفوائد

١- هذه الآية ونحوها **يسمونها آيات التحدي**، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالىٰ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟! أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنىٰ الواسع من كل الوجوه؟! هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنىٰ ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

٢- في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ إلىٰ آخره، دليل علىٰ أن **الذي يرجىٰ له الهداية** من الضلالة هو الشاك الحائر **الذي لم يعرف الحق من الضلال**، فهذا إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق **إن كان صادقًا** في طلب الحق، **وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه**؛ لأنه ترك الحق بعد ما تبين له، لم يتركه عن جهل، فلا حيلة فيه، **وكذلك الشاك غير الصادق في طلب الحق، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه**، فهذا في الغالب أنه لا يوفق.

٣- في وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم، دليلٌ علىٰ أن **أعظم أوصافه** ﷺ **قيامه بالعبودية**، التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين، كما وصفه بالعبودية في مقام الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، وفي مقام الإنزال، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١].

٤- في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، **أن الجنة والنار مخلوقتان خلافا للمعتزلة**.

٥- وفيها أيضا أن **الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار**، لأنه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، **خلافا للخوارج والمعتزلة**.

٦- وفيها دلالة علىٰ أن **العذاب مستحق بأسبابه**، وهو الكفر وأنواع المعاصي علىٰ اختلافها.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥]

لما ذكر جزاء الكافرين، ذكر جزاء المؤمنين، أهل الأعمال الصالحات، **علىٰ طريقته تعالىٰ في القرآن يجمع** بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد راغبا راهبا، خائفا راجيا فقال..

﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه..

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم، فصدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة.. فبشرهم..

﴿أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ بساتين جامعة من الأشجار العجيبة، والثمار الأنيقة، والظل المديد، والأغصان والأفنان، وبذلك صارت جنة يجتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها..

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتشرب منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار..

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ هذا من جنسه، وعلىٰ وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائما متلذذون بأكلها..

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ **قيل**: متشابها في الاسم، مختلف الطعوم.. **وقيل**: متشابها في اللون، مختلفا في الاسم.. **وقيل**: يشبه بعضه بعضًا في الحسن واللذة والفكاهة، ولعل هذا الصحيح.. ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه، وأوضحه فقال..

﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾ فلم يقل مطهرة من العيب الفلاني؛ **ليشمل جميع أنواع التطهير**، فهنَّ مطهرات الأخلاق، مطهرات الخُلُق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلىٰ أزواجهن بالخُلق الحسن وحسن التبعل والأدب القولي والفعلي، ومطهَّرات خَلقِهنَّ من الحيض والنفاس والمني والبول والغائط والمخاط والبصاق والرائحة الكريهة، ومطهرات الخَلق أيضا بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خَلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن علىٰ أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح..

﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة:٢٥]...

🕮 الفوائد

١- وُصِفَت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

٢- في هذه الآية الكريمة، **ذكر المبشِّر والمبشَّر، والمبشَّرُ به، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشِّر**: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، **والمبشَّر**: هم المؤمنون العاملون الصالحات، **والمبشَّر به**: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، **والسبب الموصل لذلك**: هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ هذه البشارة، إلا بهما، **وهذا أعظم بشارة حاصلة، علىٰ يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب.**

٣- استحباب بشارة المؤمنين، وتنشيطهم علىٰ الأعمال، بذكر جزائها وثمراتها، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرىٰ حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك **أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرىٰ عند الموت، ومن بعده الوصول إلىٰ هذا النعيم المقيم**، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة:٢٦-٢٧]

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾ **أيَّ مثل كان..**

﴿بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ **لاشتمال الأمثال علىٰ الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكأنَّ في هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض علىٰ الله في ذلك، فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقىٰ بالقبول والشكر، ولهذا قال..**

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾ فيتفهمونها، ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه علىٰ وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها؛ لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثًا، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة..

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفرًا إلىٰ كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانًا علىٰ إيمانهم، ولهذا قال..

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، فلا أعظم نعمة علىٰ العباد من نزول **الآيات القرآنية**، ومع هذا **تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة** وزيادة شر إلىٰ شرهم، **ولقوم منحة ورحمة** وزيادة خير إلىٰ خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.. ثم ذكر **حكمته في إضلال من يضلهم** وأن ذلك عدل منه تعالىٰ فقال..

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الخارجين عن طاعة الله، المعاندين لرسل الله، الذين صار الفسق وصفهم، فلا يبغون به بدلا **فاقتضت حكمته تعالىٰ إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدىٰ**، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلىٰ بالأعمال الصالحة.. ثم وصف الفاسقين فقال..

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾ وهذا **يعم العهد الذي بينهم وبينه، والذي بينهم وبين عباده**، الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق..

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، **فإنَّ الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه** بالإيمان به والقيام بعبوديته، **وما بيننا وبين رسوله** بالإيمان به ومحبته وتعزيره والقيام بحقوقه، **وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب وسائر الخلق** بالقيام بتلك الحقوق التي أمر الله أن نصلها، فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام..

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم، معتاضين عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض، فـ..

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: من هذه صفته..

﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة:٢٦-٢٧] في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح، لأن كلَّ عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له.

📖 الفـوائـد

١- قَولُه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الفسق نوعان: نوع **مخرج من الدين**، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان، **كالمذكور في هذه الآية ونحوها**.. ونوع **غير مخرج** من الإيمان، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦].

٢- قَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ هذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفرا وقد يكون معصية وقد يكون تفريطًا في ترك مستحب المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر:١] فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وحقيقة فوات الخير الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة:٢٨]

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ﴾ هذا استفهام بمعنىٰ التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله..

﴿بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ الذي خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم..

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور..

﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ بعد البعث والنشور..

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة:٢٨] ثم إليه ترجعون، فيجازيكم الجزاء الأوفى.. فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره وبره، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به، **وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة؟!** بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩]

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ خلق لكم برًا بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار..

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات..

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ﴾ فخلقها وأحكمها، وأتقنها..

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩] فـ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ﴾ [سبأ:٢]، و﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ﴾ [النحل:١٩]، يعلم السر وأخفى.

📖 الفوائد

١- في هذه الآية الكريمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقت في معرض الامتنان، **يخرج بذلك الخبائث،** فإن تحريمها أيضًا يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته، منعنا من الخبائث، تنزيها لنا.

٢- ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ ترد في القرآن على ثلاثة معاني:

- فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون **معناها الكمال والتمام،** كما في قوله عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].
- وتارة تكون **بمعنى علا وارتفع،** وذلك إذا عديت بـ (على) كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، و﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣].
- وتارة تكون **بمعنى قصد،** كما إذا عديت بـ (إلى) كما في هذه الآية.

٣- كثيرا ما **يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه** كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]؛ **لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه،** وحكمته، وقدرته.

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة:٣٠-٣٤]

هذا شروع في ذكر **فضل آدم** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أبي البشر..

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض..

﴿قَالُوٓاْ﴾ فقالت الملائكة عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ..

﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي..

﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وهذا تخصيص بعد تعميم، لبيان **شدة مفسدة القتل**، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزَّهوا الباري عن ذلك، وعظَّموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله علىٰ وجه خال من المفسدة فقالوا..

﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾ ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك..

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ **يحتمل أن معناها**: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، **ويحتمل أن يكون**: ونقدس لك أنفسنا، أي: نطهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة..

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ للملائكة..

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ من هذا الخليفة..

﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم **أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة، أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر**، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالىٰ **أراد أن يجتبي منهم** الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، **ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة**، كالجهاد وغيره، **وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم** من الخير والشر بالامتحان، **وليتبين عدوه من وليه**، وحزبه من حربه، **وليظهر ما كمن في نفس إبليس** من الشر الذي انطوىٰ عليه واتصف به، **فهذه حكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك**.. ثم لما كان **قول الملائكة** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، **فيه إشارة إلىٰ فضلهم علىٰ الخليفة** الذي يجعله الله في الأرض، **أراد الله تعالىٰ أن يبين لهم من فضل آدم**، ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه فـ..

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أسماء الأشياء، وما هو مسمىٰ بها، فعلمه الاسم والمسمىٰ، أي: **الألفاظ والمعاني**، حتىٰ المكبر من الأسماء كالقصعة، والمصغر كالقصيعة..

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: عرض المسميات..

﴿عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ امتحانًا لهم، هل يعرفونها أم لا؟..

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ في قولكم وظنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة..

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: ننزهك من الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك..

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بوجه من الوجوه..

﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ إياه، فضلًا منك وجودًا..

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ العليم الذي أحاط علمًا بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر..

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، **فما خلق شيئًا إلا لحكمة**، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، **والحكمة**: وضع الشيء في موضعه اللائق به.. فأقرّوا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورِهم عن معرفة أدنىٰ شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون، فحينئذ..

﴿قَالَ﴾ الله..

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة، فعجزوا عنها..

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة..

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالما بالغيب فالشهادة من باب أولىٰ..

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون..

﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ثم أمرهم تعالىٰ بالسجود لآدم..

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ إكراما له وتعظيما وعبودية لله تعالىٰ، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود..

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ امتنع عن السجود واستكبر عن أمر الله وعلىٰ آدم، قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١]..

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٠-٣٤] وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوٍ عليه، فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره.

🕮 الفـوائـد

وفي هذه الآيات من العبر والآيات:

١- **إثبات الكلام لله تعالىٰ**، وأنه لم يزل متكلما، يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم.

٢- وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالوجب عليه التسليم واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة.

٣- وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة وإحسانه بهم بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم علىٰ ما لم يعلموه.

٤- **وفيه فضيلة العلم من وجوه: منها**: أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته، **ومنها**: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، **ومنها**: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراما له لما بان فضل علمه.

٥- **ومنها**: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به ثم عرفه صاحب الفضيلة فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

٦- **ومنها**: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم وأفضال الله عليه، وعداوة إبليس له.. إلىٰ غير ذلك من العبر.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة:٣٥-٣٦]

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ لما خلق الله آدم وفضّله، أتمَّ نعمته عليه بأن خلق منه زوجة، ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنىٰ الجنة والأكل منها رغدا، أي: واسعا هنيئا..

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه]..

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة، الله أعلم بها، وإنما **نهاهما عنها امتحانًا وابتلاءً**، أو لحكمةٍ غير معلومةٍ لنا..

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ دل علىٰ **أن النهي للتحريم**؛ لأنه رتب عليه الظلم..

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيا عنه، حتىٰ أزلهما، أي: حملهما علىٰ الزلل بتزيينه، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ بالله، ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف] فاغترا به وأطاعاه..

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلىٰ دار التعب والنصب والمجاهدة..

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن **العدو يَجِدُّ ويَجتهد في ضرر عدوِّه** وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضِمنِ هذا **تحذير بني آدم من الشيطان** كما قال تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر]، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾ [الكهف].. **ثم ذكر منتهىٰ الإهباط إلىٰ الأرض، فقال..**

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ **مسكن وقرار..**

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝٣٦﴾ [البقرة:٣٦] **انقضاءِ آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتم لها،** وخلقت لكم، **ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة** عارضة، ليست مسكنًا حقيقيًا، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تُعمَّرُ للإستقرار.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة:٣٧]

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ **تلقف وتلقن، وألهمه الله..**

﴿مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ **وهي قوله:** ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ **الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته..**

﴿فَتَابَ﴾ **الله..**

﴿عَلَيۡهِۚ﴾ **ورحمه..**

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ **لمن تاب إليه وأناب.. وتوبته نوعان: توفيقه أولا ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانيا..**

﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة:٣٧] بعباده، ومن رحمته بهم، أن وفقهم للتوبة، وعفا عنهم وصفح.

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾ [البقرة:٣٨-٣٩]

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ كرر الإهباط، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ أي: أيَّ وقت وزمان جاءكم مني -يا معشر الثقلين-

هدىٰ، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني؛ ويدنيكم من رضائي..

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدىٰ بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي..

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فـ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه..

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾ [البقرة:٣٨-٣٩] لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.. ثم شرع تعالىٰ يذكِّر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ..﴾.

📖 الفـوائـد

١- **رتب علىٰ اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن** والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضىٰ أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف.. **فنفاهما عمن اتبع هداه**، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو **الأمن التام**، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو **الهدىٰ والسعادة**، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدىٰ، وانتفىٰ عنه كل مكروه، من **الخوف**، **والحزن**، **والضلال**، **والشقاء**، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته.

٢- في هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلىٰ أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ

بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٠-٤٣]

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والخطاب مع **فرق بني إسرائيل الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من أتىٰ من بعدهم**، فأمرهم بأمر عام، فقال..

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها **بالقلب** اعترافا، **وباللسان** ثناء، **وبالجوارح** باستعمالها فيما يحبه ويرضيه..

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسله وإقامة شرعه..

﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ وهو المجازاة علىٰ ذلك.. والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].. ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم علىٰ الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالىٰ، وخشيته وحده..

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ فإنَّ مَنْ خشِيَه أوجبت له خشيته امتثال أمره واجتناب نهيه.. ثم أمرهم بالأمر الخاص، الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به فقال..

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ وهو القرآن الذي أنزله علىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به، واتباعه، ويستلزم ذلك، الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال..

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ موافقًا له لا مخالفًا ولا مناقضًا، فإذا كان موافقًا لما معكم من الكتب غير مخالف لها فلا مانع لكم من الإيمان به؛ لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولىٰ من آمن به وصدَّق به؛ لكونكم أهل الكتب والعلم.. **وأيضا** فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ إشارة إلىٰ أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم، بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسىٰ وعيسىٰ وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.. **وأيضا** فإن في الكتب التي بأيدكم، صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به، كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه، فقد كذب بجميعه،

كما أن من كفر برسول فقد كذب الرسل جميعهم..

﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أي: بالرسول والقرآن.. ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنىٰ علىٰ السعادة الأبدية، فقال..

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها، إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها، وآثروها..

﴿وَإِيَّٰىَ﴾ لا غيري..

﴿فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجبت لكم تقواه، تقديم الإيمان بآياته علىٰ الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل علىٰ ترحل التقوىٰ من قلوبكم.. ثم قال..

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾ تخلطوا..

﴿ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فنهاهم عن شيئين، **عن خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق**؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم تمييز الحق وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة علىٰ المعاندين؛ لأن الله فصَّل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.. ومن لبَّس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتَم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو من دعاة جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدىٰ الحالتين.. ثم قال..

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا..

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مستحقيها..

﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٤٣] صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود، والإحسان إلىٰ عبيده، وبين العبادات القلبية البدنية والمالية.

📖 **الفـوائـد**

١- في قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ أبلغ من قوله: (ولا تكفروا به) لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلىٰ الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدىٰ بهم من بعدهم..

٢- وقوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها.

٣- وفيه: أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبّر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل علىٰ فرضيته فيها.

﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة:٤٤]

﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ بالإيمان والخير..

﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ تتركونها عن أمرها بذلك.. والحال..

﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة:٤٤] وذلك أن **العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهىٰ عنه**، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل علىٰ عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة.

📖 **الفـوائـد**

١- **سَمَّىٰ العقل عقلا:** لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير.. وينعقل به عما يضره.

٢- هذه **الآية**، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، **فهي عامة** لكل أحد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

٣- ليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي

عن المنكر، لأنها دلت علىٰ التوبيخ بالنسبة إلىٰ الوَاجِبَيْنِ، وإلا فمن المعلوم أن علىٰ الإنسان واجبين: أمرُ غيرِه ونهيِه، وأمرُ نفسِه ونهيِهَا، **فترْكُ أحدِهِمَا، لا يكونُ رخصةً في ترك الآخر**، فإنَّ الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقصَ الكاملَ أن يتركَهما، وأما **قيامُه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دونَ الأخير**.

٤ – إن النفوس مجبولة علىٰ **عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله**، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [البقرة:٤٥-٤٨]

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾ أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها..

﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ بجميع أنواعه، وهو **الصبر علىٰ طاعة الله** حتىٰ يؤديها، **والصبر عن معصية الله** حتىٰ يتركها، **والصبر علىٰ أقدار الله** المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس علىٰ ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة علىٰ كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله..

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها علىٰ كل أمر من الأمور..

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة..

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقة..

﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوعَ وخشيةَ الله، ورجاءَ ما عنده يوجب له فعلَها، منشرحاً صدرُه لترقبِه للثواب، وخشيتِه من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.. **والخشوع هو**: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالىٰ، وانكساره بين يديه، ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه، ولهذا قال..

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يستيقنون..

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فيجازيهم بأعمالهم..

﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونَفَّسَ عنهم الكرباتِ، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن بلقاء ربه، كانت الصلاةُ وغيرُها من العبادات من أشقِّ شيء عليه..

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ ثم كرر على بني إسرائيل التذكيرَ بنعمته، وعظاً لهم، وتحذيراً وحثاً..

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾ وخوفهم بيوم القيامة الذي..

﴿لَّا تَجۡزِي﴾ فيه، أي: لا تغني..

﴿نَفۡسٌ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين..

﴿عَن نَّفۡسٍ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين..

﴿شَيۡـًٔا﴾ لا كبيراً ولا صغيراً، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه..

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا﴾ أي: النفس..

﴿شَفَٰعَةٌ﴾ لأحدٍ بدون إذن الله، ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه، وكان على السبيل والسنة..

﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ﴾ أي: فداء، ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾ ولا يقبل منهم ذلك..

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [البقرة:٤٥-٤٨] أي: يُدفع عنهم المكروه.

الفـوائـد

نفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقوله: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقبَل به النافع، **﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه**

بعوض، كالعدل، **أو بغيره** كالشفاعة.

فهذا يوجب للعبد أن **ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين**، لعلمه أنهم **لا** يملكون له مثقال ذرة من النفع، **وأن يعلقه بالله** الذي يجلب المنافع، ويدفع المضار، **فيعبده وحده لا شريك له ويستعينه على عبادته.**

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ
فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ
اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ
بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ
إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٤٩-٥٧]

هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل فقال:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وملئه وجنوده وكانوا قبل ذلك..

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يولونهم ويستعملونهم..

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده بأن كانوا..

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ خشية نموكم..

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فلا يقتلونهن، فأنتم بين قتيل ومذلل بالأعمال الشاقة، مستحيي على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه، فهذا غايةُ الإهانة..

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء..

﴿بَلَآءٌ﴾ إحسان..

﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره..

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ فمنَّ الله عليهم بالنَّجَاةِ التَّامة..

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وإغراق عدوهم..

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ وهم ينظرون لتقر أعينهم..

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسىٰ أربعين ليلة، لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة..

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتىٰ عبدوا العجل..

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: ذهابه..

﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرماً، وأكبر إثماً.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم إنه أمركم بالتوبة علىٰ لسان نبيه موسىٰ بأن يقتل بعضكم بعضا فعفا الله عنكم بسبب ذلك..

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ الله..

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾..

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهذا غاية الظلم والجراءة علىٰ الله وعلىٰ رسوله..

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ إما الموت أو الغشية العظيمة..

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ وقوع ذلك، كل ينظر إلىٰ صاحبه..

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ ثم ذكر نعمته عليكم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق، فقال..

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك..

﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ طائر صغير يقال له السماني، طيب اللحم، فكان ينزل عليهم من المن والسلوىٰ ما يكفيهم ويقيتهم..

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ رزقاً لا يحصل نظيره لأهلِ المدن المترفهين، فلم يشكروا هذه النعمة، واستمروا علىٰ قساوة القلوب وكثرة الذنوب..

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا؛ لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين..

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٤٩-٥٧] فيعود ضَرَرُهُ عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة:٥٨-٥٩]

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وهذا أيضا من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً ومسكناً..

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ ويحصل لهم فيها الرزق الرغد..

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وأن يكون دخولهم علىٰ وجه **خاضعين لله فيه بالفعل**، وهو دخول الباب ﴿سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين ذليلين، **وبالقول وهو أن يقولوا**: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته..

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بسؤالكم المغفرة..

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ بأعمالهم، أي: جزاء عاجل وآجلا..

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم، ولم يقل فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا..

﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل حطة: (حبة في حنطة)، استهانة بأمر الله،

واستهزاء.. **وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولىٰ وأحرىٰ**، ولهذا دخلوا يزحفون علىٰ أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال..

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ منهم..

﴿رِجْزًا﴾ عذابًا..

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾ [البقرة:٥٨-٥٩] بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة:٦٠]

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ استسقىٰ، أي: طلب لهم ماءً يشربون منه..

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس..

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة..

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ منهم..

﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ محلّهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضاً، بل يشربونه متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال..

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب..

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة:٦٠] أي: تخربوا علىٰ وجه الإفساد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٦١﴾ [البقرة:٦١]

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ واذكروا، إذ قلتم لموسىٰ، علىٰ وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها..

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي: جنس من الطعام، وإن كان -كما تقدَّم- أنواعـاً، لكنها لا تتغير..

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا﴾ أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم علىٰ ساقه..

﴿وَقِثَّائِهَا﴾ وهو الخيار..

﴿وَفُومِهَا﴾ أي: ثومها..

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ والعدس والبصل معروف..

﴿قَالَ﴾ لهم موسىٰ..

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وهو الأطعمة المذكورة..

﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وهو المن والسلوىٰ، فهذا غير لائق بكم..

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي مَنَّ اللهُ به عليكم، فهو خيرُ الأطعمة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلاً؟ ولما كان الذي جرىٰ منهم فيه أكبر دليل علىٰ قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم فقال..

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ التي تشاهد علىٰ ظاهر أبدانهم..

﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم..

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبئست الغنيمة غنيمتهم، وبئست الحالة حالتهم..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي استحقوا به غضبه..

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالدالات علىٰ الحق الموضحة لهم، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم..

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وبما كانوا ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿بِغَيْرِ

﴿ٱلۡحَقِّۗ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم..

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله..

﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة:٦١] علىٰ عباد الله، فإن المعاصي يجر بعضها بعضًا، فالغفلةُ يَنشأُ عنها الذنبُ الصغير، ثم ينشأُ عنه الذنبُ الكبير، ثم ينشأ عنها أنواعُ البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل اللهَ العافيةَ من كلِّ بلاءٍ.

📖 الفـوائـد

اعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، **ونسبت لهم لفوائد عديدة:**

منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم علىٰ محمد ومن آمن به، فبيَّن الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم، ما يبين به لكل أحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم -مع أن المظنة أنهم أولىٰ وأرفع حالة ممن بعدهم- فكيف الظن بالمخاطبين؟

ومنها: أن نعمة الله علىٰ المتقدمين منهم، نعمة واصلة إلىٰ المتأخرين، والنعمة علىٰ الآباء، نعمة علىٰ الأبناء، فخوطبوا بها؛ لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل علىٰ أن الأمة المجتمعة علىٰ دين تتكافل وتتساعد علىٰ مصالحها، حتىٰ كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثًا من الجميع؛ لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي..

إلىٰ غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلا الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة:٦٢]

ثم قال تعالىٰ حاكمًا بين الفرق الكتابية..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ **فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارىٰ، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر، وصدقوا رسلهم..**

﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ **فإن لهم الأجر العظيم، والأمن..**

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة:٦٢] **وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن.**

📖 الفـوائـد

١- هذا الحكم علىٰ أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين -الصحيح أنهم- من جملة فرق النصارىٰ.

٢- الصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم، لا بالنسبة إلىٰ الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم.

٣- هذه طريقة القرآن **إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم،** لأنه تنزيل مَنْ يعلم الأشياء قبل وجودها، ومَنْ رحمته وسعت كل شيء؛ **وذلك** -والله أعلم- أنه لما ذكر بني إسرائيل وَذَمَّهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، **ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم،** فأراد الباري تعالىٰ أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه، **ولما كان أيضًا ذِكرُ بني إسرائيل خاصةً يوهم الاختصاص بهم، ذكر تعالىٰ حكمًا عامًا يشمل الطوائف كلها،** ليتضح الحقُّ، ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:٦٣-٦٤]

ثم عاد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **يوبخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم، فقال..**

﴿وَإِذْ﴾ واذكروا..

﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم..

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ برفع الطور فوقكم وقيل لهم..

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من التوراة..

﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد، وصبر علىٰ أوامر الله..

﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه..

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوىٰ..

﴿ثُمَّ﴾ فبعد هذا التأكيد البليغ..

﴿تَوَلَّيْتُم﴾ وأعرضتم..

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ﴾ وكان ذلك موجبًا لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن..

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:٦٣-٦٤]..

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة:٦٥-٦٦]

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ ولقد تقرر عندكم حالة..

﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ الآيات..

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟﴾ فأوجب لهم هذا الذنبُ العظيم، أن غضب الله عليهم وجعلهم..

﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥﴾ حقيرين ذليلين..

﴿فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ وجعل الله هذه العقوبة..

﴿نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾ لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرُها، ممن هو في وقتهم..

﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾ من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه..

﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٦٦﴾ [البقرة:٦٥-٦٦] ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾ [البقرة:٦٧-٦٩]

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلا وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد - لولا تبيين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبيين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره، وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فـ..

﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ فـ..

﴿قَالَ﴾ نبي الله..

﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ **فإنَّ الجاهل هو** الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، **وأما العاقل** فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فُضِّل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده، فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق فـ..

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ ما سنها؟..

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ كبيرة..

﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ صغيرة..

﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ واتركوا التشديد والتعنت..

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ شديد..

﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة:٦٧-٦٩] من حسنها.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٠-٧٤]

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ فلم نهتد إلىٰ ما تريد..

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ مذللة بالعمل..

﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ بالحراثة..

﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ ليست بساقية..

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب أو من العمل..

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم..

﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالبيان الواضح، **وهذا من جهلهم**، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أيَّ بقرة لحصل المقصود، ولكنَّهم **شدَّدوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا** ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ **لم يهتدوا** أيضا إليها..

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات..

﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ بسبب التعنت الذي جرىٰ منهم..

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا القتيل ببعضها، أي: بِعُضْوٍ منها، إما معين، أو أي عضو منها، فليس في تعيينه فائدة..

﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فضربوه ببعضها فأحياه الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله..

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ وكان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل علىٰ إحياء الله الموتىٰ..

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ فتنزجرون عن ما يضركم..

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة..

﴿مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم، لأن ما شاهدتم، مما يوجب رقة القلب وانقياده..

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار، ذاب بخلاف الأحجار..

﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، وليست ﴿أَوْ﴾ بمعنىٰ ﴿بَل﴾ ثم ذكر فضيلة الأحجار علىٰ قلوبهم، فقال:..

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فَضَلَتْ قُلوبَكُم، ثم تَوَّعَدهُم تَعالىٰ أَشَدَّ الوَعِيد فقال..

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٠-٧٤] بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم علىٰ ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

📖 الفوائد

اعلم أن كثيرا من المفسرين رحمهم الله، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ:

«حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»(١).

والذي أرىٰ أنه وإن جاز نقل أحاديثهم علىٰ وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة علىٰ كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»(٢).

فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب علىٰ الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٥-٧٩]

هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب..

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم (وأخلاقهم) لا تقتضي الطمع فيهم..

(١) أخرجه البخاري [٣٤٦١] وغيره من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه البخاري [٤٤٨٥] وغيره من حديث أبي هريرة.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ فإنهم كانوا يحرفون كلام الله..

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجىٰ منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.. ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال..

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ فأظهروا لهم الإيمان قولاً بألسنتهم، ما ليس في قلوبهم..

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم..

﴿قَالُوٓا۟﴾ قال بعضهم لبعض..

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أتظهرون لهم الإيمان وتخبروهم أنكم مثلهم..

﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم..

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦﴾ أفلا يكون لكم عقل، فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض..

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم، فيُظهِر لعباده ما أنتم عليه..

﴿وَمِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب..

﴿أُمِّيُّونَ﴾ عوام، ليسوا من أهل العلم..

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم..

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم..

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ توعد تعالىٰ المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون..

﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم..

﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والدنيا كلها من أولها إلىٰ آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس، **فظلموهم من وجهين: من جهة** تلبيس دينهم عليهم، **ومن جهة** أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقةً ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال..

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحريف والباطل..

﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٥-٧٩] من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

🕮 الفـوائـد

ذكر في هذه الآيات: **علماءهم، وعوامهم، ومنافقيهم، ومن لم ينافق منهم،** فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلِّدون لهم، لا بصيرة عندهم فلا مطمع لكم في الطائفتين.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إلىٰ ﴿يَكْسِبُونَ﴾:

فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو **متناول لمن حمل الكتاب والسنة عَلىٰ ما أصَّلَه من البدع الباطلة..**

وذم **الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني،** وهو **متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه.. ومتناول لمن كتب كتابًا بيده مخالفًا لكتاب الله، لينال به دنيا، وقال: إنه من عند الله،** مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنىٰ الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده علىٰ الأعيان والكفاية..

ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله..

وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء **جملة، كالرافضة، وتفصيلاً مثل كثير من المنتسبين إلىٰ الفقهاء.**

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ ۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢]

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ﴾ ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر **مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه**، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن، ولما كان هذا مجرد دعوىٰ، رد الله تعالىٰ عليهم فقال..

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أيها الرسول..

﴿أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾ أي بالإيمان به وبرسله وبطاعته..

﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ﴾ فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل..

﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ فأخبر تعالىٰ أن **صدق دعواهم متوقفة علىٰ أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما**: إما أن يكونوا قد **اتخذوا عند الله عهدا**، فتكون دعواهم صحيحة، وإما أن **يكونوا متقولين عليه** فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم.. وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهدا، لتكذيبهم كثيرا من الأنبياء، حتىٰ وصلت بهم الحال إلىٰ أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، **والقول عليه بلا علم، من أعظم المحرمات**، وأشنع القبيحات.. **ثم ذكر تعالىٰ حكما عامًا لكل أحد، يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم**، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانيهم ودعاويهم بصفة الهالكين والناجين، فقال..

﴿بَلَىٰ ۚ﴾ ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن..

﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به هنا الشرك، بدليل قوله..

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذا، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعًا بها سنة رسوله..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة:٨٠-٨٢]..

🕮 الفوائد

١- حاصل هاتين الآيتين: أن أهل النجاة والفوز هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به.

٢- قد احتج الخوارجُ بـ قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ علىٰ كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترىٰ، فإنها ظاهرة في الشرك.

٣- هكذا كلُّ مبطل يحتج بآية أو حديث صحيح علىٰ قوله الباطل، فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن كلَّ أمر أمروا به استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة، والعهود الموثقة..

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهىٰ عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالىٰ علىٰ عباده، ثم قال..

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ أحسنوا بالوالدين إحسانـًا، وهذا **يعم كل إحسان قولي وفعلي** مما هو إحسان إليهم، وفيه **النهي عن الإساءة إلىٰ الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة**، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده، **وللإحسان ضدان: الإساءة**، وهي أعظم جرمـًا، **وترك الإحسان** بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يُلحق بالأول..

﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامىٰ، والمساكين، وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد، كما تقدم.. ثم **أمر بالإحسان إلىٰ الناس عموما** فقال..

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب.. ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، **أمر بأمر يقدر به علىٰ الإحسان إلىٰ كل مخلوق**، وهو الإحسان بالقول، فيكون في **ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح** للناس حتىٰ للكفار، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.. ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، **أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً علىٰ ما يناله من أذىٰ الخلق**، امتثالاً لأمر الله، ورجاء لثوابه..

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ثم أمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلىٰ العبيد..

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله علىٰ عباده أن أمرهم بها، وتفضَّل بها عليهم وأخذ المواثيق عليكم..

﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ علىٰ وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولىٰ وله نية رجوع إلىٰ ما تولىٰ عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان..

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾ هذا استثناء، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلا منهم عصمهم الله وثبتهم..

﴿وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة:٨٣]..

الفوائد

١- هذه الشرائع من أصول الدين، التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتمالها علىٰ المصالح العامة، في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا بها في قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلىٰ آخر الآية.

٢- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة، والعهود الموثقة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤-٨٦]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ﴾ هذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل للذين كانوا في **زمن الوحي بالمدينة**.. وذلك أن **الأوس والخزرج** - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ **مشركين**، وكانوا يقتتلون علىٰ عادة الجاهلية.. فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: **بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع**، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.. فكانوا إذا اقتتلوا **أعان اليهودي حليفه** علىٰ مقاتليه الذين تعينهم (يعينونهم) الفرقة الأخرىٰ من اليهود، **فيقتل اليهوديُّ**

اليهوديَّ، ويخرُجه من دياره إذا حصل جلاءٌ ونهب، ثم **إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أُسارىٰ بين الطائفتين فدىٰ بعضُهم بعضا**.. والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، **ففرض عليهم**: أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه.. **فعملوا بالأخير وتركوا الأولَين**، فأنكر الله عليهم ذلك فقال..

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو فداء الأسير..

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو القتل والإخراج.. وفيها أكبر دليل علىٰ أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان..

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبىٰ من سبىٰ منهم، وأجلىٰ من أجلىٰ..

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: أعظمه..

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ثم أخبر تعالىٰ عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب، والإيمان ببعضه فقال..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختاروا النار علىٰ العار، فلهذا قال..

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بل هو باق علىٰ شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات..

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة:٨٤-٨٦] أي: يدفع عنهم مكروه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يمتن تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل أن أرسل لهم كليمه موسىٰ، وآتاه التوراة..

﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة..

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلىٰ أن ختم أنبياءهم بعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن علىٰ مثله البشر..

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قواه الله بروح القدس، قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده..

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾ ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم..

﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم..

﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم..

﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧] فقدمتم الهوىٰ علىٰ الهدىٰ، وآثرتم الدنيا علىٰ الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفىٰ.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة:٨٨]

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غلف، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم -بزعمهم- عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: أنهم مطرودون ملعونون، بسبب كفرهم..

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة:٨٨] فقليلًا المؤمن منهم، أو قليلا إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة:٨٩-٩٠]

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ علىٰ يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء..

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة..

﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقد علموا به، وتيقنوه حتى إنهم كانوا إذا وقع (على أنهم إذا كان وقع) بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه..

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا..

﴿كَفَرُواْ بِهِ﴾ بغياً وحسداً، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده..

﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ فلعنهم الله، وغضب عليهم غضبا بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالى شكهم وشركهم..

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة:٨٩-٩٠] مؤلم موجع، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به، وبكتبه، وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩١-٩٣]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وإذا أُمِرَ اليهودُ بالإيمان بما أنزل الله على رسوله، وهو القرآن استكبروا وعتوا، و..

﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ بما سواه من الكتب، مع **أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقاً**، سواء أنزل عليهم، أو علىٰ غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله علىٰ جميع رسل الله، وأما التفريق بين الرسل والكتب، وزَعْمُ الإيمانِ ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، ولهذا رد عليهم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هنا رداً شافيا، وألزمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه، فردَّ عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال..

﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات، والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله، ثم قال..

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيمنا عليه، فلم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب واتباع للهوىٰ لا للهدىٰ؟.. وأيضا، فإن كون القرآن مصدقا لما معهم، يقتضي أنه **حجة لهم علىٰ صدق ما في أيديهم من الكتب**، فلا سبيل لهم إلىٰ إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعىٰ دعوىٰ بحجة وبينة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته، ثم يأتي هو لبينته وحجته، فيقدح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان **كفرهم بالقرآن، كفرا بما في أيديهم ونقضاً له**.. ثم نقض عليهم تعالىٰ دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله..

﴿قُلۡ﴾ لهم..

﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالأدلة الواضحات المبينة للحق..

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ بعد مجيئه..

﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢﴾ في ذلك ليس لكم عذر..

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أي: سماع قبول وطاعة واستجابة..

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ صارت هذه حالتهم..

﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم..

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾ [البقرة:٩١-٩٣] أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله، لمَّا غاب عنكم موسىٰ نبيُّ الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتم بالقول، ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتم، وما هذا الدين؟! فإن كان هذا إيماناً علىٰ زعمكم، **فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلىٰ الطغيان، والكفرِ برسل الله، وكثرة العصيان**، وقد عهد أن الإيمان الصحيح، يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فَوَضَحَ بِهَذَا كَذِبُهُم، وَتَبَيَّنَ تَنَاقُضُهُم.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [البقرة:٩٤-٩٦]

﴿قُلْ﴾ لهم علىٰ وجه تصحيح دعواهم..

﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني: الجنة..

﴿عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارىٰ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودةً، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوىٰ..

﴿فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٩٤﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ، وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: **إما** أن يؤمنوا بالله ورسوله، **وإما** أن يباهلوا علىٰ ما هم عليه بأمر يسير عليهم، وهو تمني الموت الذي يوصلهم إلىٰ الدار التي هي خالصة لهم، **فامتنعوا** من ذلك، **فعلم كلُّ أحد أنهم في غاية المعاندة والمحادة لله ولرسوله، مع علمهم بذلك**، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلىٰ المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شيء إليهم..

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ وهم أحرص علىٰ الحياة من كل أحد من الناس..

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ حتىٰ من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب، ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا فقال..

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هي من المحالات..

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور، لم يغن عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم من العذاب شيئا..

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [البقرة:٩٤-٩٦] تهديدٌ لهم علىٰ المجازاة بأعمالهم.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة:٩٧- ٩٨]

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قل لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، أن وليَّك جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو كان غيره من ملائكة الله، لآمنوا بك وصدَّقوا..

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إنَّ هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر علىٰ الله، فإنَّ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي نزل بالقرآن من عند الله علىٰ قلبك، وهو الذي ينزل علىٰ الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض..

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل مصدقًا لما تقدمه من الكتب، غيرَ مخالف لها ولا مناقض..

﴿وَهُدًى﴾ وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات..

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾ والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي، لمن آمن به..

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك، كفر بالله وآياته، وعداوة لله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل، لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله، فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾ [البقرة:٩٩-١٠٠]

يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند..

﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾ وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغا عظيما ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر..

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ وهذا فيه التعجيب (التعجب) من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها، فـ﴿كُلَّمَا﴾ تفيد التكرار، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض، ما السبب في ذلك؟..

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾ [البقرة:٩٩-١٠٠] السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود، ولو صَدَقَ إيمانهم، لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب:٢٣].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة:١٠١]

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، فلما

كفروا بهذا الرسول وبما جاء به..

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي أُنزِلَ إليهم، أي: طرحوه رغبة عنه..

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة:١٠١] وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه، وحقيّة (وحقيقة) ما جاء به.. تبَيّنَ بِهذا أن هذا الفريقَ من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفراً بكتابهم من حيث لا يشعرون.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٢-١٠٣]

ولما كان من **العوائد القدرية والحكمة الإلهية** أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادةَ الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل.. كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله..

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق من السحر..

﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم، وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله

سليمان، بل نزهه الصادق في قيله..

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ بتعلم السحر، فلم يتعلمه..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ بذلك..

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ من إضلالهم وحرصهم علىٰ إغواء بني آدم..

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل علىٰ الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر..

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ ينصحاه، و..

﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهيانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر علىٰ وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلىٰ من برأه الله منه وهو سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة.. فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا علىٰ علم الشياطين، وكل يصبو إلىٰ ما يناسبه.. **ثم ذكر مفاسد السحر** فقال..

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] وفي هذا **دليل علىٰ أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله**، أي: بإرادة الله، **والإذن نوعان: إذن قدري**، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، **وإذن شرعي** كما في قوله تعالىٰ في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧]..

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها **أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير**، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين..

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ثم ذكر أن **علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية**، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالىٰ في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلا فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها..

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي: اليهود..

﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة..

﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أيّ نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة..

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ علمًا يثمر العمل ما فعلوه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٣]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة:١٠٤-١٠٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنىٰ صحيحا، وكان اليهود يريدون بها معنىٰ فاسدا، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنىٰ الفاسد، فنهىٰ الله المؤمنين عن هذه الكلمة، سدا لهذا الباب.. **فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن** فقال..

﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور..

﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ لم يذكر المسموع، ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة، لفظا ومعنىٰ، واستجابة، ففيه الأدب والطاعة..

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع.. وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين..

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أنهم ما يودون..

﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ لا قليلاً ولا كثيرًا..

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حسدًا منهم، وبغضًا لكم أن يختصكم بفضله..

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة:١٠٤-١٠٥] ومن فضله عليكم، إنزال الكتاب علىٰ رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

🕮 الفوائد

١- النهي عن الجائز، إذا كان وسيلة إلىٰ محرم.

٢- الأدب، واستعمال الألفاظ، التي لا تحتمل إلا الحسن.

٣- عدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق.

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧]

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أخبر الله تعالىٰ عن **حكمته في النسخ**، وأنه ما ينسخ من آية..

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ ننسها العباد، فنزيلها من قلوبهم..

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ وأنفع لكم..

﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ فدل علىٰ أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول؛ لأن فضله تعالىٰ يزداد، خصوصـًا علىٰ هذه الأمة، التي سهَّل عليها دينها غاية التسهيل..

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته..

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإذا كان مالكا لكم، متصرفًا فيكم، تصرَّف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه، **فكما أنه لا حِجر عليه في تقدير ما يقدره علىٰ عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام،** فالعبد مُدَّبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟!..

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧] وهو أيضا ولي عباده، ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، **فمن ولايته لهم، أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته** بهم.

📖 الفـوائـد

١- النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع، إلىٰ حكم آخر، أو إلىٰ إسقاطه.

٢- كان اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوىٰ محض.

٣- من تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلىٰ مصالحهم، من حيث لا يشعرون بلطفه.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠﴾ [البقرة:١٠٨-١١٠]

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ ينهىٰ الله المؤمنين، أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم..

﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ﴾ والمراد بذلك، **أسئلة التعنت والاعتراض،** كما قال تعالىٰ:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] فهذه ونحوها، هي المنهي عنها، **وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود** قد أمر الله به كما قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ويقرهم عليه، كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ونحو ذلك.. ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، **قد تصل بصاحبها إلىٰ الكفر**، قال..

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ **ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب**، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم..

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ودوا..

﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ وسعوا في ذلك، وأعملوا المكايد، وكيدهم راجع عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران]..

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ **فهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم**..

﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ **فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح**..

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ **ثم بعد ذلك، أتىٰ الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفىٰ الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا**..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ **ثم أمرهم الله بالاشتغال في الوقت الحاضر، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة**..

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ﴾ **وفعل كل القربات**..

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ **ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدونه عنده وافرا موفرا قد حفظه**..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١٠٩-١١٠]...

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:١١١-١١٢]

﴿وَقَالُوا۟﴾ قال اليهود..

﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارىٰ: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارىٰ، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم..

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وهذا مجرد أماني غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان..

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوىٰ أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوىٰ.. ثم ذكر تعالىٰ **البرهان الجلي العام لكل أحد**، فقال..

﴿بَلَىٰ﴾ ليس بأمانيكم ودعاويكم، ولكن..

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص لله أعماله، متوجها إليه بقلبه..

﴿وَهُوَ﴾ مع إخلاصه..

﴿مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، **فأولئك هم أهل الجنة وحدهم**..

﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم..

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:١١١-١١٢] فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.

🕮 الفـوائـد

١- ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾وهكذا **كل من ادعىٰ دعوىٰ، لا بد أن يقيم البرهان علىٰ صحة دعواه**، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعىٰ مدع عكس ما ادعىٰ بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوىٰ أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوىٰ.

٢- ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية.. **يفهم منها، أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.**

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١١٣]

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ﴾ **وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد، إلى أن بعضهم ضلل بعضًا، وكفر بعضهم بعضًا..**

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ﴾ **كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى..**

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ **ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده.**

📖 الفوائد

لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدّق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم، فهو هالك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ **لا أحد أظلم وأشد جرمًا..**

﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ **ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات..**

﴿وَسَعَىٰ﴾ اجتهد وبذل وسعه..

﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ الحسي والمعنوي، **فالخراب الحسي**: هدمها وتخريبها، وتقذيرها، **والخراب المعنوي**: منع الذاكرين لاسم الله فيها، **وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة**، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارىٰ حين أخربوا بيت المقدس، **وغيرهم من أنواع الظلمة**، الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾ **فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعا وقدرا..**

﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ **ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرا، حتىٰ أذن الله له في فتح مكة، ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].. **وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرىٰ عليهم.. والنصارىٰ، سلط الله عليهم المؤمنين، فأجلوهم عنه.. وهكذا كل من اتصف بوصفهم، فلا بد أن يناله قسطه.. وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر..**

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ **فضيحة، كما تقدم..**

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾ [البقرة: ١١٤]..

📖 الفوائد

١- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ **هذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة**، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارىٰ حين أخربوا بيت المقدس، **وغيرهم من أنواع الظلمة**، الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة.

٢- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ **وهكذا كل من اتصف بوصفهم،** فلا بد أن يناله قسطه.. وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

٣- استدل العلماء بالآية الكريمة، علىٰ أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد.

٤- وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، **فلا أعظم إيمانا ممن سعىٰ في عمارة المساجد** بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، بل قد أمر الله تعالىٰ برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

٥- وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلىٰ مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥]

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ خصَّهما بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاربها، فإذا كان مالكـًا لها، كان مالكـًا لكل الجهات..

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر علىٰ الراحلة ونحوها..

﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فإن القبلة حيثما توجه العبد، أو تشتبه القبلة فيتحرىٰ الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورا بِصَلْبٍ أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا، وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو -تعالىٰ- واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسرائركم ونياتكم، **فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور**، فله الحمد والشكر.

الفـوائـد

إثبات الوجه لله تعالىٰ، علىٰ الوجه اللائق به تعالىٰ، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:١١٦-١١٧]

﴿وَقَالُوا۟﴾ اليهود والنصارىٰ والمشركون، وكل من قال ذلك..

﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ فنسبوه إلىٰ ما لا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم، وهو -تعالىٰ- صابر علىٰ ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه..

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.. ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان علىٰ تنزيهه عن ذلك فقال..

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولدا، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه، والله تعالىٰ المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه..

﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ والقنوت نوعان: **قنوت عام**: وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، **وخاص**: وهو قنوت العبادة، فالنوع الأول كما في هذه الآية، **والنوع الثاني**: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]..

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خالقهما علىٰ وجه قد أتقنهما وأحسنهما علىٰ غير مثال سبق..

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ فلا يستعصىٰ عليه، ولا يمتنع منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ [البقرة:١١٨-١١٩]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم..

﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ هلا يكلمنا، كما كلم الرسل..

﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ يعنون آيات الاقتراح، **التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها علىٰ الخالق، واستكبروا علىٰ رسله..**

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ كقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣] الآية، وقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ [الفرقان: ٧-٨] الآيات، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء] الآيات، **فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد..**

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن **الرسل، قد جاءوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر**، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.. ثم ذكر تعالىٰ بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة علىٰ صدقه ﷺ وصحة ما جاء به فقال..

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فهذا مشتمل علىٰ الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلىٰ ثلاثة أمور: الأول: **في نفس إرساله**، والثاني: **في سيرته وهديه ودله**، والثالث: **في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة**، فالأول والثاني، قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، والثالث دخل في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾..

وبيان الأمر الأول وهو -نفس إرساله- أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتىٰ كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة، **وقد علم أن الله تعالىٰ لم يخلق خلقه سدىٰ**، ولم يتركهم هملا لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، **فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه**، وهو آية كبيرة علىٰ أنه رسول الله..

وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه

علىٰ أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسبر أحواله، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، **لأن الله تعالىٰ جعل الأوصاف أكبر دليل علىٰ معرفة أصحابها** وصدقهم وكذبهم..

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم، المشتمل علىٰ الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، **فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة**..

﴿بَشِيرًا﴾ أي لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية..

﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي..

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة] لست مسئولًا عنهم، إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة:١٢٠]

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ **يخبر تعالىٰ رسوله، أنه لا يرضىٰ منه** اليهود ولا النصارىٰ، إلا باتباعه دينهم؛ لأنهم دعاة إلىٰ الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدىٰ، فـ..

﴿قُلْ﴾ لهم..

﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلت به..

﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وأما ما أنتم عليه، فهو الهوىٰ بدليل قوله..

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة:١٢٠]

فهذا فيه **النهي العظيم عن** اتباع أهواء اليهود والنصارىٰ، **والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك،** لأن الاعتبار بعموم المعنىٰ لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.. ثم قال..

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة:١٢١-١٢٣]

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يخبر تعالىٰ أن الذين آتاهم الكتاب، ومنَّ عليهم به منة مطلقة، أنهم..

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، **وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها**، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ فهؤلاء، هم المؤمنون حقا، لا من قال منهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١]، ولهذا توعدهم بقوله..

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها..

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة:١٢١-١٢٣]..

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٤-١٢٥]

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ﴾ يخبر تعالىٰ، عن عبده وخليله، إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، المتفق علىٰ إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنه..

﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله،

ويخلص ذهبه، وكان من أجلِّهم في هذا المقام، الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ فأتم ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكورا فـ..

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ يقتدون بك في الهدىٰ، ويمشون خلفك إلىٰ سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد، وهذه -لعمر الله- أفضل درجة، تنافس فيها المتنافسون، وأعلىٰ مقام، شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم من كل صديق متبع لهم، داع إلىٰ الله وإلىٰ سبيله.. فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا..

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ طلب ذلك لذريته، لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته، ونصحه لعباد الله، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية..

﴿قَالَ﴾ فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال..

﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ لا ينال الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته **أن يكون صاحبه علىٰ جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة**، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟.. ثم ذكر تعالىٰ، نموذجا باقيا دالا علىٰ إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام، الذي جعل قصده، ركنا من أركان الإسلام، حاطا للذنوب والآثام.. وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته فقال..

﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ مرجعًا يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه، ولا يقضون منه وطرا..

﴿وَأَمۡنٗا﴾ وجعله يأمن به كل أحد، حتىٰ الوحش، وحتىٰ الجمادات كالأشجار، ولهذا كانوا في الجاهلية -علىٰ شركهم- يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم، فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام، زاده حرمة وتعظيما، وتشريفا وتكريما..

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ **يحتمل** أن يكون المراد بذلك، **المقام المعروف** الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين.. **ويحتمل** أن يكون المقام مفردا مضافا، فيعم **جميع مقامات إبراهيم في الحج**، وهي المشاعر كلها من الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة ورمي الجمار والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنىٰ قوله: ﴿مُصَلّٗىۖ﴾ **أي: معبدا**، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، **ولعل هذا المعنىٰ أولىٰ**، لدخول المعنىٰ الأول فيه، واحتمال اللفظ له..

﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ أوحينا إليهما، وأمرناهما..

﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات والأقذار، ليكون..

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ فيه..

﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة:١٢٤-١٢٥] أي: المصلين، **قَدَّمَ الطواف** لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه المسجد مطلقًا، ثم الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنىٰ.

الفوائد

١- **دل مفهوم الآية**، أن غير الظالم، سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

٢- وأضاف الباري البيت إليه لفوائد:

- منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك.
- ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.
- ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ **وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله بلدا آمنا، ويرزق أهله من أنواع الثمرات..**

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ **ثم قيد** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **هذا الدعاء للمؤمنين، تأدبا مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيدا بغير الظالم.. فلما دعا لهم بالرزق، وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملا للمؤمن والكافر، والعاصي والطائع..**

﴿قَالَ﴾ **تعالىٰ..**

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ **أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق علىٰ عبادة الله، ثم ينتقل منه إلىٰ نعيم الجنة، وأما الكافر..**

﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ **فيتمتع فيها قليلا..**

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ **ألجئه وأخرجه مكرها..**

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦]..

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩]

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ **واذكر إبراهيم وإسماعيل، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما علىٰ هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء..**

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ حتىٰ إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتىٰ يحصل (حتىٰ يجعل) فيه النفع العميم..

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ودعوا لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح..

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ علمناها علىٰ وجه الإراءة والمشاهدة، ليكون أبلغ.. ولما كان العبد – مهما كان– لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلىٰ التوبة قالا..

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ في ذريتنا..

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهما، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة..

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ لفظًا، وحفظًا، وتحفيظًا..

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معنىٰ..

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية علىٰ الأعمال الصالحة، والتبري من الأعمال الردية، التي لا تُزكىٰ النفوس (النفس) معها..

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع علىٰ قوته شيء..

﴿ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩] الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك، ابعث فيهم هذا الرسول.. فاستجاب الله لهما، فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أنا دعوة أبي إبراهيم»[(١)].. ولما عَظَّمَ اللهُ إبراهيم هذا التعظيم، وأخبر عن صفاته الكاملة قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ..﴾ [البقرة:١٣٠].. الآية.

🕮 الفوائد

يحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه

(١) أخرجه الحاكم في [المستدرك/ ٢/ ٤٥٣/ ٣٥٦٦] من حديث العرباض بن سارية.

عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج، تغليبا عرفيا، **فيكون حاصل دعائهما، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح.**

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٤]

﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾ **ما يرغب..**

﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ **بعد ما عرف من فضله..**

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: جهلها وامتهنها، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد وأكمل، ممن رغب في ملة إبراهيم.. ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة فقال..

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اخترناه ووفقناه للأعمال، التي صار بها من المصطفين الأخيار..

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ الذين لهم أعلى الدرجات..

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ﴾ **امتثالًا لربه..**

﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ إخلاصًا وتوحيدًا، ومحبةً، وإنابة فكان التوحيد لله نعته، ثم ورثه في ذريته، ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه..

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ فأنتم -يا بني يعقوب- قد وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء، قال..

﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ اختاره وتخيره لكم، رحمة بكم، وإحسانا إليكم،

فقوموا به، واتصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتىٰ تستمروا علىٰ ذلك..

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش علىٰ شيء، مات عليه، ومن مات علىٰ شيء، بعث عليه.. ولما كان اليهود يزعمون أنهم علىٰ ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالىٰ منكرا عليهم..

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾ حضورًا..

﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ مقدماته وأسبابه..

﴿إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ فقال لبنيه علىٰ وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به..

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ﴾ فأجابوه بما قرت به عينه فـ..

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ فلا نشرك به شيئا، ولا نعدل به أحدا..

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل.. ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصىٰ بنيه بالحنيفية، لا باليهودية.. ثم قال تعالىٰ..

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ مضت..

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ كل له عمله، وكل سيجازىٰ بما فعله، لا يؤخذ (يؤاخذ) أحد بذنب أحد ولا ينفع أحدا إلا إيمانه وتقواه..

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾ [البقرة: ١٣٤] فاشتغالكم بهم وادعاؤكم أنكم علىٰ ملتهم، والرضا بمجرد القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم، أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾ [البقرة:١٣٥]

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ دعا كل من اليهود والنصارىٰ المسلمين إلىٰ الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال..

﴿قُلۡ﴾ قل له مجيبًا جوابًا شافيًا..

﴿بَلۡ﴾ نتبع..

﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾ مقبلًا علىٰ الله، معرضا عما سواه، قائما بالتوحيد، تاركا للشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية..

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾ [البقرة:١٣٥]..

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة:١٣٦]

﴿قُولُوٓاْ﴾ بألسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام، المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، **فالقول الخالي من العمل عمل القلب، عديم التأثير، قليل الفائدة،** وإن كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيرًا ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد، والمقترن به عمل القلب..

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بأنه موجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من الوجوه..

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك..

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة علىٰ جميع الأنبياء، **والإيمان بالأنبياء عمومًا، وخصوصًا ما نص عليه في الآية،** لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار، **فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب، أن يؤمن بهم علىٰ وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلا..**

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين، التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه علىٰ دين، فاليهود والنصارىٰ والصابئون وغيرهم -وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب- فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا، أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصا محمد ﷺ، **فإذا كذبوا محمدا، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفرا برسولهم**.. فلما بيَّن تعالىٰ جميع ما يؤمن به، عموما وخصوصا، وكان القول لا يغني عن العمل قال..

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦] خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿لَهُۥ﴾ علىٰ العامل وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾.

🕮 الفـوائـد

١- هذه الآية الكريمة قد اشتملت علىٰ جميع ما يجب الإيمان به.

٢- اعلم أن الإيمان الذي هو **تصديق القلب** التام، بهذه الأصول **وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح**، وهو بهذا الاعتبار **يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها**، فهي من الإيمان، وأثر من آثاره، **فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر**، وكذلك **الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسما لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسما للأعمال الظاهرة، وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.**

٣- في قوله: ﴿قُولُوٓاْ﴾ إشارة إلىٰ **الإعلان بالعقيدة، والصدع بها، والدعوة لها**، إذ هي أصل الدين وأساسه.

٤- وقوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوبا إلىٰ جميع الأمة، **إشارة إلىٰ أنه يجب علىٰ الأمة، الاعتصام بحبل الله جميعا، والحث علىٰ الائتلاف** حتىٰ يكون داعيهم واحدا، وعملهم متحدا، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه: أن المؤمنين كالجسد الواحد.

٥- وفي قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلخ دلالة **علىٰ جواز إضافة الإنسان إلىٰ نفسه**

الإيمان، علىٰ وجه التقييد، بل علىٰ وجوب ذلك، **بخلاف قوله: (أنا مؤمن) ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقرونا بالاستثناء** بالمشيئة، لما فيه من تزكية النفس، والشهادة علىٰ نفسه بالإيمان.

٦- وفي قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ دلالة علىٰ أن **عطية الدين، هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة** الدنيوية والأخروية، لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع.

٧- وفيه أن **الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه**، ليس لهم من الأمر شيء.

٨- وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ إشارة إلىٰ أنه **من كمال ربوبيته لعباده، أن ينزل عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل**، فلا تقتضي ربوبيته، تركهم سدىٰ ولا هملا.

٩- إذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، **ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة**، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا إلىٰ لخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر، ويشهد له بالحق، من غير تخالف ولا تناقض؛ لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا بخلاف من ادعىٰ النبوة، فلابد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع، وعرف ما يدعون إليه.

١٠- **قد اشتملت هذه الآية الكريمة** - علىٰ إيجازها واختصارها - **علىٰ أنواع التوحيد الثلاثة**: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

١١- اشتملت علىٰ الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب.

١٢- وعلىٰ التخصيص الدال علىٰ الفضل بعد التعميم.

١٣- وعلىٰ التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك.

١٤- وعلىٰ الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعىٰ النبوة من الكاذبين.

١٥- وعلىٰ تعليم الباري عباده، كيف يقولون.

١٦- ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة.

فسبحان من جعل كتابه تبيانًا لكل شيء، وهدىٰ ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧]

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ فإن آمن أهل الكتاب..

﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ يا معشر المؤمنين، من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم وأولىٰ خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله..

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلىٰ الهداية، إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: ١٣٥] فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه..

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ فـ(الهدىٰ) هو العلم بالحق، والعمل به.. وضده الضلال عن العلم والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق والله ورسوله في شق.. ويلزم من المشاقة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد اللهُ رسولَه..

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أن يكفيه إياهم..

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنه السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات..

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧] بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم.. وقد **أنجز الله لرسوله وعده**، وسلَّطه عليهم حتىٰ قتل بعضهم، وسبىٰ بعضهم، وأجلىٰ بعضهم، وشردهم كل مشرد.. **ففيه معجزة من معجزات القرآن**، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة:١٣٨]

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الزموا صبغة الله، **وهو دينه**، وقوموا به قيامًا تامًا، بجميع أعماله الظاهرة

والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتىٰ يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم.. فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعا واختيارا ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين علىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور، فلهذا قال -علىٰ سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية..

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا أحسن صبغة من صبغته.. **وإذا أردت أن تعرف نموذجا يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده**، فكيف ترىٰ في عبد آمن بربه إيمانا صحيحا، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلىٰ بكل وصف حسن، وفعل جميل وخلق كامل ونعت جليل، ويتخلىٰ من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده.. فقسه بعبد كفر بربه، وشرد عنه، وأقبل علىٰ غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلىٰ الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلىٰ عبيده، فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله.. وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه..

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾ [البقرة:١٣٨] بيان لهذه الصبغة، **وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة**.. لأن (العبادة) اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتىٰ يشرعها الله علىٰ لسان رسوله.. **والإخلاص**: أن يقصد العبد وجه الله وحده، في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحصر.. وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال علىٰ الثبوت والاستقرار، ليدل علىٰ اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازما.

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾ [البقرة:١٣٩]

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ المحاجة هي: **المجادلة بين اثنين فأكثر**، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتىٰ يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة علىٰ ذلك.. والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلىٰ الحق، ويقيم الحجة علىٰ المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل.. فإن خرجت عن هذه الأمور كانت مماراة، ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت.. فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولىٰ بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوىٰ، تفتقر إلىٰ برهان ودليل..

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ فإذا كان رب الجميع واحدا، ليس ربـًا لكم دوننا..

﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ وكل منا ومنكم له عمله فاستوينا نحن وإياكم بذلك.. فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولىٰ بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوىٰ باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة..

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾ [البقرة:١٣٩] وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم.. فتعين أنهم أولىٰ بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلىٰ الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلِّمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية:

١- إرشاد لطيف لطريق المحاجة.

٢- وأن الأمور مبنية علىٰ الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠]

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ﴾ وهذه دعوىٰ أخرىٰ منهم، ومحاجة في رسل الله.. زعموا أنهم أولىٰ بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.. فرد الله عليهم بقوله..

﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ﴾ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].. وهم يقولون: بل كان يهوديا أو نصرانيا.. فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالىٰ هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة.. وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتىٰ إنه -من وضوحه- لم يحتج أن يقول: (بل الله أعلم وهو أصدق)، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.. وهذا يعرفه كل من له أدنىٰ عقل حتىٰ إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هودًا ولا نصارىٰ، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة.. فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ﴾ فهي شهادة عندهم مودعة من الله لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها.. جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟! بلىٰ والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة.. فلهذا قال..

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠] بل قد أحصىٰ أعمالهم، وعدَّها وادخر لهم جزاءها.. فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار، مثوىٰ للظالمين.

📖 **الفوائد**

١- هذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازىٰ عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

٢- يفيد ذكر الأسماء الحسنىٰ بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة:١٤١]

تقدَّم تفسيرها.. وكررها لـ: قطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعوَّلُ عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٢-١٤٣]

﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه **سيعترض السفهاء من الناس** -وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارىٰ، ومن أشبههم من المعترضين- **علىٰ أحكام الله وشرائعه**.. وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلىٰ المدينة نحو سنة ونصف، لما لله تعالىٰ في ذلك من الحِكَم التي سيشير إلىٰ بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، **فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء** من الناس..

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي استقبال بيت المقدس، أي: أيُّ شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض علىٰ حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه.. **فسلَّاهم، وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسَّفه**، قليل العقل، والحلم، والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفيه، ولا يلقي له ذهنه.. وقد كان في قوله ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ما يغني عن رد قولهم، وعدم المبالاة به، ولكنه تعالىٰ مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتىٰ أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالىٰ..

﴿قُل﴾ لهم مجيبا..

﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلىٰ هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكا له؟ **فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك**، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه، أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض علىٰ فضل الله، حسدا لكم وبغيا.. ولما كان قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والمطلق يحمل علىٰ المقيد، فإن الهداية والضلال، لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتىٰ بها العبد حصل له الهدىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦] **ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقا بجميع أنواع الهداية**، ومنة الله عليها فقال..

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ عدلًا خيارًا، وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطا في كل أمور الدين، **وسطا في الأنبياء** بين من غلا فيهم كالنصارىٰ وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم علىٰ الوجه اللائق بذلك، ووسطا في الشريعة، لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارىٰ.. **وفي باب الطهارة والمطاعم**، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارىٰ الذين لا ينجسون

شيئا، ولا يحرمون شيئا، بل أباحوا ما دب ودرج، بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ كاملين..

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون علىٰ الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول، فهو مقبول، وما شهدت له بالرد، فهو مردود.. **فإن شك شاك في فضلها، وطلب مزكيا لها، فهو أكمل الخلق، نبيهم ﷺ**، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ ومن شهادة هذه الأمة علىٰ غيرهم، أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها..

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولا..

﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾ علمًا يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالىٰ عالم بكل الأمور قبل وجودها، ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثوابا ولا عقابا، لتمام عدله، وإقامة الحجة علىٰ عباده، بل إذا وجدت أعمالهم، ترتب عليها الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن..

﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ويؤمن به، فيتبعه علىٰ كل حال، لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة، أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيمانا، وطاعة للرسول..

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ وأما من انقلب علىٰ عقبيه، وأعرض عن الحق، واتبع هواه، فإنه يزداد كفرا إلىٰ كفره، وحيرة إلىٰ حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية علىٰ شبهة لا حقيقة لها..

﴿وَإِن كَانَتۡ﴾ صرفك عنها..

﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقة..

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا، وأقروا له بالإحسان، حيث وجههم إلىٰ هذا البيت العظيم، الذي فضله علىٰ سائر بقاع الأرض، وجعل قصده ركنا من أركان الإسلام، وهادما للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك، وشق علىٰ من سواهم.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ ما ينبغي له ولا يليق به تعالىٰ، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل، أن يضيع إيمانكم.. **وكأن في هذا احترازا** عما قد يقال إن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] قد يكون سببا لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها.. ودخل في ذلك **من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم،** لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله، امتثال أمره في كل وقت، بحسب ذلك..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٢-١٤٣] شديد الرحمة بهم عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم، أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميّز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحانا، زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجتهم، وأن وجههم إلىٰ أشرف البيوت، وأجلها.

🕮 الفوائد

١- قد اشتملت الآية الأولىٰ علىٰ: معجزة، وتسلية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسلم لحكم الله ودينه.

٢- دلت الآية علىٰ أنه لا يعترض علىٰ أحكام الله إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقىٰ أحكام ربه بالقبول، والانقياد، والتسليم كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]..

٣- ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ **فإن قيل**: كيف يقبل حكمهم علىٰ غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم علىٰ بعض؟ **قيل**: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة -كما في هذه الأمة- فإنما المقصود، الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

٤- وفي الآية دليل علىٰ أن إجماع هذه الأمة، حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿ وَسَطًا ﴾ فلو قدر اتفاقهم علىٰ الخطأ لم يكونوا وسطا، إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا علىٰ حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك.

٥- وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك.

٦- ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ وفي هذا بشارة عظيمة لمن مَنَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم، فلا يضيعه، **وحفظه نوعان**: **حفظ عن الضياع والبطلان**، بعصمته لهم عن كل مفسد، ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، **وحفظ له بتنميته لهم**، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، **فكما ابتدأكم، بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره**، وثوابه.. **وحفظه من كل مكدر**، بل إذا وجدت المحن المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين، وتظهر صدقهم.

٧- وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ [البقرة:١٤٤]

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ ﴾ كثرة تردده في جميع جهاته، شوقا وانتظارا لنزول

الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَجْهِكَ﴾ ولم يقل: (بصرك) لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر..

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ نوجهك لولايتنا إياك..

﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تحبها، وهي الكعبة، ثم صرح له باستقبالها فقال..

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان..

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من بر وبحر، وشرق وغرب، جنوب وشمال..

﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ جهته.. ولما ذكر تعالىٰ -فيما تقدم- المعترضين علىٰ ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم، يعلمون أنك في ذلك علىٰ حق وأمر..

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبغياً.. فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤] بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها.

📖 الفـوائـد

١- في هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالىٰ يسارع في رضاه.

٢- فيها اشتراط استقبال الكعبة، للصلوات كلها، فرضها، ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن، مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

٢- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه إذا كان الأمر مشتبها، وكان ممكنا أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله، **فإنه لا محل للمبالاة**، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال تعالىٰ.

٣- ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٤٥]

﴿وَلَئِنْ﴾ **أنك لو..**

﴿أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه..

﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ ما تبعوك، **لأن اتباع القبلة دليل علىٰ اتباعه**، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك **لأنهم معاندون**، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد وينتفع بها من يتطلب الحق، وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق، فلا حيلة فيه..

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ أبلغ من قوله: (وَلا تَتَّبِعْ) لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه..

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾ وأيضًا فإنَّ اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد، وهم الأعداء حقيقة، الحسدة..

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إنما قال: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ ولم يقل (دينهم) لأن ما هم عليه مجرد أهوية (أهواء) نفس، حتىٰ هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوىٰ ولا محالة، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]..

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأنك علىٰ الحق، وهم علىٰ الباطل..

﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ إن اتبعتهم، فهذا احتراز، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام..

﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٤٥] داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل فآثر الباطل علىٰ الحق.

📖 الفـوائـد

١- كان النبي ﷺ من كمال حرصه علىٰ هداية الخلق **يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة**، ويتلطف بهدايتهم، **ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله**، فكان من الكفار، من تمرد عن أمر الله، واستكبر علىٰ رسل الله، وترك الهدىٰ، عمدا وعدوانا، فمنهم: اليهود والنصارىٰ، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين، لا عن جهل، **فلهذا أخبره الله تعالىٰ** بهذه الآية.

٢- قال: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ ﴾ ولم يقل: (ولو أتوا بكل آية) لأنهم لا دليل لهم علىٰ قولهم، **وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه**، لأنها لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافىٰ الحق الواضح فهو باطل، فيكون **حل الشبه من باب التبرع.**

٣- هذا وإن كان الخطاب له ﷺ، **فإن أمته داخلة في ذلك**، وأيضا فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك -وحاشاه- صار ظالما مع علو مرتبته، وكثرة حسناته (إحسانه) فغيره من باب أولىٰ وأحرىٰ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة:١٤٧]

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ **يخبر تعالىٰ: أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن محمدا رسول الله، وأن ما جاء به، حق وصدق، وتيقنوا ذلك..**

﴿ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ ﴾ **كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ، وصلت إلىٰ حد لا يشكون فيه ولا يمترون..**

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾ **ولكن فريقا منهم -وهم أكثرهم- الذين كفروا به..**

﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ **كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون** ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ ﴾ [البقرة:١٤٠]..

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا الحق الذي هو أحق أن يسمىٰ حقا من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية، والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها علىٰ تحصيل مصالحها، ودفع مفاسدها؛ لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح..

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة:١٤٧] فلا يحصل لك أدنىٰ شك وريبة فيه، بل تفكَّر فيه وتأمل، حتىٰ تصل بذلك إلىٰ اليقين، لأن التفكر فيه لا محالة، دافع للشك، موصل لليقين.

📖 الفـوائـد

١- في ضمن ذلك:

- تسلية للرسول والمؤمنين.
- وتحذير له من شرهم وشبههم.
- وفريق منهم لم يكتموا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر به جهلًا.

٢- العالم عليه إظهار الحق، وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه، وتقبيحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك، فهولاء الكاتمون، عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾ [البقرة:١٤٨]

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ كل أهل دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته، **وليس الشأن في استقبال القبلة**، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل، من جهة إلىٰ جهة، **ولكن الشأن كل الشأن، في امتثال طاعة الله**، والتقرب إليه، وطلب الزلفىٰ عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به

النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق، وأمرهم به..

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها، يتضمن فعلها، وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة، وصيام، وزكوات (وزكاة) وحج، عمرة، وجهاد، ونفع متعد وقاصر.. ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير، وينشطها، ما رتب الله عليها من الثواب قال..

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة:١٤٨]..

🕮 الفوائد

يستدل بهذه الآية الشريفة على **الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل**، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة، من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٤٩-١٥٠]

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم..

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: جهته، ثم خاطب الأمة عمومًا فقال..

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾..

﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أكده بـ (إن) و(اللام)، لئلا يقع لأحد فيه أدنىٰ شبهة، ولئلا يظن أنه علىٰ سبيل التشهي لا الامتثال..

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر..

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلا بيت المقدس، لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب، يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة، هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه علىٰ ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟ فباستقبال الكعبة (القبلة) قامت الحجة علىٰ أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: من احتج منهم بحجة، هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوىٰ والظلم، فهذا لا سبيل إلىٰ إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنىٰ لجعل الشبهة التي يوردونها علىٰ سبيل الاحتجاج محلا يؤبه لها، ولا يلقىٰ لها بال، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ لأن حجتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزا، يوجب خشية من هو معه..

﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ وأمر تعالىٰ بخشيته، التي هي أصل (رأس) كل خير، فمن لم يخش الله، لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره.. ولما كان توليته لنا إلىٰ استقبال القبلة، نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته، لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة، فهي نعمة عظيمة قال..

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ فأصل النعمة، الهداية لدينه، بإرسال رسوله، وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة، ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلىٰ أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطىٰ أمته، ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فلله الحمد علىٰ فضله، الذي لا نبلغ له عدا، فضلا عن القيام بشكره..

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾ [البقرة:١٤٩-١٥٠] تعلمون الحق وتعملون به.

📖 الفـوائـد

١- كان صرف المسلمين إلىٰ الكعبة، مما حصلت فيه فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب، والمنافقون، والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها الله تعالىٰ، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات، التي تضمنتها هذه الآيات:

- منها: الأمر بها، ثلاث مرات، مع كفاية المرة الواحدة.
- ومنها: أن المعهود أن الأمر، إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعا، أو للأمة عموما، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ والأمة عموما في قوله: ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾.
- ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة، التي أوردها أهل العناد وأبطلها شبهة شبهة، كما تقدم توضيحها.
- ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ ﴾.
- ومنها: أنه أخبر -وهو العالم بالخفيات- أن أهل الكتاب متقرر عندهم، صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم.

٢- ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -من رحمته- بالعباد قد يسر لهم **أسباب الهداية غاية التيسير**، ونبههم علىٰ سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين، حتىٰ إن من جملة ذلك:

أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له..

ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء..

فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور..

ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحا ظاهرا، فلله الحمد علىٰ ذلك.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢]

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك ببدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه..

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، التي دلتكم أولا علىٰ توحيد الله وكماله، ثم علىٰ صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم علىٰ جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتىٰ حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني..

﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها علىٰ الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتكم من الشرك إلىٰ التوحيد ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، ومن الكذب إلىٰ الصدق، ومن الخيانة إلىٰ الأمانة، ومن الكبر إلىٰ التواضع، ومن سوء الخلق إلىٰ حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع، إلىٰ التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية..

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن، ألفاظه ومعانيه..

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي السنة.. وقيل: الحكمة معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها، فيكون -علىٰ هذا- تعليم السنة داخلا في تعليم الكتاب، لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعبر عنه..

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته، في ضلال مبين، لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل، نالته هذه الأمة فعلىٰ يده ﷺ، وبسببه كان.. فهذه النعم هي أصول النعم علىٰ الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها علىٰ عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها؛ فلهذا قال تعالىٰ..

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ فأمر تعالىٰ بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[1].. **وذكر الله تعالىٰ أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان**، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبته، وكثرة ثوابه، **والذكر هو رأس الشكر**، فلهذا أمر به خصوصا، ثم من بعده أمر بالشكر عموما فقال..

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ علىٰ ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب، إقرارا بالنعم، واعترافا، وباللسان، ذكرا وثناء، وبالجوارح، طاعة لله وانقيادا لأمره، واجتنابا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالىٰ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].. ولما كان الشكر ضده الكفر، نهىٰ عن ضده فقال..

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢] المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها، وعدم القيام بها.. ويحتمل أن يكون المعنىٰ عاما، فيكون الكفر أنواعا كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي، علىٰ اختلاف أنواعها وأجناسها، من الشرك، فما دونه.

(١) أخرجه البخاري [٧٤٠٥]، ومسلم [٢٦٧٥] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

📖 **الفـوائـد**

في الإتيان بالأمر بالشكر بعد **النعم الدينية**، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها **أكبر النعم**، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم، إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وُفِّقُوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله علىٰ ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟﴾ أمر الله تعالىٰ المؤمنين، بالاستعانة علىٰ أمورهم الدينية والدنيوية..

﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها عما تكره.. **فهو ثلاثة أقسام**: صبرها **علىٰ طاعة الله** حتىٰ تؤديها، **وعن معصية الله** حتىٰ تتركها، **وعلىٰ أقدار الله المؤلمة** فلا تتسخطها.. فالصبر هو المعونة العظيمة علىٰ كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، **خصوصًا الطاعات** الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلىٰ تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها لم يدرك شيئا، وحصل علىٰ الحرمان..

وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالىٰ، واستعانة بالله علىٰ العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار..

وكذلك البلاء الشاق، خصوصا إن استمر، فهذا تضعف معه القوىٰ النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها، وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والافتقار علىٰ الدوام..

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالىٰ به، وأخبر أنه ﴿مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾..

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ وأمر تعالىٰ بالاستعانة بالصلاة **لأن** الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه.. **فإذا كانت صلاة العبد** صلاة كاملة، مجتمعا فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، **فصار العبد** إذا دخل فيها استشعر دخوله علىٰ ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضرًا لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقًا بمناجاة ربه ودعائه، **لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة علىٰ جميع الأمور**، فإنَّ الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفًا وداعيًا يدعوه إلىٰ امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، **هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها علىٰ كل شيء**..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣] مع من كان الصبر لهم خُلقًا، وصفةً، ومَلَكَةً بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كلُّ عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة.. وهذه **معيةٌ خاصة**، تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه.. وهذه **منقبة عظيمة للصابرين**، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفىٰ بها فضلا وشرفا.. وأما المعية العامة، فهي معية العلم والقدرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤] وهذه عامة للخلق.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ
بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة:١٥٤]

لما ذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأمر بالاستعانة بالصبر علىٰ جميع الأمور (الأحوال) ذكر نموذجا مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله.. وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها علىٰ النفوس؛ لمشقته في نفسه، ولكونه مؤديا للقتل، وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به، فإنه سعىٰ لها، ودفع لما يضادها..

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ﴾ ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلىٰ منه وأعظم، فأخبر تعالىٰ: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض..

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل، مما تظنون وتحسبون.. فالشهداء ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران].. **فهل أعظم من هذه الحياة:** المتضمنة للقرب من الله تعالىٰ.. وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة.. والرزق الروحي، وهو الفرح، والاستبشار (وهو الاستبشار) وزوال كل خوف وحزن.. وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور (طير) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلىٰ قناديل معلقة بالعرش..

﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: ١٥٤]..

🕮 الفوائد

١- في هذه الآية أعظم حث علىٰ الجهاد في سبيل الله، وملازمة الصبر عليه..

فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك؟! والله تعالىٰ قد: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١]..

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفسا فنفسا في سبيل الله، لم يكن عظيما في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنىٰ الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلىٰ الدنيا، حتىٰ يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

٢- وفي الآية، دليل علىٰ نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]

أخبر تعالىٰ أنه **لا بد أن يبتلي عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر**، وهذه سنته تعالىٰ في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، **وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر**، هذه فائدة المحن، **لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين**..

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾ أخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده..

﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ من الأعداء..

﴿وَٱلۡجُوعِ﴾ بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع، لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك..

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك..

﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾ ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب.. ومن أنواع الأمراض في بدن العبد.. أو بدن من يحبه..

﴿وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه..

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرين هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله..

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره..

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم.. فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الذي أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له علىٰ تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله..

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ فإنَّا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا

واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورا عنده، وإن جزعنا وسخطنا، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، **فكون العبد لله وراجع إليه، من أقوىٰ أسباب الصبر**..

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور..

﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ ثناء وتنويه بحالهم..

﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر..

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به، وهو هنا صبرهم لله.

📖 الفـوائـد

١- ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ ﴾ **فهذه الأمور**، لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير، أخبر بها، فوقعت كما أخبر، **فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين**..

فالجازع، حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال علىٰ شدة النقصان..

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط، قولا وفعلا واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

٢- دلت هذه الآية علىٰ أن **من لم يصبر فله ضد ما لهم**، فحصل له الذم من الله والعقوبة، والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين، وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين.

اشتملت هاتان الآيتان علىٰ:

٣- توطين النفوس علىٰ المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت.

٤- وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصبر.

٥- وبيان ما يعين علىٰ الصبر.

٦- وما للصابر من الأجر.

٧- ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر.

٨- وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٩- وبيان أنواع المصائب.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة:١٥٨]

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ يخبر تعالىٰ أن الصفا والمروة وهما معروفان..

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]..

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفىٰ تعالىٰ الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم..

﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ فعل طاعة مخلصا بها لله تعالىٰ..

﴿خَيْرًا﴾ من حج وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ الشاكر والشكور، من أسماء الله تعالىٰ، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه، العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته، أعانه علىٰ ذلك، وأثنىٰ عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورا وإيمانا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق، **ثم بعد ذلك** يقدم علىٰ الثواب الآجل عند ربه كاملا موفرا، لم تنقصه هذه الأمور.. **ومن شكره لعبده،** أن من ترك شيئا لله أعاضه الله خيرا منه، ومن تقرب منه شبرا، تقرب منه ذراعا، ومن تقرب منه ذراعا، تقرب منه باعا، ومن أتاه يمشي، أتاه هرولة، ومن عامله، ربح عليه أضعافا مضاعفة..

﴿عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة:١٥٨] ومع أنه شاكر، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، علىٰ حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

📖 **الفـوائـد**

١- ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ٣٢ ﴾ [الحج].. فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره، من تقوىٰ القلوب.. والتقوىٰ واجبة علىٰ كل مكلف.

٢- وذلك يدل علىٰ أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ وقال: «خذوا عني مناسككم»[1].

٣- دل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.. فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك، كانت بدعة، **لأن البدعة نوعان**: نوع يتعبد لله بعبادة، **لم يشرعها أصلا ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها علىٰ صفة مخصوصة، فتفعل علىٰ غير** تلك الصفة، وهذا منه.

٤- ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ دل هذا علىٰ أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

٥- دل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع، التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شرا له إن كان متعمدا عالما بعدم مشروعية العمل.

---

(١) أخرجه البيهقي في [الكبرىٰ/ ٩٥٢٤] وغيره من حديث جابر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٢]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ **إنَّ الله أخذ الميثاق علىٰ أهل العلم، بأن يبينوا الناس ما منّ الله به** عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين، كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله..

﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات علىٰ الحق المظهرات له..

﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم، من طريق أهل الجحيم..

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته..

﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، **فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتىٰ الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله،** فالكاتم لما أنزل الله، مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها (وهذا يسعىٰ في طمسها وإخفائها) فهذا عليه هذا الوعيد الشديد..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ رجعوا عما هم عليه من الذنوب، ندما وإقلاعا، وعزما علىٰ عدم المعاودة..

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما فسد من أعمالهم، **فلا يكفي ترك القبيح حتىٰ يحصل فعل الحسن.. ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضًا..**

﴿وَبَيَّنُواْ﴾ حتىٰ يبين ما كتمه، ويبدي ضد ما أخفىٰ..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتىٰ بسبب التوبة، تاب الله عليه، لأنه..

﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع علىٰ عباده بالعفو والصفح، بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع، إذا رجعوا..

﴿ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة، التي وسعت كل شيء.. **ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم، لطفا وكرما، هذا حكم** التائب من الذنب..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأما من كفر واستمر علىٰ كفره..

﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ حتىٰ مات ولم يرجع إلىٰ ربه، ولم ينب إليه، ولم يتب عن قريب فـ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ **لأنَّه** لما صار كفرهم وصفا ثابتا، صارت اللعنة عليهم وصفا ثابتا لا تزول، **لأن الحكم يدور مع علته، وجودا وعدما**..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة، أو في العذاب والمعنيان (وهما متلازمان)..

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر..

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٢] يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضىٰ، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون.

📖 الفوائد

هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة:١٦٣]

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ يخبر تعالىٰ - وهو أصدق القائلين- أنه ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو له،

ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه..

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة:١٦٣] المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي، **فبرحمته** وجدت المخلوقات، **وبرحمته** حصلت لها أنواع الكمالات، **وبرحمته** اندفع عنها كل نقمة، **وبرحمته** عرّف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبيَّن لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.. **فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحدًا من المخلوقين لا ينفع أحدا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة**، وأن يفرد بالمحبة والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.. **وأن من أظلم الظلم، وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلىٰ عبادة العبيد**، وأن يشرك المخلوق (المخلوقين) من تراب، برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه، مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء.

الفـوائـد

ففي هذه الآية:

١- إثبات وحدانية الباري وإلهيته.. وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين.

٢- وبيان أصل الدليل علىٰ ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع [جميع] النقم، فهذا دليل إجمالي علىٰ وحدانيته تعالىٰ.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤]

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها، وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر، والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد..

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي خلق الأَرْضِ مهادا للخلق، يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار، **ما يدل ذلك علىٰ** انفراد الله تعالىٰ بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها، وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم، **وفي ذلك أبلغ الدليل علىٰ** كماله، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشئون عباده..

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وَفِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وهو تعاقبهما علىٰ الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما علىٰ وجه الأرض، من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير، تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، **ما يدل ذلك علىٰ** قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره، الذي تفرد به، وعظمته، وعظمة ملكه وسلطانه، **مما يوجب أن** يُؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه..

﴿وَٱلْفُلْكِ﴾ وَفِي الفُلكِ وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها..

﴿ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ ثم سخر للفلك هذا البحر العظيم والرياح، التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم.. **فمن الذي** ألهمهم صنعتها، وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ **أم من الذي** سخر لها البحر، تجري فيه بإذنه وتسخيره، والرياح؟

أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة علىٰ حملها، وحمل ما فيها من الأموال؟ **فهل** هذه الأمور حصلت اتفاقا؟ **أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف** العاجز، الذي خرج من بطن أمه، لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة،

وعلمه ما يشاء تعليمه؟ **أم المسخر لذلك رب واحد**، حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟

بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته، **وغاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءا من أجزاء الأسباب**، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل علىٰ رحمة الله وعنايته بخلقه، **وذلك يوجب** أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم..

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ وهو المطر النازل من السحاب..

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها.. **أليس ذلك دليلا علىٰ** قدرة من أنزله، وأخرج به ما أخرج ورحمته، ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ **أما يوجب ذلك** أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ **أليس ذلك دليلا علىٰ** إحياء الموتىٰ ومجازاتهم بأعمالهم؟..

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ في الأرض..

﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ما هو دليل علىٰ قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع: **فمنها**: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دره، **ومنها**: ما يركبون، **ومنها**: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، **ومنها**: ما يعتبر به.. **ومع أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم**، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا علىٰ الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها..

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باردة وحارة، وجنوبا وشمالا، وشرقا ودبورا، وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.. **فمن الذي** صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد، ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنوابت، **إلا** العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع، ومحبة وإنابة وعبادة؟..

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض علىٰ خفته ولطافته يحمل الماءَ الكثير، فيسوقه الله إلىٰ حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله علىٰ الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته، أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفا، ويصرفه عناية وعطفا، فما أعظم سلطانه، وأغزر إحسانه، وألطف امتنانه؟ **أليس من القبيح بالعباد،** أن يتمتعوا برزقه ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك علىٰ مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلا علىٰ حلمه وصبره، وعفوه وصفحه، وعميم لطفه؟ فله الحمد أولا وآخرا، وباطنا وظاهرا..

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أخبر تعالىٰ أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي: أدلة علىٰ وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها..

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤] لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلىٰ حسب ما منّ الله علىٰ عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبُّره.. **والحاصل:** أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، **علم بذلك** أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، علىٰ ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء علىٰ مدبرها ومصرفها، **فتعرف** أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧]

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها: فإنه تعالىٰ، لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلىٰ علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام..

﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من يتخذ من المخلوقين.. **وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله،** لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما **يسوونهم به في العبادة،** فيعبدونهم، ليقربوهم إليه.. **وفي قوله:** ﴿يَتَّخِذُ﴾ **دليل علىٰ أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادا له،** تسمية مجردة، ولفظا فارغا من المعنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٞ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [النجم: ٢٣]..

﴿أَندَادًا﴾ لله أي: نظراء ومثلاء..

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة، ومن كان بهذه الحالة -**بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد**- عُلِمَ أنه معاند لله، مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته والتفكر في مخلوقاته، **فليس له أدنىٰ عذر في ذلك،** بل قد حقت عليه كلمة العذاب.. **فالمخلوق ليس ندا لله لأن** الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء، **فعلم علما يقينا بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة** وأندادا، سواء كان ملكا أو نبيا، أو صالحا، صنما، أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة علىٰ الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.. فلهذا توعدهم الله بقوله..

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق

بصدهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم..

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يوم القيامة عيانا بأبصارهم..

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لعلموا علمًا جازمًا، أنَّ القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئا، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم، وبطل سعيهم..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ١٦٥﴾ وحق عليهم شدة العذاب..

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ وتبرأ المتبوعون من التابعين..

﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ ولم تدفع عنهم أندادهم شيئا، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها، من حيث ظنوا نفعها..

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلىٰ غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ وحينئذ يتمنىٰ التابعون أن يردوا إلىٰ الدنيا فيتبرأوا من متبوعيهم، بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا علىٰ إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا، فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأماني يتمنونها، حنقا وغيظا علىٰ المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين علىٰ الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قضي الأمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]..

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ فاضمحلت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها، انقلبت عليهم حسرة وندامة.. ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، **ولما بطلت وقعت الحسرة** بما فاتهم من الأمل فيها، فضرتهم غاية الضرر، **وهذا بخلاف من تعلق بالله** الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقا،

لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه، غير منقطع، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ۝٣ ﴾ [محمد]..

﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧] لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾ [البقرة:١٦٩]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب، وثمار، وفواكه، وحيوانات، حالة كونها..

﴿حَلَـٰلًا﴾ محللا لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلا بمعاملة محرمة، أو علىٰ وجه محرم، أو معينا علىٰ محرم..

﴿طَيِّبًا﴾ ليس بخبيث، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها.. **ففي هذه الآية دليل علىٰ أن الأصل في الأعيان الإباحة**، أكلا وانتفاعا، **وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته**، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، **وإما محرم لما عرض له**، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.. **وفيه دليل علىٰ أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب**، يأثم تاركه لظاهر الأمر.. ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ ﴾..

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر، وفسوق، وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب، والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضا تناول المأكولات المحرمة..

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير..

﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب، وثمار، وفواكه، وحيوانات، حالة كونها..

﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ **لأن الفحشاء من المعاصي ما تناهى قبحه،** كالزنا، وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل ونحو ذلك، مما يستفحشه من له عقل..

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة:١٦٩] فيدخل في ذلك **القول على الله بلا علم** في شرعه وقدره.. **فمن** وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، **فقد قال على الله بلا علم..**

ومن زعم أن لله ندا وأوثانا تقرب من عبدها من الله، **فقد قال على الله بلا علم.. ومن قال:** إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، **بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم..**

ومن قال: الله خلق هذا الصنف من المخلوقات، للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك، **فقد قال على الله بلا علم.. ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله، على معان اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم، من أكبر المحرمات، وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها،** فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبذلون مكرهم وخداعهم، على إغواء الخلق بما يقدرون عليه..

وأما الله تعالى: فإنه يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي..

فلينظر العبد نفسه، مع أي الداعيين هو، ومن أي الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا

ينهىٰ إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان، الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعىٰ بجهده علىٰ إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته، وكل الخسران في ولايته، الذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهىٰ إلا عن خير.

🕮 الفوائد

١- في هذه الآية دليل علىٰ **أن الأصل في الأعيان الإباحة**، أكلا وانتفاعا، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

٢- وفيه دليل علىٰ أن **الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب**، يأثم تاركه لظاهر الأمر.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠-١٧١]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ثم أخبر تعالىٰ عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله علىٰ رسوله -مما تقدم وصفه- رغبوا عن ذلك و..

﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء..

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالا، **وهذه شبهة لرد الحق واهية**، فهذا دليل علىٰ إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، **ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً**، واتبعه إن كان منصفا.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لما بَيَّنَ تعالىٰ عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق، ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالىٰ: أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلىٰ الإيمان..

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت، الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم، فلهذا هم..

﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول..

﴿بُكْمٌ﴾ فلا ينطقون بما فيه خير لهم..

﴿عُمْىٌ﴾ لا ينظرون نظر اعتبار..

﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة:١٧٠-١٧١] والسبب الموجب لذلك كله، أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.. فهل يستريب العاقل، أن من دعي إلىٰ الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه، وفوزه، ونعيمه فعصىٰ الناصح، وتولىٰ عن أمر ربه، واقتحم النار علىٰ بصيرة، واتبع الباطل، ونبذ الحق، أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء، فإنه من أسفه السفهاء.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٢-١٧٣]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا أمر للمؤمنين خاصة، بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون علىٰ الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم..

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق.. وهنا لم يقل ﴿حَلَـٰلًا﴾ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له..

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ والشكر لله علىٰ إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها علىٰ ما يوصل إليه.. **فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ﴾ [المؤمنون: ٥١].. **فالشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح..**

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢﴾ فاشكروه، **فدل على أن من لم يشكر الله لم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده**، وأتى بما أمر به.. ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾..

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرة، لرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب، أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر (مرض)..

﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح كما قيِّد في الآية الأخرى..

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها.. **وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها لطفا بنا**، وتنزيها عن المضر، **ومع هذا**..

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ ألجئ إلى المحرم، بجوع وعدم، أو إكراه..

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه..

﴿وَلَا عَادٍ﴾ متجاوز الحد في تناول ما أبيح له، اضطرارا، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها..

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لا جناح عليه، **وإذا ارتفع الجناح (الإثم) رجع الأمر إلى ما كان عليه**، والإنسان بهذه الحالة، **مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة**، وأن يقتل نفسه، **فيجب إذًا عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات**، فيكون قاتلا لنفسه.. وهذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة:١٧٢-١٧٣] ولما كان الحِلُّ مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

🕮 الفوائد

١- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ ﴾ يدل على أنَّ أكل الطيب، **سببٌ للعمل الصالح وقبوله.**

٢- **الأمر بالشكر عقيب النعم**؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، **كما أن الكفر** ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

٣- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ **استثنىٰ الشارع من هذا العموم**، ميتة الجراد، وسمك البحر، فإنَّه حلال طيب.

٤- **وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات**، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَيِّبَاتِ﴾ فعموم المحرمات، تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ كما تقدم.

٥- وفي هذه الآية دليل علىٰ القاعدة المشهورة: (الضرورات تبيح المحظورات) فكل محظور، اضطر إليه الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن، فله الحمد والشكر، أوَّلاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة:١٧٤-١٧٦]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله علىٰ رسله، من العِلمِ الَّذي أخذ اللهُ الميثاق علىٰ أهله، أن يبينوه للناس ولا يكتموه، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر الله، فـ..

﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، **فكان جزاؤهم من جنس عملهم**..

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار..

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ **لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة**، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها.. **وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله**، والاهتداء به، والدعوة إليه..

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ فهؤلاء نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدىٰ، والعذاب علىٰ المغفرة.. **ثم توجع لهم** بشدة صبرهم علىٰ النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة إليها..

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ۝١٧٥﴾ **فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها،** وأنىٰ لهم الجلد عليها؟!..

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور، وهو مجازاته بالعدل، ومنعه أسباب الهداية، ممن أباها واختار سواها..

﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته..

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه علىٰ أهوائهم ومراداتهم..

﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ محادة..

﴿بَعِيدٍ ۝١٧٦﴾ [البقرة:١٧٤-١٧٦] عن الحق؛ **لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض**، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب علىٰ ذلك افتراقهم، **بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به**، وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

🕮 الفوائد

١- في قوله: ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ما يدل علىٰ أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، **فمن صرفه عن مقصوده، فهو حقيق بأن يجازىٰ بأعظم العقوبة.**

٢- قد تضمنت هذه الآيات، **الوعيد للكاتمين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا**، بالعذاب والسخط، **وأن الله لا يطهرهم** بالتوفيق، ولا بالمغفرة.

٣- وذكر **السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة علىٰ الهدىٰ، فترتب علىٰ ذلك اختيار العذاب علىٰ المغفرة، ثم توجع لهم** بشدة صبرهم علىٰ النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة إليها.

٤- أن الكتاب مشتمل علىٰ الحق الموجب للاتفاق عليه، وعدم الافتراق.

٥- أن كل من خالفه، فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة والمخاصمة، والله أعلم.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧]

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص..

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول، مما يكون بعد الموت..

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ..

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ جنس الكتب التي أنزلها الله علىٰ رسوله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام..

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ عمومًا، خصوصـاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ..

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطىٰ المال..

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ حب المال، بيَّن به أنَّ المالَ محبوبٌ للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد، فمن أخرجه مع حبه له تقربا إلىٰ الله تعالىٰ، كان هذا برهانا لإيمانه.. **ومن إيتاء المال علىٰ حبه:** أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنىٰ، ويخشىٰ الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة، كانت أفضل، لأنه في هذه الحال، يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر.. وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢] فكل هؤلاء ممن آتىٰ المال علىٰ حبه.. ثم ذكر المنفق عليهم..

﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وهم أولىٰ الناس ببرِّك وإحسانك من الأقارب الذين تتوجع لمصابهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه، تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، علىٰ حسب قربهم وحاجتهم..

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ ومن اليتامىٰ **الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها**، وهذا من رحمته تعالىٰ بالعباد، الدالة علىٰ أنه تعالىٰ أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصىٰ العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلىٰ من فُقِدَ آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره، رُحِمَ يتيمه..

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة، وأذلَّهم الفقرُ فلهم حق علىٰ الأغنياء، بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسر..

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده علىٰ إعطائه من المال، ما يعينه علىٰ سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلىٰ من أنعم الله عليه بوطنه وراحته، وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب، الذي بهذه الصفة، علىٰ حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها..

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السؤال، كمن ابتلي بأرش جناية، **أو ضريبة عليه من ولاة الأمور**، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد، والمدارس، والقناطر، ونحو ذلك، **فهذا له حق وإن كان غنيا**..

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه: **العتق** والإعانة عليه.. **وبذل مال للمكاتب** ليوفي سيده.. **وفداء الأسرىٰ** عند الكفار أو عند الظلمة..

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد تقدم مرارا، **أن الله تعالىٰ يقرن بين الصلاة والزكاة**، لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية، وبدنية، ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان..

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ﴾ والعهد: هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه، **فدخل في ذلك: حقوق الله كلها**، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها.. **وحقوق العباد**، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك..

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: الفقر، **لأن الفقير يحتاج إلىٰ الصبر من وجوه كثيرة**، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره: **فإن تنعم الأغنياء** بما لا يقدر عليه تألم.. وإن جاع أو **جاعت عياله** تألم.. **وإن أكل طعاما غير موافق لهواه** تألم.. **وإن عرىٰ أو كاد** تألم.. **وإن نظر إلىٰ ما بين يديه** وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم.. **وإن أصابه البرد الذي لا يقدر علىٰ دفعه** تألم.. **فكل هذه ونحوها مصائب، يؤمر بالصبر عليها، والاحتساب**، ورجاء الثواب من الله عليها..

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: المرض علىٰ اختلاف أنواعه، من حمىٰ، وقروح، ورياح، ووجع عضو، حتىٰ الضرس والإصبع، ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلىٰ الصبر علىٰ ذلك؛ **لأن النفس تضعف، والبدن يألم**، وذلك في غاية المشقة علىٰ النفوس، **خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر، احتسابا لثواب الله تعالىٰ**..

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، **لأن الجِلاد** يشق غاية المشقة علىٰ النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلىٰ الصبر في ذلك

احتسابا، ورجاء لثواب الله تعالىٰ الذي منه النصر والمعونة، التي وعدها الصابرين..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بما ذكر من **العقائد** الحسنة، **والأعمال** التي هي آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، **والأخلاق** التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية، فأولئك هم..

﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ **في إيمانهم، لأنَّ أعمالَهم صَدَّقَتْ إيمانَهم..**

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة:١٧٧] **لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور، لأن هذه الأمور مشتملة علىٰ كل خصال الخير، تضمنًا ولزومًا، لأن الوفاء بالعهد، يدخل فيه الدينُ كُلُّه**، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها، كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتقون.. وقد عَلِمَ ما رتَّب الله علىٰ هذه الأمور الثلاثة، من الثواب الدنيوي والأخروي، مما لا يمكن تفصيله في مثل هذا الموضع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة:١٧٨-١٧٩]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ **يمتن تعالىٰ علىٰ عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم..**

﴿ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ﴾ المساواة فيه، وأن يقتل القاتل علىٰ الصفة، التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.. **ثم بيَّن تفصيل ذلك فقال..**

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ **يدخل بمنطوقها، الذكر بالذكر..**

﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ﴾ **والأنثىٰ بالذكر، والذكر بالأنثىٰ، فيكون منطوقها مقدَّما** علىٰ مفهوم قوله: «الأنثىٰ بالأنثىٰ» مع دلالة السنة، علىٰ أن الذكر يقتل بالأنثىٰ.. **وفي هذه الآية دليل علىٰ أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال..**

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ **أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلىٰ الدية، أو عفا بعض** الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلىٰ الولي.. **فإذا عفا عنه وجب علىٰ الولي، أي: ولي المقتول..**

﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أن يتبع القاتل ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يحرجه.. وَعلىٰ القاتل..

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ من غير مطل ولا نقص، ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء.. **وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوما منهم ومن غيرهم**، ولهذا قال..

﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد العفو..

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ في الآخرة.. **وأما قتله وعدمه، فيؤخذ مما تقدم**، لأنه قتل مكافئا له، فيجب قتله بذلك.. **وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل**، فإن الآية تدل علىٰ أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء.. والصحيح الأول، لأن جنايته لا تزيد علىٰ جناية غيره.. **ثم بين تعالىٰ حكمته العظيمة في مشروعية القصاص** فقال..

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ تنحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل.. **وهكذا سائر الحدود الشرعية**، فيها من النكاية والانزجار، ما يدل علىٰ حكمة الحكيم الغفار.. **ونكَّر** ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ لإفادة التعظيم والتكثير..

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ولما كان هذا الحكم، لا يعرف حقيقته، إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة:١٧٨-١٧٩] وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

🕮 الفوائد

١- توجيه الخطاب لعموم المؤمنين، **فيه دليل علىٰ أنه يجب عليهم كلهم**، حتىٰ أولياء القاتل، حتىٰ القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول، إذا طلب القصاص وتمكينه (يمكنه)

من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية، ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

٢- خرج من عموم هذا **الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله:** ﴿ٱلۡقِصَاصُ﴾ **ما يدل علىٰ أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده**، ولأن في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جدا من الولد له.

٣- وخرج من العموم أيضا **الكافر**، بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وأيضا فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، والعبد بالعبد، ذكرا كان أو أنثىٰ، تساوت قيمتهما أو اختلفت.

٤- دل بمفهومها علىٰ أن الحر لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساو له.

٥- والأنثىٰ بالأنثىٰ، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

٦- وفي هذه الآية دليل علىٰ أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه.

٧- ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق، بالأداء بإحسان (الإحسان).

٨- وفي قوله: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ ﴾ **ترقيق وحث علىٰ العفو** إلىٰ الدية، وأحسن من ذلك العفو مجانا.

٩- وفي قوله: ﴿أَخِيهِ﴾ دليل علىٰ أن **القاتل لا يكفر**، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولىٰ أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر، لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

١٠- وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوما منهم ومن غيرهم.

١١- ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ **وهذا يدل علىٰ أن الله تعالىٰ يحب من**

عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة علىٰ كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفىٰ بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة:١٨٠-١٨١]

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ فرض الله عليكم، يا معشر المؤمنين..

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أسبابه، كالمرض المشرف علىٰ الهلاك، وحضور أسباب المهالك..

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وكان قد ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالا، وهو المال الكثير عرفا..

﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه..

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ علىٰ قدر حاله، من غير سرف، ولا اقتصار علىٰ الأبعد، دون الأقرب، بل يرتبهم علىٰ القرب والحاجة، ولهذا أتىٰ فيه بأفعل التفضيل..

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ دل علىٰ وجوب ذلك، لأن الحق هو: الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوىٰ.. ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية، لما يتوهمه أن من بعده قد يبدل ما وصىٰ به قال تعالىٰ..

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ الإيصاء للمذكورين أو غيرهم..

﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ بعدما عقله، وعرف طرقه وتنفيذه..

﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ وإلا فالموصي وقع أجره علىٰ الله، وإنما الإثم علىٰ المبدل المغير.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجور في وصيته..

﴿عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة:١٨٠-١٨١] بنيته، وعليم بعمل الموصىٰ إليه، فإذا اجتهد الموصي، وعلم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، **وفيه التحذير للموصىٰ إليه من التبديل**، فإن الله عليم به، مطلع علىٰ ما فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة.

🕮 الفـوائـد

اعلم أن **جمهور المفسرين** يرون أن هذه الآية **منسوخة** بآية المواريث..

وبعضهم يرىٰ أنها في **الوالدين والأقربين غير الوارثين**، مع أنه لم يدل علىٰ التخصيص بذلك دليل..

والأحسن في هذا أن يقال:

إن هذه **الوصية للوالدين والأقربين مجملة**، ردها الله تعالىٰ إلىٰ العرف الجاري، **ثم إن الله تعالىٰ قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث**، بعد أن كان مجملا **وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف**، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره.

وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظا، واختلف المورد، فبهذا الجمع، يحصل الاتفاق، والجمع بين الآيات، لأنه مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة:١٨٢]

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ﴾ وأما الوصية التي فيها حيف وجنف، وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهاه عن الجور والجنف، وهو: الميل بها عن خطأ، من غير تعمد، والإثم:

وهو التعمد لذلك.. فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصىٰ إليهم، ويتوصل إلىٰ العدل بينهم علىٰ وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم فهذا قد فعل معروفا عظيما، وليس عليهم إثم، كما علىٰ مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، **ومنه مغفرته لمن غض من نفسه، وترك بعض حقه لأخيه**، لأن من سامح، سامحه الله، **غفور لميتهم الجائر في وصيته، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضا لأجل براءة ذمته**..

﴿رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة:١٨٢] بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٥]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ يخبر تعالىٰ بما منَّ به علىٰ عباده، بأنه فرض عليهم الصيام..

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كما فرضه علىٰ الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.. ثم ذكر تعالىٰ حكمته في مشروعية الصيام فقال..

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوىٰ، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.. ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه..

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ قليلة في غاية السهولة، ثم سهل تسهيلا آخر، فقال..

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضىٰ السفر، وحصلت الراحة..

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يطيقون الصيام.. وقيل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة، كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم مسكين وهذا هو الصحيح..

﴿فِدْيَةٌ﴾ عن كل يوم يفطرونه..

﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتما، فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم، بأسهل طريق، وخيَّر المطيق للصوم بين أن يصوم، وهو أفضل، أو يطعم، ولهذا قال..

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ ثم بعد ذلك، جعل الصيام حتما علىٰ المطيق وغير المطيق، يفطر ويقضيه في أيام أخر..

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ الصوم المفروض عليكم، هو شهر رمضان، الشهر العظيم، الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم..

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ المشتمل علىٰ الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية..

﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وتبيين الحق بأوضح بيان..

﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسماً للعباد مفروضا فيه الصيام، فلما قرره، وبين فضيلته، وحكمة الله تعالىٰ في تخصيصه قال..

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا فيه تعيين الصيام علىٰ القادر الصحيح الحاضر..

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر؛ لئلا يتوهم أن الرخصة أيضا منسوخة فقال..

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ يريد الله تعالىٰ أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلىٰ رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهَّله تسهيلا آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات، وهذه جملة لا يمكن تفصيلها، لأن تفاصيلها، جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات..

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ وهذا - والله أعلم - لئلا يتوهم متوهم، أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته..

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلىٰ فراغ خطبة العيد..

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٥] ويشكر الله تعالىٰ عند إتمامه علىٰ توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده.

🕮 الفوائد

١- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارعة إلىٰ صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة، التي اختصيتم بها.

٢- ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوىٰ، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.. **فمما اشتمل عليه من التقوىٰ:**

• أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقربا بذلك إلىٰ الله، راجيا بتركها، ثوابه، فهذا من التقوىٰ.

• **ومنها:** أن الصائم يدرب نفسه علىٰ مراقبة الله تعالىٰ، فيترك ما تهوىٰ نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

• **ومنها:** أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، فبالصيام، يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.

● ومنها: أن الصائم في الغالب، تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوىٰ.

● ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك، مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوىٰ.

٣- في قوله: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ ﴾ فيه دليل علىٰ أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملا كان أو ناقصا، وعلىٰ أنه يجوز أن يقضي أياما قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧]

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾..

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ كان في أول فرض الصيام، يحرم علىٰ المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالىٰ عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم..

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به..

﴿فَتَابَ﴾ الله..

﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمرا كان -لولا توسعته- موجبا للإثم..

﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما سلف من التخون..

﴿فَالْئَنَ﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله..

﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ وطأ وقبلة ولمسا وغير ذلك..

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلىٰ الله تعالىٰ والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح..

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع..

﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر..

﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾ الإمساك عن المفطرات..

﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ وهو غروب الشمس.. ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحته (إباحة) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناه بقوله..

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ وأنتم متصفون بذلك..

﴿تِلْكَ﴾ المذكورات، وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر علىٰ غير المعذور، وتحريم الوطء علىٰ المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات..

﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي حدها لعباده، ونهاهم عنها، فقال..

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: "فلا تفعلوها" لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه، **والعبد مأمور بترك المحرمات، والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليها**، وأما الأوامر فيقول الله فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] فينهىٰ عن مجاوزتها..

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ بيَّن الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبيين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح..

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧] فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل

اجتنبوه، **فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله**، فإذا بين الله للناس آياته، لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سبباً للتقوىٰ.

الفـوائـد

١- ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك.

٢- ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ فيه أنه إذا أكل ونحوه شاكـاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه.

٣- وفيه دليل علىٰ استحباب السحور؛ للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنىٰ رخصة الله وتسهيله علىٰ العباد.

٤- وفيه دليل علىٰ أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه؛ لأن لازم إباحة الجماع إلىٰ طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق.

٥- ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ ﴾ دلت الآية علىٰ مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالىٰ، وانقطاعا إليه.

٦- وأن الاعتكاف لا يصح إلا في المسجد.

٧- ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس.

٨- وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة:١٨٨]

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾ أي: أموال غيركم، أضافها إليهم، لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله؛ ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره

علىٰ أكل ماله عند القدرة..

﴿بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لما كان أكلها نوعين: نوعا بحق، ونوعا بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل، قيده تعالىٰ بذلك..

﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ حتىٰ ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلىٰ حاكم الشرع، وأدلىٰ من يريد أكلها بالباطل بحجة، غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرما، ولا يحلل حراما، إنما يحكم علىٰ نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة، ولا شبهة، ولا استراحة، **فمن أدلىٰ إلىٰ الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له..**

﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨] ويكون آكلا لمال غيره، بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك، فيكون أبلغ في عقوبته، وأشد في نكاله.

الفـوائـد

١ - قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾:

يدخل في ذلك أكلها علىٰ وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية، أو نحو ذلك..

ويدخل فيه أيضا أخذها علىٰ وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة، كعقود الربا، والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل؛ لأنه ليس في مقابلة عوض مباح..

ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة، ونحوها..

ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجرة علىٰ عمل لم يقوموا بواجبه..

ويدخل في ذلك أخذ الأجرة علىٰ العبادات والقربات التي لا تصح حتىٰ يقصد بها وجه الله تعالىٰ..

ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات، والأوقاف، والوصايا، لمن ليس له حق منها، أو فوق حقه.. فكل هذا ونحوه، من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه.

٢- قوله تعالىٰ: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وعلىٰ هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء].

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩]

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع - هلال - ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها..

﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ جعلها الله تعالىٰ بلطفه ورحمته علىٰ هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفا في أول الشهر، ثم يتزايد إلىٰ نصفه، ثم يشرع في النقص إلىٰ كماله، وهكذا، ليعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم من الصيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج.. ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتا كثيرة قال..

﴿وَٱلْحَجِّ﴾ وكذلك تعرف بذلك، أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجارات، ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالىٰ حسابا، يعرفه كل أحد، من صغير، وكبير، وعالم، وجاهل، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية، لم يعرفه إلا النادر من الناس..

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب، إذا أحرموا، لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدا بذلك، وظنا أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر (ليس من البر)؛ لأن الله تعالىٰ، لم يشرعه لهم، **وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة..**

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع..

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه علىٰ الدوام، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح، الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب..

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة:١٨٩] فمن لم يتق الله تعالىٰ، لم يكن له سبيل إلىٰ الفلاح، ومن اتقاه، فاز بالفلاح والنجاح.

الفوائد

١- أمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

٢- ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلا.. فالآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة، التي بها يحصل المقصود أو بعضه.. والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به مقصوده.. **وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود** بعون الملك المعبود.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة:١٩٠]

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال..

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة:١٩٠] والنهي عن الاعتداء، يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل، من النساء، والمجانين والأطفال، والرهبان ونحوهم والتمثيل بالقتلىٰ، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها]، لغير مصلحة تعود للمسلمين.. **ومن الاعتداء، مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها**، فإن ذلك لا يجوز.

الفوائد

١- هذه الآيات، تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلىٰ المدينة، لما قوي المسلمون للقتال، أمرهم الله به، بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم.

٢- في تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين.

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة:١٩١-١٩٣]

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ هذا أمر بقتالهم، أينما وجدوا في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة وقتال مهاجمة..

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالىٰ أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم -أيها المسلمون- حرج في قتالهم..

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ﴾ ثم استثنىٰ من هذا العموم قتالهم..

﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال..

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت..

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾ فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه وهذا من رحمته وكرمه بعباده..

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ ثم ذكر تعالىٰ المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به، سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به..

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ تعالىٰ، فيظهر دين الله [تعالىٰ]، علىٰ سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه، من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود، فلا قتل ولا قتال..

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ حتىٰ ينتهوا عن كفرهم فيسلموا..

﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة:١٩١-١٩٣] فليس عليهم منكم اعتداء، إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة، بقدر ظلمه.

📖 الفـوائـد

يستدل بهذه الآية علىٰ القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤]

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ **يحتمل** أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية، عن الدخول لمكة، وقاضوهم علىٰ دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهذا، **فيكون فيه تطييب لقلوب الصحابة**، بتمام نسكهم، وكماله.. **ويحتمل** أن يكون المعنىٰ: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام (بالشهر الحرام) فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج، وعلىٰ هذا فيكون قوله..

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ من باب عطف العام علىٰ الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام، أخذ منه الحد، ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئا له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضوا منه، اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله.. ولهذا قال تعالىٰ، تأكيدا وتقوية لما تقدم..

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.. ولما كانت النفوس -في الغالب- لا تقف علىٰ حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالىٰ بلزوم تقواه..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التي هي الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزها..

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤] وأخبر تعالىٰ أنه ﴿ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق، ومن كان الله معه، حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوىٰ تخلىٰ عنه وليه وخذله، فوكله إلىٰ نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

📖 الفـوائـد

﴿ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ ﴾ ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك، أنه **إن كان سبب الحق ظاهرا** كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة من الإنفاق عليه، **فإنه يجوز أخذه** من ماله.. **وإن كان السبب خفيا**، كمن جحد دَين غيره، أو خانه في وديعة، أو سرق منه، ونحو ذلك، **فإنه لا يجوز له** أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعا بين الأدلة.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥]

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يأمر تعالىٰ عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلىٰ الله، وهي كل طرق الخير، من صدقة علىٰ مسكين، أو قريب، أو إنفاق علىٰ من تجب مؤنته، **وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله**، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة، الإعانة علىٰ تقوية المسلمين، وعلىٰ توهية الشرك وأهله، وعلىٰ إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا علىٰ ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكالبهم، فيكون قوله تعالىٰ..

﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ **كالتعليل** لذلك، والإلقاء باليد إلىٰ التهلكة **يرجع إلىٰ أمرين: ترك** ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح، **وفعل** ما هو سبب موصل إلىٰ تلف النفس أو الروح، **فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك:** ترك

الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه الموجب لتسلط الأعداء، **ومن ذلك**: تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرا أو بنيانا خطرا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه، ممن ألقىٰ بيده إلىٰ التهلكة.. **ومن الإلقاء باليد إلىٰ التهلكة (ومن ذلك) الإقامة علىٰ معاصي الله**، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي في تركها هلاك للروح والدين.. ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعا من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموما فقال..

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥] وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.. **ويدخل فيه** الإحسان بالجاه، بالشفاعات ونحو ذلك، **ويدخل في ذلك** الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، **ويدخل في ذلك** قضاء حوائج الناس، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملا، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، **ويدخل في الإحسان** أيضا الإحسان في عبادة الله تعالىٰ، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه علىٰ كل أموره.. ولما فرغ تعالىٰ من ذكر أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج فقال..

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة:١٩٦]

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ يستدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ علىٰ أمور: **أحدها**: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.. **الثاني**: وجوب إتمامهما بأركانهما، وواجباتهما،

التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم».. **الثالث**: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.. **الرابع**: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلا.. **الخامس**: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد علىٰ فعل ما يلزم لهما.. **السادس**: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالىٰ.. **السابع**: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتىٰ يكملهما، إلا بما استثناه الله، وهو الحصر، فلهذا قال..

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ منعتم من الوصول إلىٰ البيت لتكميلهما، بمرض، أو ضلالة، أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع..

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فاذبحوا ما استيسر من الهدي، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي ﷺ وأصحابه، لما صدهم المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدي، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع ثم يحل..

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر، بحلق أو غيره، لأن المعنىٰ واحد.. وإنما منع تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من ذلك، لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد.. ويستمر المنع مما ذكر..

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.. وليس عليه في ذلك من ضرر..

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ فإذا حصل الضرر، بأن كان به أذىٰ من مرض ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك..

﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية..

﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام..

﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ علىٰ ستة مساكين (أو إطعام ستة مساكين)..

﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ ما يجزئ في أضحية.. **فهو مخير، والنسك أفضل**، فالصدقة، فالصيام.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ بأن قدرتم علىٰ البيت من غير مانع عدو وغيره..

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها..

﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾ فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك، **مقابلة لحصول النسكين** له في سفرة واحدة، **ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة** بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج، **ومثلها القِران** لحصول النسكين له..

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ الهدي أو ثمنه..

﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ (منىٰ) ولكن الأفضل منها، أن يصوم السابع، والثامن، والتاسع..

﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ﴾ فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلىٰ أهله..

﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدي علىٰ المتمتع..

﴿لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ بأن كان عند مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفات، فهذا الذي يجب عليه الهدي، لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات، واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية..

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة:١٩٦] لمن عصاه، **وهذا هو الموجب للتقوىٰ، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلىٰ الثواب، وأما من لم يخف العقاب، ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم، وتجرأ علىٰ ترك الواجبات.**

📖 الفـوائـد

١- ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ ﴾ من الرأس، **أو من البدن،** لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر.

٢- وقاس كثير من العلماء علىٰ إزالة الشعر تقليم الأظفار؛ بجامع الترفه.

٣- ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ يستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة، أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي.

٤- ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك، من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو الطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع، إزالة ما به يترفه.

٥- ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ يدل مفهوم الآية، على أن المفرد للحج، ليس عليه هدي.

٦- دلت الآية، على جواز، بل فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧]

﴿ٱلْحَجُّ﴾ واقع في..

﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ عند المخاطبين، مشهورات، بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم، التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم.. **والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء**: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً..

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أحرم به؛ لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان نفلا..

﴿فَلَا رَفَثَ﴾ يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتهن..

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام..

﴿وَلَا جِدَالَ﴾ والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة..

﴿فِي الْحَجِّ﴾ **والمقصود من الحج،** الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً والمبرور، ليس له جزاء إلا الجنة، **وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة** في كل مكان وزمان، **فإنها (فإنه) يتغلظ المنع عنها** في الحج.. **واعلم أنه لا يتم التقرب إلىٰ الله بترك المعاصي حتىٰ يفعل الأوامر،** ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ **أتىٰ بـ ﴿مِنْ﴾** لتنصيص علىٰ العموم، **فكلُّ خَيْرٍ وقُربةٍ وعِبادةٍ داخل في ذلك،** أي: فَإِن الله به عليم، وهذا **يتضمن غاية الحث علىٰ أفعال الخير، وخصوصًا في تلك البقاع** الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة، وصيام، وصدقة، وطواف، وإحسان قولي وفعلي.. **ثم أمر تعالىٰ بالتزود لهذا السفر** المبارك..

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ فإن التزود **فيه الاستغناء** عن المخلوقين، والكف عن أموالهم، سؤالاً واستشرافًا، وفي الإكثار منه **نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة** لرب العالمين، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية بلغة ومتاع.. **وأما الزاد الحقيقي** المستمر نفعه لصاحبه، في دنياه، وأخراه، **فهو زاد التقوىٰ**..

﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ الذي هو زادٌ إلىٰ دارِ القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجلِّ نعيمٍ دائم أبداً، **ومن ترك هذا الزاد** فهو المنقطع به، الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلىٰ دار المتقين، فهذا مدح للتقوىٰ.. **ثم أمر بها أولي الألباب** فقال..

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧] يا أهل العقول الرزينة، اتقوا رَبَّكَمُ الَّذِي **تَقْواه أعظمُ ما تأمرُ بِهِ العقول، وتركها دليل علىٰ الجهل،** وفساد الرأي.

📖 الفوائد

استدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه علىٰ أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريبًا،

فإن قوله: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيده.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:١٩٨-٢٠٢]

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ لما أمر تعالىٰ بالتقوىٰ، أخبر تعالىٰ أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب، إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلىٰ فضل الله، لا منسوباً إلىٰ حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه..

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ﴾ فيه دلالة علىٰ أمور: **أحدها**: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنَّه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات، لا تكون إلا بعد الوقوف.. **الثاني**: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف، يكون ليلة النحر بائتاً بها، وبعد صلاة الفجر، يقف في المزدلفة داعيا، حتىٰ يسفر جدا، **ويدخل** في ذكر الله عنده إيقاع **الفرائض والنوافل** فيه.. **الثالث**: أن الوقوف بمزدلفة، متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.. **الرابع، والخامس**: أن عرفات ومزدلفة، كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها، وإظهارها.. **السادس**: أن مزدلفة في الحرم، كما قيده بالحرام.. **السابع**: أن عرفة في الحل،

كما هو مفهوم التقييد بـ (مزدلفة)..

﴿وَٱذۡكُرُوهُ﴾ أي: اذكروا الله تعالىٰ..

﴿كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ كما منّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها، ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان..

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ الآن، **والمقصود من هذه الإفاضة** كان معروفا عندهم، وهو **رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت بـ (منىٰ) ليالي التشريق وتكميل باقي المناسك**.. ولما كانت هذه الإفاضة، يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالىٰ عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره..

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله علىٰ إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة..

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ وهكذا ينبغي للعبد، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره علىٰ التوفيق، لا كمن يرىٰ أنه قد أكمل العبادة، ومَنَّ بها علىٰ ربه، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد الفعل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر.. ثم أخبر تعالىٰ عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف..

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته..

﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠﴾ وليس له في الآخرة من نصيب، لرغبته عنها، وقصر همته علىٰ الدنيا..

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [البقرة:١٩٨-٢٠٢] وكل من هؤلاء وهؤلاء، لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالىٰ علىٰ حسب أعمالهم، وهماتهم ونياتهم، جزاء دائرا بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه.

📖 **الفـوائـد**

١- في هذه الآية دليل علىٰ أن الله **يجيب دعوة كل داع**، مسلمًا أو كافراً، أو فاسقًا، **ولكن ليست إجابته** دعاء من دعاه، **دليلا علىٰ محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة** ومهمات الدين.

٢- **والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها** كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك، من المطالب المحبوبة والمباحة.

٣- **وحسنة الآخرة**، هي السلامة من العقوبات، في القبر، والموقف، والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، **فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمله، وأولاه بالإيثار**، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، والحث عليه.

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٠٣﴾ [البقرة:٢٠٣]

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ **يأمر تعالىٰ بذكره في الأيام المعدودات**، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، **ولكون الناس أضيافا لله فيها، ولهذا حرّم صيامها**، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله».. **ويدخل في ذكر الله فيها**: ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، **بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق، كالعشر**، وليس ببعيد..

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ خرج من (منىٰ) ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني..

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ﴾ بأن بات بها ليلةَ الثالث ورمىٰ من الغد..

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وهذا تخفيف من الله تعالىٰ علىٰ عباده، في إباحة كلا الأمرين.. ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين **فالمتأخر أفضل،** لأنه أكثر عبادة.. **ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره،** والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر فقط، قيَّده بقوله..

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ اتقىٰ الله في جميع أموره، وأحوال الحج، **فمن اتقىٰ الله في كل شيء حصل له نفي الحرج في كل شيء،** ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان الجزاء من جنس العمل..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب معاصيه..

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة:٢٠٣] فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوىٰ عنده، ومن لم يتقه عاقبه أشدَّ العقوبة، **فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوىٰ الله،** فلهذا حث تعالىٰ علىٰ العلم بذلك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]

لما أمر تعالىٰ بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالىٰ بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إذا تكلَّم راق كلامُه للسامع، وإذا نطق ظننته يتكلَّم بكلامٍ نافع..

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ ويؤكد ما يقول بأنه يُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعلَه، فلو كان صادقًا، لتوافق القولُ والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال..

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤﴾ إذا خاصمته وجدت فيه من اللَّدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب علىٰ ذلك، ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين، الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيتهم..

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك..

﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ يجتهد علىٰ أعمال المعاصي، التي هي إفساد في الأرض..

﴿وَيُهْلِكَ﴾ بسبب ذلك..

﴿ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ فالزروع والثمار والمواشي تتلف وتنقص وتقل بركتها، **بسبب العمل في المعاصي**..

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ وإذا كان لا يحب الفساد، **فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض**، وإن قال بلسانه قولا حسنا.. ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ إذا أمر بتقوىٰ الله تكبر وأنف، و..

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر (والتكبر) علىٰ الناصحين..

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ التي هي دار العاصين والمتكبرين..

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦] المستقر والمسكن، عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يرجون الثواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياذاً بالله من أحوالهم.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية دليل علىٰ:

١- أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً علىٰ صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور حتىٰ **يوجد العمل المصدِّق لها**، المزكِّي لها.

وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود.

٢- والمحق والمبطل من الناس، بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم.

٣- وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة:٢٠٧]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها طلبا لمرضاة الله ورجاء لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفيّ الرءوف بالعباد..

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة:٢٠٧] الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] إلىٰ آخر الآية، وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها، **وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم** [١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ [البقرة:٢٠٨-٢٠٩]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا أمر من الله تعالىٰ للمؤمنين..

---

(١) من أول الآية إلىٰ هنا ساقط من ب، وقد قام النجار بتفسير الآية من عند نفسه انظر طبعة النجار (١/ ٢٥٢-٢٥٤) ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. اهـ من هامش المطبوع الأصل

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ أن يدخلوا ﴿فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئا، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوىٰ تبعا للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه، من أفعال الخير، **وما يعجز عنه يلتزمه وينويه، فيدركه بنيته**.. ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال..

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ في العمل بمعاصي الله..

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ والعدو المبين، لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وما به الضرر عليكم.. ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالىٰ..

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ علىٰ علم ويقين..

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ [البقرة:٢٠٨-٢٠٩] وفيه من الوعيد الشديد والتخويف، ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر (العزيز المقام) الحكيم، إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضىٰ حكمته فإن من حكمته، تعذيب العصاة والجناة.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة:٢١٠]

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالىٰ:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله..

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع، ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ علىٰ المفسدين، وذلك أن الله تعالىٰ يطوي السماوات والأرض، وتنثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلائق، وينزل الباري [تبارك] تعالىٰ..

﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل..

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة

وتسود وجوه أهل الشقاوة..

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة:٢١٠] ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازىٰ بعمله، فهنالك يعض الظالم علىٰ يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

📖 الفوائد

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، **المثبتين للصفات الاختيارية**، كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالىٰ، عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها علىٰ وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، **خلافا للمعطلة علىٰ اختلاف أنواعهم**، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب.

فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي:

أما النقلي: فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها، دال علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالتها علىٰ مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترىٰ لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل: فليس في العقل ما يدل علىٰ نفي هذه الصفات، بل العقل دل علىٰ أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر علىٰ الفعل، وأن فعله تعالىٰ المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال.

فإن زعموا أن إثباتها يدل علىٰ التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام علىٰ الصفات، يتبع الكلام علىٰ الذات، فكما أن لله ذاتا لا تشبهها الذوات، فلله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه، تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضا، لمن أثبت بعض الصفات، ونفىٰ بعضا، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه، وأثبته رسوله، وإما أن تنفي الجميع، وتكون منكرا

لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك، ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبته، وما نفيته، ولن تجد إلىٰ الفرق سبيلا.

فإن قلت: ما أثبته لا يقتضي تشبيها، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيته لا يقتضي تشبيها.

فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيته.

والحاصل: أن من نفىٰ شيئا وأثبت شيئا مما دل الكتاب والسنة علىٰ إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة:٢١١]

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ﴾ تدل علىٰ الحق، وعلىٰ صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة، التي تقتضي القيام بها، بل كفروا بها وبدلوا نعمة الله كفرا، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه..

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة:٢١١]..

🕮 الفوائد

سمىٰ الله تعالىٰ كفر النعمة تبديلا لها، لأن من أنعم الله عليه نعمة دينية أو دنيوية، فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالىٰ، وقام بحقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢]

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يخبر تعالىٰ أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، ولم ينقادوا لشرعه، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، **فزينت في أعينهم وقلوبهم**، فرضوا بها،

واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، **وعظموا من شاركهم في صنيعهم**..

﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ واحتقروا المؤمنين، واستهزأوا بهم وقالوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ **وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر**، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا، وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره، وإنما الشأن كل الشأن، والتفضيل الحقيقي، في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى..

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور، والبهجة والحبور، والكفار تحتهم في أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة، والشقاء السرمدي، الذي لا منتهى له.. **ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين**.. ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية، لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله، قال تعالى..

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٢١٢﴾ [البقرة:٢١٢] فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ۝٢١٣﴾ [البقرة:٢١٣]

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم، وقيل

بل كانوا مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم..

﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله بثمرات الطاعات، من الرزق والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة..

﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى الله، بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف، والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك، سخط الله والنار..

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق..

﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع، لما أمر بالرد إليهما.. ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف..

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالا بعيدا..

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من هذه الأمة..

﴿لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة..

﴿بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة:٢١٣] فعمَّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلا منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلا يقولوا: ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ ﴾ [المائدة: ١٩] وهدى -بفضله ورحمته، وإعانته ولطفه- من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ **يخبر** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **أنه لا بد أن** يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة، كما فعل بمن قبلهم، **فهي سنته الجارية**، التي لا تتغير ولا تتبدل، **أن من قام بدينه وشرعه، لا بد أن يبتليه، فإن صبر** علىٰ أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، **فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها**، ومن السيادة آلتها.. **ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله**، بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، **فهو الكاذب في دعوىٰ الإيمان**، فإنه **ليس الإيمان بالتحلي والتمني، ومجرد الدعاوىٰ، حتىٰ تصدقه الأعمال أو تكذبه**.. فقد جرىٰ علىٰ الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم..

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ الفقر..

﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ الأمراض في أبدانهم..

﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار..

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ﴾ حتىٰ وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال، إلىٰ أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه قال..

﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ فلما كان **الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالىٰ**..

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤] فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن، **فكلما اشتدت عليه وصعبت، إذا صابر وثابر علىٰ ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحات، وأعقبه ذلك الانتصار علىٰ الأعداء، وشفاء ما في قلبه من الداء.. وهذه الآية نظير قوله تعالىٰ:** ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ

ﭐلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ [آل عمران]، وقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت]، فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥]

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ يسألونك عن النفقة، **وهذا يعم السؤال عن المنفَقِ والمنفقِ عَليه، فأجابهم عنهما فقال..**

﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ مال قليل أو كثير..

﴿فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ فأولىٰ الناس به وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقًا عليك، وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما، النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق، ترك الإنفاق عليهما، **ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، علىٰ الولد الموسر**..

﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ ومن بعد الوالدين الأقربون، علىٰ اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، علىٰ حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة..

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ وهم الصغار **الذين لا كاسب لهم**، فهم في مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصىٰ الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفًا..

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات، وأرباب الضرورات، الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم، لدفع حاجاتهم وإغنائهم..

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان علىٰ سفره بالنفقة، التي توصله إلىٰ مقصده.. ولما خصص الله تعالىٰ هؤلاء الأصناف، لشدة الحاجة، عمم تعالىٰ فقال..

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ من صدقة علىٰ هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥] فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل علىٰ حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة:٢١٦]

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ هذه الآية، فيها فرض القتال في سبيل الله، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه لضعفهم، وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة، وكثر المسلمون وقووا، أمرهم الله تعالىٰ بالقتال..

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ وأخبر أنه مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف..

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومع هذا، فهو خير محض، لما فيه من الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم، والنصر علىٰ الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك، مما هو مُربٍ، علىٰ ما فيه من الكراهة..

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب الخذلان، وتسلط الأعداء علىٰ الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب..

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة:٢١٦] فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم..

🕮 الفوائد

هذه الآيات عامة مطردة، **في أن أفعال الخير** التي تكرهها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحب النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك..

وأما أحوال الدنيا، فليس الأمر مطرداً، ولكن الغالب علىٰ العبد المؤمن، أنه إذا أحب أمراً من الأمور، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك، أن

يشكر الله، **ويجعل الخير في الواقع**، لأنه يعلم أن الله تعالىٰ أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر علىٰ مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة:٢١٧]

ولما كان الأمر بالقتال، لو لم يقيد لشمل الأشهر الحرم وغيرها، استثنىٰ تعالىٰ، القتال في الأشهر الحرم فقال..

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل، لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم أموالهم، وكان ذلك -علىٰ ما قيل- في شهر رجب، عيَّرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في تعييرهم ظالمين، إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالىٰ في بيان ما فيهم..

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله..

﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردهم عن دينهم..

﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام، والبلد الحرام، الذي هو بمجرده كاف في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟!..

﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم النبي ﷺ وأصحابه، لأنهم أحق به من المشركين، وهم عماره علىٰ الحقيقة، فأخرجوهم..

﴿مِنۡهُ﴾ ولم يمكنوهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد..

فهذه الأمور كل واحد منها..

﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة، في تعييرهم المؤمنين..

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ﴾ ثم أخبر تعالىٰ أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم، ويكونوا كفارا بعد إيمانهم حتىٰ يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك، ساعون بما أمكنهم، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]..

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ثم أخبر تعالىٰ أن من ارتد عن الإسلام، بأن اختار عليه الكفر واستمر علىٰ ذلك حتىٰ مات كافرا..

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام..

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧]..

🕮 الفوائد

١- الجمهور علىٰ أن تحريم **القتال في الأشهر الحرم**، **منسوخ** بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا..

وقال بعض المفسرين: **إنه لم ينسخ**؛ لأن المطلق محمول علىٰ المقيد، وهذه الآية مقيِّدة لعموم الأمر بالقتال مطلقـًا؛ ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها، تحريم القتال فيها..

وهذا إنما هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام.

٢- ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ﴾ **هذا الوصف عام لكل الكفار**، لا يزالون يقاتلون غيرهم حتىٰ يردوهم عن دينهم، **وخصوصا أهل الكتاب، من اليهود والنصارىٰ**، الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم إلىٰ دينهم، وتدخيلهم عليهم كلَّ ما يمكنهم من الشبه، التي تشككهم في دينهم..

ولكن المرجو من الله تعالىٰ، الذي مَنّ علىٰ المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه، أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام، **وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره**، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر دينه، ويعلي كلمته..

وتكون هذه الآية صادقة علىٰ هؤلاء الموجودين من الكفار، كما صدقت علىٰ من قبلهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٣٦﴾ [الأنفال].

٣- دلت الآية بمفهومها، أن من ارتد ثم عاد إلىٰ الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردته، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨﴾ [البقرة:٢١٨]

هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة وقطب رحىٰ العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأما الإيمان، فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل..

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ **وأما الهجرة**: فهي مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالىٰ، فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه، تقربا إلىٰ الله ونصرة لدينه..

﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **وأما الجهاد**: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين علىٰ أنفسهم وأموالهم وأولادهم..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ﴾ فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة علىٰ لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياما به وتكميلا، فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، **لأنهم أتوا**

بالسبب الموجب للرحمة..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لمن تاب توبة نصوحا..

﴿رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة:٢١٨] وسعت رحمته كل شيء، وعم جوده وإحسانه كل حي.

🕮 الفوائد

١- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ في هذا دليل علىٰ أن **الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة**، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمن وغرور، وهو دال علىٰ ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

٢- وفي قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ إشارة إلىٰ أن العبد ولو أتىٰ من الأعمال بما أتىٰ به لا ينبغي له أن يعتمد عليها، ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

٣- ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في هذا دليل علىٰ أن **من قام بهذه الأعمال المذكورة، حصل له مغفرة الله**، إذ الحسنات يذهبن السيئات وحصلت له رحمة الله..

- **وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة**، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت واضمحلت آثارها..

- **وإذا حصلت له الرحمة، حصل علىٰ كل خير في الدنيا والآخرة**؛ بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم، لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها، لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولا وآخرا، وهو الذي منّ بالسبب والمسبب.

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة:٢١٩]

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ يسألك -يا أيها الرسول- المؤمنون..

﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، **فكأنه وقع فيهما إشكال**، فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالىٰ نبيه، أن يبين لهم منافعهما ومضارهما، ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما، وتحتيم تركهما..

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، والعداوة، والبغضاء، أكبر مما يظنونه من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر، وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس، عند تعاطيهما..

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم..

﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ فيسر الله لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، **وهو المتيسر من أموالهم**، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلىٰ كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة علىٰ إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق تمرة.. ولما بيّن تعالىٰ هذا البيان الشافي، وأطلع العباد علىٰ أسرار شرعه قال..

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالات علىٰ الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان..

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩] لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة.. **وأيضا لكي تتفكروا في الدنيا** وسرعة انقضائها، فترفضوها.. **وفي الآخرة** وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

📖 الفـوائـد

١ - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ **فأما الخمر**: فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أي نوع كان.. **وأما الميسر**: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد، والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية، بعوض سوىٰ، مسابقة الخيل، والإبل، والسهام، فإنها مباحة، لكونها معينة علىٰ الجهاد، فلهذا رخص فيها الشارع.

٢ - ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ **كان هذا البيان زاجرا للنفوس عنهما**، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، **ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة، قدم هذه الآية**

مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مُّنتَهُونَ﴾ وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: (انتهينا انتهينا).

٣- ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ ﴾ **ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم**، ولا يكلفهم ما يشق عليهم، ذلك بأن الله تعالىٰ لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا، أو تكليفا لنا بما يشق بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا ولإخواننا فيستحق علىٰ ذلك أتم الحمد.

﴿.. وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾ [البقرة:٢٢٠]

﴿.. وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾ لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء] شق ذلك علىٰ المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامىٰ، خوفا علىٰ أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك..

﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ فأخبرهم تعالىٰ أن المقصود إصلاح أموال اليتامىٰ، بحفظها وصيانتها، والاتجار فيها..

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ ﴾ وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز علىٰ وجه لا يضر باليتامىٰ، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه..

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ ﴾ والمرجع في ذلك إلىٰ النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلىٰ أكلها وتناولها، فذلك الذي حُرِّجَ وَأُثِّمَ، و**(الوسائل لها أحكام المقاصد)**.. **وفي هذه الآية دليل علىٰ جواز أنواع المخالطات**، في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة، لطف من الله تعالىٰ

وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا فـ..

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ شق عليكم بعدم الرخصة بذلك، فحرجتم، وشق عليكم وأثمتم..

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء، ولكنه مع ذلك..

﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠] لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة، وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، **فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها**، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه، تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئا عبثا، **بل لا بد له من حكمة، عرفناها أم لم نعرفها**، وكذلك لم يشرع لعباده شيئا مجردا عن الحكمة، **فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة**، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حكمته ورحمته.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١]

﴿وَلَا تَنكِحُوا﴾ النساء..

﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ ما دمن على شركهن..

﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خيرٌ من المشركة، ولو بلغت من الحسن ما بلغت.. **وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة، في إباحة نساء أهل الكتاب** كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]..

﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه.. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة، لمن خالفهما في الدين فقال..

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ﴾ في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو

الشقاء الأبدي..

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة، التي من آثارها، دفع العقوبات وذلك بالدعوة إلىٰ أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح..

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أحكامه وحكمها..

﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ [البقرة:٢٢١] فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتثال لما ضيعوه.

📖 الفـوائـد

١- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ ﴾ يستفاد من تعليل الآية: **النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع؛** لأنه إذا لم يجز التزوج مع أن فيه مصالح كثيرة، فالخلطة المجردة من باب أولىٰ، وخصوصا الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه علىٰ المسلم، كالخدمة ونحوها.

٢- وفي قوله: ﴿ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ دليل علىٰ اعتبار الولي في النكاح.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾ [البقرة:٢٢٢-٢٢٣]

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ﴾ يخبر تعالىٰ عن سؤالهم عن المحيض، وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض، كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقا كما يفعله اليهود؟..

﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾ فأخبر تعالىٰ أن الحيض أذىٰ، وإذا كان أذىٰ، **فمن الحكمة أن يمنع الله تعالىٰ عباده عن الأذىٰ وَحدَه**، ولهذا قال..

﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي: مكان الحيض، وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا هو المحرم إجماعـًا، **وتخصيص الاعتزال في المحيض يدل علىٰ أن مباشرة الحائض**

وملامستها، **في غير الوطء في الفرج جائز**.. لكن قوله..

﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ يدل على أن **المباشرة فيما قرب من الفرج**، وذلك فيما بين السرة والركبة، **ينبغي تركه** كما كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض، أمرها أن تتزر، فيباشرها.. **وَحَدَّ هذا الاعتزال** وعدم القربان للحُيَّض ﴿حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ أي: **ينقطع دمهن**، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، **الذي كان لحله شرطان، انقطاع الدم، والاغتسال منه، فلما انقطع الدم، زال الشرط الأول وبقي الثاني**، فلهذا قال..

﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾ أي: اغتسلن..

﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ **في القبل لا في الدبر**، لأنه محل الحرث.. ولما كان هذا المنع لطفا منه تعالى بعباده، وصيانة عن الأذى قال تعالى..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من ذنوبهم على الدوام..

﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ المتنزهين عن الآثام، **وهذا يشمل التطهر الحسي** من الأنجاس والأحداث، **ففيه مشروعية الطهارة مطلقا، لأن الله يحب** المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقا شرطا لصحة الصلاة والطواف، وجواز مس المصحف، **ويشمل التطهر المعنوي** عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة، والأفعال الخسيسة..

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ مقبلة ومدبرة، غير أنه لا يكون إلا في القبل، لكونه موضع الحرث، وهو الموضع الذي يكون منه الولد..

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، **ومن ذلك أن يباشر** الرجل امرأته، **ويجامعها على وجه القربة** والاحتساب، وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم، كونوا ملازمين لتقوى الله، مستعينين بذلك..

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ لعلمكم ﴿أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها.. ثم قال..

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾ [البقرة:٢٢٢-٢٢٣] لم يذكر المبشَّرَ به **ليدل على العموم**، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضير رُتِّب على الإيمان فهو داخل في هذه البشارة.

📖 **الفـوائـد**

١- ﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ فيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض، وأن انقطاع الدم، شرط لصحته.

٢- ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ ﴾ فيه دليل على تحريم الوطء في الدبر، لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث، وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في تحريم ذلك، ولعن فاعله.

٣- ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فيها محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرهم، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾ [البقرة:٢٢٤]

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ المقصود من اليمين والقسم: تعظيم المقسم به، وتأكيد المقسم عليه، وكان الله تعالىٰ قد **أمر بحفظ الأيمان**، وكان مقتضىٰ ذلك حفظها في كل شيء، ولكن الله تعالىٰ **استثنىٰ من ذلك** إذا كان البر باليمين يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فنهىٰ عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أي: مانعة وحائلة..

﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ عن أن يبروا: أن (أي) يفعلوا خيرا..

﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أو يتقوا شرًا..

﴿وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أو يصلحوا بين الناس.. فمن حلف علىٰ ترك واجب **وجب حنثه**، وحرم إقامته علىٰ يمينه، ومن حلف علىٰ ترك مستحب، **استحب له الحنث**، ومن حلف علىٰ فعل محرم، **وجب الحنث**، أو علىٰ فعل مكروه **استحب الحنث**، وأما المباح فينبغي فيه **حفظ اليمين عن الحنث**.. ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال..

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات.. ومنه سماعه لأقوال الحالفين..

﴿عَلِيمٞ ٢٢٤﴾ [البقرة:٢٢٤] بالمقاصد والنيات.. ومنه علمه بمقاصد الحالفين هل هي خير أم شر.

🕮 الفـوائـد

١ - يستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه (إذا تزاحمت المصالح، قُدِّم أهمها) فهنا تتميم اليمين مصلحة، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك.

٢ - ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم، قد استقر علمها عنده.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٢٥]

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية، التي يتكلم بها العبد، من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: (لا والله) و(بلى والله) وكحلفه على أمر ماض يظن صِدْقَ نفسه..

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه..

﴿حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٢٥] بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر وصفح، مع قدرته عليه، وكونه بين يديه.

🕮 الفـوائـد

في هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٢٧]

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة في أمر خاص، وهو حلف الزوج على ترك وطء زوجته مطلقا، أو مقيداً بأقل من أربعة أشهر أو

أكثر.. فمن آلىٰ من زوجته خاصة، **فإن كان لدون أربعة أشهر**، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حنث كَفَّر، وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل، لأنه مَلَكَه أربعة أشهر.. **وإن كان أبدا، أو مدة تزيد علىٰ أربعة أشهر**: ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه، إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة، وهو الوطء، فإن وطئ، فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع، أجبر علىٰ الطلاق، فإن امتنع، طلق عليه الحاكم، ولكن الفيئة والرجوع إلىٰ زوجته أحب إلىٰ الله تعالىٰ، ولهذا قال..

﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا إلىٰ ما حلفوا علىٰ تركه، وهو الوطء..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم..

﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك.. ورحيم بهم أيضا حيث فاءوا إلىٰ زوجاتهم، وحنوا عليهن ورحموهن..

﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ امتنعوا من الفيئة، فكان ذلك دليلا علىٰ رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهم، وهذا لا يكون إلا عزما علىٰ الطلاق، فإن حَصَل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٢٧] فيه وعيد وتهديد، لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

🕮 الفـوائـد

يستدل بهذه الآية:

١- علىٰ أن الإيلاء، خاص بالزوجة، لقوله: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾.

٢- وعلىٰ وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة، يجبر إما علىٰ الوطء، أو علىٰ الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبا.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ

أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٢٨]

﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ﴾ **النساء اللاتي طلقهن أزواجهن..**

﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ **ينتظرن ويعتددن مدة..**

﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ **أي: حيض، أو أطهار علىٰ اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القرء الحيض..**

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ﴾ **ولهذه العدةِ عِدّةُ حِكَمٍ، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة الأقراء، علم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يفضي إلىٰ اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالىٰ عليهن الإخبار عن..**

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ وحرم عليهن كتمان ذلك **من حمل أو حيض،** لأن كتمان ذلك يفضي إلىٰ مفاسد كثيرة، **فكتمان الحمل** موجب أن **تلحقه** بغير من هو له، رغبة فيه واستعجالا لانقضاء العدة، فإذا ألحقته بغير أبيه **حصل** من قطع الرحم والإرث واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، **وربما** تزوج ذوات محارمه، **وحصل** في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبوت توابع ذلك، من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، **وفي ذلك من الشر** والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، **ولو لم يكن في ذلك إلا** إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، **وفيه الإصرار علىٰ الكبيرة** العظيمة، وهي الزنا لكفىٰ بذلك شرا..

وأما كتمان الحيض، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها، **وإباحتها لغيره** وما يتفرع عن ذلك من الشر، كما ذكرنا، **وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدة، فتأخذ منه نفقة** غير واجبة عليه، بل هي **سحت عليها محرمة من جهتين:** من كونها **لا تستحقه**، ومن كونها **نسبته إلىٰ حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة، فيكون ذلك سفاحا**، لكونها أجنبية عنه، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾..

﴿إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ **فصدور الكتمان منهن دليل علىٰ عدم إيمانهن بالله**

واليوم الآخر، وإلا فلو آمنّ بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلىٰ نكاحهن..

﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ رغبة وألفة ومودة.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَلَهُنَّ﴾ وللنساء علىٰ بعولتهن من الحقوق واللوازم..

﴿مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة..

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلىٰ المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص والعوائد..

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرىٰ والكبرىٰ، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعفا ما لها في كثير من الأمور، كالميراث ونحوه..

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته..

﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٢٨] في تصرفه.

📖 الفوائد

١- في ذلك دليل علىٰ **قبول خبر المرأة**، عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه (ونحوهما).

٢- مفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح، فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن، لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها.

٣- وهل يملك ذلك، مع هذا القصد؟ فيه قولان: الجمهور علىٰ أنه يملك ذلك، مع

التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح، لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة.

٤- وهذه حكمة أخرىٰ في هذا التربص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم علىٰ فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروىٰ بها ويقطع نظره.

٥- وهذا يدل علىٰ محبته تعالىٰ، للألفة بين الزوجين، وكراهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلىٰ الله الطلاق»(١).

٦- وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن، فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا علىٰ التراجع، فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

٧- ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ في هذا دليل علىٰ أن النفقة والكسوة، والمعاشرة، والمسكن، وكذلك الوطء، الكل يرجع إلىٰ المعروف، فهذا موجب العقد المطلق، وأما مع الشرط، فعلىٰ شرطهما، إلا شرطا أحل حراما، أو حرم حلالا.

٨- يخرج من عموم هذه الآية، **الحوامل**، فعدتهن وضع الحمل، **واللاتي لم يدخل بهن**، فليس لهن عدة، **والإماء**، فعدتهن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، **وسياق الآيات (الآية) يدل علىٰ أن المراد بها الحرة.**

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٢٩]

كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارتها، طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبدا، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالىٰ أن..

(١) أخرجه أبو داود في [سننه/ ٢١٧٩] وغيره من طريق محارب بن دثار عن ابن عمر مرفوعـًا، وفي [٢١٧٧] عن محارب مرسلاً، وهو ما رجحه أبو حاتم والبيهقي، [التلخيص/ ٣/ ٤١٧]، والدارقطني [العلل/ ١٣/ ٢٢٥].

﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ الذي تحصل به الرجعة..

﴿مَرَّتَانِۖ﴾ ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها، فليس محلا لذلك، لأن من زاد علىٰ الثنتين، فإما متجرئ علىٰ المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالىٰ الزوج، أن يمسك زوجته..

﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ عشرة حسنة، ويجري مجرىٰ أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح..

﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾ وإلا يسرحها ويفارقها..

﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ ومن الإحسان أن لا يأخذ علىٰ فراقه لها شيئا من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال..

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها، لخلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه..

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة.. **وفي هذا مشروعية الخلع**، إذا وجدت هذه الحكمة..

﴿تِلۡكَ﴾ أي ما تقدم من الأحكام الشرعية..

﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أحكامه التي شرعها لكم..

﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ وأمر بالوقوف معها..

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة:٢٢٩] وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدىٰ منه إلىٰ الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟ **والظلم ثلاثة أقسام**: ظلم العبد **فيما بينه وبين الله**، وظلم العبد **الأكبر** الذي هو الشرك، وظلم العبد **فيما بينه وبين الخلق**، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئا، والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ [البقرة:٢٣٠]

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الطلقة الثالثة..

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ نكاحـاً صحيحـاً، ويطؤها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحـاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.. ويشترط (ويتعين) أن يكون نكاحُ الثاني نكاحَ رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل.. ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزوج..

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ فإذا تزوجها الثاني راغبـاً ووطئها، ثم فارقها وانقضت عدتها..

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ﴾ علىٰ الزوج الأول والزوجة..

﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يجددا عقداً جديداً بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل علىٰ اعتبار التراضي..

﴿إِن ظَنَّآ﴾ ولكن يشترط في التراجع أن يظنا..

﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما علىٰ عشرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزمـاً أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.. **ومفهوم الآية الكريمة**، أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب علىٰ ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحا، لأن جميع الأمور، إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.. **وفي هذا دلالة علىٰ** أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور -خصوصا الولايات الصغار، والكبار- نظر في نفسه (أن ينظر)، فإن رأىٰ من نفسه قوة علىٰ ذلك، ووثق بها، أقدم، وإلا أحجم.. ولما بين تعالىٰ هذه الأحكام العظيمة قال..

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ شرائعه التي حددها وبينها ووضحها..

﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ [البقرة:٢٣٠] لأنهم هم المنتفعون بها، النافعون لغيرهم.. **وفي هذا من فضيلة أهل العلم** ما لا يخفىٰ، لأن الله تعالىٰ جعل تبيينه لحدوده خاصا بهم، وأنهم المقصودون بذلك.. وفيه أن الله تعالىٰ يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل علىٰ رسوله والتفقه بها.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة:٢٣١]

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ طلاقًا رجعيًا بواحدة أو ثنتين..

﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن انقضاء عدتهن..

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ إمَّا أن تراجعوهن، ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال..

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ مضارة بهن..

﴿لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾ في فعلكم هذا الحلال إلىٰ الحرام، فالحلال: الإمساك بمعروف، والحرام: المضارة..

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق، **فالضرر عائد إلىٰ من أراد الضرار..**

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ لما بيَّن تعالىٰ حدوده غايةَ التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها، وعدم مجاوزتها؛ لأنه تعالىٰ لم ينزلها عبثًا، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، **نهىٰ عن اتخاذها هزوا، أي: لعبا بها**، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، **مثل: استعمال المضارة في الإمساك أو** الفراق، **أو** كثرة الطلاق، **أو** جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة، رفقًا به وسعيًا في مصلحته..

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عمومًا **باللسان** ثناءً وحمدًا، **وبالقلب** اعترافًا وإقرارًا، **وبالأركان** بصرفها في طاعة الله..

﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة، اللذين بيّن لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعرفكم نفسه، ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلمكم ما

لم تكونوا تعلمون.. **وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة**، فالكتاب فيه الحُكم، والحِكمة **فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه**.. وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال..

﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة؛ لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو الترهيب، فالحكم به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم..

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة:٢٣١] فلهذا بيّن لكم هذه الأحكام بغاية الإحكام والإتقان التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان، فله الحمد والمنة.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾ [البقرة:٢٣٢]

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة وأراد زوجها أن ينكحها، ورضيت بذلك، فلا يجوزُ لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزوج به، حُنقًا عليه وغضبًا واشمئزازاً لِما فَعَل مِنَ الطلاق الأول..

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من العضل..

﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ فإن ذلك أزكىٰ لكم وأطهر وأطيب مما يظن الولي أن عدم تزويجه هو الرأي واللائق، وأنه يقابل بطلاقه الأول بعدم التزويج له (بعدم تزويجه) كما هو عادة المترفعين المتكبرين..

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾ [البقرة:٢٣٢] فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه، فالله ﴿يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مريد لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.

📖 **الفـوائـد**

في هذه الآية، دليل على أنه **لا بد من الولي في النكاح**، لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة:٢٣٣]

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، تنزيلا له منزلة المتقرر، الذي لا يحتاج إلى أمر بأن ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾.. ولما كان الحول، يطلق على الكامل، وعلى معظم الحول قال..

﴿كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ فإذا تم للرضيع حولان، فقد تم رضاعه، وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر، لا يحرم..

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي: الأب..

﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب رزقها، أي: نفقتها وكسوتها، وهي الأجرة للرضاع..

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم يجد شيئا بالنفقة حتى يجد..

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، إما أن تمنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة..

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ﴾ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر..

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ علىٰ وارث الطفل -إذا عدم الأب وكان الطفل ليس له مال- مثل ما علىٰ الأب من النفقة للمرضع والكسوة..

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ الأبوان..

﴿فِصَالًا﴾ فطام الصبي قبل الحولين..

﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ بأن يكونا راضيين..

﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ فيما بينهما، هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا..

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في فطامه قبل الحولين..

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم علىٰ غير وجه المضارة..

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ للمرضعات..

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة] فمجازيكم علىٰ ذلك بالخير والشر.

الفـوائـد

١- ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ يؤخذ من هذا النص، ومن قوله تعالىٰ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأنه يمكن وجود الولد بها.

٢- ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ دل هذا، علىٰ أنها إذا كانت في حباله لا يجب لها أجرة، غير النفقة والكسوة، وكل بحسب حاله، فلهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٣- دل قوله: ﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾ أن الولد لأبيه، لأنه موهوب له، ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله، رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

٤- ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ دل علىٰ وجوب نفقة الأقارب المعسرين علىٰ القريب الوارث الموسر.

٥- دلت الآية بمفهومها، علىٰ أنه إن رضي أحدهما دون الآخر، أو لم يكن مصلحة للطفل، أنه لا يجوز فطامه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة:٢٣٤]

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ **إذا توفي الزوج**، مكثت زوجته، متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام، وجوبا.. **والحكمة** في ذلك ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس.. **وهذا العام مخصوص بالحوامل**، فإن عدتهن بوضع الحمل، **وكذلك الأمة**، عدتها علىٰ النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام..

﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ **انقضت عدتهن**..

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من مراجعتها للزينة والطيب.. **وفي خطابه** للأولياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ **دليل علىٰ أن الولي ينظر علىٰ** المرأة، **ويمنعها** مما لا يجوز فعله، **ويجبرها** علىٰ ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، **واجب عليه**..

﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ علىٰ وجه غير محرم ولا مكروه.. **وفي هذا وجوب الإحداد -مدة العدة- علىٰ المتوفىٰ عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارِقات**، وهو مجمع عليه بين العلماء.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة:٢٣٤] عالم بأعمالكم، ظاهرِها وباطِنها، جليلِها وخفيِّها، فمجازيكم عليها.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ [البقرة:٢٣٥]

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة، أو المبانة في الحياة، **فيحرم علىٰ غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة**، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ **وأما التعريض، فقد أسقط تعالىٰ فيه الجناح**..

والفرق بينهما: أن التصريح: لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم، خوفا من استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها، رغبة في النكاح، **ففيه دلالة علىٰ منع وسائل المحرم**، وقضاء لحق زوجها الأول، بعدم مواعدتها لغيره مدة عدتها..

وأما التعريض: وهو الذي يحتمل النكاحَ وغيره، **فهو جائز للبائن** كأن يقول لها: إني أريد التزوج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه..

وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد..

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ وأما عقد النكاح فلا يحل..

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ﴾ تنقضي العدة..

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾ فانووا الخير، ولا تنووا الشر، خوفـًا من عقابه ورجاء لثوابه.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن صدرت منه الذنوب، فتاب منها، ورجع إلىٰ ربه..

﴿حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة:٢٣٥] حيث لم يعاجل العاصين علىٰ معاصيهم، مع قدرته عليهم.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦]

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ﴾ ليس عليكم يا

معشر الأزواج جناح وإثم، بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسرٌ لها، فإنه ينجبر بالمتعة..

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئا من المال، جبراً لخواطرهن..

﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ أي: المعسر..

﴿قَدَرُهُۥ﴾ وهذا يرجع إلىٰ العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال ولهذا قال..

﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا﴾ فهذا حق واجب..

﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦] ليس لهم أن يبخسوهن، فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة.. **فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي**، وأدله علىٰ حكمة شارعه ورحمته ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]؟.. فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر.. ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال..

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة:٢٣٧]

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ إذا طلقتم النساء قبل المسيس..

﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وبعد فرض المهر..

﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه، هذا هو الواجب..

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها..

﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهو الزوج علىٰ الصحيح [1]؛ لأنه الذي بيده حل

---

(١) جاء في هامش أما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، وهو الأصح لمساعدة اللفظ له =

عقدته؛ ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل.. ثم رغب في العفو..

﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وأن من عفا، كان أقرب لتقواه؛ لكونه إحسانا موجبا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسىٰ الفضل الذي هو أعلىٰ درجات المعاملة، لأن **معاملة الناس فيما بينهم علىٰ درجتين**: إما عدل وإنصاف واجب، وهو: أخذ الواجب، وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، **فلا ينبغي للإنسان أن ينسىٰ هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات**..

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ وخصوصـًا لمن بينك وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة:٢٣٧]..

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة:٢٣٨-٢٣٩]

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ يأمر بالمحافظة علىٰ الصلوات عمومًا وعلىٰ الصلاة الوسطىٰ، وهي العصر خصوصًا، **والمحافظة عليها** أداؤها بوقتها وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع ما لها من واجب ومستحب، **وبالمحافظة علىٰ الصلوات تحصل** المحافظة علىٰ سائر العبادات، **وتفيد** النهي عن الفحشاء والمنكر خصوصًا إذا أكملها.. كما أمر بقوله..

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ ذليلين خاشعين، **ففيه الأمر** بالقيام والقنوت، **والنهي** عن

= والمعنىٰ كما هو ظاهر للمتدبر). وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة).اهـ من هامش المطبوع الأصل.

الكلام، **والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة**..

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لم يذكر ما يخاف منه؛ ليشمل الخوف من كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع المخاوف، أي: إن خفتم بصلاتكم على تلك الصفة..

﴿فَرِجَالًا﴾ فصلوها ﴿رِجَالًا﴾ أي: ماشين على أقدامكم..

﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، **وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها**، حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل، بل أوجب من صلاتها مطمئنا خارج الوقت..

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ زال الخوف عنكم..

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر، ومنه الصلاة على كمالها وتمامها..

﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة:٢٣٨-٢٣٩] **فإنها نعمة عظيمة ومنة** جسيمة، تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر، ليبقي نعمته عليكم، ويزيدكم عليها.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة:٢٤٠]

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ الأزواج الذين يموتون، ويتركون خلفهم أزواجا، فعليهم أن يوصوا..

﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ يوصون أن يلزمن بيوتهم مدة سنة لا يخرجن منها..

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من أنفسهن..

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء..

﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ من مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك.. **وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة بما قبلها** وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا

﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤].. **وقيل**: لم تنسخها، بل الآية الأولىٰ دلت علىٰ أن أربعة أشهر وعشر واجبة، وما زاد علىٰ ذلك فهي مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق الزوج، ومراعاة للزوجة، **والدليل علىٰ أن ذلك مستحب**: أنه هنا نفىٰ الجناح عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل الحول، فلو كان لزوم المسكن واجبا لم ينف الحرج عنهم..

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠﴾ [البقرة: ٢٤٠]..

﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾ [البقرة: ٢٤١-٢٤٢]

﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ﴾ لكل مطلقة..

﴿مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ متاع بالمعروف حقا علىٰ كل متق، جبرا لخاطرها، وأداء لبعض حقوقها.. **وهذه المتعة واجبة علىٰ من طلقت قبل المسيس، والفرض سنة في حق غيرها** كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها.. **وقيل: إن المتعة واجبة علىٰ كل مطلقة**، احتجاجا بعموم هذه الآية، **ولكنَّ القاعدة أن المطلق محمول علىٰ المقيّد، وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل الفرض والمسيس خاصة**.. ولما بيّن تعالىٰ هذه الأحكام العظيمة المشتملة علىٰ الحكمة والرحمة امتن بها علىٰ عباده فقال..

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾ [البقرة: ٢٤١-٢٤٢] لعلكم تعقلونها، فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها.

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٣-٢٤٥]

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ يقص تعالىٰ علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم علىٰ كثرتهم، واتفاق مقاصدهم..

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن **لا يغني حذر عن قدر**..

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فماتوا..

﴿ثُمَّ﴾ **إن الله تعالىٰ**..

﴿أَحْيَٰهُمْ﴾ إما بدعوة نبي، أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفا وحلما، وبيانا لآياته لخلقه بإحياء الموتىٰ، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم..

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكرا، بل ربما استعانوا بنعم الله علىٰ معاصيه..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقر بها ويصرفها في طاعة المنعم.. **ثم أمر تعالىٰ بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه**، فقال..

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأحسنوا نياتكم، واقصدوا بذلك وجه الله..

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئا، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، **ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر**، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك.. **ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة**، وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالىٰ بالإنفاق في سبيله ورغَّب فيه، وسمَّاه قرضا فقال:..

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصـًا في الجهاد..

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالىٰ..

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ الحسنة بعشرة أمثالها، إلىٰ سبع مائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، بحسب حالة المنفق، ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها، ولما كان الإنسان

ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالىٰ هذا الوهم بقوله..

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ يوسع الرزق علىٰ من يشاء ويقبضه عمن يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، **فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع علىٰ أهله،** بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملا موفرا مضاعفا، فلهذا قال..

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة:٢٤٣-٢٤٥] فيجازيكم بأعمالكم.

🕮 الفوائد

١- في هذه الآيات دليل علىٰ أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصًا الأسباب التي تترك بها أوامر الله.

٢- وفيها: الآيةُ العظيمةُ بإحياء الموتىٰ أعيانًا في هذه الدار.

٣- وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحاثة عليه، من تسميته قرضا، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ [البقرة:٢٤٦- ٢٤٨]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يقص تعالىٰ علىٰ نبيه قصة الملأ من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملأ بالذكر لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا، فيتبعهم غيرهم علىٰ ما يرونه..

﴿مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ وذلك أنهم أتوا إلىٰ نبي لهم بعد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالوا له..

﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ عيِّن لنا ملكا..

﴿نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليجتمع متفرقنا، ويقاوم بنا عدونا، **ولعلهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت**، كل بيت لا يرضىٰ أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصا لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة..

﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم..

﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ لعلكم تطلبون شيئا وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، **فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها**، واعتمدوا علىٰ عزمهم ونيتهم، فـ..

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرارينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، **ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقوَ توكلهم علىٰ ربهم**..

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ فجبنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولىٰ علىٰ أكثرهم الخور والجبن..

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فعصمهم الله وثبتهم وقوىٰ قلوبهم، فالتزموا أمر الله، ووطنوا أنفسهم علىٰ مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهذا قال..

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ مجيبًا لطلبهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ فكان هذا تعيينا من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فـ..

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا﴾ كيف يكون مَلِكًا وهو دوننا في الشرف والنسب..

﴿وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، **وهذا بناء منهم علىٰ ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال**، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فلهذا..

﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ فلزمكم الانقياد لذلك..

﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ فضَّله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي والجسم، **اللذين بهما تتم أمور الملك**، لأنه إذا تم رأيه وقوي علىٰ تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، **ومتىٰ فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر**، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، قوة علىٰ غير حكمة، ولو كان عالما بالأمور وليس له قوة علىٰ تنفيذها لم يفده الرأي الذي لا ينفذه شيئا..

﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحدا عن أحد، ولا شريفا عن وضيع، ولكنه مع ذلك..

﴿عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، **فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة**؛ لتبيينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد..

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ ثم ذكر لهم نبيهم أيضا آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زمانا طويلا..

﴿فِيهِ﴾ وفي ذلك التابوت..

﴿سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ سكينة تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم..

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وفيه بقية مما ترك آل موسىٰ وآل هارون..

﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانا..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ [البقرة:٢٤٦-٢٤٨]..

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥٢]

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ لما تملَّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك، تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عددا كثيرا وجما غفيرا، امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك، ف..

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ فهو عاص، ولا يتبعنا؛ لعدم صبره وثباته، ولمعصيته..

﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ لم يشرب منه..

﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل علىٰ أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان..

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فعصىٰ أكثرهم، وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا علىٰ أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم، **وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل علىٰ عدم صبرهم علىٰ القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلا علىٰ الله**، وتضرعا واستكانة، وتبرؤا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقلتهم وكثرة عدوهم، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ أي: النهر..

﴿هُوَ﴾ طالوت..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وهم الذين أطاعوا أمر الله، ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا قلتهم وكثرة أعدائهم..

﴿قَالُواْ﴾ قال كثير منهم..

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ لكثرتهم وعَددهم وعُددهم..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مُثَبِّتِينَ لِبَاقِيهِم، ومُطمْئِنينَ لخواطرهم، وآمرين لهم بالصبر..

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادته ومشيئته، فالأمر لله تعالىٰ، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تُغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره..

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، **فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله**، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثَّرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده..

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ﴾ جميعهم..

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر..

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عن التزلزل والفرار..

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ من هاهنا نعلم أن **جالوت وجنوده كانوا كفارا**، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونَصَرهم عليهم..

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان مع جنود طالوت..

﴿جَالُوتَ﴾ باشر قتل ملك الكفار بيده؛ لشجاعته وقوته وصبره..

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ آتىٰ اللهُ داودَ..

﴿ٱلْمُلْكَ﴾ منَّ عليه بتملكه علىٰ بني إسرائيل..

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة علىٰ الشرع العظيم، والصراط المستقيم، ولهذا قال..

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من العلوم الشرعية، والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالىٰ اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، **وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله**، فلو لم يكن لم يحصل ذلك، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار..

﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالىٰ، وإظهار دينه..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم، والمدافعة عنهم، ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها.. ثم قال تعالىٰ..

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق الذي لا ريب فيها، المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور..

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥٢] فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفين والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم، التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم، بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقا ونبيه صدقا الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره المشركون.

🕮 الفـوائـد

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب:

١- فمنها: أن **اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد** وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجعوا نبيهم في تعيين مَلك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم.

٢- ومنها: أن **الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحا**، وتميز، وحصل به اليقين التام، كما جرىٰ لهؤلاء، لما اعترضوا علىٰ استحقاق طالوت للملك، أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع، وزوال الشبه والريب.

٣- ومنها: أن **العلم والرأي مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات**، وبفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها.

٤- ومنها: أن **الاتكال علىٰ النفس سبب الفشل** والخذلان، **والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول**: كما في قولهم لنبيهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، **والثاني**: في قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٥- ومنها: أن من **حكمة الله تعالىٰ تمييز الخبيث من الطيب**، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد علىٰ ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز.

٦- ومنها: **أن من رحمته وسننه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين**، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣]

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ﴾ يخبر تعالىٰ أنه فضل بعض الرسل علىٰ بعض **بما خصهم من بين سائر الناس** بإيحائه، وإرسالهم إلىٰ الناس، ودعائهم الخلق إلىٰ الله، **ثم فضل بعضهم علىٰ بعض** بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فـ..

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ فمنهم من كلمه الله كموسىٰ بن عمران خصه بالكلام..

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ ومنهم من رفعه علىٰ سائرهم درجات، كنبينا ﷺ، الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين..

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات علىٰ نبوته، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه..

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ بالإيمان واليقين الذي أيده به الله، وقواه علىٰ ما أمر به، وقيل أيده بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يلازمه في أحواله..

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الموجبة للاجتماع علىٰ الإيمان..

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة..

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، **فدل ذلك علىٰ أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة**، فإذا وجدت اضمحلَّ كلُّ سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣] فإرادته غالبة ومشيئته نافذة، **وفي هذا ونحوه دلالة علىٰ أن الله تعالىٰ لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله** ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، **والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية.**

📖 الفـوائـد

كما يجب على المكلف معرفته بربه، **فيجب عليه معرفته برسله،** ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها:

١- أنهم رجال لا نساء.

٢- من أهل القرىٰ لا من أهل البوادي.

٣- وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار.

٤- وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية.

٥- وأنهم لا يقرون علىٰ خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف.

٦- وأن الله تعالىٰ خصهم بوحيه.

٧- فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم.

٨- ومن لم يؤمن بهم فهو كافر.

٩- ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله.

ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة:٢٥٤]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخرا وأجرا موفرا..

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ في يوم يحتاج فيه العاملون إلىٰ مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو افتدىٰ الإنسان نفسه بملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه..

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة..

﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ ولا بشفاعة.. وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي علىٰ الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلىٰ الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلىٰ مخلوق مثله، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة:٢٥٤] وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥]

هذه الآية الكريمة **أعظم آيات القرآن** وأفضلها وأجلها؛ وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردًا للإنسان في أوقاته صباحًا ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات..

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبر تعالىٰ عن نفسه الكريمة بأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالىٰ؛ لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقًا أن يكون عبدًا لربه، ممتثلاً أوامره مجتنبًا نواهيه، وكل ما سوىٰ الله تعالىٰ باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوىٰ الله مخلوقًا ناقصًا مدبرًا فقيرًا من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئًا من أنواع العبادة، وقوله..

﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان علىٰ سائر الأسماء الحسنىٰ، دلالة مطابقة وتضمنا ولزوما، **فالحي**: من له الحياة الكاملة **المستلزمة لجميع صفات الذات**، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك.. **والقيوم**: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك **مستلزم لجميع الأفعال** التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء

والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري.. **ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم** الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطىٰ، ومن تمام حياته وقيوميته أن..

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسِنَة النعاس..

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هو المالك وما سواه مملوك، وهو الخالق الرازق المدبِّر وغيره مخلوق مرزوق مُدبَر، لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فلهذا قال..

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالىٰ، ولكنه تعالىٰ إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن، ثم قال..

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما مضىٰ من جميع الأمور..

﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالىٰ محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء، ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالىٰ، ولهذا قال..

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهذا يدل علىٰ **كمال عظمته وسعة سلطانه،** إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض علىٰ عظمتهما وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالىٰ، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تُحيِّر الأفكار وتَكُلُّ الأبصار، وتُقَلقَل الجبال، وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحِكَم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال..

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: يثقله..

﴿حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ **بذاته** فوق عرشه، **العلي بقهره** لجميع المخلوقات، **العلي بقَدْرِهِ** لكمال صفاته..

﴿ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة:٢٥٥] الذي تتضائل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء.

📖 الفوائد

قد اشتملت هذه الآية:

١- علىٰ توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

٢- وعلىٰ إحاطة ملكه وإحاطة علمه، وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه، وعلوه علىٰ جميع مخلوقاته.

٣- فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦﴾ [البقرة:٢٥٦]

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ يخبر تعالىٰ أنه لا إكراه في الدين؛ **لعدم الحاجة إلىٰ الإكراه عليه،** لأن الإكراه لا يكون إلا علىٰ أمر خَفِيَّةٌ أعلامُه، غامضةٌ آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبيَّن أمرُه..

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ وعُرِف الرشد من الغي، فالمُوفَّق إذا نظر أدنىٰ نظر إليه آثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرىٰ الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلىٰ القبيح، **فهذا ليس لله حاجة في إكراهه علىٰ الدين،** لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمُكرَه ليسَ إيمانُه صحيحًا..

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ فيترك عبادة ما سوىٰ الله وطاعة الشيطان..

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ إيمانا تاما أوجب له عبادة ربه وطاعته..

﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي..

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وآمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم..

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة:٢٥٦] فيجازي كلا منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها.. ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

🕮 الفوائد

لا تدل الآية الكريمة على **ترك قتال الكفار** المحاربين، وإنما فيها أن **حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله** لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما **القتال وعدمه فلم تتعرض له**، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر.

ولكن يستدل في الآية الكريمة على **قبول الجزية من غير أهل الكتاب**، كما هو قول كثير من العلماء.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة:٢٥٧]

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه، فلا يبغون عنه بدلًا، ولا يشركون به أحدًا، قد اتخذوه حبيبًا ووليًا، ووالوا أولياءه، وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومنَّ عليهم بإحسانه..

﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلَّمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة، إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليًا، ووالوه، وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلَّطهم عليهم عقوبةً لهم، فكانوا يؤزونهم إلىٰ المعاصي أزًا، ويزعجونهم إلىٰ الشر إزعاجًا..

﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة، إلىٰ ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم علىٰ ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة:٢٥٧]..

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة:٢٥٨]

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ إلىٰ جرائته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حمله علىٰ ذلك إلا..

﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ فطغىٰ وبغىٰ، ورأىٰ نفسه مترئسًا علىٰ رعيته، فحمله ذلك علىٰ أن حاج إبراهيم في ربوبية الله، فزعم أنه يفعل كما يفعل الله..

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ فقال إبراهيم..

﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو المنفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة؛ لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا، والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فـ..

﴿قَالَ﴾ ذلك المحاج..

﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ ولم يقل: (أنا الذي أحيي وأميت)؛ لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصًا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصًا فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا

يصلح أن يكون شبهة فضلًا عن كونه حجة، اطَّرد معه في الدليل فـ..

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ عيانًا يُقرُّ به كلُّ أحد، حتىٰ ذلك الكافر..

﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وهذا إلزام له بطرد دليله، إن كان صادقًا في دعواه..

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ فلما قال له أمرًا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله (بهت الذي كفر) أي: تحيَّر، فلم يرجع إليه جوابًا وانقطعت حجته، وسقطت شبهته.. وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالىٰ..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة:٢٥٨] بل يبقيهم علىٰ كفرهم وضلالهم، **وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك**، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه، ويسر لهم أسباب الوصول إليه.

🕮 الفـوائـد

١- في هذه الآية برهان قاطع علىٰ **تفرد الرب بالخلق والتدبير**.

٢- ويلزم من ذلك أن **يفرد بالعبادة** والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال.

٣- قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جدا، وهي أن **شرك العالم إنما هو مستند إلىٰ عبادة الكواكب والقبور**، ثم صورت الأصنام علىٰ صورها..

فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطالَ إلهية تلك جملةً بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له ربًا قادرًا قاهرًا متصرفًا فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهًا حتىٰ يتخذ الصنم علىٰ صورته، ويعبد من دونه..

وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس وهي مربوبة مدبَّرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله.اهـ (من مفتاح دار السعادة).

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم [٣/ ١٤٠١- ط عالم الفوائد].

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩]

وهذا أيضا دليل آخر علىٰ توحد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال..

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قد باد أهلها، وفني سكانها، وسقطت حيطانها علىٰ عروشها، فلم يبق بها أنيس، بل بقيت موحشة، من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجبًا، و..

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استبعادًا لذلك، وجهلاً بقدرة الله تعالىٰ، فلما أراد الله به خيراً أراه آيةً في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب..

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصارًا لتلك المدة التي مات فيها، لكونه قد زالت معرفته وحواسه، وكان عهد حاله قبل موته..

﴿قَالَ﴾ فقيل له..

﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير، بل بقي علىٰ حاله، علىٰ تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، **ففيه أكبر دليل علىٰ قدرته**؛ حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، **مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادًا..**

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده، وانتثرت عظامه، وتفرقت أوصاله..

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ علىٰ قدرة الله، وبعثِهِ الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجًا محسوسًا مشاهَدًا بالأبصار، فيعلموا بذلك صحةَ ما أخبرتْ به الرسل..

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نُدخِلُ بَعضَها في بعض، ونُركِّب بعضها ببعض..

﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فنظر إليها عيانًا كما وصفها الله تعالىٰ..

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ ذلك وعلم قدرة الله تعالىٰ..

﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩]..

📖 **الفـوائـد**

الظاهر من سياق الآية أن **هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيرًا**، وأن يجعله آية ودليلا للناس لثلاثة أوجه:

أحدها: قوله: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، ولو كان نبيًا أو عبدًا صالحًا لم يقل ذلك.

والثاني: أن الله **أراه آية** في طعامه وشرابه وحماره **ونفسه**؛ ليراه بعينه فيقر بما أنكره، **ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلىٰ حالتها**، ولا في السياق ما يدل علىٰ ذلك، **ولا في ذلك كثير فائدة**، ما الفائدة الدالة علىٰ إحياء الله للموتىٰ في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله.

والثالث: في قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي: تبيَّن له أمرٌ كان يجهله ويخفىٰ عليه، فعُلِم بذلك صحةُ ما ذكرناه، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠]

وهذا فيه أيضا **أعظم دلالة حسية علىٰ قدرة الله وإحيائه الموتىٰ** للبعث والجزاء..

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فأخبر تعالىٰ عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتىٰ، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالىٰ، ولكنه أحب أن يشاهده عيانًا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا..

﴿قَالَ﴾ الله له..

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وذلك أنه **بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان** ويكمل به الإيقان ويسعىٰ في نيله أولو العرفان، فـ..

﴿قَالَ﴾ له ربه..

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ضمهن ليكون ذلك بمرأىٰ منك ومشاهدة وعلىٰ يديك..

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل علىٰ كل جبل من الجبال التي في القرب منه، جزءً من تلك الأجزاء..

﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ تحصل لهن حياةٌ كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك، وحصل له ما أراد.. **وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام] ثم قال..

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾ [البقرة:٢٦٠] ذو قوة عظيمة، سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيءٌ منها، بل هي منقادةٌ لعزته، خاضعةٌ لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالىٰ تابعة لحكمته، لا يفعل شيئًا عبثًا.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة:٢٦١]

هذا بيان **للمضاعفة** التي ذكرها الله في قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وهنا قال..

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله..

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المَثَل، الذي كان العبد يشاهده ببصره، فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، **فيقوىٰ شاهدُ الإيمان مع شاهد العيان**، فتنقاد النفس مذعنةً للإنفاق، سامحةً بها، مُؤَمِّلةً لهذه المضاعفة الجزيلة، والمنةِ الجليلة..

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ هذه المضاعفة..

﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه، وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها.. ويحتمل أن يكون ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ فيعطيهم أجرهم بغير حساب..

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسع الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل، ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة؛ لأن الله تعالىٰ لا يتعاظمه شيء، ولا ينقصه العطاء علىٰ كثرته، ومع هذا فهو..

﴿عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة:٢٦١] بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ [البقرة:٢٦٢]

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله..

﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا﴾ ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المنِّ بها علىٰ المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن **يعدد** عليه إحسانه ويطلب منه **مقابلته**..

﴿وَلَآ أَذٗى﴾ ولا أذية له قولية أو فعلية..

﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم..

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ [البقرة:٢٦٢] فحصل لهم الخير، واندفع عنهم الشر؛ لأنهم عملوا عملاً خالصًا لله، سالمًا من المفسدات.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة:٢٦٣]

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ تعرفه القلوب ولا تنكره، **ويدخل في ذلك**: كلُّ قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، **ويدخل فيه**: رد السائل بالقول الجميل والدعاء له..

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، **ويدخل فيه**: العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي.. فالقول المعروف والمغفرة..

﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ﴾ خير من الصدقة التي يتبعها أذىٰ؛ لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضا بترك المؤاخذة، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذىٰ بمنٍّ أو غيره..

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عنها، ومع هذا فهو..

﴿حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٣] علىٰ من عصاه، لا يعاجله بعقوبة، مع قدرته عليه، ولكنَّ رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرِّف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علمَ تعالىٰ أنَّه لا خيرَ فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيد بهم المَثُلات أنزلَ بهم عقابَه وحَرَمَهُم جزيلَ ثوابِهِ.

🕮 الفوائد

١- مفهوم الآية: أن **الصدقة التي لا يتبعها أذىٰ أفضل** من القول المعروف والمغفرة.

٢- **إنما كان المنّ بالصدقة مفسدًا لها محرمًا:**

• **لأن** المنّة لله تعالىٰ وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمنّ بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه.

• **وأيضا فإنَّ المانَّ مستعبِدٌ لمن يمنُّ عليه**، والذُّل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، **فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم** ونفعها إليكم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ ينهىٰ عباده تعالىٰ -لطفًا بهم ورحمة- عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذىٰ..

﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ **أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر،** فإنَّ المنة والأذىٰ مبطلان لأعمالكم، **فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراءاة الناس،** ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن **عمله من أصله مردود؛** لأن شرط العمل أن يكون لله وحده، وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور..

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ المطابق لحاله..

﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد..

﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر غزير..

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ ليس عليه شيء من التراب، **فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي علىٰ الصفوان،** إذا رآه الجاهل بحاله ظنَّ أنه أرض زكيَّة قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبيَّن أنَّ عمله بمنزلة السراب، وأنَّ قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهذا..

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من أعمالهم..

﴿مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضررًا ولا نفعًا، وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤]..

📖 **الفـوائـد**

١- فيه: أن المنّ والأذىٰ **يبطل الصدقة**.

٢- ويستدل بهذا: علىٰ أن **الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة**، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات]، فكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات.

٣- في هذه الآية مع قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ [محمد]: حثٌّ علىٰ **تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها**، لئلا يضيع العمل سدىٰ.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ [البقرة:٢٦٥]

هذا مثل المنفقين أموالهم علىٰ وجه تزكو عليه نفقاتهم، وتقبل به صدقاتهم فقال تعالىٰ:..

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ **قصدُهم** بذلك رضىٰ ربهم والفوز بقربه..

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ صدر الإنفاق علىٰ وجه منشرحة له النفس سخية به، **لا علىٰ وجه التردد** وضعف النفس في إخراجها.. وذلك أن **النفقة يعرض لها آفتان**: إما أن **يقصد الإنسان بها محمدة** الناس ومدحهم وهو الرياء.. أو **يخرجها علىٰ خور وضعف** عزيمة وتردد.. فهؤلاء سَلِموا من هاتين الآفتين، **فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك** من المقاصد، **وتثبيتا من أنفسهم**، فمثل نفقة هؤلاء..

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾ كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتنان وهو الستر، **لستر أشجارها ما فيها**، وهذه الجنة..

﴿بِرَبْوَةٍ﴾ محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره، فثماره أكثر الثمار وأحسنها، ليست بمحل نازل عن الرياح والشمس، فـ..

﴿أَصَابَهَا﴾ أي: تلك الجنة التي بربوة..

﴿وَابِلٌ﴾ وهو المطر الغزير..

﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾ **تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك**، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها..

﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾ مطر قليل يكفيها لطيب منبتها.. **فهذه حالة المنفقين** أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل علىٰ حسب حاله، وكل ينمىٰ له ما أنفق أتم تنمية وأكملها.. **والمنمي لها** هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها..

فيالله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة، لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتها وشدة نصبها وعنائها..

وهذا الثواب الذي ذكره الله كأنَّ المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر، فيه أنواع المسرات والفرحات.. ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة..

أترىٰ ذلك زهدًا في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه، لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات، ولهذا قال تعالىٰ:..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة:٢٦٥] فيعلم عمل كل عامل، ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ [البقرة:٢٦٦]

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ﴾ وهذا المثل مضروب لمن عمل عملا لوجه الله تعالىٰ من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالاً تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات.. **وخص منها النخل والعنب** لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتا وفاكهة وحلوىٰ..

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ﴾ وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكِبَر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذريةٌ ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كَلٌّ عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة..

﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار، فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قُدِّرَ أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن..

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ [البقرة:٢٦٦] **كذلك من عمل عملا لوجه الله** فإنَّ أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتىٰ يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، **وتلك المفسدات** التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها علىٰ العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباء منثورا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه. والله سريع الحساب..

فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنىٰ مسكة من عقل لم يقدم علىٰ ما فيه مضرته ونهاية حسرته، **ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلىٰ هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا**، فلهذا أمر تعالىٰ بالتفكر وحثَّ عليه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة:٢٦٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ يأمر تعالىٰ عبادَه المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب..

﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكرًا لله وأداءً لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرًا لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم..

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا علىٰ وجه الإغماض والمسامحة..

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم..

﴿حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة:٢٦٧] ومع هذا فهو حميد علىٰ ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦٨﴾ [البقرة: ٢٦٨]

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحًا لكم، بل هذا غاية الغش ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر]..

﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ﴾ بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة علىٰ وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً﴾ لذنوبكم وتطهيرًا لعيوبكم..

﴿وَفَضۡلًاۗ﴾ وإحسانًا إليكم في الدنيا والآخرة، من الخُلُف العاجل، وانشراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة..

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ وليس هذا عظيمًا عليه لأنه ﴿وَٰسِعٌ﴾ الفضل عظيم الإحسان..

﴿عَلِيمٌ ٢٦٨﴾ [البقرة: ٢٦٨] بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، **فلينظر العبد نفسه إلىٰ أي الداعيين يميل.**

🕮 الفـوائـد

فقد تضمنت هاتان الآيتان أمورًا عظيمة:

١- منها: الحث علىٰ الإنفاق.

٢- ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك.

٣- ومنها: وجوب الزكاة من النقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾.

٤- ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن.

٥- ومنها: أن الزكاة علىٰ من له الزرع والثمر لا علىٰ صاحب الأرض، لقوله: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَكُم﴾ فمن أخرجت له وجبت عليه.

٦- ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصوب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربها علىٰ استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدورا عليها فليس فيها هذا المعنىٰ.

٧- ومنها: أن الرديء ينهىٰ عن إخراجه ولا يجزئ في الزكاة.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة:٢٦٩]

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ لما أمر تعالىٰ بهذه الأوامر العظيمة المشتملة علىٰ الأسرار والحكم، وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها.. وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء..

﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وإن من آتاه الله الحكمة..

﴿فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ فقد آتاه خيرا كثيرا، وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما؟!..

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩] ولما كان الله تعالىٰ قد فطر عباده علىٰ عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين: **قسم أجابوا** دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة والعقول التامة، **وقسم لم يستجيبوا** لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

📖 الفوائد

كمال العبد متوقف علىٰ الحكمة، إذ كماله بتكميل قوتيه العلمية والعملية، **فتكميل قوته العلمية** بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، **وتكميل قوته العملية** بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من **الإصابة بالقول والعمل**، وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾ [البقرة:٢٧٠]

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ وهذا فيه المجازاة علىٰ النفقات، واجبها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها..

﴿أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾ والنذور التي ألزمها المكلف نفسه..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ فلا يخفىٰ عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازىٰ عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم..

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾ [البقرة:٢٧٠] وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف ما أوجبه علىٰ نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضىٰ المخلوقات،

فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلهذا قال: ﴿ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١]

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ فتظهروها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله..

﴿فَنِعِمَّا هِىَ ۖ﴾ أي: فنعم الشيء ﴿ هِىَ ۖ ﴾ لحصول المقصود بها..

﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ تسروها..

﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ ولما ذكر تعالىٰ أن الصدقة خير للمتصدق ويتضمن ذلك حصول الثواب قال:..

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ ففيه دفع العقاب..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١] من خير وشر، قليل وكثير والمقصود من ذلك المجازاة.

🕮 الفوائد

١- في هذا أن صدقة السر على الفقير **أفضل من صدقة العلانية**، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء **فمفهوم الآية أن السر ليس خيرا من العلانية**، فيرجع في ذلك إلىٰ المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار.

٢- دل قوله: ﴿ وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ ﴾ علىٰ أنه **ينبغي للمتصدق أن يتحرىٰ بصدقته المحتاجين**، ولا يعطي محتاجًا وغيره أحوج منه.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة:٢٧٢]

﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ ليس عليك هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين.. والهداية بيد الله تعالىٰ.. ففيها دلالة علىٰ أن النفقة كما تكون علىٰ المسلم تكون علىٰ الكافر ولو لم يهتد، فلهذا قال:..

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٍ﴾ قليل أو كثير علىٰ أي شخص كان من مسلم وكافر..

﴿فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ نفعه راجع إليكم..

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالىٰ، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص..

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٍ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم..

﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾ [البقرة: ٢٧٢] أي: تنقصون من أعمالكم شيئًا ولا مثقال ذرة، كما لا يزاد في سيئاتكم.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبًا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة:٢٧٣]

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولىٰ الناس بها، فوصفهم بست صفات: أحدها: الفقر، والثاني: قوله: ﴿أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: قصروها علىٰ طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبوسون له، الثالث: عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال:..

﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سَفَرًا للتكسب، الرابع: قوله:..

﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم..

الخامس: أنه قال:..

﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم.. وهذا لا ينافي قوله: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ﴾، فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرس بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرس فمجرد ما يراهم يعرفهم بعلامتهم.. **السادس**: قوله:..

﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: **إلحاح**، بل إن صدر منهم سؤال -إذا احتاجوا لذلك- لم يلحوا علىٰ من سألوا، فهؤلاء أولىٰ الناس وأحقهم بالصدقات؛ لما وصفهم به من جميل الصفات..

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: ٢٧٣] وأما **النفقة من حيث هي علىٰ أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر**، يثاب عليها صاحبها ويؤجر، فلهذا قال: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.. ثم ذكر **حالة المتصدقين في جميع الأوقات** علىٰ جميع الأحوال فقال:..

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: ٢٧٤]

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم﴾ في سبيل الله، أي: طاعته وطريق مرضاته، لا في المحرمات والمكروهات وشهوات أنفسهم..

﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم..

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إذا خاف المقصرون..

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: ٢٧٤] إذا حزن المفرطون، ففازوا بحصول المقصود المطلوب، ونجوا من الشرور والمرهوب.. ولما كمل تعالىٰ حالة المحسنين إلىٰ عباده بأنواع النفقات، **ذكر حالة الظالمين المسيئين إليهم غاية الإساءة**، فقال..

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥]

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ﴾ يخبر تعالىٰ عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة منقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم..

﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ يصرعه الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارىٰ سكارىٰ مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الوبال.. **ويحتمل** أن يكون قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية **خفت أحلامهم وضعفت آراؤهم، وصاروا في هيئتهم وحركاتهم يشبهون المجانين** في عدم انتظامها، وانسلاخ العقل الأدبي عنهم..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ فكما تقلبت عقولهم، و..

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم **فصارت أحوالهم أحوال المجانين**.. قال الله تعالىٰ رادًا عليهم ومبينًا حكمته العظيمة..

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ لِمَا فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، **وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية** حتىٰ يرد ما يدل علىٰ المنع..

﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة..

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا **علىٰ يد من قيضه الله لموعظته، رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه**..

﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عن فعله وانزجر عن تعاطيه..

﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ ما تقدَّم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة، جزاءً لقبوله للنصيحة.. فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف..

﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره..

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر علىٰ ذلك..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة:٢٧٥]..

📖 الفـوائـد

١- الربا نوعان: **ربا نسيئة** كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال سُلَّم.. **وربا فضل**: وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلا.. وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع علىٰ ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها.

٢- ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ **دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر.**

٣- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ **اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله..**

والأحسن فيها أن يقال: هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحا للخلود فيها بقطع النظر عن كفره.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة:٢٧٦]

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يذهبه ويذهب بركته **ذاتًا ووصفًا**، فيكون سببًا لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه، بل يكون زادًا له إلىٰ النار..

﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ ينميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه، **وينمي أجر صاحبها..**

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ لنعم الله، **لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات**، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله..

﴿أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة:٢٧٦] قد فعل ما هو سبب **لإثمه** وعقوبته.

📖 **الفـوائـد**

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وهذا **لأن الجزاء من جنس العمل**، فإن المرابي قد ظلم الناس، وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٧-٢٧٨]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ لما ذكر أكلة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيمانًا ينفعهم لم يصدر منهم ما صدر، **ذكر حالة المؤمنين وأجرهم**، وخاطبهم بالإيمان..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وأمرهم **أن يتقوه**..

﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ ومن جملة تقواه أن **يذروا ما بقي من الربا**، أي: المعاملات الحاضرة الموجودة..

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٧-٢٧٨] ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين.. وهؤلاء **هم الذين يقبلون موعظة ربهم** وينقادون لأمره.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٩]

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ وأما من **لم ينزجر بموعظة الله** ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له..

﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في محاربة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم، ولا يهمله حتى إذا أخذه أخذ عزيز مقتدر..

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ عن الربا..

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أنزلوا عليها..

﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا..

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٩] بنقص رءوس أموالكم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨٠-٢٨١]

﴿وَإِن كَانَ﴾ المدين..

﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ لا يجد وفاء..

﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتىٰ يجد ما يوفي به..

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ إما بإسقاطها أو بعضها..

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨٠-٢٨١]..

🕮 الفوائد

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن.. **وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي:**

لأن فيها الوعد علىٰ الخير، والوعيد علىٰ فعل الشر، وأن من علم أنه راجع إلىٰ الله فمجازيه علىٰ الصغير والكبير والجلي والخفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرهبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلىٰ ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ

وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة:٢٨٢]

هذه آية الدين، **وهي أطول آيات القرآن**، وقد اشتملت علىٰ أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ **أحدها**: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سَلَم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكرا أحكامها، وذلك يدل علىٰ الجواز..

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ **الثاني والثالث**: أنه لا بد للسَلَم **من أجل**، وأنه لا بد أن يكون **مُعيَّنًا معلومًا**، فلا يصح حالًا، ولا إلىٰ أجل مجهول..

﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ **الرابع**: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات، إما وجوبًا وإما استحبابا؛ لشدة الحاجة إلىٰ كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم..

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ **الخامس**: أمر الكاتب أن يكتب.. **السادس**: أن يكون عدلا في نفسه؛ لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته.. **السابع**: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك.. **الثامن**: أن يكون الكاتب عارفا بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق؛

لأنه لا سبيل إلىٰ العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.. **التاسع**: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا.. **العاشر**: قوله..

﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ﴾: أي: لا يمتنع من منَّ الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتداينين..

﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلىٰ عباد الله المحتاجين إلىٰ كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم..

﴿فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ **الحادي عشر**: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق.. **الثاني عشر**: أن الذي يملي من المتعاقدين مَن عليه الدين..

﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ **الثالث عشر**: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه، ولا يبخس منه شيئا.. **الرابع عشر**: أن إقرار الإنسان علىٰ نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يُملِ علىٰ الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجبه ومضمونه، وهو ما أقر به علىٰ نفسه، ولو ادعىٰ بعد ذلك غلطا أو سهوا.. **الخامس عشر**: أن من عليه حقًا من الحقوق البينة علىٰ مقدارها وصفتها من كثرةٍ وقلَّة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق؛ لأنه تعالىٰ لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول علىٰ ما يقوله من مقدار الحق وصفته.. **السادس عشر**: أنه يحرم علىٰ من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئا من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه..

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ **السابع عشر**: أن من لا يقدر علىٰ إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار.. **الثامن عشر**: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله: ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.. **التاسع عشر**: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق.. **العشرون**: ثبوت الولاية في الأموال.. **الحادي والعشرون**: أن الحق يكون علىٰ الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا علىٰ وليهم.. **الثاني والعشرون**: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم

غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئا؛ لطفا بهم ورحمة، خوفا من تلاف أموالهم.. **الثالث والعشرون:** صحة تصرف الولي في مال من ذكر.. **الرابع والعشرون:** فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتداينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع.. **الخامس والعشرون:** أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم..

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ **السادس والعشرون:** أنه مأمور بالإشهاد علىٰ العقود، وذلك علىٰ وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلىٰ ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين.. **نعم!** إن كان المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجبا..

﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ **السابع والعشرون:** أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضا أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي.. **الثامن والعشرون:** أن شهادة الصبيان غير مقبولة؛ لمفهوم لفظ الرجل.. **التاسع والعشرون:** أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل؛ لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم.. **الثلاثون:** أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ والعبد البالغ من رجالنا.. **الحادي والثلاثون:** أن شهادة الكفار ذكورا كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنىٰ الشهادة علىٰ العدالة وهو غير عدل.. **الثاني والثلاثون:** فيه فضيلة الرجل علىٰ المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين؛ لقوة حفظه ونقص حفظها..

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ **الثالث والثلاثون:** أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.. **الرابع والثلاثون:** يؤخذ من المعنىٰ أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب..

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ **والخامس والثلاثون**: أنه يجب علىٰ الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبىٰ لقوله: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ ﴾.. **السادس والثلاثون**: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة؛ لعدم الفائدة بها؛ ولأنه ليس من الشهداء..

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ﴾ **السابع والثلاثون**: النهي عن السآمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير، وصفة الأجل، وجميع ما احتوىٰ عليه العقد من الشروط والقيود..

﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ **الثامن والثلاثون**: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ ﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر.. **التاسع والثلاثون**: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها، بل لا بد من اليقين.. **الأربعون**: قوله..

﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرا بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلىٰ الكتابة..

﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ **الحادي والأربعون**: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: ﴿ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ ﴾..

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ **الثاني والأربعون**: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعىٰ وقت اشتغال وحصول مشقة عليه.. **الثالث والأربعون**: النهي عن مضارة الشهيد أيضا بأن يُدعىٰ إلىٰ تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا علىٰ جعل قوله: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ ﴾ مبنيا للمجهول.. **وأما علىٰ جعلها مبنيا للفاعل**: ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجرة شاقة ونحو ذلك.. **وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون**..

﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ ﴾ **والسادس والأربعون**: أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ ﴾.. **السابع**

والأربعون: أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ ﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسّاق.. **الثامن والأربعون**: وحقه أن يتقدم علىٰ ما هنا لتقدم موضعه- اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾.. **التاسع والأربعون**: أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضيا معتبرا عند الناس قبلت شهادته.. **الخمسون**: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتىٰ يزكىٰ، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة علىٰ حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، ولله في كلامه حكم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة:٢٨٢]..

﴿۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البقرة:٢٨٣]

﴿۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ إن كنتم مسافرين..

﴿وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق..

﴿فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾ يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتىٰ يأتيه حقه.. **هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه..**

﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ فما كان صاحب الحق آمنا من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلىٰ من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملا غير ظالم له ولا باخس حقه..

﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان..

﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب، ويترتب علىٰ ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البقرة:٢٨٣]..

🕮 الفوائد

١- قد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة: **دلت على: أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم**، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

٢- دل هذا: على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق.

٣- ودل أيضا: على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنت به، كان القول قول المرتهن، **ووجه ذلك**: أن الله جعل الرهن عوضا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنت به لم يحصل المعنى المقصود.

٤- لما كان المقصود بالرهن التوثق **جاز حضرا وسفرا**، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه.

هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه..

٥- قد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة:

دلت على: أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة:٢٨٤]

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكانوا مِلكا له وعبيدا، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وهو ربهم

ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسيحاسبهم علىٰ ما أسروه وأعلنوه..

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو لمن أتىٰ بأسباب المغفرة..

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره..

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤] لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيئته وتقديره وجزائه.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥]

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالىٰ عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة..

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله.. **وهذا يتضمن** الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله علىٰ وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص.. **ويتضمن** الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلا وعلىٰ الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي..

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله..

﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا..

﴿وَأَطَعْنَا﴾ لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالىٰ وهو محتاج إلىٰ مغفرته علىٰ الدوام، قالوا..

﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب..

﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥] أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزيهم بما عملوا من خير وشر.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة:٢٨٦]

لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ شق ذلك علىٰ المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه..

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ لا يكلف نفسا إلا وسعها، أي: أمرا تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨] **فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق علىٰ النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحمية عن الضرر**، فالله تعالىٰ أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحسانا، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم..

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ ثم أخبر تعالىٰ أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرىٰ، ولا تذهب حسنات العبد لغيره.. ولما أخبر تعالىٰ عن إيمان الرسول والمؤمنين معه وأن كل عامل سيجازىٰ بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطيق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قال: «قد فعلت» إجابة لهذا الدعاء، فقال..

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ والفرق بينهما: **أن النسيان**: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسيانا.. **والخطأ**: أن يقصد شيئا يجوز له قصده ثم يقع فعله علىٰ ما لا يجوز له فعله.. فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحسانا..

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ أي: تكاليف مُشِقَّة..

﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ وقد فعل تعالىٰ فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه علىٰ غيرها..

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ وقد فعل وله الحمد..

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور..

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ ربنا ومليكنا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا، فنعمك دارة علينا، متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها..

﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦] فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرنا علىٰ القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض، وتخذلهم، وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر.

🕮 الفـوائـد

١- في الإتيان بـ (كسب) في الخير الدال علىٰ أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنىٰ سعي منه بل بمجرد نية القلب، وأتىٰ بـ (اكتسب) في عمل الشر للدلالة علىٰ أن عمل الشر لا يكتب علىٰ الإنسان حتىٰ يعمله ويحصل سعيه.

٢- ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ فعلىٰ هذا:

- من صلىٰ في ثوب مغصوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة علىٰ بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسيًا، أو فعل مفطرا ناسيا، أو فعل محظورا من محظورات الإحرام التي ليس فيها

إتلاف ناسيا، فإنه معفو عنه.

- وكذلك لا يحنث من فعل المحلوف عليه ناسيا.
- وكذلك لو أخطأ فأتلف نفسا أو مالا فليس عليه إثم.
- وإنما الضمان مرتب علىٰ مجرد الإتلاف.
- وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسيا لم يضر.

والحمد لله رب العالمين

تم تفسير سورة (البقرة) بعون الله وتوفيقه

وصلىٰ الله علىٰ محمد وسلم

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

نزل صدرها إلىٰ بضع وثمانين آية في **مخاصمة النصارىٰ** وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلىٰ الدخول في الدين الحق دين الإسلام..

كما نزل صدر البقرة في **محاجة اليهود** كما تقدم..

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران:١-٦]

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ **افتتحها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالإخبار بألوهيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل.. والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلىٰ الحياة والقيومية، ف..**

﴿ٱلۡحَيُّ﴾ من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام، و..

﴿ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ **الذي قام بنفسه فاستغنىٰ عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره فافتقرت إليه** جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي **قام بتدبير الخلائق** وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح.. **ومن قيامه تعالىٰ بعباده ورحمته بهم أن..**

﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها..

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه..

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب السابقة، فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود.. وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون.. وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإنَّ كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى..

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ على موسى..

﴿وَٱلۡإِنجِيلَ ٣﴾ على عيسى..

﴿مِن قَبۡلُ﴾ إنزال القرآن..

﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله..

﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ أي: الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصَّل وفسَّر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلهذا قال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد ما بينها ووضحها وأزاح العلل..

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ لا يقدر قدره ولا يدرك وصفه..

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ﴾ قوي لا يعجزه شيء..

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ ممن عصاه..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ وهذا فيه تقرير **إحاطة علمه بالمعلومات كلها**، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها.. ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بألطف تدبير،

ويقدرها بكل تقدير، فلهذا قال..

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقبيح، وذكر وأنثىٰ..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران:١-٦]..

🕮 الفـوائـد

تضمنت هذه الآيات:

١- تقرير إلهية الله وتعينها.

٢- وإبطال إلهية ما سواه.

٣- وفي ضمن ذلك رد علىٰ النصارىٰ الذين يزعمون إلهية عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٤- وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم.

٥- وإثبات الشرائع الكبار.

٦- وأنها رحمة وهداية للناس.

٧- وتقسيم الناس إلىٰ مهتد وغيره.

٨- وعقوبة من لم يهتد بها.

٩- وتقرير سعة علم الباري.

١٠- ونفوذ مشيئته وحكمته.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران:٧-٩]

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ **القرآن العظيم كله محكم** كما قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ [هود] فهو مشتمل علىٰ غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠ ﴾ [المائدة].. **وكله متشابه في** الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظا ومعنىٰ.. **وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله..**

﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال..

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره..

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ ومنه آيات أخر متشابهات، أي: **يلتبس معناها علىٰ كثير من الأذهان؛** لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلىٰ بعض الأفهام غير المراد منها.. **فالحاصل**: أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل علىٰ بعض الناس.. **فالواجب في هذا**: أن يرد المتشابه إلىٰ المحكم، والخفي إلىٰ الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضًا ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة.. ولكنَّ الناس انقسموا إلىٰ فرقتين..

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن **فسدت مقاصدهم**، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدىٰ والرشاد..

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلىٰ المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم علىٰ المتشابه..

﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ لمن يدعونهم لقولهم، فإنَّ المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قَصْدُه اتباعه..

﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ للمفسرين في الوقوف علىٰ ﴿ٱللَّهُۗ﴾ من قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ قولان: جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها.. **وذلك كله محتمل: فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه، كان الصواب الوقوف علىٰ** ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾؛ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام

مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، فقال السائل: كيف استوىٰ؟ فقال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف علىٰ ما حد لنا.. **فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات** تعرضا لما لا يعني، وتكلفا لما لا سبيل لهم إلىٰ علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله..

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ **وأما الراسخون في العلم** فيؤمنون بها ويكلون المعنىٰ إلىٰ الله فيسلمون ويسلمون.. **وإن أريد بالتأويل التفسير** والكشف والإيضاح، كان **الصواب عطف** ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ **علىٰ** ﴿ٱللَّهُ﴾، فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورده إلىٰ المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة **لا يعلمها إلا هو تعالىٰ والراسخون في العلم** يعلمون أيضًا، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون..

﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه..

﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض.. **وفيه تنبيه** علىٰ الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقينا أنه مردود إلىٰ المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك..

ولما رغب تعالىٰ في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع المتشابه قال..

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه..

﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلىٰ عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.. ثم أخبر تعالىٰ عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون..

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ لا تملها عن الحق جهلا وعنادا منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا علىٰ هدايتك وعافنا مما ابتليت به الزائغين..

﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾ عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات..

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران:٧-٩] فمجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

🕮 الفـوائـد

قد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد:

إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلىٰ الله، المبين لأحكامه وشرائعه.

الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد علىٰ مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالما محققا، وعارفا مدققا، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علما وحالا وعملا.

الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه ورد لمتشابهه إلىٰ محكمه، بقوله: ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾.

الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون.

الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾.

السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب.

السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ

ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠-١٣]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يخبر تعالىٰ أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد **استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم**..

﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئا، **وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم**، ويقولون ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ]، فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر]، **وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة**، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ]..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، **الملازمون لها دائمًا أبدًا**..

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ وهذه الحال التي ذكر الله تعالىٰ أنها لا تغني الأموال والأولاد عن الكفار شيئا، **سنته الجارية في الأمم السابقة**، كما جرىٰ لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما..

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا..

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ﴾ أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظلماً..

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ علىٰ من أتىٰ بأسباب العقاب، وهو الكفر والذنوب علىٰ اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالىٰ..

﴿قُل﴾ يا محمد..

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ وفي هذا **إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة، وتحذير للكفار**، وقد وقع كما أخبر تعالىٰ، فنصر الله المؤمنين علىٰ أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارىٰ، **وسيفعل هذا تعالىٰ بعباده وجنده المؤمنين إلىٰ يوم القيامة**، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان..

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ وأخبر تعالىٰ أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار..

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ وهذا هو الذي مهدوه **لأنفسهم** فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم..

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ عبرة عظيمة..

﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ وهذا يوم بدر..

﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه..

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطرا وفخرا ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلهذا قال..

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ يرىٰ المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾..

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزموهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيرا منهم، **وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به**..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٠-١٣] ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة، والعقول الكاملة، علىٰ أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرىٰ مبطلة، **وإلا فلو نظر الناظر إلىٰ مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والعُدد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات**، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل علىٰ الله والثقة بكفايته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين علىٰ أعدائه الكافرين.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤-١٧]

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يخبر تعالىٰ أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية..

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ﴾ وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ [الكهف: ٧] فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، **وانقسموا بحسب الواقع إلىٰ قسمين:..**

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ **قسم: جعلوها هي المقصود،** فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون علىٰ أي: وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادا لهم إلىٰ دار الشقاء والعناء والعذاب..

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ **والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها** وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته علىٰ لذاته وشهواته، **فجعلوها وسيلة لهم،** وطريقا يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون بما يتمتعون به علىٰ وجه الاستعانة به علىٰ مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ فجعلوها معبرًا إلىٰ الدار الآخرة، ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة،

فهؤلاء صارت لهم زادا إلىٰ ربهم..

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ وفي هذه الآية: **تسلية للفقراء** الذين لا قدرة لهم علىٰ هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، **وتحذير للمغترين** بها، **وتزهيد لأهل العقول** النيرة بها، **وتمام ذلك**..

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ **أن الله تعالىٰ** أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلكم المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع الثمار..

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والأنهار الجارية علىٰ حسب مرادهم..

﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ والأزواج المطهرة من كل قذر ودنس وعيب ظاهر وباطن، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم..

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ مع الرضوان من الله الذي هو أكبر نعيم.. **فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الحقيرة**، ثم اختر لنفسك أحسنهما واعرض علىٰ قلبك المفاضلة بينهما..

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥﴾ عالم بما فيهم من الأوصاف الحسنة والأوصاف القبيحة، وما هو اللائق بأحوالهم، يوفق من شاء منهم ويخذل من شاء، **فالجنة التي ذكر الله وصفها ونعتها بأكمل نعت وصف أيضا المستحقين لها**، وهم الذين اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهىٰ عنه، وكان من دعائهم أن قالوا..

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦﴾ توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقيهم شر آثارها، وهو عذاب النار، ثم فصل أوصاف التقوىٰ، فقال..

﴿الصَّابِرِينَ﴾ أنفسهم علىٰ ما يحبه الله من طاعته، وعن معصيته، وعلىٰ أقداره المؤلمة..

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم..

﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ﴾ مما رزقهم الله بأنواع النفقات علىٰ المحاويج من الأقارب وغيرهم..

﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران:١٤-١٧] لما بين صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم، حالا ولا مقاما، بل يرون أنفسهم مذنبين مقصرين فيستغفرون ربهم، ويتوقعون أوقات الإجابة وهي السحر، قال الحسن: (مدوا الصلاة إلىٰ السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم).

📖 الفوائد

تضمنت هذه الآيات:

١- حالة الناس في الدنيا.

٢- وأنها متاع ينقضي.

٣- ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم.

٤- وفاضل بينهما.

٥- وفضَّل الآخرة علىٰ الدنيا، تنبيها علىٰ أنه يجب إيثارها والعمل لها.

٦- ووصف أهل الجنة وهم المتقون.

٧- ثم فصَّل خصال التقوىٰ.. **فبهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟**

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾ [آل عمران:١٨-٢٠]

هذا تقرير من الله تعالىٰ للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالىٰ.. وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة.. وأهل العلم..

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أما شهادته تعالىٰ فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة علىٰ توحيده، وأنه لا إله إلا هو.. فنوع **الأدلة في الآفاق والأنفس علىٰ هذا الأصل العظيم**، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه **ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره علىٰ المشرك** الجاحد المنكر للتوحيد.. وكذلك **إنعامه العظيم** الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، **ولا يدفع النقم إلا هو**، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم.. **ففي هذا برهان قاطع علىٰ وجوب التوحيد وبطلان الشرك**..

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله..

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية، خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد.. ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال..

﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ لم يزل متصفا بالقسط، في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو علىٰ صراط مستقيم في ما أمر به ونهىٰ عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بيَّن العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام..

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحثت عليها كتبه.. **وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه**، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء، ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو علىٰ طريقهم..

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم علىٰ الاجتماع علىٰ دين الله..

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ وظلما وعدوانا من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩﴾ فيجازي كلَّ عامل بعمله، وخصوصـًا من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم..

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ﴾ ثم أمر تعالىٰ رسوله ﷺ عند محاجة النصارىٰ وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام عليه، أن يقول لهم: قد..

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أنا ومن اتبعني قد أقررنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوىٰ دين الإسلام، وجزمنا ببطلانه..

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من النصارىٰ واليهود..

﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ مشركي العرب وغيرهم..

﴿أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ بمثل ما أمنتم به..

﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم..

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه..

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ فقد وجب أجرك علىٰ ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب علىٰ جرمهم، فلهذا قال..

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٨-٢٠]..

🕮 الفوائد

١- ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ فكلهم من أولهم إلىٰ آخرهم قد اتفقوا علىٰ ذلك، ودعوا إليه، وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب علىٰ الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به.

٢- وفي هذا دليل علىٰ أن **أشرف الأمور علم التوحيد**؛ لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه.

٣- الشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل علىٰ أن **من لم يصل في علم التوحيد إلىٰ هذه الحالة فليس من أولي العلم.**

٤- وفي هذه الآية دليل علىٰ **شرف العلم من وجوه كثيرة:**

- **منها:** أن الله خصهم بالشهادة علىٰ أعظم مشهود عليه دون الناس.. **ومنها:** أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفىٰ بذلك فضلا.

● **ومنها:** أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلىٰ العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته.

● **ومنها:** أنه تعالىٰ جعلهم شهداء وحجة علىٰ الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

● **ومنها:** أن إشهاده تعالىٰ أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم، وأنهم أمناء علىٰ ما استرعاهم عليه.

٥- اعلم أن هذا الأصل الذي هو **توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية**، حتىٰ صار لذوي البصائر أجلىٰ من الشمس:

● **فأما الأدلة النقلية:** فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر به وتقريره، ومحبة أهله، وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة النقلية علىٰ ذلك، حتىٰ كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه.

● **وأما الأدلة العقلية:** التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور، فقد أرشد القرآن إليها ونبه علىٰ كثير منها:

- **فمن أعظمها:** الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالىٰ من الاستدلال به في كتابه.

- **ومن الأدلة العقلية** علىٰ أن الله هو الذي يؤله دون غيره: انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نقمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها، وإن أحدا من الخلق لا يملك لنفسه -فضلا عن غيره- جلب نعمة ولا دفع نقمة، تيقن أن عبودية ما سوىٰ الله من أبطل الباطل، وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه علىٰ هذا الدليل جدا.

- **ومن الأدلة العقلية** أيضا علىٰ ذلك: ما أخبر به تعالىٰ عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعا ولا ضراً، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع

والأبصار، وأنها علىٰ فرض سماعها لا تغني شيئا، وغير ذلك من الصفات الدالة علىٰ نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المدبرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون.

- **ومن الأدلة العقلية علىٰ ذلك**: ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلا إلىٰ كل خير دافعًا لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سببا للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالىٰ قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [آل عمران: ٤٩] أي: لعبرة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك.

فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة علىٰ هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيىٰ من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، فله الحمد والشكر والثناء.

٦- ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ **ففي هذا تأييس** لمن طمع فيكم، **وتجديد لدينكم** عند ورود الشبهات، **وحجة علىٰ من اشتبه عليه الأمر؛ لأنه قد تقدم أن الله استشهد علىٰ توحيده بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة علىٰ غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه** علىٰ اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، **فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلته الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتفىٰ كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ٢٢﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، **أشد الناس جرمًا**، وأي جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة علىٰ الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد؟!..

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق علىٰ العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم وتعزيرهم وتوقيرهم ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك..

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ويقتلون أيضا الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلىٰ المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة..

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلىٰ غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح..

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم..

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ٢٢﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢] وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجرأهم علىٰ الله وعلىٰ أنبيائه وعباده الصالحين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران:٢٣-٢٥]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ **يخبر تعالىٰ عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه..**

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ **فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به، وأسرعهم انقيادًا لأحكامه..**

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ **فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلىٰ حكم الكتاب تولىٰ فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم..**

﴿ذَٰلِكَ﴾ **والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم علىٰ معاصي الله هو..**

﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ﴾ **افتروا هذا القول فظنوه حقيقة، فعملوا علىٰ ذلك ولم ينزجروا عن المحارم..**

﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ **لأن أنفسهم منتهم وغرتهم أن مآلهم إلىٰ الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلهذا قال تعالىٰ..**

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ **كيف يكون حالهم ووخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها..**

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ **لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت..**

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران:٢٣-٢٥] **ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك علىٰ قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذابا.**

الفـوائـد

في ضمنها **التحذير لنا أن نفعل كفعلهم،** فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب علىٰ كل أحد إذا دعي إلىٰ كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ ﴾ [النور: ٥١].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧]

يقول الله لنبيه ﷺ..

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك، والتصريف والتدبير كله لك.. ثم فصَّل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالىٰ بها، فقال:..

﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالىٰ..

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بطاعتك..

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ بمعصيتك..

﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك..

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۖ﴾ تدخل هذا علىٰ هذا، وهذا علىٰ هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول، والضياء والنور، والشمس والظل، والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة علىٰ قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته..

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوىٰ، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر..

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوىٰ من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، **وهذا أعظم دليل علىٰ قدرة الله**، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئًا، فخلقه تعالىٰ الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة..

﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧] ترزق من تشاء رزقا واسعا من حيث لا يحتسب ولا يكتسب.

🕮 الفـوائـد

١- فيه **الإشارة إلىٰ** أن الله تعالىٰ **سينزع الملك** من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم، **ويؤتيه أمة محمد**، وقد فعل ولله الحمد.

٢- **ولا ينافي ذلك** ما أجرىٰ الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية، التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنَّها كلها بمشيئة الله، لا يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر.

٣- ومن **الأسباب التي جعلها الله سببًا لحصول الملك**:

- الإيمان والعمل الصالح.
- التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم.
- وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها.
- والصبر.
- وعدم التنازع.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [النور: ٥٥] الآية، فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور.. وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال] فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين

وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر علىٰ الأعداء.

وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت **السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء** وجعل بأسهم بينهم.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨]

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ **هذا نهي من الله تعالىٰ للمؤمنين** عن موالاة الكافرين، **بالمحبة والنصرة والاستعانة** بهم علىٰ أمر من أمور المسلمين، **وتوعد علىٰ ذلك** فقال:..

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ **فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب؛ لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان**؛ لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين علىٰ إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ [التوبة: ٧١]، فمن والىٰ الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويفتنوا أولياءه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ ﴾ **أي: تخافوهم علىٰ أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية.. ثم قال تعالىٰ..**

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ ﴾ **فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم علىٰ ذلك..**

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨] أي: مرجع العباد ليوم التناد، **فيحصي أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم**، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والمثوبة.

📖 الفوائد

وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصداقتهم، والميل إليهم والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران:٢٩]

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصًا..

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولما في السماء والأرض عمومًا، وعن كمال قدرته.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران:٢٩]..

📖 الفوائد

فيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت، فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلًا لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور وبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران:٣٠]

وفي ضمن إخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي توفى به النفوس بأعمالها فلهذا قال..

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ كاملًا موفرًا لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة].. والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلىٰ الله من الأعمال الصالحة، صغيرها وكبيرها..

﴿وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ﴾ كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها..

﴿تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها..

ثم أعاد تعالىٰ تحذيرنا نفسه؛ رأفة بنا ورحمة، لئلا يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب، الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال..

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٣٠﴾ [آل عمران:٣٠] فنسأله أن يمن علينا بالحذر منه علىٰ الدوام، حتىٰ لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

📖 الفوائد

فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨﴾ [الفرقان]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ۝٣٨﴾ [الزخرف]..

فوالله! لترك كل شهوة ولذة -وإن عسر تركها علىٰ النفس في هذه الدار- أيسر من معاناة تلك الشدائد، واحتمال تلك الفضائح..

ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور، فيُقدِم علىٰ ما ينفعه عاجلاً وآجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وآجلاً.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١﴾ [آل عمران:٣١]

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة..

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ فلا يكفي فيها مجرد الدعوىٰ، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن..

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ فمن اتبع الرسول دل علىٰ صدق دعواه محبة الله تعالىٰ، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران:٣١]..

🕮 الفوائد

١- هذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها.

٢- من لم يتبع الرسول فليس محبًا لله تعالىٰ، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل علىٰ عدمها، وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها علىٰ تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها.

٣- بهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلىٰ حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران:٣٢]

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ وهذا أمر من الله تعالىٰ لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.. **بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهىٰ عنه**، لأن اجتنابه امتثالا لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون..

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أعرضوا عن طاعة الله ورسوله، فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر

وطاعة كل شيطان مريد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج] فلهذا قال:..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران:٣٢] بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكأن في هذه الآية الكريمة بيانا وتفسيرا لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران:٣٣]

يخبر تعالىٰ باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه..

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ أخبر أنه اصطفىٰ آدم، أي: اختاره علىٰ سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضَّل بنيه، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء]..

﴿وَنُوحًا﴾ واصطفىٰ نوحًا، فجعله أوَّل رسول إلىٰ أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلىٰ الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاءه واجتباءه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان..

﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ واصطفىٰ آل إبراهيم، وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفان، ودعا إلىٰ ربه ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب.. **ويدخل في آل إبراهيم** جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده؛ لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة علىٰ العالمين، **ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد** ﷺ، **فإنَّ الله** تعالىٰ جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفىٰ

من ولد إبراهيم..

﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران:٣٣] **واصطفىٰ الله آل عمران، وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسىٰ بن عمران** عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، **فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من** العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران:٣٤]

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ **حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة،** كما قال تعالىٰ لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾ [الأنعام]..

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران:٣٤] **يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه.**

🕮 الفوائد

١- دل هذا علىٰ أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك، فضلا منه وكرما.

٢- ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء:

- أن نحبهم ونقتدي بهم.
- ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم.
- وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة.

٣- وهذا أيضا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم.. فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته.. لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة لكفىٰ بذلك فضلا.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران:٣٥]

ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرىٰ لمريم والدة عيسىٰ وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال:..

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ والدة مريم لما حملت..

﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ جعلت ما في بطني خالصا لوجهك، محررا لخدمتك وخدمة بيتك..

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ هذا العمل المبارك..

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران:٣٥] تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران:٣٦]

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ كأنها تشوفت أن يكون ذكرًا؛ ليكون أقدر علىٰ الخدمة وأعظم موقعًا، ففي كلامها نوع عذر من ربها، فقال الله:..

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ لا يحتاج إلىٰ إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي..

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران:٣٦] دعت لها ولذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم.

الفـوائـد

فيه دلالة:

١- علىٰ تفضيل الذكر علىٰ الأنثىٰ.

٢- وعلىٰ التسمية وقت الولادة.

وعلىٰ أن للأم تسمية الولد إذا لم يكره الأب.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧]

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان..

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ نبتت نباتًا حسنًا في بدنها وخلقها وأخلاقها؛ لأن الله تعالىٰ قيض لها زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وكَفَلَها إياه، وهذا من رفقه بها ليربيها علىٰ أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربها، ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان..

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا..

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فضلًا وإحسانًا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧] من غير حسبان من العبد ولا كسب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].. فلما رأىٰ زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما من الله به علىٰ مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾.

🕮 الفوائد

في هذه الآية دليل علىٰ إثبات **كرامات الأولياء** الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافا لمن نفىٰ ذلك.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران:٣٨]

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ دعا زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم..

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران:٣٨] فاستجاب له دعاءه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران:٣٩]

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنه كان بكلمة الله..

﴿وَسَيِّدًا﴾ يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيدًا يرجع إليه في الأمور..

﴿وَحَصُورًا﴾ ممنوعًا من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالا بخدمة ربه وطاعته..

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران:٣٩] فأيُّ بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبيًا من الصالحين.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران:٤٠]

﴿قَالَ﴾ زكريا من شدة فرحه..

﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمعا، فأخبره الله تعالىٰ أن هذا خارق للعادة، فـ..

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران:٤٠] فكما أنه تعالىٰ قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ استعجالا لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران:٤١]

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة علىٰ وجود الولد..

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء..

﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فامتنع من الكلام ثلاثة أيام..

﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ فلا تقدر إلا علىٰ الإشارة والرمز..

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران:٤١] وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتىٰ إذا خرج علىٰ قومه من المحراب ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم] أي: أول النهار وآخره.

الفوائد

هذا آية عظيمة: أن لا تقدر علىٰ الكلام، **وفيه مناسبة عجيبة**، وهي أنه كما **يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها**، ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٢-٤٤]

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ينوه تعالىٰ بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت..

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختارك..

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الآفات المنقصة..

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ **الاصطفاء الأول**: يرجع إلىٰ الصفات الحميدة والأفعال السديدة.. **والاصطفاء الثاني**: يرجع إلىٰ تفضيلها علىٰ سائر نساء العالمين، إما علىٰ عالمي زمانها، أو مطلقًا.. وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة

وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور..

فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلهذا قالت لها الملائكة:..

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع..

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ خص السجود والركوع: لفضلهما، ودلالتهما على غاية الخضوع لله.. ففعلت مريم ما أمرت به شكرًا لله تعالى وطاعة.. ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي قيضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال..

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عندهم..

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقترعوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأيهم لم يَجرِ قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم..

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٢-٤٤] فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنك رسول الله حقا، فوجب عليهم الانقياد لك وامتثال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى﴾ [القصص: ٤٤] الآيات..

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران:٤٥]

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم..

﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ له الوجاهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب..

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وجيها عند الله، يشفع، أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله علىٰ أكثر العالمين..

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ [آل عمران:٤٥] فلهذا كان من المقربين إلىٰ الله، أقرب الخلق إلىٰ ربهم، بل هو عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من سادات المقربين.

🕮 الفـوائـد

١- عيسىٰ ابن مريم سُمي **كلمة الله**: لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب.

٢- وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيا نشأ من مادة روحانية، **فلهذا سمىٰ روح الله**.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران:٤٦]

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ وهذا غير التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلىٰ ربهم، وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة علىٰ المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به..

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ يمن عليه بالصلاح، من منَّ عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران:٤٧]

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شكَّ في قدرة الله تعالىٰ..

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران:٤٧]
فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراده: كن فيكون، فمن تيقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب..

الفوائد

من حكمة الباري تعالىٰ أن **تدرج بأخبار العباد** من الغريب إلىٰ ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيىٰ بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من أم بلا أب، ليدل عباده أنه **الفعال لما يريد**، وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن..

ثم أخبر تعالىٰ عن منته العظيمة علىٰ عبده ورسوله عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقال..

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٤٨﴾ [آل عمران:٤٨]

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ **يحتمل**: أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصًا لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما علىٰ الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه.. **ويحتمل**: أن يكون المراد الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله علىٰ عباده، ولهذا امتن تعالىٰ علىٰ عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق]..

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتنانا علىٰ عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه..

﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٤٨﴾ [آل عمران:٤٨] ثم ذكر له كمالا آخر وفضلا زائدا علىٰ ما أعطاه الله من الفضائل، فقال..

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩]

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فأرسله الله إلىٰ هذا الشعب الفاضل، الذين هم أفضل العالمين في زمانهم، يدعوهم إلىٰ الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقا ونبيه صدقًا ولهذا قال..

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ طيرًا، أي: أصوره علىٰ شكل الطير..

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾ طيرًا له روح تطير بإذن الله..

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو الذي يولد أعمىٰ..

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ بإذن الله..

﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ وأي: آية أعظم من جعل الجماد حيوانًا، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتىٰ، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟!

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩] فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران:٥٠]

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به

موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.. ثم أخبر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال..

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فدلَّ ذلك علىٰ أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل، بل كان متممًا لها ومقررًا..

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل علىٰ صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهىٰ عنه..

﴿وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران:٥٠] فإن طاعة الرسول طاعة لله.

🕮 الفـوائـد

علامة الصادق: أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض، **بخلاف من ادعىٰ دعوىٰ كاذبة..**

خصوصا أعظم الدعاوىٰ، وهي **دعوىٰ النبوة**، فالكاذب فيها **لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته** لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين..

هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، **إذ لا يشتبه الصادق بالكاذب في دعوىٰ النبوة أبدا**، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشتبه فيها الصادق بالكاذب..

وأما النبوة فإنه يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم، وسعادتهم وشقاؤهم..

ومعلوم أن **الصادق فيها** من أكمل الخلق، **والكاذب فيها** من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، **فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق** ما يتبين لكل من له عقل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ [آل عمران:٥١]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون.. فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعما ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة، وجميع أنواع العبادة..

﴿هَٰذَا﴾ أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله..

﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران:٥١] موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم.

🕮 الفوائد

في هذا رد على النصارى القائلين بـ: أن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه عبد مدبر مخلوق..

كما قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران:٥٢]

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهمُّوا بقتله وسعوا في ذلك..

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله..

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم الأنصار..

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران:٤٦-٥٢]..

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران:٥٣]

الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك.. فلما قاموا مع عيسىٰ بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره علىٰ عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلهذا قال تعالىٰ هنا..

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران:٥٤]

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره..
﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ﴾ بهم جزاء لهم علىٰ مكرهم..
﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران:٥٤] رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران:٥٥]

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فرفع الله عبده ورسوله عيسىٰ إليه، وألقي شبهه علىٰ غيره، فأخذوا من ألقي شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباءوا بالإثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله، قال الله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٥٧]..

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم علىٰ الكافرين، ثم إن النصارىٰ المنتسبين لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزالوا قاهرين لليهود؛ لكون النصارىٰ أقرب إلىٰ اتباع عيسىٰ من اليهود، حتىٰ بعث الله نبينا محمدا ﷺ **فكان المسلمون هم المتبعين لعيسىٰ حقيقة**، فأيدهم الله ونصرهم علىٰ اليهود والنصارىٰ وسائر

الكفار، وإنما **يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار** من النصارىٰ وغيرهم علىٰ المسلمين، **حكمة من الله وعقوبة** علىٰ تركهم لاتباع الرسول ﷺ..

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصير الخلائق كلها..

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران:٥٥] كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوىٰ تحتاج إلىٰ برهان.. ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال..

📖 الفوائد

١- في هذه الآية دليل علىٰ **علو الله تعالىٰ واستوائه علىٰ عرشه حقيقة**، كما دلت علىٰ ذلك النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم.

٢- كان الله عزيزًا قويًا قاهرًا، **ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ**، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠﴾ [المائدة]، **حكيم** يضع الأشياء مواضعها، **وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه علىٰ بني إسرائيل**، فوقعوا في الشبه كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧﴾ [النساء].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦﴾ [آل عمران:٥٦]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بالله وآياته ورسله..

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة..

﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرىٰ والمصيبة العظمىٰ، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار..

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾ [آل عمران] ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آل عمران:٥٧]

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين..

﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ﴾ دل ذلك على أنه **يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم** من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، **وإنما توفية الأجور يوم القيامة**، يجدون ما قدموه من الخيرات محضرا موفرا، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه..

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آل عمران:٥٧] بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه.

﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨﴾ [آل عمران:٥٨]

وهذا منة عظيمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران:٥٩]

يخبر تعالىٰ محتجا علىٰ النصارىٰ الزاعمين بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم **أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكا لله في الربوبية**، وهذا ليس بشبهة فضلا أن يكون حجة؛ **لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة علىٰ تفرد الله بالخلق والتدبير**، وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، **فهو علىٰ نقيض قولهم أدل**، وعلىٰ أن أحدًا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولىٰ.. ومع هذا فآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارىٰ في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولىٰ وأحرىٰ، فإن صح إدعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعاؤها في آدم من باب أولىٰ وأحرىٰ.. فلهذا قال تعالىٰ..

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران:٦٠]

﴿ٱلْحَقُّ﴾ هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الحق الذي في أعلىٰ رتب الصدق..

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران:٥٩-٦٠] الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية وما بعدها دليل علىٰ قاعدة شريفة، وهو أن **ما قامت الأدلة علىٰ أنه حق**، وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه **يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل**..

وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، **سواءٌ قدر العبد علىٰ حلها أم لا**، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]..

وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران:٦١]

﴿فَمَنْ﴾ جادلك..

﴿حَآجَّكَ فِيهِ﴾ وحاجك في عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته..

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأنه عبد الله ورسوله، وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة علىٰ أنه عبد أنعم الله عليه، دلَّ علىٰ عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، **فجداله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله**، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلىٰ مباهلته وملاعنته..

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران:٦١] فيدعون الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته علىٰ الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء.. فدعاهم النبي ﷺ إلىٰ ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلىٰ أهليهم وأولادهم فلم يجدوا أهلا ولا مالا وعوجلوا بالعقوبة، **فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه**، وهذا غاية الفساد والعناد، فلهذا قال تعالىٰ...

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران:٦٢-٦٣]

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أخبر تعالىٰ إن هذا الذي قصه الله علىٰ عباده..

﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل..

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء..

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل..

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران] فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤]

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى..

﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هلموا نجتمع عليها، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال.. ثم فسرها بقوله..

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبيا ولا ملكا ولا وليا ولا صنما ولا وثنا ولا حيوانا ولا جمادا..

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم..

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم..

﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤] فأشهدوهم أنكم مسلمون.

الفوائد

فأشهدوهم أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك:

أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم، كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين.

وأيضا فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء] الآية.

وأيضا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخبارا بيقينه وشكرا لنعمة ربه.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨]

لما ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني، وجادلوا على ذلك، **رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه: الوجه الأول**: أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، **والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم..**

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم، فهل هذا يعقل؟! فلهذا قال..

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك.. **الوجه الثاني**: أن جدالهم في إبراهيم **جدال في أمر ليس لهم به علم..**

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمر هم أجانب عنه، وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل -سواء أخطأوا أم أصابوا- فليس معهم المحاجة في شأن إبراهيم.. **الوجه الثالث**: أن الله تعالىٰ برأ خليله من اليهود والنصارىٰ والمشركين..

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ وجعله حنيفا مسلما..

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ وجعل أولىٰ الناس به..

﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من آمن به من أمته..

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا النبي وهو محمد صلىٰ الله علىٰ وسلم ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولىٰ به من غيرهم..

﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران:٦٥- ٦٨] والله تعالىٰ وليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارىٰ والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب.

🕮 الفـوائـد

١- قد اشتملت هذه الآيات علىٰ: النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم، وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح له فيه.

٢- وفيها أيضا **حث علىٰ علم التاريخ**، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوىٰ التي تخالف ما علم من التاريخ.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران:٦٩]

يحذر تعالىٰ عباده المؤمنين عن مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم..

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ومن المعلوم أن **من ود شيئا سعىٰ بجهده علىٰ تحصيل مراده**، فهذه الطائفة تسعىٰ وتبذل جهدها في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق يقدرون عليه، ولكن من لطف الله أنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة عذاب لهم، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل]..

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران:٦٩] بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضرونكم شيئا.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [آل عمران:٧٠]

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ما الذي دعاكم إلىٰ الكفر بآيات الله..

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [آل عمران:٧٠] مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل تشهدون به ويسر به بعضكم إلىٰ بعض في بعض الأوقات، فهذا نهيهم عن ضلالهم.. ثم وبخهم علىٰ إضلالهم الخلق، فقال..

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ
وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧١]

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ فوبخهم علىٰ لبس الحق بالباطل..

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ وعلىٰ كتمان الحق.. لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧١]..

🕮 الفوائد

إن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهما وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب علىٰ ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب،

ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفته حتىٰ يؤثروه.

والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلنوا به، ويميزوا الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون ويرجع الضالون وتقوم الحجة علىٰ المعاندين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢]

أخبر تعالىٰ عن ما همت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال..

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ **ادخلوا في دينهم علىٰ وجه المكر والكيد أول النهار..**

﴿وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ **فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه..**

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢] **عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحا لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه عجبا بأنفسهم وظنا أن الناس سيحسنون ظنهم بهم ويتابعونهم علىٰ ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبىٰ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.**

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران:٧٣]

وقال بعضهم لبعض:..

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ **لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم..**

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ **فمادة الهدىٰ من الله تعالىٰ لكل من اهتدىٰ، فإن الهدىٰ إما علم الحق، أو إيثارة، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه؛ لخبث نياتهم وسوء**

مقاصدهم.. وأما هذه الأمة فقد حصل لهم ولله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا علىٰ كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم..

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ وقال بعضهم لبعض أيضًا: اكتموا أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو علىٰ دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدىٰ فلم تتبعوه.. **فالحاصل**: أنهم جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قاطعا عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجبا للحجة عليهم، فرد الله عليهم بـ..

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ الله هو الذي يحسن علىٰ عباده بأنواع الإحسان..

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ممن أتىٰ بأسبابه..

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل كثير الإحسان..

﴿عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران:٧٣] بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران:٧٤]

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة وهي نعمة الدين ومتمماته..

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران:٧٤] الذي لا يصفه الواصفون ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلىٰ ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران:٧٥]

يخبر تعالىٰ عن حال أهل الكتاب في **الوفاء والخيانة في الأموال**، لما ذكر **خيانتهم في الدين** ومكرهم وكتمهم الحق..

﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فأخبر أن منهم الخائن والأمين، وأن منهم..

﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾ وهو المال الكثير..

﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ وهو علىٰ أداء ما دونه من باب أولىٰ..

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾ وهو علىٰ عدم أداء ما فوقه من باب أولىٰ وأحرىٰ..

﴿ذَٰلِكَ﴾ والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه..

﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، لأنهم بزعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار، ورأوا أنفسهم في غاية العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون، فلم يجعلوا للأميين حرمة، وأجازوا ذلك، **فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله**، وكان هذا كذبًا علىٰ الله، **لأن العالم الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يخبر عن حكم الله، ليس يخبر عن نفسه**، وذلك هو الكذب، فلهذا قال..

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران:٧٥] وهذا أعظم إثمًا من القول علىٰ الله بلا علم.. ثم رد عليهم زعمهم الفاسد، فقال..

﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران:٧٦]

﴿بَلَىٰۚ﴾ ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم..

﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾ والعهد **يشمل** العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله علىٰ العبد من حقه، **ويشمل** العهد الذي بينه وبين العباد..

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ والتقوىٰ تكون في هذا الموضع ترجع إلىٰ اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران:٧٦] فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالىٰ، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم.. فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل،

فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله.. وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء العهود وبتقوىٰ الله وعدم التجرئ علىٰ الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف **الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله:..**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران:٧٧]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ ويدخل في ذلك **كل من أخذ شيئا من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده**، وكذلك **من حلف علىٰ يمين يقتطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية..**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لا نصيب لهم من الخير..

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة غضبا عليهم وسخطا، لتقديمهم هوىٰ أنفسهم علىٰ رضا ربهم..

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم..

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران:٧٧] موجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾ [آل عمران:٧٨]

يخبر تعالىٰ أن من أهل الكتاب فريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به..

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ وهذا **يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه**، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضًا وإما تصريحًا، **فالتعريض في** قوله..

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله..

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وليس هو المراد.. **والتصريح في** قولهم:..

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران:٧٨] وهذا أعظم جرما ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب **فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل**، وتنزيل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠]

وهذه الآية نزلت ردا لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقوله..

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ يُمتنع ويستحيل على بشر مَنَّ الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم، وإرساله للخلق..

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فهذا من أمحل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أقبح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرون إلا بمعالي الأمور وهم أعظم الناس نهيا عن الأمور القبيحة، فلهذا قال..

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك..

﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ فهم يأمرون بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل.. والباء في قوله ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ﴾ إلخ، باء السببية، أي: **بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه**، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقىٰ، تكونون ربانيين..

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم..

﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠] هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد مَنَّ الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثمـًا عظيمـًا، وكفرًا وخيمًا.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾ [آل عمران:٨١-٨٢]

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يخبر تعالىٰ أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد..

﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ﴾ بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل..

﴿وَحِكۡمَةٖ﴾ والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال..

﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾ إنه إن بعث الله رسولا..

﴿مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك علىٰ أممهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضا؛ لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلىٰ هذا قد

علم أن محمدا ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم..

﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾ قبلنا ما أمرتنا به علىٰ الرأس والعين..

﴿قَالَ﴾ الله لهم..

﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ علىٰ أنفسكم وعلىٰ أممكم بذلك، قال..

﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾ [آل عمران:٨١-٨٢] فعلىٰ هذا كل من ادعىٰ أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارىٰ ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

📖 الفوائد

هذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل علىٰ علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ.

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [آل عمران:٨٣]

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ أيطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن دينا من دين الله..

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ الخلق كلهم منقادون بتسخيره مستسلمون له طوعا واختيارا، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرها وهم سائر الخلق، حتىٰ الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه.

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [آل عمران:٨٣] وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران:٨٤]

تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥]

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصا وانقيادا لرسله..

﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥] فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران:٨٦-٨٩]

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوما اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلما وبغيا واتباعا لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية،

لأن الذي يرجىٰ أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص علىٰ التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية.. ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته..

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٨٨﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضىٰ، وقد أعذر الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٨٩﴾ [آل عمران:٨٦-٨٩]..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾ [آل عمران:٩٠]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ يخبر تعالىٰ أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفرا إلىٰ كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره علىٰ ترك الرشد والهدىٰ، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]، فالسيئات ينتج بعضها بعضًا، وخصوصًا لمن أقدم علىٰ الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعىٰ في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد علىٰ نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾ [آل عمران:٩٠] وأيُّ ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾ [آل عمران:٩١]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ وهؤلاء الكفرة إذا استمروا علىٰ كفرهم إلىٰ الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء..

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران:٩٠-٩١] فأيسوا من كل خير، وجزموا علىٰ الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياذا بالله من حالهم.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢]

هذا حث من الله لعباده علىٰ الإنفاق في طرق الخيرات، فقال..

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ أي: تدركوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلىٰ الجنة..

﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنَّكم إذا قدمتم محبة الله علىٰ محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك علىٰ إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم.. **فيدخل في ذلك** إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلىٰ ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة.. ولما كان الإنفاق علىٰ أيِّ وجهٍ كان مُثابًا عليه العبد، سواء كان قليلًا أو كثيرًا، محبوبًا للنفس أم لا وكان قوله: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ [آل عمران: ٩٢] **مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالىٰ عن هذا الوهم** بقوله..

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢] فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه علىٰ حسب نياتكم ونفعه.

📖 الفوائد

دلت الآية أن العبد **بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره**، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران:٩٣]

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن **النسخ غير جائز**، فكفروا بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، لأنهما قد أتيا **بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحريم**، فمن تمام **الإنصاف في المجادلة إلزامهم بما في كتابهم التوراة** من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني إسرائيل..

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ وهو يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ من غير تحريم من الله تعالى، بل حرمه على نفسه لمَّا أصابه عرق النسا، نذر لئن شفاه الله تعالى ليُحَرِّمَن أَحبَّ الأطعمة عليه، فحرَّم -فيما يذكرون- لحوم الإبل وألبانها، وتبعه بنوه على ذلك..

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالًا لهم طيبًا، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]..

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران:٩٣] وأمر الله رسوله -إن أنكروا ذلك- أن يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعناد، فلهذا قال تعالى..

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران:٩٤]

وأي ظلم أعظم من ظلم من يُدعىٰ إلىٰ تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك؛ عنادًا وتكبرًا وتجبرًا.. وهذا من **أعظم الأدلة علىٰ صحة نبوة نبينا محمد** ﷺ، وقيام **الآيات البينات المتنوعات علىٰ صدقه**، وصدق من نبأه، وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:٩٥]

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ﴾ فيما أخبر به وحكم.. وهذا **أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا** بألسنتهم: (صدق الله)، **معتقدين بذلك** في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة علىٰ من أنكرها.. ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ..

﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:٩٥] بالتوحيد وترك الشرك، الذي هو مدار السعادة، وبتركه حصول الشقاوة.. ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾.

📖 الفـوائـد

١- من هنا تعلم أن **أعظم الناس تصديقًا لله** أعظمهم علمًا ويقينًا بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية.

٢- في هذا دليل علىٰ أن **اليهود** وغيرهم ممن ليس علىٰ **ملة إبراهيم مشركون** غير موحدين.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦]

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ يخبر تعالىٰ عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضىٰ ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال..

﴿مُبَارَكًا﴾ فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٨]..

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦] والهدىٰ **نوعان**: هدىٰ في **المعرفة**، وهدىٰ في **العمل**.. **فالهدىٰ في العمل**: ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به.. **وأما هدىٰ العلم**: فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالىٰ في قوله..

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧]

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أدلة واضحات، وبراهين قاطعات علىٰ أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة علىٰ توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما مَنَّ به علىٰ أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات..

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ **يحتمل أن المراد به**: المقام المعروف، وهو **الحجر** الذي كان يقوم عليه الخليل لبنيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقا في جدار الكعبة، فلما كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، **والآية فيه**: **قيل**: أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلىٰ أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، **وقيل**: إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه.. **ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم**: أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، **فيكون علىٰ هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات**، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، **والآية في ذلك**: ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها..

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ **ومن الآيات البينات فيها**: أن من دخله كان **آمنا شرعًا وقدرًا**،

فالشرع قد أمر الله رسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتىٰ إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها.. **وأما تأمينها قدرًا**: فلأن الله تعالىٰ بقضائه وقدره وضع في النفوس حتىٰ نفوس المشركين به الكافرين بربهم احترامه، حتىٰ إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه.. **ومن جَعلِه حرمًا** أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧]..

🕮 الفـوائـد

قد رأيت لابن القيم هاهنا كلامًا حسنًا أحببت إيراده؛ لشدة الحاجة إليه قال (١):

فائدة: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾:

١ - ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ مبتدأ..

وخبره: في أحد المجرورين قبله..

والذي يقتضيه المعنىٰ أن يكون في قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه وجوب، والوجوب يقتضي (علىٰ).

ويجوز أن يكون في قوله: (ولله)؛ لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق.

ويرجح هذا التقدير: أن الخبر مَحَطُّ الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

ويرجح الوجه الأول بـ: أن يقال قوله: (حج البيت علىٰ الناس) أكثر استعمالاً في باب الوجوب، من أن يقال: (حج البيت لله)، أي: حق واجب لله، فتأمله.

وعلىٰ هذا: ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان:

---

(١) [بدائع الفوائد/ ٢/ ٤٦ –ط دار الكتاب العربي].

إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، **فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها**: الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره.. **والثاني**: مؤدي الواجب، وهو المفترض عليه وهم الناس.. **والثالث**: النسبة، والحق المتعلق به إيجابًا، وبهم وجوبًا وأداء، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور -من حيث كان اسما لله سبحانه- وجب الاهتمام بتقديمه؛ تعظيمًا لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفًا من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

٢- وأما قوله: (مَنْ): فهي بدل.

وقد استهوىٰ طائفة من الناس القول بأنها **فاعل** بالمصدر، كأنه قال: (أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا).

وهذا القول يضعف من وجوه:

منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنىٰ الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنىٰ يؤل إلىٰ: (ولله علىٰ الناس حج البيت مستطيعهم)، فإذا أدىٰ المستطيعون الواجب لم يبق واجبًا علىٰ غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل **الحج فرض عين علىٰ كل أحد**، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين.. **وإذا أردت زيادة إيضاح**: فإذا قلت: واجب علىٰ أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب علىٰ الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقا بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية علىٰ هذا الوجه دون أن يقال: (ولله حج البيت علىٰ المستطيعين)، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلىٰ الفاعل إذا وجد أولىٰ من إضافته إلىٰ المفعول، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان (مَن) هو الفاعل لأضيف المصدر إليه،

فكان يقال: (ولله علىٰ الناس حج مَنْ استطاع)، وحمله علىٰ باب: (يعجبني ضرب زيد عمرا)، وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل علىٰ المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه.. وإذا ثبت أن (من) بدل بعض من كل، وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلىٰ(الناس) كأنه قيل: (من استطاع منهم)، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، **وحسنه هاهنا أمور: منها**: أن (من) واقعة علىٰ من لا يعقل، كالاسم المبدل منه فارتبطت به.. **ومنها**: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: رأيت إخوتك من ذهب إلىٰ السوق منهم، كان قبيحا، لأن الذاهب إلىٰ السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجمل، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.. وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضفته إلىٰ ضمير أو قيدته بضمير يعود إلىٰ الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، ومما حسن حذف المضاف في هذه أيضا مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

٣- وأما المجرور من قوله (لله) فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون في موضع من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل.

والثاني: أن يكون متعلقا بسبيل.

فإن قلت: كيف يتعلق به وليس فيه معنىٰ الفعل؟

قيل: (السبيل) لما كان عبارة هاهنا عن الموصل إلىٰ البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان **فيه رائحة الفعل**، ولم يقصد به (السبيل) الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به.

واقتضىٰ حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور، وإن كان موضعه التأخير، لأنه **ضمير يعود علىٰ البيت، والبيت هو المقصود به** الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وببيانه أعني.. **هذا تقرير السهيلي، وهذا بعيد جدا.**

بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية

سواه، وهو:الوجوب: المفهوم من قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: (يجب لله علىٰ الناس الحج)، فهو حق واجب لله.

وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالا منها، ففي غاية البعد فتأمله، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: لله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

٤- **ومن فوائد الآية وأسرارها:** أنه سبحانه إذا ذكر **ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي**، وهو الأكثر، **وبلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم،** نحو ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

٥- وفي الحج أتىٰ بهذا اللفظ الدال علىٰ **تأكد الوجوب من عشرة أوجه:**

أحدها: أنه **قدَّم اسمه** تعالىٰ.

وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص.

ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف (علىٰ)، أبدل منه أهل الاستطاعة.

ثم **نكَّر السبيل** في سياق الشرط إيذانًا بأنَّه يجب الحج علىٰ أيِّ سبيل تيسرت، من قُوت أو مال، فعلَّق الوجوب بحصول ما يسمىٰ سبيلًا.

ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، أي: لعدم التزامه هذا الواجب وتركه.

ثمَّ عظَّم الشأن وأكَّد الوعيد بإخباره ما يستغنىٰ به عنه، والله تعالىٰ هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلىٰ حج أحد، وإنما **في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه** ما هو أعظم التهديد وأبلغه.

ثم أكد ذلك بذكر اسم (العالمين) عموما، ولم يقل: (فإن الله غني عنه)؛ لأنه إذا كان غنيا عن العالمين كلهم فله الغنىٰ الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه.

ثم أكد هذا المعنىٰ بأداة (إنَّ) الدالة علىٰ التأكيد..

فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم.

٦- **وتأمل سر البدل** في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلىٰ عموم الناس، ومرة بإسناده إلىٰ خصوص المستطيعين، وهذا **من فوائد البدل، تقوية المعنىٰ وتأكيده بتكرر الإسناد**، ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

٧- **ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح** بعد الإبهام، **والتفصيل** بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخِلَّتين، اعتناء به وتأكيد لشأنه.

٨- **ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت**، وعظَّم شأنه بما تدعوا النفوس إلىٰ قصده وحجه، وإن لم يطلب ذلك منها، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ إلخ، **فوصفه بخمس صفات:**

أحدها: كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.

الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدىٰ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتىٰ كأنه نفس الهدىٰ.

الرابع: ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد علىٰ أربعين آية.

الخامس: الأمن الحاصل لداخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس علىٰ حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار.

ثم **أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد** بتلك التأكيدات.

وهذا يدل علىٰ **الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم**، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره.

ولو لم يكن له شرف إلا **إضافته إياه إلىٰ نفسه** بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] لكفىٰ بهذه الإضافة فضلًا وشرفًا.

وهذه الإضافة هي التي **أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقا إلىٰ رؤيته**، فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم، كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة ** إليه وهل بعد الطواف تداني

وألثم منه الركن أطلب برد ما ** بقلبي من شوق ومن هيمان
فوالله ما ازداد إلا صبابة ** ولا القلب إلا كثرة الخفقان
فيا جنة المأوىٰ ويا غاية المنىٰ ** ويا منيتي من دون كل أمان
أبت غلبات الشوق إلا تقربا ** إليك فما لي بالبعاد يدان
وما كان صدىٰ عنك صد ملالة ** ولي شاهد من مقلتي ولسان
دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا ** فلبىٰ البكا والصبر عنك عصاني
وقد زعموا أن المحب إذا نأىٰ ** سيبلىٰ هواه بعد طول زمان
ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا ** دواء الهوىٰ في الناس كل زمان
بلىٰ إنه يبلىٰ والهوىٰ علىٰ ** حاله لم يبله الملوان
وهذا محب قاده الشوق والهوىٰ ** بغير زمام قائد وعنان
أتاك علىٰ بعد المزار ولو ونت ** مطيته جاءت به القدمان

انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

٩- قد استدل **بهذه الآية** من ذهب من العلماء أن من جنىٰ جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتىٰ يخرج منه.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران: ٩٨-١٠٠]

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾ يوبخ تعالىٰ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ علىٰ كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله علىٰ رسله، التي جعلها رحمة لعباده

يهتدون بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة.. فهؤلاء الكفرة **جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتعويجها عما جعلت له**.. وهم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل] فلهذا توعدهم هنا بقوله:..

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ بل محيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيء، فمجازيكم عليه أشر الجزاء.. لَمَّا توعدهم ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه، وحذَّر عباده المؤمنين منهم لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون، فقال:..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران:٩٨-١٠٠] وذلك لحسدهم وبغيهم عليكم، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:١٠١]

ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن إيقانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال..

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت.. وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجبها والجزم بمقتضاها وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه.. خصوصًا والمبيِّن لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه.. فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالًا ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالا..

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل

شر، واستعان به علىٰ كل خير..

﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:١٠١] موصل له إلىٰ غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ
وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه.. وتقوىٰ الله حق تقواه، كما قال ابن مسعود، وهو: (أن يُطاع فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر)[1]..

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢] وأن يستمروا علىٰ ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلىٰ الممات، فإن من عاش علىٰ شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوما لتقوىٰ ربه وطاعته، منيبا إليه علىٰ الدوام، ثبته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة.

🕮 الفوائد

١- هذه الآية بيان لما يستحقه تعالىٰ من التقوىٰ، وأما ما يجب علىٰ العبد منها فكما قال تعالىٰ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

٢- تفاصيل التقوىٰ المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدا، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهىٰ الله عنه.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣]

(١) أخرجه عبد الرزاق في [التفسير/ ٤٤١] وغيره.

ثم أمرهم تعالىٰ بما يعينهم علىٰ التقوىٰ وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوىٰ المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين..

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ فإن في اجتماع المسلمين علىٰ دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف علىٰ الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعىٰ في شهوة نفسه، ولو أدىٰ إلىٰ الضرر العام، ثم ذكرهم تعالىٰ نعمته وأمرهم بذكرها فقال:..

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ يقتل بعضكم بعضًا، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتىٰ إن القبيلة يعادي بعضهم بعضًا، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ، فلما بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا علىٰ الإسلام وتآلفت قلوبهم علىٰ الإيمان، كانوا كالشخص الواحد، من تآلف قلوبهم وموالاة بعضهم لبعض، ولهذا قال:..

﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ قد استحقيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها..

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ بما مَنَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ..

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يوضحها ويفسرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران:١٠٣] بمعرفة الحق والعمل به.

🕮 الفوائد

١- في هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم؛ ليزدادوا شكرا له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه.

٢- إن من أعظم ما يذكر من نِعَمِه: نعمة الهداية إلىٰ الإسلام.. واتباع الرسول ﷺ.. واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران:١٠٤]

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ وليكن منكم أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله..

﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة..

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلىٰ الله ويبعد من سخطه..

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه..

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه.. وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالىٰ عنهم..

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران] الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب.

📖 الفـوائـد

١- هذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلىٰ سبيله وإرشاد الخلق إلىٰ دينه.

٢- ويدخل في ذلك: العلماء **المعلمون** للدين.. **والوعاظ** الذين **يدعون أهل الأديان** إلىٰ الدخول في دين الإسلام، **ويدعون المنحرفين** إلىٰ الاستقامة.. **والمجاهدون** في سبيل الله.. والمتصدون **لتفقد أحوال الناس وإلزامهم** بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج، وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين، **وتفقد أهل الأسواق**، ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة..

٣- كل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤] إلخ، أي: لتكن منكم جماعة **يحصل المقصود بهم** في هذه الأشياء المذكورة.

٤- من المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام.. وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلىٰ الخير وسائلها ومقاصدها.. وبناء المدارس للإرشاد والعلم.. ومساعدة النواب ومعاونتهم علىٰ تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال.. وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥]

ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال:..

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ ومن العجائب أن اختلافهم..

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولىٰ من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥]..

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦]

يخبر تعالىٰ عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء، فقال..

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله.. وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره علىٰ وجوههم كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم..

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء

اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة.. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس]..

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ **فيقال لهم علىٰ وجه التوبيخ والتقريع..**

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ **كيف آثرتم الكفر والضلال علىٰ الإيمان والهدىٰ؟! وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟!**

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦] **فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار.**

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٧]

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ **فيهنئون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضىٰ ربهم ورحمته..**

﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٧] وإذا كانوا خالدين في الرحمة، **فالجنة أثر من آثار رحمته تعالىٰ،** فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران:١٠٨]

لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال:..

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا﴾ **نقصها..**

﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ **لأن أوامره ونواهيه مشتملة علىٰ الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل علىٰ الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال:..**

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٨]

نفىٰ إرادته ظلمهم فضلا عن كونه يفعل ذلك، فلا يُنقص أحدًا شيئًا من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ١٠٩﴾ [آل عمران:١٠٩]

أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران:١١٠-١١٢]

لما كانت الآية السابقة وهي قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران:١٠٤] أمرًا منه تعالىٰ لهذه الأمة، والأمر قد يمتثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أن **الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به**، وامتثلت أمر ربها واستحقت الفضل علىٰ سائر الأمم..

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يمدح تعالىٰ هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس..

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ **وذلك بتكميلهم لأنفسهم** بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به..

﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ **وبتكميلهم لغيرهم** بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **المتضمن** دعوة الخلق إلىٰ الله، وجهادهم علىٰ ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، **فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس**..

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ﴾ وفي هذا من **دعوته بلطف الخطاب** ما يدعوهم إلىٰ الإيمان..

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون **الخارجون عن طاعة الله، المعادون لأولياء الله** بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم..

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ﴾ فليس علىٰ المؤمنين منهم ضرر **في أديانهم ولا أبدانهم**، وإنما **غاية ما يصلون إليه من الأذىٰ أذية الكلام التي لا سبيل إلىٰ السلامة منها** من كل معادي..

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فلو قاتلوا المؤمنين لولَّوا الأدبار فرارًا..

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ ثم تستمر هزيمتهم، ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالىٰ أنه عاقبهم بالذلة..

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ في بواطنهم، والمسكنة علىٰ ظواهرهم..

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ فلا يستقرون ولا يطمئنون..

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾ أي: عهد..

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلا **يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم**، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارىٰ..

﴿وَبَآءُو﴾ وقد باءوا مع ذلك..

﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلىٰ هذه الحال ذكره الله بقوله..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي أنزلها الله علىٰ رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغيًا وعنادًا..

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ﴾ يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان

بأشر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والجناية شيء أعظم منها؟!

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعۡتَدُونَ ۝١١٢﴾ [آل عمران:١١٠-١١٢] وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله.

﴿۞ لَيۡسُوا سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ۝١١٣﴾ [آل عمران:١١٣]

لما بيَّن تعالىٰ الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبيَّن أفعالهم وعقوباتهم، بيَّن هاهنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها..

﴿۞ لَيۡسُوا سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فأخبر أنهم لا يستوون عنده، بل بينهم من الفَرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضىٰ وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالىٰ منهم..

﴿أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ مستقيمة علىٰ دين الله، قائمة بما ألزمها الله به من المأمورات، ومن ذلك قيامها بالصلاة..

﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ۝١١٣﴾ [آل عمران:١١٣] وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل، وطول تهجدهم، وتلاوتهم لكتاب ربهم، وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٤﴾ [آل عمران:١١٤]

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ كإيمان المؤمنين، إيمانًا يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله..

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وخص الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به علىٰ ما يقر به إلىٰ الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم..

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ **فحصل منهم: تكميل أنفسهم** بالإيمان ولوازمه.. **وتكميل غيرهم** بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ.. **ثم وصفهم بالهمم العالية**..

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إليها، فينتهزون الفرصة فيها، **ويفعلونها في أول وقت إمكانها**، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده..

﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة..

﴿مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٤] الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٥]

﴿وَمَا يَفْعَلُوا﴾ وأنهم مهما فعلوا..

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلًا كان أو كثيرًا..

﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ لن يحرموه ويفوتوا أجره، بل يثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال **ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها** من الإيمان والتقوى، فلهذا قال..

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٥] كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٦-١١٧]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، أي: لا تدفع عنهم شيئا من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئا من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي

﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧] بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلىٰ النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون علىٰ عدم القيام بها وعلىٰ كفرها، ولهذا قال:..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾..ثم ضرب مثلًا **لما ينفقه الكفار**..

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها علىٰ إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعا يرجو نتيجته ويؤمِّل إدراك ريعه..

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صِرٌّ، أي: برد شديد محرق..

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فأهلكت زرعه، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ [الأنفال: ٣٦]..

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإبطال أعمالهم..

﴿وَلَٰكِنْ﴾ كانوا..

﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٦-١١٧] حيث كفروا بآيات الله وكذَّبوا رسوله، وحرصوا علىٰ إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران:١١٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ ينهىٰ تعالىٰ عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة..

﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم، يظهرونهم علىٰ سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية..

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت علىٰ أفواههم..

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما يسمع منهم فلهذا، لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين..

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية..

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران:١١٨] فتعرفونها، وتفرقون بين الصديق والعدو.. قال الله مهيجا للمؤمنين علىٰ الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبينا شدة عداوتهم: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

📖 الفـوائـد

لَيس كلُّ أحد يُجعل بطانة، وإنما العاقل من **إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلعه من باطنه علىٰ شيء**، ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه.

﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران:١١٩]

﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله علىٰ أنبيائه، وهم لا يؤمنون بكتابكم..

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان..

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ وهي أطراف الأصابع..

﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ من شدة غيظهم عليكم..

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران:١١٩]..

📖 الفـوائـد

هذا فيه بشارة للمؤمنين، أنَّ هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم، وإن **غيظهم لا يقدرون علىٰ تنفيذه**، بل لا يزالون معذَّبين به حتىٰ يموتوا فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلىٰ عذاب الآخرة.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠]

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم..

﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تغمهم وتحزنهم..

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر -وهي الصبر والتقوى- لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم..

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠] لأنه محيط بهم علمه وقدرته، فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران:١٢١]

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة..

﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ تنزلهم وترتبهم، كلٌ في مقعده اللائق به..

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون، كُلٌ يتكلم بحسب ما في قلبه..

﴿عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران:١٢١] بنيَّات العبيد، فيجازيهم عليها أتمَّ الجزاء.. وأيضا فالله سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره، كما قال تعالى لموسى وهارون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه].

📖 الفوائد

١- هذه الآيات نزلت في وقعة (أُحد).. وقصتها مشهورة في السير والتواريخ.

٢- **لعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع**، وأدخل في أثنائها وقعة (بدر): لِمَا أنَّ الله تعالىٰ قد **وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم**، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكمًا عامًا ووعدًا صادقًا لا يتخلف، **مع الإتيان بشرطه.. فذكر نموذجًا من هذا في هاتين القصتين**، وأن الله **نصر المؤمنين في (بدر) لما صبروا واتقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوىٰ ما صدر.**

٣- **من حكمة الجمع بين القصتين**: أن الله يحب من عباده **إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يحبون**، فيخف عنهم البلاء، ويشكروا الله علىٰ نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلىٰ المحبوب نزرًا يسيرًا، وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذه الحكمة في قوله: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

٤- **وحاصل قضية (أحد) وإجمالها:**

أن المشركين لما رجع فُلهم من (بدر) إلىٰ مكة، وذلك **في سنة اثنتين** من الهجرة، **استعدوا** بكل ما يقدرون عليه من **العدد** بالأموال والرجال والعدد، حتىٰ اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم..

ثم وجهوا **من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف** مقاتل، حتىٰ نزلوا **قرب المدينة**..

فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه، بعد المراجعة والمشاورة، حتىٰ **استقر رأيهم علىٰ الخروج**، وخرج **في ألف**..

فلما ساروا قليلًا **رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلث الجيش** ممن هو علىٰ مثل طريقته..

وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم **بنو سلمة وبنو حارثة** فثبتهم الله..

فلما وصلوا إلىٰ أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم، **وأسندوا ظهورهم إلىٰ أحد**..

ورتب النبي ﷺ **خمسين رجلا من أصحابه في خلة في جبل (أُحُد)**، وأمرهم أن يلزموا مكانهم، ولا يبرحوا منه؛ ليأمنوا أن يأتيهم أَحَدٌ من ظهورهم..

فلما التقىٰ المسلمون والمشركون **انهزم المشركون هزيمة قبيحة**، وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون..

فلما **رآهم الرماة** الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، **ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية** فلم يلتفتوا إليه..

فلما **أخلوا موضعهم** فلم يبق فيه إلا نفر يسير، **منهم أميرهم** عبد الله بن جبير، **جاءت خيل المشركين** من ذلك الموضع، واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقتهم..

فجال المسلمون جولة ابتلاهم الله بها وكفَّر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبةً المخالفة، **فحصل ما حصل من قَتل مَن قُتل منهم..**

ثم إنهم **انحازوا إلىٰ رأس جبل (أحد)**، وكف الله عنهم أيدي المشركين، وانكفأوا إلىٰ بلادهم.. ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة.

٥- فيها **أعظم مدح للنبي ﷺ**؛ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره، وعلو همته، حيث **يباشر هذه الأمور بنفسه** وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران:١٢٢]

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ من المؤمنين بالفشل، وهم **بنو سلمة وبنو حارثة** -كما تقدم- ثبتهما الله تعالىٰ، نعمة عليهما وعلىٰ سائر المؤمنين، فلهذا قال..

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليته لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة -وهي الفشل والفرار عن رسول الله- عصمهما؛ لما معهما من الإيمان كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ثم قال..

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران:١٢١-١٢٢] ففيها: الأمر بالتوكل الذي هو **اعتماد القلب علىٰ الله** في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله.. وأنه **بحسب إيمان العبد**

يكون توكله.. وأن **المؤمنين أولىٰ بالتوكل** علىٰ الله من غيرهم، وخصوصا في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلىٰ التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد علىٰ حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣]

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وهذا **امتنان** منه علىٰ عباده المؤمنين، **وتذكير** لهم بما نصرهم به يوم (بدر) وهم أذلة، في قلة عَددهم وعُددهم، مع كثرة عدد عدوهم وعُددهم.. فلهذا قال..

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣] **لأن من اتقىٰ ربه فقد شكره**، ومن **ترك التقوىٰ فلم يشكره**.

📖 **الفـوائـد**

كانت وقعة بدر في **السنة الثانية** من الهجرة.

خرج النبي ﷺ من المدينة **بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه**، ولم يكن معهم **إلا سبعون بعيرا وفرسان**، لطلب عيرٍ لقريش قدمت من الشام.

فسمع به المشركون، فتجهزوا من مكة لفكاك عيرهم.

وخرجوا في زهاء **ألف مقاتل** مع العدة الكاملة والسلاح العام **والخيل الكثيرة**.

فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له (بدر)، بين مكة والمدينة.

فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصرًا عظيمًا.

فقتلوا من المشركين **سبعين** قتيلا من صناديد المشركين وشجعانهم، **وأسروا سبعين**، واحتووا علىٰ معسكرهم.

ستأتي - إن شاء الله- القصة في سورة الأنفال، فإنَّ ذلك موضعها، ولكن الله تعالىٰ هنا أتىٰ بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٥]

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ يا محمد..

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يوم بدر مبشرًا لهم بالنصر..

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر..

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٥] **مُعَلِّمين بِعَلامَةِ الشُّجعان.**

الفـوائـد

١- شَرَطَ اللهُ لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم.

٢- وعد النصر وقمع كيد الأعداء: **شرط الله له الشرطين الأولين،** كما تقدم في قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٦]

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إمداده لكم بالملائكة..

﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ تستبشرون بها وتفرحون..

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل **الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم،** وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب، كما هي سنته في

خلقه، **وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليبين لعباده أن الأمر كله بيديه**، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال..

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ فلا يمتنع عليه مخلوق، بل **الخلق كلهم أذلاء** مدبَّرون تحت تدبيره وقهره..

﴿ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران:١٢٦] الذي يضع الأشياء مواضعها، **وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة**، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤].

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ [آل عمران:١٢٧]

يخبر تعالىٰ أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين:

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ **إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا**، أي: جانبا منهم وركنا من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء علىٰ بلد، أو غنيمة مال، فيقوىٰ بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم، فبهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة، فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم..

﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ [آل عمران:١٢٧] **الأمر الثاني: أن** يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم، طمعا في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويبذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة.. **وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائرا بين هذين الأمرين**، غير خارج عنهما، إما **نصر** عليهم، أو **خذل** لهم.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران:١٢٨]

لما جرىٰ يوم (أحد) ما جرىٰ، وجرىٰ على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشج رأسه، وكسرت رباعيته، قال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم»(١)، وجعل يدعو علىٰ رؤساء من المشركين، مثل: أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله نهيًا له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرد عن رحمة الله..

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص علىٰ مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالىٰ هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم، بل أمرهم راجع إلىٰ ربهم..

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم علىٰ كفرهم وعدم هدايتهم -فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسببوا بذلك- فعل..

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران:١٢٨]..

الفوائد

١- قد تاب الله علىٰ هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم.

٢- في هذه الآية مما يدل علىٰ أن **اختيار الله غالب** علىٰ اختيار العباد.

٣- وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره **قد يختار شيئًا وتكون الخيرة والمصلحة في غيره.**

٤- وأن الرسول ﷺ **ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولىٰ.**

٥- **فيها أعظم رد علىٰ من تعلق بالأنبياء** أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقصٌ في العقل، يتركون من الأمر كله له، ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد.

٦- وتأمل كيف **لما ذكر تعالىٰ توبته عليهم أسند الفعل إليه**، ولم يذكر منهم سببًا موجبًا لذلك، ليدل ذلك علىٰ أن **النعمة محض فضله علىٰ عبده**، من غير سبق سبب من

(١) أخرجه مسلم [١٧٩١] وغيره من حديث أنس.

العبد ولا وسيلة، **ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم**، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال: ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾؛ ليدل ذلك على **كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه**..

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران:١٢٩]

ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال..

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل مِلكٌ لله مخلوقون مدبرون متصرف فيهم تصرف المماليك، فليس لهم مثقال ذرة من الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه، فـ..

﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه..

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر، فيعمل الشر ويعذبه على ذلك.. ثم ختم الآية **باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته**، وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران:١٢٩] ففيها أعظم بشارة **بأن رحمته غلبت غضبه**، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق، وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، **فلم يختمها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة**، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان **سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف**، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ نهاهم عن أكل الربا أضعافا مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدَّين، وإما أن نزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك، اغتناما لراحته الحاضرة،، فيزداد -بذلك- ما في ذمته أضعافًا مضاعفةً، من غير نفع وانتفاع..

﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ تنبيه على **شدة شناعته** بكثرته، وتنبيه **لحكمة تحريمه**، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه **لما فيه من الظلم**؛ وذلك أن الله **أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة**، فإلزامه بما فوق ذلك ظلمٌ متضاعف..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ **فيتعين على المؤمن المتَّقِي تركَه وعدمَ قربانِه**؛ لأنَّ تركَه من موجبات التقوى، والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال:..

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها- وخصوصا المعاصي الكبار- تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، **فترك المعاصي ينجي من النار**، ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة، ولهذا قال..

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بفعل الأوامر امتثالا واجتناب النواهي..

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٢] فطاعة الله وطاعة رسوله، **من أسباب حصول الرحمة**، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآيات.

📖 الفوائد

١- تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له **مراعاة الأوامر والنواهي** في نفسه وفي غيره.. وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه -أولا- أن يعرف حدَّه، وما هو الذي أمر به؛

ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله علىٰ امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه.. وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه، وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي.. وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت عن أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله بها وحث علىٰ فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلىٰ نواهي حث علىٰ تركها.

٢- لعل الحكمة -والله أعلم- في إدخال هذه الآيات أثناء قصة (أحد):

أنه قد تقدم أن الله تعالىٰ وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم علىٰ أعدائهم، وخذَّل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ثم قال: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم ﴾ [آل عمران: ١٢٥] الآيات..

فكأن النفوس اشتاقت إلىٰ معرفة خصال التقوىٰ التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات **أهم خصال التقوىٰ** التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولىٰ وأحرىٰ..

ويدل علىٰ ما قلنا: أن الله ذكر لفظ التقوىٰ في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة وهي قوله: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ومرتين مقيدتين، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ [آل عمران: ١٣١].

٣- كل ما في القرآن من قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل علىٰ **أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي**؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ

يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦]

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ثم أمرهم تعالىٰ بالمسارعة إلىٰ مغفرته..

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها..

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوىٰ هي الموصلة إليها.. ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال:..

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا ولو قَلَّ..

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ إذا حصل لهم من غيرهم أذيَّةٌ توجب غَيظَهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل- لا يعملون بمقتضىٰ الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم..

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ يدخل في العفو عن الناس: العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، **والعفو أبلغ من الكظم**، لأن العفو **ترك المؤاخذة مع السماحة** عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن **تحلَّىٰ بالأخلاق الجميلة**، وتخلَّىٰ عن الأخلاق الرذيلة، وممن **تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، وكراهةً لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره علىٰ ربه الكريم، لا علىٰ العبد الفقير**، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ: ٤٠].. ثم ذكر حالةً أعمَّ من غيرها، وأحسن وأعلىٰ وأجلّ، وهي الإحسان، فقال تعالىٰ:..

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ **والإحسان نوعان**: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلىٰ المخلوق.. **فالإحسان في عبادة الخالق**: فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].. **وأما الإحسان إلىٰ المخلوق**: فهو إيصال النفع الديني

---

(١) أخرجه البخاري [٥٠]، ومسلم [٩] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، **فيدخل في ذلك**: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، علىٰ اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، **فيدخل في ذلك**: بذل الندىٰ وكف الأذىٰ، واحتمال الأذىٰ، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، **فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده**.. ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: صدر منهم أعمالٌ سيئةٌ كبيرة، أو ما دون ذلك..

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بادروا إلىٰ التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توَّعَد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال:..

﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات..

﴿جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ تزيل عنهم كلَّ محذور..

﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ لا يحولون عنها، ولا يبغون بها بدلًا ولا يُغَيِّر ما هم فيه من النعيم..

﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦] عملوا لله قليلًا فأُجِروا كثيرا فـ(عند الصباح يحمد القوم السرىٰ) وعند الجزاء يَجِدُ العامل أجرَه كاملًا موفرًا.

🕮 الفـوائـد

وهذه الآيات الكريمات: من أدلة أهل السنة والجماعة، علىٰ أن **الأعمال تدخل في الإيمان، خلافا للمرجئة.**

ووجه الدلالة: إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١]، **فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال:** ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، **ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية،** فدل علىٰ أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران:١٣٧-١٣٨]

وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة (أحد) **يعزي تعالىٰ عباده المؤمنين ويسليهم..**

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ ويخبرهم أنه مضىٰ قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتُحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، **فلم يزالوا في مداولة ومجاولة،** حتىٰ جعل الله العاقبة للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، **وآخر الأمر حصلت الدولة علىٰ المكذبين،** وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم..

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم..

﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ **فإنكم لا تجدونهم إلا معذَّبين** بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكلِّ أحد خسارُهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد علىٰ صدق ما جاءت به الرسل؟!.. **وحكمة الله التي يمتحن بها عباده ليبلوهم** ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ **دلالة ظاهرة،** تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلىٰ ما أوقع الله بالمكذبين.. **ويحتمل:** أن الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ للقرآن العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموما، وهدىٰ وموعظة للمتقين خصوصا، وكلا المعنيين حق..

﴿وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران:١٣٨] **لأنهم هم المنتفعون بالآيات فتهديهم إلىٰ سبيل الرشاد، وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم، تقوم به عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.**

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران:١٣٩]

يقول تعالىٰ مشجعًا لعباده المؤمنين، ومقويًا لعزائمهم ومنهضا لهممهم..

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ **ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم..**

﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوىٰ.. فإنَّ الحزن في القلوب، والوهن علىٰ الأبدان، **زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم**.. بل **شجعوا قلوبكم وصبِّروها، وادفعوا عنها** الحزن وتصلبوا علىٰ قتال عدوكم.. وذكر تعالىٰ أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، **فالمؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك**، ولهذا قال تعالىٰ:..

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران:١٣٩]..

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠﴾ [آل عمران:١٤٠]

ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبيَّن **الحِكَمَ العظيمة المترتبة علىٰ ذلك، فقال..**

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ **فأنتم وإياهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالىٰ:** ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء: ١٠٤]..

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ **ومن الحكم في ذلك: أن هذه الدار يعطي الله منها**

المؤمن والكافر، والبر والفاجر، **فيداول الله الأيام** بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرىٰ؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا **بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا**..

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا أيضا **من الحكم، أنه يبتلي الله عباده** بالهزيمة والابتلاء، **ليتبين المؤمن من المنافق**؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبيَّن المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسراء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك..

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وهذا أيضا من بعض **الحكم، لأن الشهادة** عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن **قيَّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون** من المنازل العالية والنعيم المقيم..

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠﴾ [آل عمران:١٤٠] الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله.. وكأن في هذا **تعريضا بذم المنافقين**، وأنهم مُبغَضُون لله، ولهذا ثَبَّطَهم عن القتال في سبيله، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة].

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران:١٤١]

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا أيضا **من الحِكَم** أن الله **يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم**، يدل ذلك علىٰ **أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب.. وليمحص الله أيضا المؤمنين من غيرهم من المنافقين**، فيتخلَّصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق..

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران] ومن **الحِكَم أيضًا** أنه يقدِّر ذلك **ليمحق الكافرين**، أي: **ليكون سببًا لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة**، فإنَّهم إذا انتصروا بغوا، وازدادوا طغيانًا إلىٰ طغيانهم، يستحقون به المعاجلة بالعقوبة، رحمةً بعباده المؤمنين.. ثم قال تعالىٰ:..

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ **هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم..**

﴿أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢] **أن** تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته.. فإن الجنة أعلىٰ المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون.. وكُلَّما عَظُمَ المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصِل إليه.. **فلا يوصل إلىٰ الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم**.. ولكنَّ مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله -**عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها**، ومعرفة ما تئول إليه- تنقلبُ عند أرباب البصائر منحًا يُسَرُّون بِها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:١٤٣]

ثم وبخهم تعالىٰ علىٰ عدم صبرهم بـ: أمرٍ كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال:..

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ **وذلك أنَّ** كثيرًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ممن فاته (بدر) يتمنون أن يُحضِّرَهم اللهُ مشهدًا يبذلون فيه جهدهم، قال الله تعالىٰ لهم:..

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ رأيتم ما تمنيتم بأعينكم..

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:١٤٣] فما بالكم وترك الصبر؟! هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصًا لمن تمنىٰ ذلك، وحصل له ما تمنىٰ، فإنَّ الواجبَ عليه بَذلُ الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

🕮 الفوائد

في هذه الآية دليلٌ علىٰ أنه **لا يكره تمني الشهادة**.

ووجه الدلالة: أن الله تعالىٰ أقرَّهم علىٰ أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران:١٤٤]

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ ليس بِبِدَعٍ من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله.. **وظيفتهم** تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره.. ليسوا بمخلدين، **وليس بقاؤهم شرطًا في امتثال أوامر الله،** بل الواجب علىٰ الأمم عبادةُ ربِّهم في كل وقت وبكلِّ حال، ولهذا قال..

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ﴾ بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك..

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ **إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالىٰ غني عنه،** وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين.. **فلما وبَّخ تعالىٰ من انقلب علىٰ عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله،** وامتثل أمر ربه، فقال..

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران:١٤٤] والشكر لا يكون **إلا بالقيام بعبودية الله تعالىٰ في كل حال.**

📖 الفـوائـد

١- في هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالىٰ لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فقدُ رئيسٍ ولَو عَظُم، وما ذاك **إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه،** إذا فقد أحدهم قام به غيره، **وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله** والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، **فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم،** وتستقيم أمورهم.

٢- وفي هذه الآية أيضا أعظم دليل على **فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين** بعد رسول الله ﷺ؛ **لأنهم هم سادات الشاكرين.**

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران:١٤٥]

ثم أخبر تعالىٰ أن النفوس جميعها متعلقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه..

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ فمن حتَّم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه فلو أتىٰ من الأسباب كلَّ سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلىٰ أجل مسمىٰ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس].. ثم أخبر تعالىٰ أنه **يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إراداتهم**، فقال:.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ قال الله تعالىٰ: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء]..

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران:١٤٥] ولم يذكر جزاءهم؛ ليدل ذلك علىٰ **كثرته وعظمته**، وليعلم **أن الجزاء علىٰ قدر الشكر**، قلة وكثرة وحسنا.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨]

هذا تسلية للمؤمنين، وحث علىٰ الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدِّمًا، لم تزل سنةُ اللهِ جاريةً بذلك، فقال..

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ وكم من نبي..

﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك..

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ﴾ ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم..

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال:..

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم، فقال:..

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ في تلك المواطن الصعبة..

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ والإسراف: هو مجاوزة الحد إلىٰ ما حرم.. علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.. ثم إنهم لم يتكلوا علىٰ ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا علىٰ الله..

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين..

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ وأن ينصرهم عليهم، **فجمعوا** بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.. ولهذا قال:..

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من النصر والظفر والغنيمة..

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم الذي قد سَلِم من جميع المنكدات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال:..

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨] في عبادة الخالق ومعاملة الخلق.. ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٤٩-١٥١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم **لم يريدوا لهم إلا الشر**، وهم قصدهم ردهم إلىٰ الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران..

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه **إخبار** لهم بذلك.. **وبشارة** بأنه **سيتولىٰ أمورهم** بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور.. وفي ضمن ذلك **الحث لهم علىٰ اتخاذه وحده وليًا** وناصرًا من دون كل أحد..

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ **فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب**، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم.. وقد فعل تعالىٰ؛ وذلك أن المشركين -بعدما انصرفوا من وقعة (أحد)- تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمناهم ولمَّا نستأصلهم؟! فهمُّوا بذلك، فألقىٰ اللهُ الرعب في قلوبهم، فانصرفوا خائبين.. ولا شك أن هذا من أعظم النصر؛ لأنه قد **تقدَّم أنَّ نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين**: إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا، أو **يكبتهم فينقلبوا خائبين، وهذا من الثاني**.. ثم ذكر السبب **الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين**، فقال..

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها علىٰ حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة..

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن.. فمن ثَمَّ كان المشرك مرعوبًا من المؤمنين، لا يعتمد علىٰ ركنٍ وثيقٍ، وليس له ملجأ عند كلِّ شدة وضيق، **هذا حاله في الدنيا، وأما في الآخرة فأشد وأعظم**، ولهذا قال:..

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ مستقرهم الذي يأوون إليه، وليس لهم عنها خروج..

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٤٩-١٥١] بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢]

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بالنصر، فنصركم عليهم..

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ حتىٰ ولوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلًا..

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ حتىٰ صرتم سببًا لأنفسكم وعونا لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور..

﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلفتم، فمن قائل: نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور؟!

﴿وَعَصَيْتُم﴾ فعصيتم الرسول، وتركتم أمره..

﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهو انخذال أعدائكم؛ لأن الواجب علىٰ من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره.. فالواجب في هذه الحال خصوصًا، وفي غيرها عموما، امتثال أمر الله ورسوله..

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب..

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين لزموا أمرَ رسول الله ﷺ وثبتوا حيث أمروا..

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بعدما وُجِدَت هذه الأمورُ منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم..

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ابتلاء من الله لكم وامتحانًا، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي..

﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم..

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران:١٥٢] **ذو فضل عظيم عليهم، حيث منَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم علىٰ مصيباتهم.. ومن فضله علىٰ المؤمنين أنه لا يقدِّر عليهم خيرًا ولا مصيبة، إلا كان خيرا لهم، إن أصابتهم** سراءٌ فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراءٌ فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران:١٥٣]

يذكرهم تعالىٰ **حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم علىٰ ذلك، فقال:..**

﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ **تجِدُّون في الهرب..**

﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ **لا يلوي أحدٌ منكم علىٰ أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن القتال..**

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ **والحال أنه ليس عليكم خطرٌ كبير، إذ لستم** آخر الناس مما يلي الأعداء، ويباشر الهيجاء، بل ﴿ٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي: مما يلي القوم يقول: «إليَّ عبادَ الله»، فلمْ تَلتَفِتُوا إليه، ولا عَرَّجتم عليه.. **فالفرار نفسُه موجِبٌ للوم، ودعوة الرسول** الموجبة لتقديمه علىٰ النفس، **أعظم لَوْمًا بتخلفكم عنها..**

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ **جازاكم علىٰ فعلكم..**

﴿غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ **غمًا يتبع غمًا: غمٌّ بفوات النصر وفوات الغنيمة.. وغَمٌّ بانهزامكم.. وغَمٌّ أنساكم كلَّ غمٍّ، وهو سماعكم أن محمدا ﷺ قد قُتِل.. ولكنَّ الله -بلطفه وحسن نظره لعباده- جعل اجتماع هذه الأمور** لعباده المؤمنين **خيرًا لهم**، فقال..

﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من النصر والظفر..

﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، **إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم**

يُقتل، هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسَلِّي عن كلِّ مصيبة ومحنة.. **ويُحتمل**: أن معنىٰ قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ يعني: أنه قدَّر ذلك الغم والمصيبة عليكم، **لكي تتوطن نفوسكم**، وتُمَرَّنوا علىٰ الصبر علىٰ المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات.. فلله **ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم**، وكل هذا صادر **عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم**، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال..

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران:١٥٣]..

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران:١٥٤]

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي أصابكم..

﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأنَّ الخائف لا يأتيه النُّعاس؛ لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.. **وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون**، الذين ليس لهم همٌّ إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين..

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ وأما الطائفة الأخرىٰ الذين..

﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فليس لهم هم في غيرها؛ لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم..

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر -أي: النصر والظهور- شيء، فأساءوا الظنَّ بربِّهم وبدينه

ونبيِّه، وظنُّوا أن الله لا يتم أمرَ رسوله، وأنَّ هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية علىٰ دين الله، قال الله في جوابهم..

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ **الأمر يشمل الأمر القدري والأمر الشرعي، فجميع الأشياء** بقضاء الله وقدره، **وعاقبته النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرىٰ عليهم ما جرىٰ..**

﴿يُخۡفُونَ﴾ يعني المنافقين..

﴿فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ ثم بيَّن الأمرَ الذي يخفونه، فقال..

﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ﴾ لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة..

﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ وهذا إنكارٌ منهم وتكذيبٌ بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ ورأي أصحابه، وتزكيةٌ منهم لأنفسهم، فردَّ اللهُ عليهم بقوله..

﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظانِّ القتل..

﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ فالأسباب -وإن عظمت- إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، **فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا**، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة..

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان..

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران:١٥٤] **بما فيها وما أكنته، فاقتضىٰ علمه** وحكمته **أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبآت الصدور** وسرائر الأمور.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾ [آل عمران:١٥٥]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ يخبر تعالىٰ عن حال الذين انهزموا يوم (أحد) وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلَّط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه علىٰ أنفسهم، ومكَّنوه بما

فعلوا من المعاصي، لأنها مركَّبه ومدخَله، **فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان**، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]..

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذة، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكفرة..

﴿حَلِيمٌ ۝١٥٥﴾ [آل عمران:١٥٥] لا يعاجل من عصاه، بل يستأنِي به، ويدعوه إلىٰ الإنابة إليه، والإقبال عليه.. ثم إن تاب وأناب قَبِل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر منه عيب، فلله الحمد علىٰ إحسانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١٥٦ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝١٥٨﴾ [آل عمران:١٥٦-١٥٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ينهىٰ تعالىٰ عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم، **ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص**، وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النَّسَب..

﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سافروا للتجارة..

﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ غزاة، ثم جرىٰ عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون..

﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾، ولكن **هذا التكذيب لم يفدهم**..

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إلا أن الله يجعل هذا القول وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم.. وأما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيؤمنون ويسلمون، فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة.. قال الله ردا عليهم..

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو المنفرد بذلك، فلا يغني حذرٌ عن قدر..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.. ثم أخبر تعالىٰ أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور..

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلىٰ مغفرة الله ورحمته..

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ﴾ وأن الخلق أيضًا إذا ماتوا..

﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ بأي حالةٍ كانت..

﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران:١٥٦-١٥٨] فإنَّما مرجعهم إلىٰ الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلًا بعمله، فأين الفرار إلا إلىٰ الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩]

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ برحمة الله لك ولأصحابك، منَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك..

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سيئ الخلق..

﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه..

﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ.. ثم أمره الله تعالىٰ بأن يعفو عنهم..

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ..

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ في التقصير في حق الله، **فيجمع بين العفو والإحسان**..

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ الأمور التي تحتاج إلىٰ استشارة ونظر وفكر..

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ﴾ علىٰ أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلىٰ استشارة..

﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ اعتمد علىٰ حول الله وقوته، متبرئا من حولك وقوتك..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩] عليه، اللاجئين إليه.

🕮 الفـوائـد

١- **الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين تجذب الناس** إلىٰ دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، **والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين**، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص.. فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالًا لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله.

٢- **إنَّ في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:**

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلىٰ الله.

ومنها: أن فيها تسميحًا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإنَّ من له الأمر علىٰ الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد عليهم، وإنما ينظر إلىٰ المصلحة الكلِّية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنَّهم لا يكادون يحبونه محبةً صادقة، ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلًا وأغزرهم علمًا، وأفضلهم رأيًا-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فكيف بغيره؟!

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠]

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ إن يمددكم الله بنصره ومعونته..

﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلو اجتمع عليكم مَن في أقطارها وما عندهم من العَدد والعُدد؛ لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العبادَ وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابةٌ إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه..

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلىٰ أنفسكم..

﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ فلا بدَّ أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق.. **وفي ضمن ذلك:** الأمر بالاستنصار بالله.. والاعتماد عليه.. والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال:..

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠] **تقديم المعمول يؤذن بالحصر،** أي: علىٰ الله توكلوا لا علىٰ غيره، لأنَّه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصِّل للمقصود، والاعتماد علىٰ غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.. وفي هذه الآية **الأمر بالتوكل علىٰ الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.**

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران:١٦١]

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ **الغَلول هو: الكتمان من الغنيمة..** وهو محرم إجماعا، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص.. فأخبر الله تعالىٰ أنه ما

ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل؛ لأن الغلول -كما علمت- من أعظم الذنوب وأشر العيوب.. وقد صان الله تعالىٰ أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقًا، وأطهرهم نفوسًا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمته، ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].. **فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم**، ولا يحتاج إلىٰ دليل علىٰ ما قيل فيهم من أعدائهم؛ لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتىٰ بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ أي: يمتنع ذلك ويستحيل علىٰ من اختارهم الله لنبوته.. ثم ذكَرَ الوعيدَ علىٰ من غَلَّ، فقال..

﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ يأت به حامِلَه علىٰ ظهره، حيوانًا كان أو متاعًا، أو غيرَ ذلك، ليعذَّب به يوم القيامة..

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ الغال وغيره، كل يوفَّىٰ أجرُه ووزره علىٰ مقدار كسبه..

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾ [آل عمران] لا يزاد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئًا من حسناتهم.

📖 الفوائد

تأمل **حسن هذا الاحتراز** في هذه الآية الكريمة: لما ذكرَ عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غلَّه، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان الاقتصار علىٰ الغال يوهم -بالمفهوم- أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون- أتىٰ بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣]

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالىٰ أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل علىٰ ما يرضيه كمن ليس كذلك..

﴿ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾ ممن هو مكب علىٰ المعاصي،

مسخط لربه.. **هذان لا يستويان في**: حكم الله، وحكمة الله، وفي فِطَرِ عباد الله، ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ ﴾ [السجدة]، ولهذا قال هنا:..

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ **كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.. فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كل على حسب عمله..**

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٦٣﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣] **والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى** عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكَّل ملائكته الأمناء الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران:١٦٤]

هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي **الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم**، الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال..

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ **يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحا لهم، مشفقا عليهم..**

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ **يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها..**

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشرك، والمعاصي، والرذائل، وسائر مساوئ الأخلاق..

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ **إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ المراد به الآيات الكونية.. أو المراد بالكتاب -هنا- الكتابة، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ..**

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة..

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾ بعثة هذا الرسول..

﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران:١٦٤] لا يعرفون الطريق الموصل إلىٰ ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين.

📖 الفـوائـد

جمع لهم بين: تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها.. ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين.. وكانوا من العلماء الربانيين.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران:١٦٥]

هذا تسلية من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم (أحد) وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله..

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم﴾ من المشركين..

﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾ يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنَّكم لا تستوون أنتم وهم، فإنَّ قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار..

﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟!

﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا علىٰ أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران:١٦٥] فإيَّاكم وسوء الظن بالله، فإنَّه قادرٌ علىٰ نصركم، ولكنَّ له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم، ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا

﴿لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٨]

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين في (أحد) من القتل والهزيمة..

﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مردَّ له، ولابد من وقوعه.. **والأمر القدري - إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له**.. وأنه قدَّره لحِكَمٍ عظيمة، وفوائد جسيمة..

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أُمِروا بالقتال..

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ **ذبًا** عن دين الله، وحماية له، وطلبا لمرضاة الله..

﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ عن محارمكم وبلدكم إن لم يكن لكم نية صالحة، فأَبوا ذلك، واعتذروا بأن..

﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم.. **وهم كذبة في هذا**؛ قد علموا وتيقنوا وعلم كل أَحد أن هؤلاء المشركين قد مُلئوا من الحُنقِ والغَيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعُدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرِّقين على قتالهم، **فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟!** خصوصًا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكنَّ المنافقين **ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين**، قال تعالى:..

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين..

﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه **خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده** في قلوبهم وسرائرهم، ومنه قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، فإنهم قد علموا وقوع القتال..

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ فيبديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه..

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ **جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره**، قال الله ردًّا عليهم:..

﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ﴾ ادفعوا..

﴿عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٨] إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.

الفـوائـد

١- يستدل بهذه الآية على قاعدة **ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعجز عن أعلاهما**؛ لأن المنافقين أُمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان.

٢- في هذه الآيات دليل على أن **العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان**، وقد يكون إلى أحدهما **أقرب منه إلى الأخرى**.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]

هذه الآيات الكريمة فيها **فضيلة الشهداء** وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه.. **وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله** والتعرض للشهادة، فقال:..

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في جهاد أعداء الدين، **قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله**..

﴿أَمۡوَٰتَۢاۚ﴾ لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفُقِدوا، وذهبتْ عنهم لذة الحياة الدنيا

والتمتع بزهرتها الذي يَحذَرُ من فواته من جَبُنَ عن القتال، وزَهَدَ في الشهادة..

﴿بَلۡ﴾ قد حصل لهم أعظمُ مما يَتنافسُ فيه المتنافسون، فهم..

﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في دار كرامته.. ولفظ: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم..

﴿يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ من أنواع النعيم الذي لا يَعلم وصفَه إلا من أنعَم به عليهم، ومع هذا..

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ مغتبطين بذلك، قد قرَّت به عيونُهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته، وكمالِ اللذة في الوصول إليه، وعدمِ المنغِّص.. **فجمع الله لهم بين نعيم البدن** بالرزق، **ونعيم القلب** والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتمَّ لهم النعيم والسرور..

﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ وجَعلوا يبشر بعضهم بعضًا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا..

﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾ يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزمُ كمال السرور..

﴿۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ يهنىء بعضهم بعضًا، بأعظم مُهَنًّأ بِهِ، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١] بل ينمِّيه ويشكره، ويزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآيات:

١- **إثبات نعيم البرزخ.**

٢- **وأن الشهداء في أعلىٰ مكان** عند ربهم.

٣- **وفيه تلاقي أرواح أهل الخير**، وزيارة بعضهم بعضًا، وتبشير بعضهم بعضًا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٣]

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لما رجع النبي ﷺ من (أُحد) إلىٰ المدينة، وسَمع أنَّ أبا سفيان ومن معه من المشركين قد همُّوا بالرجوع إلىٰ المدينة، نَدب أصحابَه إلىٰ الخروج، فخرجوا -علىٰ ما بهم من الجراح- استجابةً لله ولرسوله، وطاعةً لله ولرسوله، فوصلوا إلىٰ (حمراء الأسد)، وجاءهم من جاءهم، وقال لهم..

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ وهمُّوا باستئصالكم، تخويفًا لهم وترهيبًا..

﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا بالله واتكالًا عليه..

﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا كلَّ ما أهمَّنا..

﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٣] **المُفوَّضُ إليه تدبيرُ عباده، والقائم بمصالحهم.**

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾ [آل عمران:١٧٤]

وجاء الخبرُ المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، ونَدِم من تخلف منهم، فألقىٰ الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلىٰ مكة..

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل..

﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾ [آل عمران:١٧٤] حيث مَنَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال علىٰ ربهم.. ثم إنه قد **كُتِب لهم أجرُ غزاة تامّة**، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، **لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم.**

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إن ترهيب من رهَّب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داعٍ من دعاة الشيطان..

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ الذين عُدمَ إيمانُهم، أو ضعُف..

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره..

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته..

🕮 الفوائد

في هذه الآية: وجوب **الخوف من الله وحده**، وأنه **من لوازم الإيمان**، فعلىٰ قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله.. والخوف المحمود: ما **حجز العبد عن محارم الله**.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦]

كان النبي ﷺ حريصا علىٰ الخلق، مجتهدا في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالىٰ..

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه..

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم.. إنما **يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم**، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرىٰ..

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ من هوانهم علىٰ الله وسقوطهم من عينه وإرادته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه خَذَلهم، فلم يوفِقْهم لما وفَّق له أولياءَه ومن أراد

به خيرًا، عدلًا منه وحكمة، لعِلمه بأنهم غيرُ زاكين على الهدى، ولا قابلين للرَّشاد، لفسادِ أخلاقهم وسوءِ قصدهم..

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦]..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران:١٧٧]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان، ورغبوا فيه رغبةَ من بذل ما يحبُ من المال في شراء ما يحب من السلع..

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال..

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران:١٧٧] وكيف يضرون الله شيئا وهم قد زهدوا أشدَّ الزهد في الإيمان، ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن؟! فالله غني عنهم.. وقد قيَّض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم، وأعدَّ له -ممن ارتضاه لنصرته- أهل البصائر والعقول، وذوي الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء] الآيات.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ولا يظن الذين كفروا بربهم ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله..

﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ أن تركَنا إياهم في هذه الدنيا، وعَدَم استئصالنا لهم، وإملاءَنا لهم..

﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ ومحبة منا لهم.. كلا ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر يريده الله بهم، وزيادةِ عذاب وعقوبةٍ إلى عذابهم، ولهذا قال..

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨] **فالله تعالى يملي للظالم** حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه، حتى إذا أخذَه، أَخذَه أَخذَ عزيز مقتدر، **فليحذر الظالمون من الإمهال،** ولا يظنوا أنَّ يفوتوا الكبيرَ المتعال.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران:١٧٩]

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ﴾ **ما كان في حكمة الله..**

﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ **أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز..**

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ **والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب..**

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ **ولم يكن في حكمته أيضًا..**

﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾ **أن يطلع عباده..**

﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ **الذي يعلمه من عباده.. فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان..**

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ **فأرسل الله رسله..**

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ **وأمر بطاعتهم، والانقياد لهم، والإيمان بهم..**

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران:١٧٩] **ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.. فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين:** مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين.. **ليرتب على ذلك:** الثواب والعقاب، **وليُظهِر** عدله وفضله، وحكمته لخلقه.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٨٠]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ **ولا يظن..**

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ **يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله،**

من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك، وأمسكوه، وضنوا به على عباد الله..

﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ وظنوا أنه خير لهم..

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم..

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم، يَعذَّبون به، كما ورد في الحديث الصحيح: «إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان، يأخذ بلهزمتيه، يقول: أنا مالك، أنا كنزك» وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك، هذه الآية [(١)].. فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم، ومُجدٍ عليهم، فانقلب عليهمُ الأمرُ، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم..

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو تعالى مالك الملك، وتُردُّ جميعُ الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غيرُ ذلك من المال، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم]..

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠﴾ [آل عمران:١٨٠] فإذا كان خبيرًا بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاءَ الحسنَ على الخيرات، والعقوبات على الشر- لم يتخلف مَن في قلبه مثقالُ ذرة من إيمانٍ عن الإنفاق الذي يُجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

📖 الفوائد

تأمل كيف ذكر **السبب الابتدائي والسبب الغائي**، الموجب كلُّ واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولا: أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة ليس مِلكًا للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فمَنعُه لذلك مَنعٌ لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]،

(١) أخرجه البخاري [١٤٠٣]، ومسلم [٩٨٧] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله لم يمنع الفضلَ الذي لا يضرُّه، بل ينفعه في قلبه وماله، وزيادةِ إيمانه، وحفظِه من الآفات.

ثم ذكر ثانيا: أنَّ هذا الذي بيد العباد كلَّها ترجع إلىٰ الله، ويَرِثُها تعالىٰ، وهو خَيرُ الوارثين، فلا معنىٰ للبخل بشيءٍ هو زائلٌ عنك، منتقلٌ إلىٰ غيرك.

ثم ذكر ثالثا: السبب الجزائي، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران:١٨١-١٨٢]

يخبر تعالىٰ، عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها، وأسمجها..

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ فأخبر أنه قد سمع ما قالوه..

﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ وأنه سيكتبه ويحفظه.. مع أفعالهم الشنيعة، وهو قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم علىٰ ذلك أشدَّ العقوبة..

﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ هذا القيد يراد به أنهم **تجرأوا علىٰ قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلًا وضلالًا،** بل تمردًا وعنادًا.

﴿وَنَقُولُ﴾ وأنه يقال لهم (بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء)..

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾ المحرق النافذ من البدن إلىٰ الأفئدة..

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ وأن عذابهم ليس ظلما من الله لهم، فإنه..

﴿لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: ١٨٢] فإنَّه مُنَزَّهٌ عن ذلك، وإنَّما ذلك بما قدَّمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجبت استحقاقَهم العذاب، وحرمانَهم الثواب.

🕮 الفـوائـد

قد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلَّموا بذلك، وذكروا منهم (فنحاص بن عازوراء) **من رؤساء علماء اليهود** في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالىٰ:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨] قال: -علىٰ وجه التكبر والتجرهم- هذه المقالة، قبحه الله.. فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سَبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: ﴿قَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران:١٨٣-١٨٤]

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ يخبر تعالىٰ عن حال هؤلاء المفترين القائلين..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ تقدَّم إلينا وأوصىٰ..

﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ فجمعوا بين **الكذب علىٰ الله، وحصر آية الرسل** بما قالوه من هذا الإفك المبين.. وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار، فهم -في ذلك- مطيعون لربهم، ملتزمون عهده.. وقد عُلِم أن كلَّ رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين **ما علىٰ مثله آمن البشر، ولم يُقصِرهَا علىٰ ما قالوه**.. ومع هذا فقد **قالوا إفكا لم يلتزموه**، وباطلًا لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم:..

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات علىٰ صدقهم..

﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله النار..

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ في دعواهم الإيمان برسول يأتي بقربان تأكله النار، **فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم وتناقضهم.. ثم سلَّىٰ رسوله ﷺ**، فقال..

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذه عادة الظالمين، ودأبُهم الكفرُ بالله، وتكذيبُ رسل الله، وليس تكذيبَهم لرسل الله عن قصور ما أتوا به، أو عدمَ تبيُّنِ حجة، بل قد..

﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: **الحجج العقلية**، والبراهين **النقلية**..

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ الكتب المَزبُورَة، المَنَزَّلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتِ بها غيرُ الرسل..

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران:١٨٣-١٨٤] للأحكام الشرعية.. وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية.. ومنيرٌ أيضًا للأخبار الصادقة.. **فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم**، ولا يهمنك شأنهم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران:١٨٥]

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ هذه الآية الكريمة فيها **التزهيد في الدنيا**، بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدعُ بغرورها، وتَغُرُّ بمحاسنها..

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾ ثم هي منتقلة، ومنتَقَلٌ عنها إلىٰ دار القرار التي تُوفَّىٰ فيها النفوسُ ما عملت في هذه الدار، من خير وشر..

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ أخرج..

﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلىٰ جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر..

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران:١٨٥]..

الفـوائـد

١- **مفهوم الآية**: أنَّ من لم يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

٢- **في هذه الآية**: إشارة لطيفة إلىٰ **نعيم البرزخ وعذابه**، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدَّم لهم أنموذجٌ مما أسلفوه، **يفهم هذا من قوله**: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾، أي: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون

ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦]

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ يخبر تعالىٰ ويخاطب المؤمنين أنهم **سيبتلون في أموالهم** من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله..

﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة علىٰ كثير من الناس، **كالجهاد** في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، **وكالأمراض** التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يحب..

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ من **الطعن** فيكم، وفي دينكم وكتابكم ورسولكم..

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ علىٰ ما نالكم في أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء والامتحان وعلىٰ أذية الظالمين..

﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في ذلك الصبر، بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله..

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦] من الأمور التي يعزم عليها، وينافس فيها، **ولا يُوَفَّقُ لها إلا أهلُ العزائم** والهِمَم العَالِية، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت].

🕮 الفوائد

في إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالىٰ تقتضي ذلك، **ليتميز المؤمن الصادق** من غيره.

ومنها: أنه تعالىٰ **يقدِّر عليهم هذه الأمور؛ لما يريده بهم من الخير**، ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه **إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر** ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾ [الأحزاب].

ومنها: أنه أخبرهم بذلك **لتتوطن نفوسهم علىٰ وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع**؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حملُه، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلىٰ الصبر والتقوىٰ، ولهذا قال﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ..﴾ الآية.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ [آل عمران:١٨٧]

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الميثاق هو **العهد الثقيل** المؤكد.. وهذا الميثاق أخذه الله تعالىٰ **علىٰ كل من أعطاه الله الكتب وعلَّمه العلم**..

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله..

﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، **أو وقع ما يوجب ذلك**، فإنَّ كلَّ من عنده علمٌ يجب عليه في تلك الحال أن يبيِّنه، ويوضح الحق من الباطل.. **فأما المُوَفَّقون**: فقاموا بهذا أتمَّ القيام، وعلَّموا الناس مما علَّمهم الله، ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة علىٰ الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان.. **وأما الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارىٰ ومن شابههم**..

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤاً علىٰ محارم الله، وتهاونًا بحقوق الله، وحقوق الخلق..

﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ﴾ واشتروا بذلك الكتمان..

﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ وهو ما يحصل لهم -إن حصل- من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدِّمين شهواتِهم علىٰ الحق..

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ۝١٨٧﴾ [آل عمران:١٨٧] **لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه -وهو بيان الحق، الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدنيوية- أعظم المطالب وأجلها، فلَم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خُلِقوا له.**

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨٨﴾ [آل عمران: ١٨٨]

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ **من القبائح والباطل القولي والفعلي..**

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ **أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه.. فجمعوا بين: فعل الشر وقوله والفرح بذلك، ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه..**

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ﴾ **أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه، وسيصيرون إليه، ولهذا قال:..**

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨٨﴾ [آل عمران:١٨٨]..

📖 الفوائد

١- يدخل في هذه الآية الكريمة:

أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم.

وكذلك **كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها**، وزعم أنه محق وغيره مبطل، **كما هو الواقع من أهل البدع.**

٢- دلت الآية بمفهومها على: أن من أحبَّ أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، **إذا** لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، **أنه غير مذموم**، بل هذا **من الأمور المطلوبة**، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها

خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الصافات]، وقد قال عباد الرحمن: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان]، **وهي من نعم الباري علىٰ عبده ومننه، التي تحتاج إلىٰ الشكر.**

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران:١٨٩]

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما، من سائر أصناف الخلق.. المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة..**

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران:١٨٩] **فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.**

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٠]

📖 الفـوائـد

١- في ضمن ذلك: حث العباد علىٰ التفكر فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها.

٢- أبهم قوله ﴿ءَايَٰتٍ﴾ ولم يقل: (علىٰ المطلب الفلاني):

إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة علىٰ جميع المطالب الإلهية، فأما **تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره،** ويحيط ببعضه..

وفي الجملة: فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، **يدل علىٰ** عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته..

وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، **يدل علىٰ** حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه..

وما فيها من المنافع للخلق، **يدل علىٰ** سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره..

وكل ذلك يدل على: تعلق القلب بخالقها ومبدعها، **وبذل** الجهد في مرضاته، **وأن لا يشرك** به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

٣- **خصَّ الله بالآيات أولي الألباب،** وهم أهل العقول؛ **لأنهم** هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران:١٩١]

ثم وصف **أولي الألباب** بأنهم..

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم..

﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ وهذا **يشمل جميع أنواع الذكر** بالقول والقلب.. **ويدخل في ذلك** الصلاة **قائمًا،** فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب..

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وأنهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ليستدلوا بها على المقصود منها.. فإذا تفكَّروا بها عرفوا أنَّ الله لم يخلقها عبثًا، فيقولون..

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق..

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران:١٩١] بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

🕮 الفوائد

١- دلَّ قوله ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على: **أن التفكر عبادة،** من صفات أولياء الله العارفين.

٢- يتضمن قوله ذلك ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾: **سؤال الجنة؛** لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة.

٣- ولكنَّ لما **قام الخوف** بقلوبهم دعوا الله بأهم الأمور عندهم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ
وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران:١٩٢]

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها، ولهذا قال..

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران:١٩٢] ينقذونهم من عذابه.. وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران:١٩٣]

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ وهو محمد ﷺ، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه..

﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه.. وفي هذا إخبارٌ منهم بِمِنَّةِ الله عليهم، وتبجحٌ بنعمته، وتوسلٌ إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم..

﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي مَنَّ عليهم بالإيمان سيَمُنُّ عليهم بالأَمَانِ التام..

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران:١٩٣] يتضمَّن هذا الدعاءُ: التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ
إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران:١٩٤]

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك..

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله، من النصر والظهور في الدنيا..

﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة..

﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران:١٩٤] فإنه تعالىٰ لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم، وقبل تضرعهم، فلهذا قال..

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران:١٩٥]

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أجاب الله دعاءهم: دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال..

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملًا موفَّراً..

﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ كلكم علىٰ حد سواء في الثواب والعقاب..

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ فجمعوا بين: الإيمان، والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال طلبًا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله..

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل علىٰ العمل القليل..

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران:١٩٥] مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه، بما يقدر عليه العبد.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران:١٩٦]

وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله..

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٧]

ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلا ويعذبون عليه طويلًا.. **هذه أعلىٰ حالة تكون للكافر**، وقد رأيت ما تؤول إليه.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٨]

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ وأما المتقون لربهم، المؤمنون به- فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها..

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ فلو قُدِّر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كلُّ بؤس وشدة، وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلىٰ النعيم المقيم، والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزرًا يسيرًا، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٨] وهم الذين برَّت قلوبهم، فبرَّت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البرُّ الرحيم من بِرِّه أجرًا عظيمًا، وعطاءً جسيمًا، وفوزًا دائمًا.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩]

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله..

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم..

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض، ولهذا -لما كان إيمانهم عامًا حقيقيًا- صار نافعًا، **فأحدث لهم خشية الله**، وخضوعهم لجلاله، الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.. **وهؤلاء**

أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] **ومن تمام خشيتهم لله**، أنهم..

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فلا يقدِّمون الدنيا على الدين، **كما فعل أهل الانحراف** الذين يكتمون ما أنزل الله، ويشترون به ثمنًا قليلًا.. **وأما هؤلاء: فعرفوا الأمر على الحقيقة**، وعلموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبينوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ **فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل**، والثواب الجميل..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩٩﴾ [آل عمران:١٩٩] وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، **فلا يستبطؤون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران:٢٠٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك..

﴿وَصَابِرُواْ﴾ والمصابرة: أي الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال..

﴿وَرَابِطُواْ﴾ والمرابطة: **وهي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه**، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران:١٩٩-٢٠٠] لعلهم يفلحون: **يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.. فعلم من هذا أنه لا**

سبيل إلىٰ الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحدا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها..

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير سورة (آل عمران)

والحمد لله علىٰ نعمته، ونسأله تمام النعمة

تفسير سورة النساء وهي مدنية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ افتتح تعالىٰ هذه السورة بـ: الأمر بتقواه، والحث علىٰ عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث علىٰ ذلك.. وبيَّن السببَ الداعي الموجبَ لكلٍّ من ذلك، وأن الموجبَ لتقواه أن رَبَّكُمُ..

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة، التي من جملتها خلقكم..

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليناسبها، فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور..

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتىٰ إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم، توسلتم بها بالسؤال بالله، فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سأله بالله، فكما عظمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته وتقواه..

﴿وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١] وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي: **مطلع علىٰ العباد في حال حركاتهم وسكونهم**، وسرِّهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقبًا لهم فيها.. **مما يوجب مراقبته، وشدة الحياء منه**، بلزوم تقواه.

🕮 الفـوائـد

١- في الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنَّه بَثَّهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلىٰ أصل واحد، **ليعطف بعضهم علىٰ بعض**، ويرقق بعضهم علىٰ بعض.

٢- قرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها، **ليؤكد هذا الحق**، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك **يجب القيام بحقوق الخلق**، **خصوصًا الأقربين منهم**، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به.

٣- تأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوىٰ، وصلة الأرحام والأزواج عمومًا، ثم بعد ذلك فصَّل هذه الأمور أتمَّ تفصيل، من أول السورة إلىٰ آخرها، فكأنَّها **مَبْنِيَّةٌ علىٰ هذه الأمور المذكورة**، مُفَصِّلة لِما أُجمل منها، موضِّحةً لِما أُبهم.

٤- في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ تنبيه علىٰ **مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به**، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهنَّ أقربَ نسب وأشدَّ اتصال، وأقرب علاقة.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء:٢]

هذا أول ما أوصىٰ به من حقوق الخلق في هذه السورة..

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ وهم اليتامىٰ الذين فقدوا آباءهم الكافلين لهم، وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم.. فأَمَر الرءوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا، كاملة موفرة، وأن لا..

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق..

﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة..

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم.. ففيه تنبيه **لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، التي قد استغنىٰ بها الإنسان** بما جعل الله له من الرزق في ماله.. فمن تجرأ علىٰ هذه الحالة، فقد أتىٰ..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء:٢] إثمًا عظيمًا، ووزرًا جسيمًا.

🕮 الفـوائـد

١- من استبدال الخبيث بالطيب أن **يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس**، ويجعل بدله من ماله الخسيس.

٢- فيه **الولاية علىٰ اليتيم**، لأنَّ مِنْ لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية المؤتي علىٰ ماله.

٣- فيه الأمر **بإصلاح مال اليتيم**، لأن تمام إيتائه ماله حفظه والقيام به بما يصلحه ويُنميه، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝٣﴾ [النساء:٣]

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامىٰ النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلىٰ غيرهن..

﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا علىٰ نظركم.. ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين كما قال النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يمينك».. ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال..

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ مَنْ أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل، أو ثلاثًا فليفعل، أو أربعًا فليفعل.. ولا يزيد عليها، **لأن الآية سيقت لبيان الامتنان**، فلا يجوز الزيادة علىٰ غير ما سمَّىٰ الله تعالىٰ إجماعًا.. **وذلك** لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتىٰ يبلغ أربعًا؛ **لأن في الأربع غُنية لكلِّ أحد**، إلا ما ندر..

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ ومع هذا فإنَّما **يباح له ذلك إذا أمن علىٰ نفسه الجور والظلم**، ووثق بالقيام بحقوقهن.. فإن خاف شيئًا من هذا فليقتصر علىٰ واحدة..

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أو علىٰ ملك يمينه، فإنه **لا يجب عليه القِسم في ملك اليمين**..

﴿ذَٰلِكَ﴾ **الاقتصار على واحدة أو ما ملكت اليمين..**

﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ [النساء:٣] أي: **تظلموا.**

📖 الفـوائـد

١- في هذه الآية: **أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح**، بل وقد أباح له الشارع **النظر إلى مَنْ يريد تزوجها**؛ ليكون على بصيرة من أمره.

٢- في قوله ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾: **أن تعرُّض العبد للأمر الذي يخاف منه** الجورَ والظلمَ وعدمَ القيام بالواجب ولو كان مباحًا، أنه **لا ينبغي له أن يتعرض له**، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد.

٣- وفي قوله: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ دليل على أن **نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه** كالمشركة، وكالفاجرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال: ﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ [النور: ٣].

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ
عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ [النساء:٤]

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن، خصوصًا الصداق الذي يكون شيئًا كثيرًا، ودُفعةً واحدة، يشق دفعه للزوجة، أَمَرهم وحثَّهم على إيتاء النساء..

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ **مهورهن..**

﴿نِحْلَةً﴾ **عن طيب نفس**، وحال طمأنينة، **فلا تمطلوهن أو تبخسوا** منه شيئا..

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ أي: **من الصداق..**

﴿نَفْسًا﴾ بأن سَمَحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيره أو المعاوضة عنه..

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ [النساء:٤] **لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة.**

📖 الفوائد

١- في قوله ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾: **أن المهر يدفع إلىٰ المرأة إذا كانت مكلَّفة، وأنها تملكه بالعقد،** لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التمليك.

٢- في قوله ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ **دليلٌ علىٰ: أنَّ للمرأة التصرف في مالها** -ولو بالتبرع- **إذا كانت رشيدة،** فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم.

٣- **ليس لوليها من الصداق شيء،** غير ما طابت به.

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ [النساء:٥]

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ السفهاء: جمع (سفيه).. وهو من لا يحسن التصرف في المال: **إما لعدم عقله** كالمجنون والمعتوه ونحوهما.. **وإما لعدم رشده** كالصغير وغير الرشيد.. فنهىٰ اللهُ الأولياءُ أن يؤتوا هؤلاء أموالهم، خشية إفسادها وإتلافها..

﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ لأنَّ الله جعل الأموال قيامًا لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها..

﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ بل يرزقهم منها..

﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية..

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ [النساء:٥] وأن يقولوا لهم قولًا معروفًا، بأن يعدوهم -إذا طلبوها- أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم.

📖 الفوائد

١- في إضافته تعالىٰ الأموال إلىٰ الأولياء، إشارة إلىٰ أنه **يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم،** من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.

٢- في الآية دليل علىٰ: **أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم،** إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾.

٣- وفيه دليل علىٰ أن قول الولي مقبول فيما يَدَّعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمنا علىٰ ماله فلزم قبول قول الأمين.

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النساء:٦]

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ الابتلاء: هو الاختبار والامتحان.. وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده، شيئًا من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه، فإن استمر غير محسن للتصرف لم يدفع إليه ماله، بل هو باق علىٰ سفهه، ولو بلغ عمرًا كثيرًا..

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ فإن تبيَّن رشدُه وصلاحُه في ماله وبلغ النكاح..

﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ كاملةً موفرة..

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾ مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلىٰ الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم..

﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.. وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله ولا رحمة ومحبة للمولىٰ عليهم، يَرون هذه الحال حال فرصة، فيغتنمونها ويتعجلون ما حرَّم الله عليهم، فنهىٰ الله تعالىٰ عن هذه الحالة بخصوصها..

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النساء:٦]..

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ٧﴾ [النساء:٧]

كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم وقسوتهم- لا يورثون الضعفاء، كالنِّساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء لأنهم -بزعمهم- أهل الحرب والقتال والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرِّع لعباده شرعًا، يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم..

وقدَّم بين يدي ذلك أمرًا مجملًا لتتوطَّن علىٰ ذلك النفوس، فيأتي التفصيل بعد الإجمال، قد تشوفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال..

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ قسط وحصة..

﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾ خلَّف..

﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ الأب والأم..

﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ عموم بعد خصوص..

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ فكأنه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلىٰ العرف والعادة، وأن يُرضخوا لهم ما يشاءون؟ أو شيئا مقدرًا؟ فقال تعالىٰ: ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾..

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ **وأيضا فهاهنا توهم آخر**: لعلَّ أحدًا يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾، فتبارك الله أحسن الحاكمين..

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء:٧] قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي -إن شاء الله- تقدير ذلك.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ
فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾ [النساء:٨]

وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب فقال..

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ قسمة المواريث..

﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الأقارب غير الوارثين بقرينة قوله: ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾؛ لأنَّ الوارثين من المقسوم عليهم..

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ المستحقون من الفقراء..

﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ **أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كَدٍّ ولا تعب**، ولا عناء ولا نَصَب، فإنَّ نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم.. **وهذا كُلُه مع إمكان الإعطاء**، فإن لم يمكن ذلك -لكونه حق سفهاء، أو ثَمَّ أهم من ذلك- فليقولوا لهم ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾..

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨﴾ [النساء:٨] يردوهم ردًّا جميلا، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

🕮 الفـوائـد

يؤخذ من المعنىٰ: **أنَّ كلَّ من له تطلع وتشوف إلىٰ ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر..**

كما كان النبيَّ ﷺ يقول: «إذا جاء أحدَكم خادمُه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين»[1]، أو كما قال.

وكان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ -إذا بدأت باكورة أشجارهم- أَتَوا بها رسول الله ﷺ فبرَّك عليها، ونَظَر إلىٰ أصغر وليدٍ عنده فأعطاه ذلك، عِلمًا منه بشدة تشوفه لذلك.

﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ [النساء:٩]

﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ **قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر مَنْ حضره الموت** وأجنف في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها، بدليل قوله: ﴿وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ أي: سدادًا، موافقًا للقسط والمعروف، **وأنهم يأمرون من يريد الوصية علىٰ أولاده بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم..**

(١) أخرجه البخاري [٥٤٦٠]، ومسلم [١٦٦٣] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

وقيل: إن المراد بذلك أولياءُ السفهاء من المجانين والصغار والضعاف، **أن يعاملوهم في مصالحهم** الدينية والدنيوية **بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم من ذريتهم** الضعاف..

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملونهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله..

﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩].. ولمَّا أَمَرهُم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامىٰ، وتوعد علىٰ ذلك أشد العذاب فقال..

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ بغير حق.. **وهذا القيد يخرج به ما تقدم من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامىٰ**.. فمَنْ أكلها ظلمًا فـ..

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوها في بطونهم..

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠] نارًا محرقة متوقدة.

🕮 الفوائد

هذا **أعظم وعيد ورد في الذنوب**، يدل علىٰ **شناعة أكل أموال اليتامىٰ** وقبحها، وأنها **موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر**.. نسأل الله العافية.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١]

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات المواريث المتضمنة لها..

فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت في صحيح البخاري «ألحِقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولىٰ رجل ذكر»[1]، مشتملات علىٰ جُلِّ أحكام الفرائض، بل علىٰ جميعها كما سترىٰ ذلك..

إلا ميراث الجدات، فإنه غير مذكور في ذلك، لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطىٰ الجدة السدس، مع إجماع العلماء علىٰ ذلك..

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ أولادكم -يا معشر الوالِدِين- عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم وتكفونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة الله وملازمة التقوىٰ علىٰ الدوام كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة: ٢٤]، فالأولاد عند والديهم موصىٰ بهم، فإما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب.. ثم ذكر كيفية إرثهم فقال..

﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ الأولاد للصلب، والأولاد للابن.. للذكر مثل حظ الأنثيين.. **إن لم يكن معهم صاحب فرض**.. أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك.. وقد أجمع العلماء علىٰ ذلك، وأنه مع وجود أولاد الصلب فالميراث لهم.. **وليس لأولاد الابن شيء حيث كان أولاد الصلب** ذكورًا وإناثًا.. هذا مع اجتماع الذكور والإناث.. وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها، **وانفراد الإناث، وقد ذكَره بقوله**..

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ بنات صلب أو بنات ابن، ثلاثًا فأكثر..

﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾..

﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ﴾ بنتا أو بنت ابن..

﴿فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ وهذا إجماع.. ثم ذكر ميراث الأبوين فقال:..

﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾ أبوه وأمه..

(١) أخرجه البخاري [٦٧٣٥]، ومسلم [١٦١٥] وغيرهما من حديث ابن عباس.

﴿لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾ ولد صُلب، أو ولدُ ابنٍ، **ذكرًا كان أو أنثىٰ، واحدًا أو متعددًا.. فأما الأم**: فلا تزيد علىٰ السدس مع أحد من الأولاد.. **وأما الأب: فمع الذكور منهم**، لا يستحق أزيدَ من **السُّدُس**.. فإن كان الولد أنثىٰ أو إناثا، ولم يبق بعد الفرض شيء -كأبوين وابنتين- **لم يبق له تعصيب**.. وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء أخذ الأب **السدس فرضًا، والباقي تعصيبًا**؛ لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلأولىٰ رجل ذكر، وهو أولىٰ من الأخ والعم وغيرهما..

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ والباقي للأب؛ لأنه أضاف المال إلىٰ الأب والأم إضافة واحدة ثم قَدَّرَ نصيب الأم، فدل ذلك علىٰ أن الباقي للأب..

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم، ذكورًا كانوا أو إناثًا، **وارثين أو محجوبين** بالأب أو الجد..

﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ لكن قد يقال: ليس ظاهرُ قوله: ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ ﴾ **شاملًا لغير الوارثين**، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، **فعلىٰ هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون.. ويؤيده**: أن الحِكمَة في حَجبِهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفَّر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم، ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر.. **ويشكل علىٰ ذلك**: إتيان لفظ (الإخوة) بلفظ الجمع.. **وأجيب عن ذلك بـ**: أن المقصود مجرد التعدد، لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين، **وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان**، كما في قوله تعالىٰ عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ [الأنبياء]، وقال في الإخوة للأم: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾، فأطلق لفظ الجمع والمراد به اثنان فأكثر بالإجماع.. **فعلىٰ هذا**: لو خَلَّفَ أمًّا وأبًا وإخوة، كان **للأم السدس، والباقي للأب.. فحجبوها عن الثلث، مع حجب الأب إياهم**، إلا علىٰ الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي للأب.. ثم قال تعالىٰ..

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ أي: هذه الفروض والأنصباء والمواريث إنما تُرَدُّ وتُستَحَقُّ بعد نزع الديون التي علىٰ الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصىٰ

الميِّت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة..

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ﴾ فلا يدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لهم، **وأقرب لحصول مقاصدهم** الدينية والدنيوية..

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١﴾ [النساء:١١] فرضها الله الذي قد أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحكمَ ما شَرَعَه وقدَّر ما قدَّره على أحسن تقدير، لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.. فلو رُدَّ تقديرُ الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ **لنِقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن**، في كل زمان ومكان.

🕮 الفوائد

١- قوله ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ﴾ يدل على أن الله تعالى **أرحم بعباده من الوالدين**، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم، عليهم.

٢- من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟

فالجواب أنه يستفاد من:

• قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ﴾، فمفهوم ذلك أنه **إن زادت على الواحدة انتقل الفرض عن النصف**، ولا ثَمَّ بعده إلا الثلثان.

• وأيضا فقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ إذا خلَّف ابنًا وبنتًا، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدلَّ ذلك على أن للبنتين الثلثين.

• وأيضًا فإنَّ البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها -وهو أزيد ضررًا عليها من أختها- فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى.

• وأيضا فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ [النساء: ١٧٦] نص في الأختين الثنتين، فإذا كان الأختان الثنتان -مع بُعدهما- يأخذان الثلثين فالابنتان -مع قربهما- من باب أولى وأحرى.

• وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين كما في الصحيح.

٣- ما الفائدة في قوله: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾؟ **قيل:** الفائدة في ذلك -والله أعلم- أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان **لا يزيد بزيادتهن علىٰ الثنتين**، بل من الثنتين فصاعدًا.

٤- دلت الآية الكريمة أنه إذا وجد **بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف**، ويبقىٰ من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطىٰ **بنت الابن، أو بنات الابن**، ولهذا يسمىٰ **هذا السدس تكملة الثلثين**.. ومثل ذلك: بنت الابن، مع بنات الابن اللاتي أَنزَلَ منها.

٥- تدل الآية **أَنَّه متىٰ استغرق البنات** أو بنات الابن **الثلثين**، أنه **يسقط مَنْ دونَهن مِنْ** بنات الابن؛ **لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين**، وقد تم، فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيَد من الثلثين، وهو خلاف النص.

٦- دل قوله: ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾ **أَنَّ الوارثين يرثون كلَّ ما خلَّف الميت** من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذلك، **حتىٰ الدية** التي لم تجب إلا بعد موته، **وحتىٰ الديون** التي في الذمم.

٧- قوله ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ **عُلِمَ من ذلك:**

• **أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له**، بل يرث تعصيبًا المال كله، أو ما أبقت الفروض.

• **لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين** -ويعبر عنهما بالعمريتين- **فإنَّ الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه**، ثم تأخذ **الأم ثلث الباقي والأب الباقي**.

- وقد دلَّ علىٰ ذلك قوله: ﴿ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ أي: ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين: **إما سدس** في زوج وأم وأب، **وإما ربع** في زوجة وأم وأب..

- **فَلَم تدل الآية علىٰ إرث الأم ثلثَ المال كاملًا** مع عدم الأولاد حتىٰ يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا..

- **ويوضِّح ذلك:** أَنَّ **الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء**، فيكون من رأس المال، **والباقي بين الأبوين**..

- **ولِأَنَّا لو أعطينا الأمَّ ثلث المال**، لزم: زيادتها علىٰ الأب في مسألة الزوج، أو أخذ

الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصفَ السدس، وهذا لا نظير له، **فإنَّ المعهود مساواتها للأب، أو أخذه ضعفَ ما تأخذه الأم.**

٨- في قوله﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ **قدَّم الوصية** مع أنها مؤخرة عن الدين؛ **للاهتمام بشأنها**، لكون إخراجها شاقًّا على الورثة، وإلا **فالديون مقدَّمة عليها**، وتكون من رأس المال، **وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث**، وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة.

٩- كل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، ولله الحمد.

﴿۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾ [النساء:١٢]

﴿۞ وَلَكُمۡ﴾ أيها الأزواج..

﴿نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾

ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه ولد الصلب، أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعًا..

ثم قال تعالى:..

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ فإذا كان يورث كلالة أي: ليس للميت والد ولا ولد، أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا.. وهذه هي الكلالة كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد حصل علىٰ ذلك الاتفاق ولله الحمد..

﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ من أم.. كما هي في بعض القراءات.. وأجمع العلماء علىٰ أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم..

﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ من الأخ والأخت..

﴿ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: من واحد..

﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ﴾ لا يزيدون علىٰ الثلث، ولو زادوا عن اثنين..

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء:١٢]..

الفوائد

١- دل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ﴾ أن ذَكَرهم وأنثاهم سواء، لأن لفظ (التشريك) يقتضي التسوية.

٢- دل لفظ ﴿ ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ ﴾ علىٰ أن الفروع وإن نزلوا، والأصولَ الذكور وإن علوا، يُسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة، فلو لم يكن يورث كلالة، لم يرثوا منه شيئًا اتفاقًا.

٣- دل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ﴾ أن الإخوة الأشقاء يَسقُطون في المسألة المسماة بـ(الحمارية)، وهيٰ: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء.. للزوج النصف، وللأم السدس، وللأخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء..

لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعًا لِما فرَّق الله حُكمَه..

وأيضًا فإن الإخوة للأم أصحاب فروض، والأشقاء عصبات، وقد قال النبي ﷺ:

«ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولىٰ رجل ذكر»[١]، وأهل الفروض هم الذين قدَّر الله أنصباءهم، ففي هذه المسألة لا يبقىٰ بعدهم شيء، فيَسْقُط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

٤- وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب: فمذكور في قوله: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء: ١٧٦] الآية..

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب، وهو السدس تكملة الثلثين..

وإذ استغرقت الشقيقات الثلثين، سقط الأخوات للأب، كما تقدم في البنات وبنات الابن..

وإن كان الإخوة رجالا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين.

٥- **فإن قيل**: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل، والرقيق، والمخالف في الدين، والمُبَعَّض، والخنثىٰ، والجد مع الإخوة لغير أم، والعَول، والرَد، وذوي الأرحام، وبقية العصبة، والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن، من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة -يعسر فهمها علىٰ غير المتأمل- تدل علىٰ جميع المذكورات:

- **فأما القاتل والمخالف في الدين:**

فيُعرف أنهما غيرُ وارِثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال علىٰ الورثة بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي..

وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذه الحكمة بقوله: ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾، وقد عُلم أن القاتل قد سعىٰ لمورثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث.

---

(١) تقدم قبله.

فعُلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٧٥]..

مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن (من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه).

• **وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له**: وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانعُ الذي هو المخالفة في الدين الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوي المانع ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع..

يوضح ذلك أن الله تعالىٰ قد جعل حقوق المسلمين أولىٰ من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلىٰ من هو أولىٰ وأحق به.

فيكون قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنفال: ٧٥] إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم فالأخوَّة الدينية مقدَّمة علىٰ الأخوة النسبية المجردة..

قال ابن القيم في جلاء الأفهام: وتأمل هذا المعنىٰ في آية المواريث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ﴾ إيذانا بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين. انتهىٰ [١].

• **وأما الرقيق**: فإنه لا يرث ولا يورث، أما كونه لا يورث فواضح؛ لأنه ليس له مال يُورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده..

وأما كونه لا يرث؛ فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثلَ قوله تعالىٰ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾، ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ﴾، ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾، ونحوها لمن يتأتىٰ منه التملك، وأما الرقيق فلا يتأتىٰ منه ذلك، فعُلم أنه لا ميراث له.

---

(١) جلاء الافهام/ ٢٣٣- ط العروبة.

● **وأما مَنْ بعضه حر وبعضه رقيق فإنه تتبعض أحكامه**: فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبه الله في المواريث، لكون ما فيه من الحرية قابلًا للتملك، وما فيه من الرق فليس بقابل لذلك، فإذًا يكون المبعض يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية..

وإذا كان العبد يكون محمودًا مذمومًا، مثابًا ومعاقبًا، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

● **وأما الخنثىٰ**: فلا يخلو: إما أن يكون واضحا ذكوريته، أو أنوثيته، أو مشكلا.. فإن كان واضحا فالأمر فيه واضح، إن كان ذكرًا فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم..

وإن كان أنثىٰ فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن..

وإن كان مشكلا فإن كان الذكر والأنثىٰ لا يختلف إرثهما -كالإخوة للأم- فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلىٰ العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين، لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل، لاحتمال ظلمنا له.

فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوكُ أعدل الطريقين، قال تعالىٰ: ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، وليس لنا طريق إلىٰ العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

● **وأما ميراث الجد مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟**

فقد دل كتاب الله علىٰ قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأن **الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم**، كما يحجبهم الأب..

وبيان ذلك: أن الجدَّ أَبٌ في غير موضع من القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] الآية، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف: ٣٨]، فسمىٰ الله الجدَّ وجدَّ الأَبِ أبًا، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ الجدَّ بمنزلة الأَب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه..

وإذا كان العلماء قد **أجمعوا علىٰ أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه** في ميراثه مع

الأولاد وغيرهم من بني الإخوة والأعمام وبنيهم، وسائر أحكام المواريث، فينبغي أيضًا أن يكون حكمُه حكمَه في حجب الإخوة لغير أم..

وإذا كان **ابن الابن بمنزلة ابن الصلب** فَلِمَ لا يكون الجد بمنزلة الأب؟!

وإذا كان **جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء علىٰ أنه يحجبه**، فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟

فليس مع مَنْ يورِّث الإخوةَ مع الجد نص ولا إشارة ولا تنبيه ولا قياس صحيح.

● **وأما مسائل العول**: فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالىٰ قد فرض وقدَّر لأهل المواريث أنصباء، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضًا أو لا..

فإن حجب بعضهم بعضًا فالمحجوب ساقط لا يزاحِم ولا يستحق شيئًا..

وإن لم يحجب بعضهم بعضاً فلا يخلو:

إما أن لا تستغرق الفروض التركة، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض علىٰ التركة، ففي الحالتين الأوليين كلٌّ يأخذ فرضه كاملًا.

وفي الحالة الأخيرة وهي ما إذا زادت الفروض علىٰ التركة فلا يخلو من حالين:

إما أن ننقص بعضَ الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له، ونكمل للباقين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولىٰ من الآخر.

فتعينت الحال الثانية، وهي: أننا نعطي كلَّ واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم، كديون الغرماء الزائدة علىٰ مال الغريم، ولا طريق موصل إلىٰ ذلك إلا بالعول، فعُلم من هذا أن العَول في الفرائض قد بيَّنه الله في كتابه.

● **وبعكس هذه الطريقة بعينها يُعلم (الرد)**: فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضُهم التركةَ وبقي شيء ليس له مستحَقٌّ من عاصب قريب ولا بعيد، فإنَّ رده علىٰ أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاؤه غيرَهم ممن ليس بقريب للميت جنف وميل، ومعارضة لقوله: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٦] فتعين أن يُرَدَّ علىٰ أهل الفروض بقدر فروضهم..

ولمَّا كان الزوجان ليسا من القرابة، لم يستحقا زيادة علىٰ فرضهم المقدر هذا عند من

لا يورِّث الزوجين بالرد، وهم جمهور القائلين بالرد..

فعلىٰ هذا تكون عِلَّة الرد كونَه صاحب فرضٍ قريبًا..

وعلىٰ القول الآخر، أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يُرَدُّ عليهما؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزادان بالرد كغيرهما..

فالعلة علىٰ هذا كونه وارثًا صاحب فرض، فهذا هو **الظاهر من دلالة الكتاب والسنة،** والقياس الصحيح، والله أعلم.

● **وبهذا يعلم أيضا ميراث ذوي الأرحام:** فإنَّ الميِّت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبًا، وبقي الأمر دائرًا بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب، وبين كون ماله يرجع إلىٰ أقاربه المُدلِين بالورثة المجمع عليهم، ويدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٦] فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولىٰ من غيره، فتعين توريث ذوي الأرحام..

وإذا تعين توريثهم، فقد عُلِم أنَّه ليس لهم نصيبٌ مقدَّر بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط، صاروا بسببها من الأقارب، فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

● **وأما ميراث بقية العصبة، كالبنوة والأخوة وبنيهم، والأعمام وبنيهم.. إلخ:**

فإن النبي ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولي رجل ذكر»، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ ﴾ [النساء: ٣٣]، فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيء، لم يستحق العاصب شيئًا، وإن بقي شيء أخذه أولي العصبة، وبحسب جهاتهم ودرجاتهم..

فإن جهات العصوبة خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء.. فيقدَّم منهم **الأقرب جهة،** فإن كانوا في جهة واحدة **فالأقرب منزلة،** فإن كانوا في منزلة واحدة **فالأقوىٰ،** وهو الشقيق، فإن تساووا من كل وجه **اشتركوا.** والله أعلم.

● **وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات:** يأخذن ما فضل عن فروضهن، فلأنه ليس في القرآن ما يدل علىٰ أن الأخوات يسقطن بالبنات..

فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضَهنَّ، فإنه يُعطىٰ للأخوات ولا يَعدل عنهنَّ إلىٰ عصبة أبعد منهنَّ، كابن الأخ والعم، ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٣-١٤]

﴿تِلْكَ﴾ التفاصيل التي ذكرها في المواريث..

﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ التي يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها.. ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عمومًا ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض أو ترك ذلك فقال..

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بامتثال أمرهما الذي أَعظَمُه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر علىٰ اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أَعظَمُه الشرك بالله، ثم المعاصي علىٰ اختلاف طبقاتها..

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ فمن أدىٰ الأوامر واجتنب النواهي فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار..

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون..

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٣-١٤] ويدخل في اسم **المعصية الكفر فما دونه** من المعاصي.. فلا يكون فيها شبهة **للخوارج** القائلين بكفر أهل المعاصي.

الفوائد

١- إنَّ الله تعالىٰ رتَّب دخولَ الجنة علىٰ طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار

علىٰ معصيته ومعصية رسوله..

فمن أطاعه طاعةً تامة دخل الجنة بلا عذاب، **ومن عصىٰ الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه**، دخل النار وخُلِّد فيها..

ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية..

وقد دلت النصوص المتواترة علىٰ أن **الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار**، فما معهم من التوحيد مانعٌ لهم من الخلود فيها.

٢- في ذَٰلِكَ دليلٌ علىٰ أن الوصية للوارث منسوخة بـ:

تقديره تعالىٰ أنصباء الوارثين.

ثم قوله تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ فالوصية للوارث بزيادة علىٰ حقه يدخل في هذا التعدي.

مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»(١)..

﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ

---

(١) أخرجه ابن الجارود في [المنتقىٰ/ ١٠٢١]، وابن حبان في [صحيحه/ ٥٠٩٤] وغيرهما من حديث أبي امامة. وابن ماجة [٢٧١٤] وغيره من حديث أنس.

قال ابن حجر في [الفتح/ ٥٤٣٧]: وَفِي الْبَابِ عَنْ عَمْرِو بْنِ خَارِجَةَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ، وَالنَّسَائِيِّ، وَعَنْ أَنَسٍ عِنْدَ ابْنِ مَاجَهْ، وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عِنْدَ الدَّارَقُطْنِيِّ، وَعَنْ جَابِرٍ عِنْدَ الدَّارَقُطْنِيِّ أَيْضًا وَقَالَ: الصَّوَابُ إِرْسَالُهُ، وَعَنْ عَلِيٍّ عِنْدَ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ..

وَلَا يَخْلُو إِسْنَادُ كُلٍّ مِنْهَا عَنْ مَقَالٍ، لَكِنْ مَجْمُوعُهَا يَقْتَضِي أَنَّ لِلْحَدِيثِ أَصْلًا..

بَلْ جَنَحَ الشَّافِعِيُّ فِي (الْأُمِّ) إِلَىٰ أَنَّ هَذَا الْمَتْنَ مُتَوَاتِرٌ فَقَالَ: وَجَدْنَا أَهْلَ الْفُتْيَا وَمَنْ حَفِظْنَا عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْمَغَازِي مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ عَامَ الْفَتْحِ: «لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ» وَيُؤْثِرُونَ عَمَّنْ حَفِظُوهُ عَنْهُ مِمَّنْ لَقُوهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَكَانَ نَقْلَ كَافَّةٍ عَنْ كَافَّةٍ، فَهُوَ أَقْوَىٰ مِنْ نَقْلِ وَاحِدٍ.اهـ

سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء:١٥-١٦]

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ أي: النساء ﴿ٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الزنا.. ووصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها..

﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ من رجالكم المؤمنين العدول..

﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة.. وأيضًا فإن الحبس من جملة العقوبات..

﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ هذا منتهىٰ الحبس..

﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ طريقًا غير الحبس في البيوت.. وهذه الآية **ليست منسوخة**، وإنما هي مُغيَاةٌ إلىٰ ذلك الوقت، **فكان الأمر في أول الإسلام كذلك**، حتىٰ جعل الله لهن سبيلًا وهو رجم المحصن، وجلد غير المحصن..

﴿وَٱلَّذَانِ﴾ وكذلك اللَّذانِ..

﴿يَأْتِيَٰنِهَا﴾ أي: الفاحشة..

﴿مِنكُمْ﴾ من الرجال والنساء..

﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بالقول والتوبيخ والتعيير والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلىٰ هذا يكون **الرجال إذا فعلوا الفاحشة يُؤذَون، والنساء يحبسن ويؤذين.. فالحبس غايته إلىٰ الموت، والأذيّة نهايتها إلىٰ التوبة والإصلاح**، ولهذا قال:.

﴿فَإِن تَابَا﴾ رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه، وعزما علىٰ أن لا يعودا..

﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل الدال علىٰ صدق التوبة..

﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ عن أذاهما..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء:١٥-١٦] كثير التوبة علىٰ المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي -من إحسانه- وفقهم للتوبة وقَبِلَها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

🕮 الفـوائـد

١- بَيِّنَةُ الزنا لا بد أن تكون **أربعة رجال** مؤمنين.

٢- ومن باب أولىٰ وأحرىٰ **اشتراط عدالتهم**.

٣- أن الله تعالىٰ شدَّد في أمر هذه الفاحشة **سترًا لعباده**.

٤- حتىٰ إنَّه **لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال**، ولا ما دون أربعة.

٥- لا بد من **التصريح بالشهادة**:

كما دلت علىٰ ذلك الأحاديث الصحيحة.

وتومئ إليه هذه الآية لمَّا قال: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾.

لم يكتف بذلك حتىٰ قال: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمرٍ يُشاهد عيانًا، من غير تعريض ولا كناية.

٦- **الأذية بالقول والفعل والحبس، قد شرعه الله تعزيرًا** لجنس المعصية الذي **يحصل به الزجر**.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء:١٧-١٨]

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ **توبة الله علىٰ عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد**.. فأخبر هنا: أن التوبة المستحقة علىٰ الله حق أحقه علىٰ نفسه، كرمًا منه وجودًا..

﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ لمن عمل السوء، أي: المعاصي..

﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ جهالة منه **بعاقبتها** وإيجابها لسخط الله وعقابه.. وجهلٌ منه **بنظر الله** ومراقبته له.. وجهلٌ منه **بما تئول إليه من نقص الإيمان** أو إعدامه.. فكل عاص لله فهو

جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالمًا بالتحريم.. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقَبًا عليها..

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ **يحتمل أن يكون المعنىٰ: ثم يتوبون قبل معاينة الموت.. ويحتمل** أن يكون معنىٰ قوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾: أي: قريب **من فعلهم للذنب** الموجب للتوبة..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ **علىٰ الاحتمال الأول:** فإنَّ الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعًا، وأما بعد حضور الموت فلا يُقبل من العاصين توبة ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالىٰ عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] الآية. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].. **وعلىٰ الاحتمال الثاني: يكون المعنىٰ: أنَّ** من بادَرَ إلىٰ الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلىٰ الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر علىٰ ذنوبه وأصر علىٰ عيوبه، حتىٰ صارت فيه صفاتٍ راسخةً، فإنَّه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧﴾ فمِن عِلمِه أنَّه يَعلَم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلًّا منهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقَه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدمَ توفيقه..

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المعاصي فيما دون الكفر..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ **وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار،** لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار.. **والغالب أنه لا يُوفق للتوبة** ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء علىٰ علم تام ويقين وتهاون بنظر الله إليه، فإنه سد علىٰ نفسه باب الرحمة.. نعم **قد يوفق الله عبده المصر** علىٰ الذنوب عن عمد ويقين لتوبة تامة، التي يمحو بها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جناياته، **ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب،** ولهذا ختم الآية الأولىٰ بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾..

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾ [النساء: ١٧-١٨]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النساء:١٩-٢١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ **كانوا في الجاهلية إذا مات** أحدهم عن زوجته، رأىٰ قريبُه -كأخيه وابن عمه ونحوهما- أنه **أحق بزوجته من كلِّ أحد،** وحماها عن غيره، أحبَّت أو كَرِهت.. فإن أحبها تزوجها علىٰ صداق يحبه دونها.. **وإن لم يرضها عضلها،** فلا يزوجها إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتىٰ تبذل له شيئًا من ميراث قريبه أو من صداقها..

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ وكان الرجل أيضا يعضل زوجته التي يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها.. **فنهىٰ الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين:** إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأوَّل، كما هو مفهوم قوله: ﴿كَرۡهٗاۖ﴾.. و..

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها، فإنه -في هذه الحال- يجوز له أن يَعضِلَها، عقوبةً لها علىٰ فعلها لتفتدي منه، إذا كان عضلًا بالعدل.. ثم قال:..

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ وهذا يشمل المعاشرة **القولية والفعلية**.. فعلىٰ الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكف الأذىٰ وبذل الإحسان، وحسن المعاملة.. **ويدخل في ذلك:** النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب علىٰ الزوج لزوجته **المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال..**

﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ أي: ينبغي لكم -أيها الأزواج- أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيرًا كثيرًا، **من ذلك:**

امتثال أمر الله، وقبولُ وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.. **ومنها** أن إجباره نفسَه -مع عدم محبته لها- فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة.. **وربما** أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك.. **وربما** رُزِق منها ولدًا صالحًا نفع والديه في الدنيا والآخرة.. **وهذا كله مع الإمكان** في الإمساك وعدم المحذور، **فإن كان لا بد من الفراق**، وليس للإمساك محل، **فليس الإمساك بلازم**..

﴿وَإِنْ﴾ بل متىٰ..

﴿أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: تطليقَ زوجةٍ وتزَوُجَ أخرىٰ، فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج..

﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ ولكن إذا آتَيْتُمْ..

﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أي: المفارَقة، أو التي تزوَّجها..

﴿قِنطَارًا﴾ مالًا كثيرًا..

﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ بل وفِّروه لهنَّ ولا تُمطِلوا بِهنَّ... ثم قال:..

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠﴾ فإنَّ هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحِيل، فإنَّ إثمه واضح.. وقد بين تعالىٰ حكمة ذلك بقوله..

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وبيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة علىٰ الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل بها وأفضىٰ إليها وباشرها المباشرة التي كانت حرامًا قبل ذلك، والتي لم ترض ببذلها إلا بذلك العِوَض، فإنَّه قد استوفىٰ المُعَوَّض فثبت عليه العِوَض.. فكيف يستوفي المعوَّض ثم بعد ذلك يرجع علىٰ العِوَض؟! هذا من أعظم الظلم والجور..

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١﴾ [النساء:١٩-٢١] وكذلك أخذَ الله علىٰ الأزواج ميثاقًا غليظًا بالعقد، والقيام بحقوقها.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية دلالة علىٰ **عدم تحريم كثرة المهر**، مع أن **الأفضل واللائق** الاقتداءُ بالنبي ﷺ في **تخفيف المهر**.

ووجه الدلالة: أن الله أخبر عن أمر يقع منهم ﴿..وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا..﴾، **ولم ينكره عليهم،** فدلَّ علىٰ عدم تحريمه.

لكن قد يُنهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدةً دينية، وعدمَ مصلحةٍ تُقاوِم.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النساء:٢٢]

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ **لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم، أي: الأب وإن علا..**

﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ **أمرًا قبيحًا يفحش ويعظم قبحه..**

﴿وَمَقۡتٗا﴾ من الله لكم ومن الخَلق، بل يَمقت -بسبب ذلك- الابنُ أباه، والأبُ ابنه، مع الأمر ببره..

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النساء:٢٢] أي: بئس الطريق طريقًا لمن سلكه؛ **لأن هذا من عوائد الجاهلية،** التي جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء:٢٣-٢٤]

هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحللات من النساء.. فأما المحرمات في النسب فهن السبع اللاتي ذكرهن الله..

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ الأم يدخل فيها **كلُّ من لها عليك ولادة**، وإن بَعُدَت..

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ ويدخل في البنت **كلُّ من لك عليها ولادة**..

﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم..

﴿وَعَمَّـٰتُكُمْ﴾ والعمة: كلُّ أخت لأبيك، أو لجدك، وإن علا..

﴿وَخَـٰلَـٰتُكُمْ﴾ والخالة: كلُّ أخت لأمك، أو جدتك، وإن علَت، وارثةً أم لا..

﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ أي: وإن نَزَلَت.. **فهؤلاء هن المحرمات من النسب، بإجماع العلماء كما هو نص الآية الكريمة**.. وما عداهن فيدخل في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وذلك كـ: بنت العمة والعم، وبنت الخال والخالة.. **وأما المحرمات بالرضاع**: فقد ذكر الله منهن الأمَّ والأخت..

﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾ وفي ذلك **تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها**، إنما هو لصاحب اللبن، دلَّ بتنبيهه على أن **صاحب اللبن يكون أبًا للمرتضع**، فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرعٌ عنهما، كإخْوَتِهِمَا وَأُصُولِهِم وفُرُوعِهِم.. وقال النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[1]، **فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتَّضِع إلى ذريته فقط**، لكن بشرط أن يكون **الرضاع خمس رضعات في الحولين** كما بينت السنة.. **وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع**:..

(١) أخرجه البخاري [٢٦٤٥]، ومسلم [١٤٤٧] وغيرهما من حديث ابن عباس.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ أمهات الزوجة وإن عَلَون..

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ الربيبة وهي **بنت زوجته وإن نزلت**.. وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قيد خرج مخرج الغالب **لا مفهوم له**، فإنَّ الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره.. ولكن للتقييد بذلك **فائدتان: إحداهما**: فيه التنبيه على **الحكمة في تحريم الربيبة**، وأنها كانت بمنزلة البنت، فمن المستقبح إباحتها.. **والثانية**: فيه دلالة على **جواز الخلوة بالربيبة**، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن.. فهذه **لا تَحرُم حتىٰ يَدخُلَ بِزوجَتِه**، كما قال هنا..

﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾..

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ وحلائل الأبناء وإن نَزَلوا، وارثين أو محجوبين.... فهؤلاء الثلاث- حلائل الآباء وإن علَوا، وحلائل الأبناء وإن نَزَلوا، وأمهات الزوجة وإن عَلَون - **يَحرُمن بمجرَّد العقد**.. والرابعة: **الربيبة لا تَحرُم حتىٰ يَدخُلَ بِزوجَتِه**..

وأما المحرمات بالجمع..

﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ فقد ذكر الله الجمع بين الأختين، وحرَّمه، وحرَّم النبيُّ ﷺ الجمعَ بين المرأة وعمتِها أو خالتِها [1].. **فكلُّ امرأتين بينهما رَحِمٌ مُحَرَّم** -لو قُدِّر إحداهما ذكرًا والأخرىٰ أنثىٰ حَرُمَت عليه- **فإنَّه يَحرُم الجمعُ بَينَهُما**، وذلك **لِمَا في ذلك من أَسبابِ التَّقاطع بين الأرحام**..

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾..

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وَمِنَ المحرَّمات في النكاح ﴿المُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ذوات الأزواج.. فـإنه يحرم نكاحهن ما دُمن في ذِمَّة الزوج حتىٰ تُطلَّق وتنقضي عِدَّتُها..

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ بِالسَبي، فإذا سُبِيَت الكافرةُ ذاتُ الزوج حَلَّت لِلمسلمين بعد أن تُستَبْرَأ.. وأما إذا بيعت الأَمة المُزَوَّجة أو وُهِبت فَإِنَّه لا يَنفَسِخ نِكَاحُها؛ لأنَّ المالكَ

(١) أخرجه البخاري [٥١٠٩]، ومسلم [١٤٠٨] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

الثاني نَزَل منزلةَ الأوَّل، ولِقصة بريرة حين خيرها النبي ﷺ[1]..

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: الزموه، واهتدوا به، فإنَّ فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام..

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ دخل فيه: كلُّ ما لم يُذكر في هذه الآية، فإنَّه حلالٌ طيِّب.. فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفًا من الله ورحمةً وتيسيرًا للعباد..

﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ أي: تطلبوا من وَقَع عليه نَظَرُكم واختياركم من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم..

﴿مُّحۡصِنِينَ﴾ مستَعِفِّين عن الزنا، ومُعِفِّين نساءكم..

﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام.. فإن الفاعل لذلك لا يُحصِّن زوجته؛ لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقىٰ مُحصِنًا لزوجته.. وفيها دلالة علىٰ أنه **لا يزوج غير العفيف** لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ [النور: ٣]..

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ أي: ممن تزوجتموها..

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع.. ولهذا إذا دخل الزوج بزوجته تقرر عليه صداقها..

﴿فَرِيضَةٗۚ﴾ أي: إتيانكم إياهن أجورهن فرضٌ فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده.. أو معنىٰ قوله فريضة: أي: مقدَّرة قد قدَّرتموها فوجبت عليكم، فلا تنقصوا منها شيئًا..

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾ أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة، عن رضا وطيب نفس، هذا قول كثير من المفسرين.. وقال كثير منهم: إنها

---

(١) أخرجه البخاري [٥٢٨٣] وغيره عن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبَّاسٍ: يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ رَاجَعْتِهِ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ، قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. اهـ

نزلت في متعة النساء التي كانت حلالًا في أول الإسلام ثم حرمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها وأجرها، ثم إذا انقضىٰ الأمَد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء:٢٣-٢٤] كامل العلم واسعه.. كامل الحكمة.. فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحدَّ لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء:٢٥]

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات..

﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: الحرائر المؤمنات، وخاف علىٰ نفسه العَنَت، أي: الزنا والمشقة الكثيرة،..

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ﴾ فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات..

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمور الدنيا مبنية علىٰ ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية علىٰ ما في البواطن..

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ أي: المملوكات..

﴿بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ أي: سيدُهُنَّ، واحدًا أو متعدِّدًا..

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ولو كنَّ إماء، فإنه كما **يجب المهر** للحرة فكذلك يجب **للأمة**، ولكن **لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا** كن..

﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ **عفيفات** عن الزنا..

﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ **أي**: زانيات علانية..

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ **أي**: أخلَّاء في السر..

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ **أي**: **تزوجن أو أسلمن**، أي: الإماء..

﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الحرائر..

﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ وذلك الذي يمكن تنصيفه وهو **الجَلد**، فيكون عليهن خمسون جَلدة، وأما الرجم **فليس علىٰ الإماء رجم**؛ لأنه لا يَتَنَصَّف.. **فعلىٰ القولِ الأول**[1]: **إذا لم يتزوجن** فليس عليهنَّ حد، إنما **عليهن تعزير** يردعهن عن فعل الفاحشة.. **وعلىٰ القول الثاني**: إنَّ **الإماءَ غير المسلمات**، إذا فعلن فاحشة أيضًا عُزِّرن.. وحكمُ العبد الذَكرِ في الحدَّ المذكور حكمُ الأمة؛ لعدم الفارق بينهما..

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾ **فالحاصل**: **أنه لا يجوز للحر المسلم نكاحُ أمةٍ إلا بأربعة شروط، ذكرها الله**: الإيمان بهن.. والعفة ظاهرًا وباطنًا.. وعدم استطاعة طَولِ الحرة.. وخوفُ العنت.. فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن.. ومع هذا **فالصبر عن نكاحهن أفضل**؛ لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن الصبر، **فإن لم يمكن الصبر عن المحرَّم إلا بنكاحهن وجب ذلك**، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ [النساء:٢٥] وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين؛ لكون **هذه الأحكام رحمةً بالعباد**، وكرمًا وإحسانًا إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسَّع غاية السعة.. ولعلَّ في ذكر **المغفرة بعد ذكر الحد** إشارة إلىٰ أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب

---

(١) يعني: من معاني الإحصان المتقدِّم ذكرهما في قوله (فإذا أحصن)، وهما التزويج أو الإسلام.

عباده، كما ورد بذلك الحديث[(١)].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النساء:٢٦-٢٨]

يخبر تعالىٰ بمنَّته العظيمة، ومِنَحَتِه الجَسِيمَة، وحُسنِ تَربِيَتِه لِعِبَادِهِ المؤمنين وسُهُولَةِ دِينِه فقال..

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ جميع ما تحتاجون إلىٰ بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام..

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سِيَرِهِمُ الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمائلهم الكاملة، وتوفيقهم التام، فلذلك نَفَذَ ما أراده، ووضَّح لكم وبيَّن بيانًا كما بين لمَن قَبلَكم، وهداكم هدايةً عظيمة في العلم والعمل..

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ﴾ يلطف لكم في أحوالكم، وما شَرَعَه لكم، حتىٰ تُمَكَّنوا من الوقوف علىٰ ما حدَّه الله، والاكتفاءِ بما أحلَّه، فتَقِلَّ ذنوبكم بسبب ما يسَر الله عليكم، **فهذا من توبته علىٰ عباده.. ومن توبته عليهم**: أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذللَ بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له، فله الحمد والشكر علىٰ ذلك..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦﴾ أي: كامل الحكمة، **فمِن علمه**: أن علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود.. **ومن حكمته**: أنه يتوب علىٰ من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله من لا يصلح للتوبة..

---

(١) أخرجه البخاري [١٧٠٩]، ومسلم [١٨] وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت.. وفيه «... وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ..».

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ توبة تُلِمُّ شعثكم، وتجمع متفرِّقكم، وتقرِّب بعيدكم..

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ من أصناف الكفرة والعاصين، المقدِّمين لأهوائهم علىٰ طاعة ربهم، يميلون معها حيث مالت، ويقدِّمونها علىٰ ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، فهؤلاء يريدون..

﴿أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ أي: أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلىٰ صراط المغضوب عليهم والضالين.. يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلىٰ طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلِّها في امتثال أوامره، إلىٰ مَنْ الشقاوةُ كلها في اتباعه.. فإذا عرفتم أن الله تعالىٰ يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتَّبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، **فاختاروا لأنفسكم أوْلىٰ الداعِيَين**، وتخيَّروا أحسن الطريقتين..

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه.. **ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم**، كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، **وكتزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة**، وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل، وعلمِه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه..

﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء:٢٦-٢٨] ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر.. **فناسب ذلك أن يخفف الله عنه، ما يَضعُف عنه وما لا يطيقه إيمانه** وصبره وقوته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء:٢٩]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ **ينهىٰ تعالىٰ عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل.. وهذا يشمل** أكلها بالغصوب والسرقات، وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة.. ولما نهىٰ عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم، علىٰ

الآكل، ومن أُخذ مالُه، **أباح لهم ما فيه مصلحتهم**، من أنواع المكاسب والتجارات، وأنواع الحرف والإجارات، الخالية من الموانع، المشتملة علىٰ الشروط، من التراضي وغيره، فقال..

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾ فإنها مباحة لكم.. وشَرَطَ التَّراضي -مع كونها تجارة- لدلالة أنه **يشترط أن يكون العقدُ غيرَ عقدِ ربا؛ لأنَّ** الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضىٰ كلٌّ من المتعاقدين ويأتي به اختيارًا..

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يقتلُ الإنسان نفسه.. **ويدخل في ذلك الإلقاءُ** بالنفس إلىٰ التهلكة، **وفعلُ الأخطار** المفضية إلىٰ التلف والهلاك.. **ثم ختم الآية بقوله..**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء:٢٩] ومن رحمته أن **صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها**، ورتب علىٰ ذلك ما رتبه من الحدود.

📖 الفـوائـد

١- ينهىٰ تعالىٰ عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل.. **لعله يدخل في ذلك** أكل مال نفسك علىٰ وجه البطر والإسراف، **لأن هذا من الباطل وليس من الحق.**

٢- تأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم.. وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ كيف شمل أموالَ غيرك ومالَ نفسك وقتلَ نفسك وقتلَ غيرك بعبارة أخصر من قوله: (لا يأكل بعضكم مال بعض، ولا يقتل بعضكم بعضًا)، مع قصور هذه العبارة علىٰ مال الغير ونفس الغير فقط.

٣- إضافة الأموال والأنفس إلىٰ عموم المؤمنين فيه دلالة علىٰ أن **المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد**، حيث كان الإيمان يجمعهم علىٰ مصالحهم الدينية والدنيوية.

٤- شَرَطَ التَّراضي.. **ومن تمام الرضا** أن يكون **المعقود عليه معلومًا**، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا علىٰ تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع **الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا فلا ينفذ عقده.**

٥- فيها أنَّه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل؛ لأن الله شَرَط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:٣٠]

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: أكل الأموال بالباطل وقتل النفوس..

﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ أي: لا جهلًا ونسيانًا..

﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ﴾ أي: عظيمة، كما يفيده التنكير..

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:٣٠]..

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء:٣١]

وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين..

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وَعَدَهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات..

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ غفر لهم جميع الذنوب والسيئات..

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء:٣١] وأدخلهم مدخلًا كريمًا، كثير الخير، وهو الجنة المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

🕮 الفوائد

١- يدخل في اجتناب الكبائر **فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبًا كبيرة**، كـ: الصلوات الخمس، والجمعة، وصوم رمضان، كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»[1].

---

(١) أخرجه مسلم [٢٣٣] وغيره من حديث أبي هريرة.

٢- أحسن ما حُدت به الكبائر، أن **الكبيرة**: ما فيه حد في الدنيا.. أو وعيد في الآخرة.. أو نفي إيمان.. أو ترتيب لعنة أو غضب عليه.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء:٣٢]

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ **ينهىٰ تعالىٰ المؤمنين عن أن يتمنىٰ بعضهم** ما فضل الله به غيرَه من الأمور **الممكنة وغير الممكنة.. فلا تتمنىٰ النساء خصائص الرجال** التي بها فضلهم علىٰ النساء.. **ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنىٰ والكمال تمنيًا مجردًا.. لأن هذا هو الحسد بعينه،** تمني نعمة الله علىٰ غيرك أن تكون لك ويُسلب إياها.. **ولأنه يقتضي**: السَخَطَ علىٰ قدر الله.. والإخلاد إلىٰ الكسل.. والأماني الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب.. **وإنما المحمود أمران**: أن يسعىٰ العبد علىٰ حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية.. **ويسأل الله** تعالىٰ من فضله، فلا يتكل علىٰ نفسه ولا علىٰ غير ربه.. ولهذا قال تعالىٰ..

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ من أعمالهم المنتِجَة للمطلوب..

﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فكلٌ منهم لا يناله غيرُ ما كَسَبَه وتَعِبَ فيه..

﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا.. **فهذا كمال العبد وعنوان سعادته**، لا من يترك العمل، أو يتكل علىٰ نفسه غير مفتقر لربه، أو يجمع بين الأمرين فإن هذا مخذول خاسر..

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء:٣٢] **فيعطي من يَعلمُه أهلًا لذلك، ويمنعُ من يَعلمُه غيرَ مستحقٍّ.**

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء:٣٣]

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الناس..

﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ يتولونه ويتولاهم، بالتعزز والنصرة والمعاونة على الأمور..

﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وهذا يشمل **سائر الأقارب** من الأصول والفروع والحواشي، **هؤلاء الموالي من القرابة.. ثم ذكر نوعا آخر من الموالي** فقال..

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: حالفتموهم بما عَقدتُم معهم من عَقد المُحالفة **على النصرة والمساعدة، والاشتراك بالأموال، وغير ذلك**.. وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان **الموالي يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم** مفردًا..

﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ **آتوا الموالي نصيبهم** الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة والمساعدة **على غير معصية الله، والميراث للأقارب** الأدنين من الموالي..

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء:٣٣] **مطَّلِعًا على كلِّ شيء بعلمه لجميع الأمور، وبصره** لحركات عباده، **وسمعه** لجميع أصواتهم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء:٣٤]

﴿الرِّجَالُ﴾ **يخبر تعالى أن الرِّجال**..

﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ **قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى**، من المحافظة على فرائضه، **وكفهن عن المفاسد**، والرجال **عليهم أن يلزموهن بذلك**.. وقوامون عليهن أيضا **بالإنفاق عليهن**، والكسوة، والمسكن.. ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال..

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهنَّ، **فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة**: من كون الولايات **مختصة بالرجال**، والنبوة، والرسالة، **واختصاصهم بكثير من العبادات** كالجهاد والأعياد والجمع، **وبما**

خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله.

وكذلك خصهم بالنفقات علىٰ الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء.. ولعل هذا سر قوله..

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ وحذف المفعول ليدل علىٰ عموم النفقة.. **فعُلِم من هذا كُلُه أنَّ الرجل كالوالي والسيد لامرأته**، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، **فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به.. ووظيفتها**: القيامُ بطاعة ربها وطاعة زوجها فلهذا قال..

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ **مطيعات لله تعالىٰ..**

﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ **مطيعات لأزواجهن حتىٰ في الغيب، تحفظ بَعلَها بنَفسِها وماله، وذلك..**

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ **بحفظ الله لهُنَّ، وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإنَّ النفسَ** أمارة بالسوء، ولكنْ من توكَّل علىٰ **الله** كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.. **ثم قال..**

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، **بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل..**

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بـ: بيان حُكمِ **الله** في طاعة الزوج ومعصيته.. والترغيب في الطاعة.. والترهيب من معصيته.. **فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا..**

﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ **فيهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يضاجعها، ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضَرَبها..**

﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ **ضربًا غير مبرِّح..**

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾ **فإن حصل المقصود بواحدٍ من هذه الأمور وأطعنكم..**

﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ فَقد حصل لكم ما تحبُّون، **فاتركوا معاتبتها علىٰ الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب** التي يضر ذِكرُها، ويَحدُث بسببه الشر..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء:٣٤] **له العلو المطلق بجميع الوجوه** والاعتبارات، علو **الذات** وعلو **القدر** وعلو **القهر** الكبير الذي لا أكبر منه ولا أجلَّ ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝٣٥﴾ [النساء:٣٥]

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتىٰ يكون كل منهما في شق..

﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ رجلين مكلَّفين مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ (الحكم)؛ **لأنه لا يصلح حكمًا إلا من اتصف بتلك الصفات.. فينظران** ما ينقم كلٌّ منهما علىٰ صاحبه.. **ثم يلزمان** كلًّا منهما ما يجب.. فإن لم يستطع أحدُهما ذلك قنَّعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخُلُق.. ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه.. **فإن وصلت الحال إلىٰ أنه لا يمكن اجتماعُهُما** وإصلاحُهما إلا علىٰ وجه المعاداةِ والمقاطعةِ ومعصيةِ الله، **ورأيا أنَّ التفريق بينهما أصلح**، فرَّقا بينهما، **ولا يشترط رضا الزوج**، كما يدل عليه أن الله سماهما حكمين، والحكم يحكم ولو لم يرض المحكوم عليه، ولهذا قال..

﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ﴾ بسبب **الرأي** الميمون، **والكلام** الذي **يجذب** القلوب، **ويؤلف** بين القرينين..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝٣٥﴾ [النساء:٣٥] **عالمًا** بجميع الظواهر والبواطن، **مطَّلِعًا** علىٰ خفايا الأمور وأسرارها، فمِن عِلمه وخُبرِه أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة والشرائع الجميلة.

﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٣٧﴾ [النساء:٣٦-٣٧]

﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يأمر تعالىٰ عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رِقِّ عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبةً وذُلًا وإخلاصًا له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة..

﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ وينهىٰ عن الشرك به شيئا، لا شركًا أصغر ولا أكبر، لا مَلِكًا ولا نبيًا ولا وليًا ولا غيرَهم من المخلوقِين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا.. بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد.. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب، فقال..

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ **أحسنوا إليهم بـ: القول الكريم**، والخطاب اللطيف.. **والفعل الجميل بـ**: طاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما.. **وللإحسان ضدان: الإساءةُ**، وعدمُ الإحسان، وكلاهما منهيٌّ عنه..

﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أيضـًا إحسانـًا.. **ويشمل ذلك**: جميع الأقارب، قرُبوا أو بعِدوا.. بـ: أن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله..

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حقٌّ علىٰ المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بـ: كفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم..

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا علىٰ كفايتهم، ولا كفاية من يمونون، فأمر الله تعالىٰ بالإحسان إليهم، بسدِّ خلتهم وبدفع فاقتهم، والحض علىٰ ذلك، والقيام بما يمكن منه..

﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: الجار القريب الذي له حقان: حق الجوار وحق القرابة، فله علىٰ جاره حق وإحسان راجع إلىٰ العرف..

﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ وَكذلك الجَارِ الجُنُبِ، أي: **الذي ليس له قرابة**، وكُلَّما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًّا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بـ: الهدية والصدقة والدعوة،

واللطافة بـ: الأقوال والأفعال، وعدم أذيته بـ: قول أو فعل..

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قيل: الرفيق في السفر.. وقيل: الزوجة.. وقيل **الصاحب مطلقًا، ولعله أولىٰ،** فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة.. **فعلىٰ الصاحب لصاحبه حقٌّ زائد علىٰ مجرد إسلامه، من:** مساعدته علىٰ أمور دينه ودنياه، والنصحِ له، والوفاءِ معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأنَّ يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، **وكلَّما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد..**

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق علىٰ المسلمين؛ لشدَّة حاجته، وكونِه في غير وطنه، بـ: تبليغه إلىٰ مقصوده أو بعض مقصوده، وبإكرامه وتأنيسه..

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: **من الآدميين والبهائم،** بـ: القيامِ بكفايتهم، وعدمِ تحميلهم ما يَشُقُّ عليهم، وإعانتِهم علىٰ ما يتحملون، وتأديبِهم لما فيه مصلحتهم.. **فمن قام بهذه المأمورات فهو: الخاضع** لربه، **المتواضع** لعباد الله، **المنقاد** لأمر الله وشرعه، **الذي يستحق الثواب** الجزيل والثناء الجميل.. **ومن لم يقم بذلك:** فإنه عبد مُعرِضٌ عن ربه، غيرُ منقاد لأوامره، ولا متواضعٌ للخلق، بل هو متكبِّر علىٰ عباد الله، مُعجَبٌ بنفسه، فخورٌ بقوله، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ معجبًا بنفسه، متكبرًا علىٰ الخلق..

﴿فَخُورًا ۝٣٦﴾ يثني علىٰ نفسه ويمدحها علىٰ وجه الفخر والبطر علىٰ عباد الله، **فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق.. ولهذا ذمهم بقوله..**

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة..

﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ **بأقوالهم وأفعالهم..**

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من العلم الذي يهتدي به الضالون، ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق.. **فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين،** فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء:٣٦-٣٧] كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسببوا في منع غيرهم من البخل وعدم الاهتداء، أهانهم بالعذاب الأليم والخزي الدائم، فعياذًا بك اللهم من كل سوء.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾ [النساء:٣٨]

ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسمعة وعدم إيمان به فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليروهم ويمدحوهم ويعظموهم..

﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ ليس إنفاقهم صادرًا عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه، أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير.. وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزِّهم إليها، فلهذا قال..

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾ [النساء:٣٨] بئس المقارِن والصاحب الذي يريد إهلاكَ من قَارَنه ويَسعىٰ فيه أشدَّ السعي.. فكما أن من بَخَل بما آتاه الله وكتم ما مَنَّ به الله عليه عاصٍ آثم مخالفٍ لربه، فكذلك من **أنفق وتعبَّد لغير الله، فإنَّه آثمٌ عاص لربه مستوجب للعقوبة،** لأن الله إنما أمرَ بطاعته وامتثالِ أمره علىٰ وجه الإخلاص، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبُه المدحَ والثوابَ، فلهذا حث تعالىٰ عليه بقوله..

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمٗا ٣٩﴾ [النساء:٣٩]

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ **أيُّ شيء عليهم،** وأيُّ حرج ومشقة تلحقهم.. لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو الإخلاص.. وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله، وأنعم بها عليهم.. **فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق..** ولمَّا كان الإخلاص سرًّا بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله أخبر تعالىٰ بعلمه بجميع الأحوال، فقال..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء:٣٩]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤٠-٤٢]

يخبرُ تعالىٰ عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيدها في سيئاته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة]..

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أي إلىٰ عشرة أمثالها إلىٰ أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها إخلاصًا ومحبة وكمالا..

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ زيادة علىٰ ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال أُخر، وإعطاءِ البر الكثير والخيرِ الغزير..

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ كيف تكون تلك الأحوال؟ وكيف يكون ذلك الحُكمُ العظيم الذي جمع: أنَّ مَن حَكَم به كاملُ العلم كاملُ العدل كامل الحكمة، بشهادة أزكىٰ الخلق -وهم الرسل- علىٰ أممهم، مع إقرار المحكوم عليه؟ فهذا -والله- الحُكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلِها وأعظمِها، وهناك يبقىٰ المحكومُ عليهم مقرِّين له لكمال الفضل والعدل والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح، ويشقىٰ أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين، ولهذا قال..

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ جمعوا بين: الكفر بالله وبرسوله، ومعصيةِ الرسول..

﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ تبتلعهم ويكونون ترابًا وعدمًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]..

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤٠-٤٢] بل يقرون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين.. فأما ما ورد من **أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم**، فإن ذلك يكون **في بعض مواضع القيامة**، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم حينئذ ينجلي الأمر ولا يبقىٰ للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:٤٣]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ ينهىٰ تعالىٰ عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارىٰ..

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ حتىٰ يعلموا ما يقولون.. وهذا شامل لـ: قربان مواضع الصلاة، **كالمسجد**، فإنه لا يمكَّن السكران من دخوله.. وشامل لنفس **الصلاة**.. **فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة؛** لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدَّد تعالىٰ ذلك وغيَّاه إلىٰ وجود العلم بما يقول السكران..

﴿وَلَا جُنُبًا﴾ لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنبًا..

﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل، أي: تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه..

﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ﴾ فإذا اغتسلتم فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط..

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ فأباح **التيمم للمريض مطلقًا** مع وجود الماء وعدمه، والعلة المرض **الذي يشق معه استعمال الماء**..

﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وكذلك السفر فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقده المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه، جاز له التيمم..

﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط..

﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أو ملامسة النساء..

﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾ فإنه يباح له التيمم إذا لم يجد الماء، **حضرًا وسفرًا**، كما يدل علىٰ ذلك عموم الآية.. **والحاصل**: أن الله تعالىٰ **أباح التيمم** في حالتين: حال **عدم الماء**، وهذا مطلقا في الحضر والسفر.. وحال **المشقة** باستعماله بمرض ونحوه..

﴿صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ وهو كل ما تصاعد علىٰ وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا.. **ويحتمل**: أن يختص ذلك بذي الغبار؛ لأن الله قال..

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ وما لا غبار له لا يمسح به.. وقوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ هذا **محل المسح في التيمم**: الوجه جميعه، واليدان **إلىٰ الكوعين**، كما دلت علىٰ ذلك الأحاديث الصحيحة (١).. ويستحب أن يكون ذلك **بضربة واحدة**، كما دلَّ علىٰ ذلك حديث عمار.. ثم ختم الآية بقوله..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾ [النساء:٤٣] كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، **بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل**، بحيث لا يَشق علىٰ العبد امتثالُه، فيتحرَّجُ بذلك.. **ومن عفوه ومغفرته**: أن رحم هذه الأمة بشرع **طهارة التراب** بدل الماء، عند تعذر استعماله.. **ومن عفوه ومغفرته: أن فتح للمذنبين باب التوبة** والإنابة، ودعاهم إليه، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم.. **ومن عفوه ومغفرته** أنَّ المؤمن لو أتاه بقِراب الأرض خطايا، ثم لقيه لا يشرك به شيئا، لأتاه بقِرابها مغفرة.

---

(١) قال ابن حجر في [الفتح/ باب التيمم للوجه والكفين]: فَوَرَدَ بِذِكْرِ الْكَفَّيْنِ فِي الصَّحِيحَيْنِ.. وَبِذِكْرِ الْمِرْفَقَيْنِ فِي السُّنَنِ.. فَأَمَّا رِوَايَةُ الْمَرْفِقَيْنِ وَكَذَا نِصْفُ الذِّرَاعِ: فَفِيهِمَا مَقَالٌ.اهـ. وفي [ح٣٤١]: وَأَمَّا مَا اسْتُدِلَّ بِهِ مِنِ اشْتِرَاطِ بُلُوغِ الْمَسْحِ إِلَىٰ الْمَرْفِقَيْنِ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ مُشْتَرَطٌ فِي الْوُضُوءِ.. فَجَوَابُهُ: أَنَّهُ قِيَاسٌ فِي مُقَابَلَةِ النَّصِّ، فَهُوَ فَاسِدُ الِاعْتِبَارِ.. وَقَدْ عَارَضَهُ مَنْ لَمْ يَشْتَرِطْ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ آخَرَ، وَهُوَ الْإِطْلَاقُ فِي آيَةِ السَّرِقَةِ، وَلَا حَاجَةَ لِذَلِكَ مَعَ وُجُودِ هَذَا النَّصِّ.اهـ

📖 **الفـوائـد**

١- هذه الآية الكريمة **منسوخة بتحريم الخمر مطلقًا**، فإنَّ الخمر -في أول الأمر- كان غير محرم..

ثم إن الله تعالىٰ عرَّض لعباده بتحريمه بقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩]..

ثم إنه تعالىٰ نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية..

ثم إنه تعالىٰ حرمه علىٰ الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية.

ومع هذا فإنه **يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة** لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول **مقصود الصلاة** الذي هو روحها ولبها وهو **الخشوع وحضور القلب**، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

٢- يؤخذ من المعنىٰ: **منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط**، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل.

٣- لعل فيه إشارة إلىٰ أنه **ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره**، كمدافعة الأخبثين والتوق لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

٤- **اختلف المفسرون في معنىٰ قوله:** ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾:

هل المراد بذلك **الجماع**؟ فتكون الآية نصًا في **جواز التيمم للجنب**، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة.

أو المراد بذلك **مجرد اللمس باليد**؟ ويُقَيَّد ذلك بما **إذا كان مَظَنَّة خروج المَذي**، وهو المس الذي يكون **لشهوة**، فتكون الآية دالة علىٰ نقض الوضوء بذلك؟

٥- استدّل الفقهاء بقوله: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ﴾ **بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت**، قالوا: لأنه لا يقال: (لم يجد) لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب.

٦- استُدل بذلك أيضا علىٰ أن **الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين**

التطهر به، لدخوله في قوله: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ﴾ وهذا ماء.. **ونوزع في ذلك أنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر.**

٧- في هذه الآية الكريمة **مشروعية هذا الحكم العظيم** الذي امتن به الله علىٰ هذه الأمة، **وهو مشروعية التيمم**، وقد **أجمع علىٰ ذلك العلماء** ولله الحمد.

٨- أن التيمم يكون بالصعيد الطيب.

٩- أن **تيمم الجنب كتيمم غيره**، بالوجه واليدين.

١٠- اعلم أن **قواعد الطب تدور علىٰ ثلاث قواعد**: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغِ منها، والحِميةِ عنها.. وقد نبه تعالىٰ عليها في كتابه العزيز..

أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذي، فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر حفظًا لصحتهما، باستعمال ما يصلح البدن علىٰ وجه العدل، وحماية للمريض عما يضره.

وأما استفراغ المؤذي فقد أباح تعالىٰ للمُحرِم المتأذي برأسه أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه، ففيه تنبيه علىٰ استفراغ ما هو أولىٰ منها من البول والغائط والقيء والمني والدم، وغير ذلك، **نبه علىٰ ذلك ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

وفي الآية:

١١- **وجوب تعميم** مسح الوجه واليدين.

١٢- وأنه يجوز التيمم ولو لم يضق الوقت.

١٣- وأنه لا يُخاطَبُ بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء:٤٤-٤٦]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا ذم لمن ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.. وفي ضمنه **تحذير عباده عن الاغترار بهم، والوقوع في أشراكهم**، فأخبر أنهم في أنفسهم..

﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه، فيؤثرون الضلال علىٰ الهدىٰ، والكفر علىٰ الإيمان، والشقاء علىٰ السعادة، ومع هذا..

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾..

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ فهم حريصون علىٰ إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك.. ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم، بيَّن لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولىٰ أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ ينصرهم علىٰ أعدائهم، ويبين لهم ما يَحذَرون منهم، ويعينهم عليهم.. فولايته تعالىٰ فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر.. ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل علىٰ الحق فقال..

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم..

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنىٰ، أو هما جميعًا.. **فمن تحريفهم**: تنزيل الصفات التي ذُكرت في كتبهم التي لا تنطبق ولا تَصدق إلا علىٰ محمد ﷺ علىٰ أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أُريد بها غيرُه، وكتمانهم ذلك.. فهذا **حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق علىٰ الباطل**، وجحدوا لذلك الحق.. **وأما حالهم في العمل** والانقياد فإنهم ﴿يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾..

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ سمعنا قولك وعصينا أمرك.. وهذا **غاية الكفر والعناد** والشرود عن الانقياد.. وكذلك **يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب** وأبعده عن الأدب، فيقولون..

﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ قصدُهم: اسمع منَّا غيرَ مُسمَع ما تحب، بل مُسمَع ما تكره..

﴿وَرَٰعِنَا﴾ قصدهم بذلك: الرعونة، بالعيب القبيح.. ويظنون أن اللفظ -لمَّا كان محتملا لغير ما أرادوا من الأمور- أنه يروج علىٰ الله وعلىٰ رسوله.. فتوصَّلوا بذلك اللفظِ -الذي يلوون به ألسنتهم- إلىٰ الطعن في الدين، والعيب للرسول، ويُصرِّحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال..

﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ ثم أرشدهم إلىٰ ما هو خير لهم من ذلك، فقال..

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ﴾ وذلك لِما تضمنه هذا الكلام: من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه.. ولكن لمَّا كانت طبائعهم غيرَ زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النساء:٤٤-٤٦]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧﴾ [النساء:٤٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ يأمر تعالىٰ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن علىٰ غيره من الكتب السابقة التي قد صدقها، فإنها أخبرت به فلما وقع المخبَر به كان تصديقًا لذلك الخبر.. وأيضا فإنهم **إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب،** لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا، ويوافق بعضها بعضًا، فدعوىٰ الإيمان ببعضها دون بعض دعوىٰ باطلة لا يمكن صدقها.. وفي قوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم ﴾ حث لهم وأنهم ينبغي أن يكونوا **قبل غيرهم مبادرين إليه** بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم علىٰ عدم الإيمان فقال:..

﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾ وهذا جزاء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقا والحق باطلا، جُوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق..

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ وردها علىٰ أدبارها بأن تجعل في أقفائهم وهذا أشنع ما يكون..

﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾ بأن يطردهم من رحمته، ويعاقبهم بجعلهم قردة، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت ﴿فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]..

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ۝٤٧﴾ [النساء:٤٧] كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء:٤٨]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ يخبر تعالىٰ: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدا من المخلوقين..

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ ويغفر ما دون الشرك من الذنوب صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمتُه مغفرتَه.. **فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابا كثيرة:** كالحسنات الماحية.. والمصائب المكفرة في الدنيا.. والبرزخ.. ويوم القيامة.. وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض.. وبشفاعة الشافعين.. ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.. وهذا **بخلاف الشرك**، فإن المشرك قد سَد علىٰ نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، **فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائبُ شيئًا**، وما لهم يوم القيامة ﴿مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ۝١٠١﴾ [الشعراء].. ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء:٤٨] أي افترىٰ جرمًا كبيرًا، وأيُّ ظلم أعظم ممن سوَّىٰ المخلوق من تراب -الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه فضلا عمن عبده نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا-

بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فمنه تعالىٰ، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟ ولهذا حتم علىٰ صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

🕮 الفوائد

هذه الآية الكريمة في حق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه كما قال تعالىٰ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣] أي لمن تاب إليه وأناب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء:٤٩-٥٠]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾ هذا **تعجيب** من الله لعباده، **وتوبيخ** للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارىٰ، **ومن نحا نحوهم من كل من زكىٰ نفسه بأمر ليس فيه**.. وذلك أن اليهود والنصارىٰ يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ [المائدة: ١٨]، ويقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١١١].. وهذا مجرد دعوىٰ لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة]، فهؤلاء هم الذين زكاهم الله ولهذا قال هنا..

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ بالإيمان والعمل الصالح بالتخلِّي عن الأخلاق الرذيلة، والتحلي بالصفات الجميلة.. **وأما هؤلاء** فهم -وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم علىٰ شيء، وأن الثواب لهم وحدهم- **فإنهم كذبة** في ذلك، **ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم لا بظلم من الله لهم**، ولهذا قال..

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ وهذا لتحقيق العموم، أي: لا يظلمون شيئًا ولا مقدار الفتيل الذي في شِق النواة، أو الذي يُفتل من وسخ اليد وغيرها..

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ بتزكيتهم أنفسهم؛ لأن هذا من أعظم الافتراء على الله، **لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقًّا، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلًا**، وهذا أعظم الكذب وقلب الحقائق بجعل الحقِّ باطلًا، والباطلِ حقًّا، ولهذا قال..

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ [النساء:٤٩-٥٠] ظاهرًا بينًا موجبًا للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ۝٥٤ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النساء:٥١-٥٧]

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا من **قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين**، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه **بالإيمان بالجبت والطاغوت**..

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو الإيمان **بكل عبادة لغير الله، أو حُكمٌ بغير شرع الله**..

فدخل في ذلك: السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت.. وكذلك حَمَلهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله -عبدة الأصنام- على طريق المؤمنين، فقال..

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأجلهم، تملقًا لهم ومداهنة، وبغضًا للإيمان..

﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١﴾ أي: طريقًا.. فما أسمَجُهم، وأشدَّ عنادِهِم، وأقلَّ عقولهم! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذميم؟! هل ظنُّوا أن هذا يروج علىٰ أحد من العقلاء، أو يدخل عقلَ أحد من الجهلاء.. **فهل يُفَضَّل دينٌ قام علىٰ عبادة الأصنام والأوثان**، واستقام علىٰ تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه؟!.. **علىٰ دين قام علىٰ عبادة الرحمن**، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلىٰ صلة الأرحام والإحسان إلىٰ جميع الخلق، حتىٰ البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال؟!.. فهل هذا إلا من الهذيان؟!.. **وصاحب هذا القول**: إما من **أجهل الناس** وأضعفهم عقلًا، وإما من **أعظمهم عنادًا** وتمردًا ومراغمة للحق، وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالىٰ عنهم..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته..

﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان..

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ فيفضِّلون من شاءوا علىٰ من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا قال..

﴿فَإِذٗا﴾ لو كان لهم نصيب من الملك..

﴿لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ شيئًا ولا قليلا.. وهذا وصف لهم **بشدة البخل**، علىٰ تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله.. وأخرج هذا مخرج **الاستفهام المتقرر إنكاره** عند كل أحد.

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ هل الحامل لهم علىٰ قولهم كونهم شركاءَ لله فيفضِّلون من شاءوا؟! أم الحامل لهم علىٰ ذلك الحسدُ للرسول وللمؤمنين علىٰ ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب علىٰ فضل الله..

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾ وذلك ما أنعم الله به علىٰ إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب، والمُلك الذي أعطاه من أعطاه من أنبيائه كـ (داود) و(سليمان)، فإنعامه لم يزل مستمرًا علىٰ عباده المؤمنين.. فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والمُلك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلِّهم وأعظمهم معرفةً بالله وأخشاهم له؟!

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ، فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي..

﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ عنادًا وبغيًا وحسدًا، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم..

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ تسعر علىٰ من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أصناف الكفرة، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ عظيمة الوقود، شديدة الحرارة..

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي: احترقت..

﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ليبلغ العذاب منهم كلَّ مبلغ.. وكما **تكرر منهم الكفر** والعناد وصار وصفا لهم وسجية؛ **كرر عليهم العذاب**، جزاء وِفاقا، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾ له العزة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وما أوجب الإيمانَ به..

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الواجبات والمستحبات..

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب..

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النساء:٥١-٥٧]..

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:٥٨-٥٩]

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ الأمانات: **كل ما ائتُمن عليه الإنسانُ وأُمر بالقيام به**.. فأمر الله عباده بأدائها، أي: **كاملة موفرة**، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولًا بها..

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا **يشمل الحكم بينهم في** الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، علىٰ القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو..

﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ **الذي أمر الله بالحكم به هو**: ما شرعه الله علىٰ لسان رسوله، من الحدود والأحكام.. ولمَّا كانت هذه أوامرٌ حسنةٌ عادلةٌ قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ وهذا **مدحٌ من الله لأوامره ونواهيه**، لاشتمالها علىٰ مصالح الدارين ودفع مضارهما، **لأن شارعها السميع البصير**..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ الذي لا تخفىٰ عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.. ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما..

﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة علىٰ الناس، من **الأمراء والحكام والمفتين**، فإنَّه لا يستقيم للناس أمرُ دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعةً لله ورغبة فيما عنده.. ولكن **بشرط ألا يأمروا بمعصية الله**، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. ولعل **هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذِكرُه مع طاعة الرسول**، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.. ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلىٰ الله وإلىٰ رسوله..

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله، فإنَّ **فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية**، إما بصريحهما أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنىٰ يقاس عليه ما أشبهه، **لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين**، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما، **فالرد إليهما شرط في الإيمان** فلهذا قال:..

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يَرُد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الردُّ إلى الله ورسوله..

﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٨-٥٩] فإنَّ حكم الله ورسولِهِ أحسنُ الأحكام وأعدَلُها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

🕮 الفـوائـد

١- قد ذكر الفقهاء على أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها، قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

٢- وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمِن، ووكيلُه بمنزلته، فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديًا لها.

٣- ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ هذا يستلزم معرفةَ العدل ليحكُم به.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء:٦٠-٦٣]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ يُعَجِّبُ تعالى عباده من حالة المنافقين..

﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا..

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت..

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ والحال أنهم ﴿قَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟! فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمَنْ زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت علىٰ حكم الله، فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال:..

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ عن الحق..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين..

﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي، ومنها تحكيم الطاغوت؟!

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ معتذرين لما صدر منهم، ويقولون..

﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلىٰ المتخاصمين والتوفيق بينهم.. وهم كَذَبة في ذلك، **فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله** ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]، ولهذا قال..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والقصد السيئ..

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لا تبال بهم، ولا تقابلهم علىٰ ما فعلوه واقترفوه..

﴿وَعِظْهُمْ﴾ بيِّن لهم حكمَ الله تعالىٰ مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه..

﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا﴾ انصحهم سرًا بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود..

﴿بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦٣] وبالغ في زجرهم وقمعهم عمَّا كانوا عليه.. وفي هذا دليل علىٰ أن مقترف المعاصي **وإن أُعرِض عنه فإنه يُنصحُ سرًا، ويبالغ في وعظه** بما يظن حصول المقصود به.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٤-٦٥]

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ يخبر تعالىٰ خبرًا في ضمنه **الأمر والحث علىٰ طاعة الرسول والانقياد له**، وأن **الغاية من إرسال الرسل** أن يكونوا مطاعين، يَنقاد لهم المرسَلُ إليهم في جميع ما أُمِروا به ونُهوا عنه، وأن يكونوا معظِّمين تعظيم المطيع للمُطَاع..

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره.. ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترفوا السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله فقال..

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ﴾ معترفين بذنوبهم باخعين بها..

﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾ لتاب عليهم بمغفرته ظلمَهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها.. ثم أقسم تعالىٰ بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتىٰ يحكموا رسوله فيما شجر بينهم..

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، **بخلاف مسائل الإجماع**، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة..

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ ثم لا يكفي هذا التحكيم حتىٰ ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه علىٰ وجه الإغماض..

﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء:٦٤-٦٥] ثم لا يكفي ذلك حتىٰ يسلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

الفوائد

١- في قوله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ إثبات **عصمة الرسل** فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، فلولا أنهم معصومون لا يشرِّعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقًا.

٢- في قوله ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ إثبات **القضاء والقدر**، والحث علىٰ **الاستعانة بالله**، وبيان أنه **لا يمكن الإنسان -إن لم يعنه الله- أن يطيع الرسول**.

٣- ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ﴾ هذا المجيء إلىٰ الرسول ﷺ **مختص بحياته**؛ لأن السياق يدل علىٰ ذلك لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، **وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء** بل ذلك شرك.

٤- **التحكيم** في مقام الإسلام، **وانتفاء الحرج** في مقام الإيمان، **والتسليم** في مقام الإحسان، فمَن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها.

٥- مَن ترك هذا التحكيم المذكور **غير ملتزم له فهو كافر، ومَن تركه، مع التزامه، فله حكم أمثاله من العاصين.**

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ **يخبر تعالىٰ أنه لو كتب علىٰ عباده الأوامر الشاقة علىٰ النفوس، من قتل النفوس والخروج من الديار..**

﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ **لم يفعله إلا القليل منهم والنادر.. فليحمدوا ربهم وليشكروه علىٰ تيسير ما أمرهم به** من الأوامر التي تسهل علىٰ كل أحد، ولا يشق فعلها.. وفي هذا إشارة إلىٰ أنه **ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات،** لتخف عليه العبادات، ويزداد حمدًا وشكرًا لربه..

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ما وُظِّف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده.. وهذا هو الذي ينبغي للعبد، أن **ينظر إلىٰ الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها،** ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتىٰ يصل إلىٰ ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا **بخلاف من طمحت نفسه إلىٰ أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد،** فإنه لا يكاد يصل إلىٰ ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.. ثم رتب ما يحصل لهم علىٰ فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور: (أحدها): الخيرية في قوله..

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أُمروا بها، أي: **وانتفىٰ عنهم بذلك صفة الأشرار،** لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده..

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ (الثاني): حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإنَّ الله **يثبِّت الذين**

آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وُعِظوا به.. فيثبتهم في الحياة الدنيا **عند ورود الفتن** في الأوامر والنواهي والمصائب.. فيحصل لهم ثبات **يوفقون لفعل الأوامر** وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها.. وعند **حلول المصائب** التي يكرهها العبد فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك.. ويحصل له الثبات على الدين **عند الموت وفي القبر**.. وأيضا فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى **يألفها ويشتاق إليها** وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.. (الثالث): قوله..

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨] (الرابع): الهداية إلى صراط مستقيم.. وهذا عموم بعد خصوص؛ **لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم**، من كونها متضمنة للعلم بالحق ومحبته وإيثاره والعمل به وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هُدِيَ إلى صراط مستقيم فقد وُفِّقَ لكل خير واندفع عنه كل شر وضير.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٦٩-٧٠]

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ كل مَنْ أطاع الله ورسوله على حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر وأنثى وصغير وكبير..

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة..

﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى الله تعالى..

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ وهم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولا وعملا وحالا ودعوة إلىٰ الله..

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقتلوا..

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالىٰ كان مع هؤلاء في صحبتهم..

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم والأنس بقربهم في جوار رب العالمين..

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ﴾ الذي نالوه..

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي وفقهم لذلك، وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾ [النساء:٦٩-٧٠] يعلم أحوال عباده ومن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۝٧١ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝٧٢ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧٣ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٧٤﴾ [النساء:٧١-٧٤]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين.. وهذا **يشمل الأخذ بجميع الأسباب، التي بها يستعان علىٰ قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم**، من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين علىٰ ذلك، وما به يعرف مداخلهم، ومخارجهم، ومكرهم، والنفير في سبيل الله، ولهذا قال..

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش، ويقيم غيرهم..

﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۝٧١﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية والراحة للمسلمين في دينهم.. وهذه الآية نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠].. ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال..

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ﴾ أيها المؤمنون..

﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفا وخورا وجبنا، هذا الصحيح.. **وقيل معناه:** ليبطئن غيرَه، أي: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون.. **ولكن الأول أولىٰ لوجهين: أحدهما:** قوله ﴿مِنكُمۡ﴾ والخطاب للمؤمنين.. **والثاني:** قوله في آخر الآية: ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة.. **وأيضا** فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين علىٰ قسمين: **صادقون** في إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد، **وضعفاء** دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوىٰ علىٰ الجهاد، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤] إلىٰ آخر الآيات.. ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها فقال..

﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ هزيمة وقتل، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحِكَم..

﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف..

﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ۝٧٢﴾ رأىٰ من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة.. ولم يدر أن **النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة**، التي بها يقوىٰ الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب ورضا الكريم الوهاب.. وأما القعود فإنه وإن استراح قليلا فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.. ثم قال..

﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: نصر وغنيمة..

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٧٣﴾ يتمنىٰ

أنه حاضر؛ لينال من المغانم، **ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك**، كأنه ليس منكم -يا معشر المؤمنين- ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها **أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم**، يفرحون بحصولها ولو علىٰ يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين، ويألمون بفقدها، ويسعون جميعا في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنىٰ الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.. **ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته**، ولا يغلق عنهم أبوابها، بل من حصل منه غير ما يليق أمَره ودعاه إلىٰ جبر نقصه وتكميل نفسه، **فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيله** فقال..

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا أحد الأقوال في هذه الآية وهو أصحها.. **وقيل: إن معناه**: فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم..

﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها.. **فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب** لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطَّنوها علىٰ جهاد الأعداء، لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.. **وأما أولئك المتثاقلون**، فلا يعبأ بهم خرجوا أو قعدوا.. فيكون هذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء] إلىٰ آخر الآيات، وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام].. **وقيل: إن معنىٰ الآية**: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون علىٰ هذا الوجه (الذين) في محل نصب علىٰ المفعولية..

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأن يكون جهادا قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصا لله فيه قاصدا وجه الله..

﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء:٧١-٧٤] زيادة في إيمانه ودينه، وغنيمة، وثناء حسنًا، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعدَّ الله لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء:٧٥]

هذا حث من الله لعباده المؤمنين وتهييج لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه، فقال..

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم..

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة..

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء:٧٥] ويدعون الله أن يجعل لهم وليًّا ونصيرًا يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها.. فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال والذَّبِّ عن عيلاتكم وأولادكم ومحارمكم، **لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار**، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا وأكبر فائدة، بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:٧٦]

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الذي هو الشيطان..

﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:٧٦] والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو.. فالشيطان وإن بلغ مَكْرُهُ مهما بلغ فإنه في غاية الضعف، الذي لا

يقوم لأدنىٰ شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

📖 **الفـوائـد**

في ضمن قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ **عدة فوائد:**

١- منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه ومتابعته.. **فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه**، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

٢- ومنها: **أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره**، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم علىٰ باطل، فأهل الحق أولىٰ بذلك، كما قال تعالىٰ في هذا المعنىٰ: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤] الآية.

٣- ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد علىٰ ركن وثيق، وهو الحق، والتوكل علىٰ الله، **فصاحب القوة والركن الوثيق يُطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل**، الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة، ولذلك قال: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ
لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ
مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ
مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ
أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ

رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء:٧٧-٧٩]

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ كان المسلمون -إذ كانوا بمكة- **لم يؤمروا بجهاد الأعداء؛ لعدة فوائد: منها**: أن من حكمة الباري تعالىٰ أن يشرع لعباده الشرائع علىٰ وجه **لا يشق عليهم، ويبدأ بالأهم فالأهم**، والأسهل فالأسهل.. **ومنها**: أنه لو فرض عليهم القتال -مع قلة عَدَدِهم وعُدَدِهم وكثرة أعدائهم- لأدىٰ ذلك إلىٰ **اضمحلال الإسلام**، فروعي جانب المصلحة العظمىٰ علىٰ ما دونها ولغير ذلك من الحِكَم.. وكان بعض المؤمنين **يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال**، غير اللائق فيها ذلك..

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من **التوحيد والصلاة والزكاة** ونحو ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ [النساء: ٦٦]..

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ فلما هاجروا إلىٰ المدينة **وقوي الإسلام**، كُتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك..

﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ﴾ فقال فريق -من الذين **يستعجلون القتال قبل ذلك**- خوفًا من الناس وضعفًا وخورا..

﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾ وفي هذا تضجرهم **واعتراضهم علىٰ الله**، وكان الذي **ينبغي لهم ضد هذه الحال**، التسليم لأمر الله والصبر علىٰ أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم فقالوا..

﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ هلَّا أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر.. ثم إن الله **وعظهم عن هذه الحال التي فيها التخلف عن القتال**، فقال..

﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل.. **فتحمّل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل علىٰ النفوس** ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها هان عليها ذلك، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة..

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وأن الآخرة خير منها في ذاتها ولذاتها وزمانها.. **فذاتها**: كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه: «أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»(١).. **ولذاتها**: صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال أو دار في الفكر من تصور لذة، فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال الله علىٰ لسان نبيه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»(٢)، وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص الذي لو قوبل بين لذاتها وما يقترن بها من أنواع الآلام والهموم والغموم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.. **وأما زمانها**: فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان بالنسبة إلىٰ الدنيا شيء يسير، وأما الآخرة فإنها دائمة النعيم وأهلها خالدون فيها، فإذا فكّر العاقل في هاتين الدارين وتصور حقيقتهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإيثار، والسعي له والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ أي: اتقىٰ الشرك، وسائر المحرمات..

﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ فسعيكم للدار الآخرة **ستجدونه كاملًا** موفرًا غير منقوص منه شيئًا.. ثم أخبر أنه **لا يغني حذر عن قدر**، وأن **القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئًا**، فقال..

﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ في أي زمان وأي مكان..

﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ أي: قصور منيعة ومنازل رفيعة..

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ﴾ يخبر تعالىٰ عن الذين لا يعلمون المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم أنهم إذا جاءتهم حسنة، أي: **خصب وكثرة أموال**، وتوفر أولاد وصحة..

﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي: جدب وفقر، ومرض وموت أولاد وأحباب..

﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ بسبب ما جئتنا به يا محمد، تطيروا برسول الله ﷺ.. **كما تطير أمثالهم برسل الله**: كما أخبر الله **عن قوم فرعون** أنهم قالوا لموسىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ

(١) أخرجه البخاري [٣٢٥٠] وغيره من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٢) أخرجه البخاري [٣٢٤٤]، ومسلم [٢٨٢٤] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، **وقال قوم صالح:** ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ ﴾ [النمل: ٤٧]، **وقال قوم ياسين** لرسلهم: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ ﴾ [يس: ١٨] الآية.. فلما **تشابهت قلوبهم** بالكفر **تشابهت أقوالهم** وأعمالهم.. وهكذا **كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل** أو لبعضه فهو **داخل في هذا الذم** الوخيم.. قال الله في جوابهم..

﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ من الحسنة والسيئة والخير والشر..

﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ بقضائه وقدره وخلقه..

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ الصادر منهم تلك المقالة الباطلة..

﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ لا يفهمون حديثًا بالكلية ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا.. وعلىٰ كُلٍّ **فهو ذم لهم وتوبيخ علىٰ عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله**، وذلك بسبب **كفرهم** وإعراضهم.. فلو فقهوا عن الله لعلموا أن **الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره**، لا يخرج منها شيء عن ذلك، وأن **الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببا لشر يحدث**، هم ولا ما جاءوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين..

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ﴾ في الدين والدنيا..

﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ هو الذي مَنَّ بها ويسرها بتيسير أسبابها..

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ﴾ في الدين والدنيا..

﴿فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر.. فالله تعالىٰ **قد فتح لعباده أبواب إحسانه**، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، **وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه**، فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره.. ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال..

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النساء:٧٧-٧٩] علىٰ أنك رسول الله حقًا، بما أيدك بنصره والمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة، **فهي أكبر شهادة علىٰ الإطلاق**، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ [الأنعام: ١٩].. فإذا علم أن الله

تعالىٰ كامل العلم تام القدرة عظيم الحكمة وقد أيد الله رسوله بما أيده ونصره نصرًا عظيما، تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقوَّل عليه بعض الأقاويل لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

🕮 الفـوائـد

١- ﴿.. وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ..﴾ الزكاة، أي: **مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة** ذات النصب والشروط، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة.

٢- ﴿.. فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ..﴾ **هذه الحال كثيرًا ما تَعرض لمن هو غير رزين** واستعجل في الأمور قبل وقتها، **فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها**، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليلَ الصبر.

٣- **كل هذا حث علىٰ الجهاد في سبيل الله**، تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودُهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

٤- في ضمن قوله تعالىٰ ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾: **مدْح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث علىٰ ذلك، وعلىٰ الأسباب المعينة علىٰ ذلك**، من الإقبال علىٰ كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النساء:٨٠-٨١]

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ كل مَنْ أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه..

﴿فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ تعالىٰ، لكونه **لا يأمر ولا ينهىٰ إلا بأمر الله** وشرعه ووحيه وتنزيله.. فمَنْ أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير ما رتب علىٰ طاعة الله..

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعة الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا..

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغا ومبينا وناصحا، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية] الآيات.. ولا بد أن تكون **طاعة الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا في الحضرة والمغيب**، فأما مَنْ يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه ترك الطاعة وأقبل علىٰ ضدها، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة وقد أشبه من قال الله فيهم..

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك..

﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ خرجوا وخلوا في حالة لا يطلع فيها عليهم..

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ بيتوا ودبروا غير طاعتك ولا ثَمَّ إلا المعصية.. وفي قوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ دليل علىٰ أن **الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة**؛ لأن التبييت تدبير الأمر ليلا علىٰ وجه يستقر عليه الرأي.. ثم توعدهم علىٰ ما فعلوا فقال..

﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ يحفظه عليهم وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، **ففيه وعيد لهم**.. ثم أمر رسوله **بمقابلتهم بالإعراض وعدم التعنيف**، فإنهم لا يضرونه شيئا إذا توكَّل علىٰ الله واستعان به في نصر دينه وإقامة شرعه ولهذا قال..

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ [النساء: ٨٠-٨١]..

🕮 الفـوائـد

١- في هذا **عصمة الرسول** ﷺ؛ لأن الله أمر بطاعته مطلقًا، فلولا أنه معصوم في كل ما يُبَلِّغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقًا، ويَمدَح علىٰ ذلك، وهذا من الحقوق المشتركة.

٢- إن الحقوق ثلاثة: حق لله تعالىٰ لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.. وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة.. وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما.. كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفتح].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يأمر تعالىٰ بتدبر كتابه.. وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك.. فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته.. **فإنه يعرِّف** بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص.. **ويعرِّف** الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه.. **ويعرِّف** العدو الذي هو العدو علىٰ الحقيقة، والطريق الموصلة إلىٰ العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.. وكلما ازداد العبد تأملا فيه ازداد علمًا وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو **المقصود بإنزال القرآن،** كما قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]..

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢] **ومن فوائد التدبر لكتاب الله:** أنه بذلك **يصل العبد إلىٰ درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله،** لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضًا، فترىٰ الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ أي: فلما كان مِن عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلا.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء:٨٣]

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير

اللائق.. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين.. أو بالخوف الذي فيه مصيبة، عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر..

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ بل يردونه إلىٰ الرسول وإلىٰ أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطًا للمؤمنين وسرورا لهم وتحرزا من أعدائهم فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد علىٰ مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال..

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة..

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون..

﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء:٨٣] لأنَّ الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر، فإذا لجأ إلىٰ ربه واعتصم به واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

🕮 الفوائد

١- في هذا دليل لقاعدة أدبية وهي أنه **إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولَّىٰ مَنْ هو أهل لذلك ويجعل إلىٰ أهله**، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلىٰ الصواب وأحرىٰ للسلامة من الخطأ.

٢- النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها.

٣- الأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه: هل هو مصلحة؟ فيُقْدِم عليه الإنسان.. أم لا؟ فيحجم عنه.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء:٨٤]

هذه الحالة أفضل أحوال العبد: أن يجتهد في نفسه علىٰ امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرِّض غيره عليه، وقد يُعدم في العبد الأمران أو أحدهما، فلهذا قال لرسوله..

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ ليس لك قدرة علىٰ غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك..

﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ علىٰ القتال، وهذا يشمل كلَّ أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من تقويتهم والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، وبما أُعد للمقاتلين من الثواب، وما علىٰ المتخلفين من العقاب، **فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض علىٰ القتال**..

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضًا..

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾ قوة وعزة..

﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء:٨٤] بالمذنب في نفسه، وتنكيلًا لغيره.. فلو شاء تعالىٰ لانتصر من الكفار بقوته ولم يجعل لهم باقية، ولكن من **حكمته** يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطرار والقهر الذي لا يفيد شيئا.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ٨٥﴾ [النساء:٨٥]

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾ المراد بالشفاعة هنا: المعاونة علىٰ أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه علىٰ أمر من أمور الخير، ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم..

﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء..

﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ﴾ ومَنْ عاون غيره علىٰ أمر من الشر..

﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه.. ففي هذا الحث العظيم علىٰ **التعاون علىٰ البر** والتقوىٰ، **والزجر العظيم عن التعاون علىٰ الإثم** والعدوان، وقرر ذلك بقوله..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ٨٥﴾ [النساء:٨٥] شاهدًا حفيظًا حسيبًا علىٰ هذه الأعمال، فيجازي كُلا ما يستحقه.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء:٨٦]

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ **التحية هي**: اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين علىٰ وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها.. **وأعلىٰ أنواع التحية**: ما ورد به الشرع، من السلام ابتداء وردًّا.. فأمر تعالىٰ المؤمنين أنهم إذا حُيّوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظًا وبشاشةً، أو مثلها في ذلك.. ثم أوعد تعالىٰ وتوعد علىٰ فعل الحسنات والسيئات بقوله..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء:٨٦] فيحفظ علىٰ العباد أعمالهم، حسنها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

🕮 الفـوائـد

١- مفهوم ذلك: **النهي عن عدم الرد** بالكلية **أو ردها بدونها.**

٢- يؤخذ من الآية الكريمة **الحث علىٰ ابتداء السلام والتحية** من وجهين: **أحدهما**: أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعًا.. **الثاني**: ما يستفاد من أفعل التفضيل وهو ﴿أَحۡسَنَ﴾ الدال علىٰ مشاركة التحية وردها بالحَسَن، كما هو الأصل في ذلك.

٣- يستثنىٰ من عموم الآية الكريمة **من حيًّا بحال غير مأمور بها**، كـ: علىٰ مشتغل بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصلٍ ونحو ذلك، فإنه **لا يطلب إجابة تحيته.**

٤- وكذلك يستثنىٰ من ذلك **مَن أَمر الشَارع بهجره وعدم تحيته**، وهو العاصي غير التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يُهجر ولا يُحيّا، ولا تُردُّ تَحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرىٰ.

٥- يدخل في رد التحية **كلُّ تحية اعتادها الناس**، وهي غير محظورة شرعًا، فإنَّه مأمور بردِّها وبأحسن منها.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء:٨٧]

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ يخبر تعالىٰ عن انفراده بالوحدانية وأنه **لا معبود ولا مألوه إلا هو؛ لكماله** في ذاته وأوصافه، **ولكونه** المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة، **وذلك يستلزم الأمر بعبادته**، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية؛ **لكونه المستحق لذلك** وحده، **والمجازي** للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك **أقسم علىٰ وقوع محل الجزاء** وهو يوم القيامة، فقال..

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ أولكم وآخِركم في مقام واحد.. كذلك **أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن**، كقوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن]..

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ **لا شك ولا شبهة** بوجه من الوجوه، بالدليل العقلي والدليل السمعي: **فالدليل العقلي**: ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولىٰ التي وقوع الثانية أَوْلىٰ منها بالإمكان، ومن الحكمة التي تجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثًا، يحيون ثم يموتون.. **وأما الدليل السمعي**: فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه ولهذا قال:..

﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء:٨٧] وفي قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢] إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلىٰ مراتب الصدق، بل أعلاها، **فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به فهو باطل**؛ لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًا.

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝٨٨ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٨٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ۝٩١﴾ [النساء:٨٨-٩١]

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝٨٨ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ﴾ المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: **المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم**.. وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه: **فبعضهم تحرج عن قتالهم** وقطع موالاتهم؛ بسبب ما أظهروه من الإيمان.. وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم.. فأخبرهم الله تعالىٰ أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مُشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم.. فإذا تحققتم ذلك منهم..

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا يستلزم: عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة.. ويستلزم أيضًا: بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده.. وهذا الأمر موقت بهجرتهم..

﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فإذا هاجروا جرىٰ عليهم ما جرىٰ على المسلمين، كما

كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل مَنْ كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان..

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها..

﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في أي وقت وأي محل كان.. وهذا من جملة الأدلة الدالة على **نسخ القتال في الأشهر الحرم**، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم..

﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾..

﴿إِلَّا﴾ **ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فِرَق: فرقتين أمر بتركهم وحتَّم على ذلك: إحداهما:**..

﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.. **والفرقة الثانية:** قوم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾..

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، **فهؤلاء أيضا أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك في قوله**..

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ فإنَّ الأمور الممكِنة ثلاثة أقسام: إما أن **يكونوا معكم ويقاتلوا** أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، **فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم وبين ترك قتال الفريقين**، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، **فاقبلوا العافية**، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك..

﴿فَإِنِ﴾ هؤلاء..

﴿اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.. الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم..

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ من هؤلاء المنافقين..

﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ خوفًا منكم..

﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلَّما عَرَض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكَسهم على رءوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم.. **وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها**، فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم لا خوفًا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفًا لا احترامًا، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين فإنهم مستعدون لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحًا عظيمًا اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتَلون، ولهذا قال..

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: المسالمة والموادعة..

﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء:٨٨-٩١] حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:٩٢]

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمدا.. وفي هذا الإخبارُ بشدة تحريمه، **وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصًا عظيمًا**، ويُخشىٰ عليه ما هو أكبر من ذلك.. **فإنَّ الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه** الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذىٰ، وأيُّ أذىٰ أشد من القتل؟! وهذا يُصدِّقه قوله ﷺ: «لا ترجعوا

بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].. فعُلِمَ **أنَّ القتل من الكفر العملي** وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.. ولما كان قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا ﴾ لفظًا عامًا لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنىٰ تعالىٰ قتل الخطأ فقال..

﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإنَّ المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا مجترئ علىٰ محارم الله، ولكنَّه لما كان قد فعل فعلًا شنيعًا، وصورته كافية في قُبحِهِ وإن لم يقصده، أمر تعالىٰ بالكفارة والدِية فقال..

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثىٰ حرًّا أو عبدًا، صغيرًا أو كبيرًا، عاقلا أو مجنونًا، مسلمًا أو كافرًا، كما يفيده لفظ (مَنْ) الدالة علىٰ العموم.. وهذا من أسرار الإتيان بـ (مَنْ) في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: (فإنْ قتَله)، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله (مَنْ) -وسواء كان المقتول ذكرًا أو أنثىٰ صغيرًا أو كبيرًا- كما يفيده التنكير في سياق الشرط..

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فإن علىٰ القاتل (تحرير رقبة مؤمنة) كفارةً لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثىٰ.. **والصحيح والمعيب في قول بعض العلماء**.. ولكن **الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة**؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق ومِلكَه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزئ عتقه، **مع أن في قوله:** ﴿ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ **ما يدل علىٰ ذلك**؛ فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك فإنه واضح..

﴿وَدِيَةٌ﴾ فإنَّها تجب علىٰ عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد..

﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ جبرًا لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه..

---

(١) أخرجه البخاري [١٢١]، ومسلم [٦٥] وغيرهما من حديث جرير.

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أي: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط.. وفي ذلك **حث لهم علىٰ العفو** لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت..

﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول..

﴿مِن قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ﴾ من كفار حربيين..

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم..

﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول..

﴿مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق..

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة..

﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم..

﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ هذه الكفارات التي أوجبها الله علىٰ القاتل توبة من الله علىٰ عباده ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأً..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٩٢﴾ [النساء:٩٢] كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفىٰ عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان.. ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة.. **ومن علمه وحكمته**: أن أوجب علىٰ القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلىٰ العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلىٰ الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد

عن سعادته الأبدية إلىٰ التعبد لله تعالىٰ بتركها تقربا إلىٰ الله، ومدها تعالىٰ بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ.. **ومن حكمته**: أن أوجب في القتل الدية ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.. **ومن حكمته**: أن وجبت علىٰ العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة علىٰ تحصيل المصالح وكف المفاسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذرًا من تحميلهم، ويخف عنهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.. **ومن حكمته وعلمه**: أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم، بالدية التي أوجبها علىٰ أولياء القاتل.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٣]

📖 الفوائد

١- تَقَدَّم أنَّ اللهَ أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي.. **وذكر هنا وعيد القاتل عمدًا**، وعيدًا ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه أولو العقول.

٢- لم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأنَّ جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازىٰ صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار.. فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

٣- هذا الوعيد له حُكمُ أمثاله من نصوص الوعيد، علىٰ بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

٤- قد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم علىٰ بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين.

٥- الصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق شمس الدين بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المدارج)(١)، فإنه قال بعد ما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها، فقال:

وقالت فِرقَة: **هذه النصوص وأمثالها مما ذُكِر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضي الحكم وجوده**، فإنَّ الحكم إنما يتم بوجود **مقتضيه** وانتفاء **موانعه**، وغاية هذه النصوص الإعلام بأنَّ كذا سبب للعقوبة ومقتض لها.

وقد قام الدليل علىٰ ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص: فالتوبة مانع بالإجماع.. والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها.. والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلىٰ تعطيل هذه النصوص، فلابد من إعمال النصوص من الجانبين.. ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتبارًا بمقتضي العقاب ومانعه، وإعمالا لأرجحها.

قالوا: وعلىٰ هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلىٰ هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضىٰ الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقًا وأمرًا، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدا يدافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة والحكم للغالب منهما، وكذلك قوىٰ الأدوية والأمراض.

والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له.

ومِنْ هنا يعلم انقسام الخلق إلىٰ مَنْ يدخل الجنة ولا يدخل النار، وعكسه، **ومَنْ يدخل النار ثم يخرج منها ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضىٰ المكث** في سرعة الخروج وبطئه.

(١) مدارج السالكين/ ١/ ٤٠٠-ط الكتاب العربي.

ومن له بصيرة منورة يرىٰ بها كل ما أخبر الله به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيله، حتىٰ كأنه يشاهده رأي عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضىٰ إلهيته سبحانه، وربوبيته وعزته وحكمته وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلىٰ بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلىٰ بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات، كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره علىٰ السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلىٰ الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلىٰ الله.

انتهىٰ كلامه قدس الله روحه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ [النساء: ٩٤]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة.. فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة: فالواضحة البيِّنة لا تحتاج إلىٰ تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلىٰ التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟.. فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرور عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزانته.. بخلاف المتعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها، فإنَّ ذلك يؤدي إلىٰ ما لا ينبغي، كما جرىٰ لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لمَّا لم يتثبتوا وقتلوا من سلَّم عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال غيره، ظنًّا أنه يستكفي بذلك قتلَهم، وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلهذا عاتبهم بقوله..

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فلا يحملنكم العرض الفاني القليل علىٰ ارتكاب ما لا ينبغي، فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقىٰ.. ثم قال تعالىٰ مذكرًا لهم بحالهم الأولىٰ، قبل هدايتهم إلىٰ الإسلام:..

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فكما هداكم بعد ضلالكم فكذلك يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا، فكذلك غيركم.. فنظر الكامل لحاله الأولىٰ الناقصة، ومعاملته لمن كان علىٰ مثلها بمقتضىٰ ما يعرف من حاله الأولىٰ، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة، من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال:..

﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأمورًا بالتبين لمن ألقىٰ إليه السلام، وكانت القرينة قوية في أنه إنما سلَّم تعوذا من القتل وخوفا علىٰ نفسه، فإن ذلك يدل علىٰ **الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه**، فيتثبت فيها العبد، حتىٰ يتضح له الأمر ويتبين الرشد والصواب..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء:٩٤] فيجازي كُلًّا ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

🕮 الفـوائـد

في هذا إشارة إلىٰ أن العبد ينبغي له **إذا رأىٰ دواعي نفسه مائلة إلىٰ حالة له فيها هوىٰ وهي مضرة له، أن يُذَكِّرها ما أعد الله لمن نهىٰ نفسه عن هواها**، وقدَّم مرضاة الله علىٰ رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:٩٥-٩٦]

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه **الحث على الخروج للجهاد**، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاسل والقعود عنه من غير عذر.. **وأما أهل الضرر**: كالمريض والأعمىٰ والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضيًا بقعوده لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع، **ولا يُحَدِّث نفسه بذلك**، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.. **ومن كان عازمًا علىٰ الخروج** في سبيل الله لولا وجود المانع يتمنىٰ ذلك **ويُحَدِّث به نفسه**، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.. ثم صرَّح تعالىٰ بتفضيل المجاهدين علىٰ القاعدين بالدرجة..

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ﴾ أي: الرفعة، وهذا تفضيل علىٰ وجه الإجمال.. ثم صرح بذلك علىٰ وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل علىٰ حصول كل خير، واندفاع كل شر، والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في الصحيحين: «أن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[1].. وكذلك إذا فضَّل تعالىٰ شيئا علىٰ شيء وكل منهما له فضل، **احترِز بذكر الفضل الجامع للأمرين**، لئلا يتوهم أحدٌ ذمَّ المفضَّل عليه، كما قال هنا..

﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ وكما قال تعالىٰ في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ [الحديد: ١٠] أي ممن لم يكن كذلك، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].. فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة.. وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ذكر ما

(١) أخرجه البخاري [٢٧٩٠] وغيره من حديث أبي هريرة.

تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض؛ لئلا يتوهم أن المفضَّل قد حصل له الكمال، **كما إذا قيل النصارى خير من المجوس، فليقل مع ذلك:** (**وكل منهما كافر**)، والقتل أشنع من الزنا، و(كل منهما معصية كبيرة حرمها الله ورسوله وزجر عنها)..

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرَيْن عن اسميه الكريمين: (الغَفُورُ الرَّحِيمُ)، ختم هذا الآية بهما فقال..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:٩٥-٩٦]..

🕮 الفـوائـد

١- هذا الثواب الذي رتبه الله على الجهاد، **نظير الذي في سورة الصف** في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الصف] إلى آخر السورة.

٢- **تأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها:** فإنه نفى التسوية أولًا بين المجاهد وغيره.. ثم صرَّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة.. ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.. وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم، **أحسن لفظا وأوقع في النفس.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٧-٩٩]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإنَّ الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم..

﴿قَالُوا۟﴾ ويقولون لهم..

﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ علىٰ أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثَّرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم علىٰ المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير، والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين، ومعاونتهم علىٰ أعدائهم..

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة علىٰ الهجرة، وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبَّخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، واستثنىٰ المستضعفين حقيقة..

﴿قَالُوٓا۟﴾ ولهذا قالت لهم الملائكة..

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإنَّ له متَّسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت].. قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم..

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجِب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع.. ثم استثنىٰ المستضعفين علىٰ الحقيقة، الذين لا قدرة لهم علىٰ الهجرة بوجه من الوجوه..

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ فهؤلاء قال الله فيهم..

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٧-٩٩] و(عسىٰ) ونحوها واجبٌ وقوعها من الله تعالىٰ، بمقتضىٰ كرمه وإحسانه.. وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة، وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمله علىٰ الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصرًا فلا يستحق ذلك الثواب.. والله أعلم.

🕮 الفوائد

١- في الآية دليل علىٰ أن **الهجرة من أكبر الواجبات**، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر.

٢- **في الآية دليل على أن كل مَن توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل**، وذلك مأخوذ من لفظ (التوفي) فإنَّه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفيًا.

٣- **الإيمان بالملائكة ومدحهم**، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحله.

٤- **في الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور**، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧] وقال في عموم الأوامر: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»(١).

٥- **لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحِيَل**، لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾.

٦- **في الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة.**

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠]

هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح..

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ **فوَعَدَ الصَّادقُ في وعده أنَّ من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغمًا في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا.. ثم قال:..**

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ **قاصدًا ربه ورضاه، ومحبةً لرسوله ونصرًا**

(١) اخرجه البخاري [٧٢٨٨]، ومسلم [٢٣٣٧] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد..

﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ بقتل أو غيره..

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ﴾ فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان الله تعالىٰ، وذلك لأنه نوىٰ وجزم، وحصل منه ابتداء وشروع في العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملًا ولو لم يكملوا العمل، وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها.. ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال..

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصا التائبين المنيبين إلىٰ ربهم..

﴿رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠] بجميع الخلق رحمة أوجدتهم وعافتهم ورزقتهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك.. رحيمًا بالمؤمنين حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فنسأل الله أن لا يحرمنا خيره بشر ما عندنا.

📖 الفوائد

كثيرٌ من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتًا بعد الألفة، وفقرًا بعد الغنىٰ، وذلا بعد العز، وشدة بعد الرخاء..

والأمر ليس كذلك..

فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين فدينه في غاية النقص، لا في العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصا إن كان مستضعفًا.

فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومراغمتهم.

فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك ما يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالىٰ.

واعتبر ذلك بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله، كمل بذلك إيمانهم وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين الله، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم مما يترتب علىٰ ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنىٰ الناس، وهكذا كل من فعل فعلهم، حصل له ما حصل لهم إلىٰ يوم القيامة.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠١-١٠٢]

هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة الخوف، يقول تعالىٰ:..

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في السفر..

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك.. ولا ينافي ذلك كون **القصر هو الأفضل،** لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ١٥٨] إلىٰ آخر الآية، وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها علىٰ هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه..

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ﴾ هذا **القيد أتىٰ به نظرًا لغالب الحال** التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإنَّ غالب أسفاره أسفار جهاد..

﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ١٠١﴾..

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ صليت بهم صلاة تقيمها وتتم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله.. ثم فسَّر ذلك بقوله..

﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ﴾ وطائفة قائمة بإزاء العدو كما يدل علىٰ ذلك ما يأتي:..

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي: الذين معك، أي: أكملوا صلاتهم..

﴿فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو..

﴿فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ دلَّ ذلك علىٰ أن **الإمام يبقىٰ بعد انصراف الطائفة الأولىٰ منتظرا للطائفة الثانية**، فإذا حضروا صلىٰ بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم حتىٰ يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف، فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة..

﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ وأمر تعالىٰ بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة فإنَّ فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص علىٰ الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلىٰ أمتعتهم، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ ثم إن الله عذر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر فقال..

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ [النساء:١٠١-١٠٢] ومن العذاب المهين ما أمر الله به حزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم، ويأخذوهم ويحصروهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.. فلله أعظم حمد وثناء علىٰ ما مَنَّ به علىٰ المؤمنين، وأيَّدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها علىٰ وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

🕮 الفـوائـد

١- وظاهر الآية أنه يقتضي الترخص في أي سفر كان ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، **فلم يجوزوا الترخص في سفر المعصية، تخصيصا للآية بالمعنىٰ والمناسبة**، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف.

٢- **يدل علىٰ أفضلية القصر علىٰ الإتمام أمران: أحدهما**: ملازمة النبي ﷺ علىٰ القصر في جميع أسفاره.. **والثاني**: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالىٰ يحب أن تؤتىٰ رخصه كما يكره أن تؤتىٰ معصيته.

٣- **قوله**: ﴿ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ **ولم يقل أن تقصروا الصلاة فيه فائدتان: إحداهما**: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ليدل ذلك علىٰ أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلىٰ ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.. **الثانية**: أن ﴿مِنَ﴾ تفيد التبعيض ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلىٰ ركعتين.

٤- فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾، الذي يدل ظاهره أن **القصر لا يجوز إلا بوجود** الأمرين كليهما، **السفر مع الخوف**.

ويرجع حاصل اختلافهم إلىٰ أنه هل المراد بقوله: ﴿ أَن تَقۡصُرُواْ ﴾ قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ **فالإشكال إنما يكون علىٰ الوجه الأول**..

وقد أشكل هذا علىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، حتىٰ سأل عنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما لنا نقصر الصلاة وقد أمِنَّا؟ أي: والله يقول: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»(١)، أو كما قال..

(١) أخرجه مسلم [٦٨٦] وغيره.

فعلىٰ هذا يكون هذا **القيد أتىٰ به نظرًا لغالب الحال** التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإنَّ غالب أسفاره أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرىٰ وهي بيان **الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر**، فبيَّن في هذه الآية أنهىٰ ما يتصور من المشقة المناسِبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، **ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده**، الذي هو مظنة المشقة.

وأما علىٰ الوجه الثاني: وهو أن المراد بالقصر قصر العدد والصفة، فإن القيد علىٰ بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة، ولذلك أتىٰ بصفة صلاة الخوف بعدها.

٥- عبر عن الصلاة بالسجود ليدل علىٰ **فضل السجود**، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

٦- دل قوله ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ علىٰ أن **الإمام يبقىٰ بعد انصراف الطائفة الأولىٰ منتظرا للطائفة الثانية**، فإذا حضروا صلىٰ بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم حتىٰ يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف، فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة.

٧- هذه الآية تدل علىٰ أن **صلاة الجماعة فرض عين** من وجهين: **أحدهما**: أن الله تعالىٰ أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أَوْلَىٰ وأحرىٰ.. **والثاني**: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرا من الشروط واللوازم، ويعفىٰ فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

٨- تدل الآية الكريمة علىٰ أن **الأولىٰ والأفضل أن يصلوا بإمام واحد**، ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم.

٩- في قوله: ﴿ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين، وأن الرسول ﷺ يثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولًا ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له، ثم أضاف الفعل بعْدُ إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

١٠- في قوله: ﴿ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ ﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكما في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمتأمل.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣]

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها..

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم..

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ إذا أمنتم من الخوف واطمأنت قلوبكم وأبدانكم..

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾ فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهرًا وباطنًا، بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها..

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣] مفروضا في وقته.

الفوائد

١- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد: منها:** أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه..

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.. **ومنها:** أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.. **ومنها:** أن الذكر لله تعالىٰ مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال] فأمر بالإكثار منه في هذه الحال إلىٰ غير ذلك من الحِكَم.

٢- دل قوله ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ **علىٰ فرضيتها، وأن لها وقتا لا تصح إلا به**، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[(١)].

٣- ودل قوله: ﴿ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ **علىٰ أن الصلاة ميزان الإيمان وعلىٰ حسب إيمان العبد تكون صلاته**، وتتم وتكمل.

٤- دل ذلك علىٰ أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة، أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا علىٰ كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها وعلىٰ سائر الأحكام في الآخرة.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء:١٠٤]

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تُضعُفوا ولا تكسَلوا..

﴿فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي: في جهادهم والمرابطة علىٰ ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري [٦٣١] وغيره من حديث مالك بن الحويرث.

فإن **وَهَن القلب مستدع لوَهَن البدن**، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم.. ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين: الأول:..

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أنَّ ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء علىٰ الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرىٰ.. الأمر الثاني..

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين.. **فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة**، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر علىٰ نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال:..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء:١٠٤] كامل العلم كامل الحكمة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥]

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يخبر تعالىٰ أنه أنزل علىٰ عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظًا في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشتملا أيضا علىٰ الحق، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ ﴾ [الأنعام: ١١٥]..

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.. وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].. **فيحتمل**: أن هذه الآية في الحكم

بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدين وأصوله وفروعه..

ويحتمل: أن الآيتين كلتيهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام..

﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ لا بهواك، بل بما علَّمك الله وألهمك، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم].. ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل فقال..

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ [النساء:١٠٥] لا تخاصم عن مَن عرفت خيانته، من مدع ما ليس له، أو منكرٍ حقا عليه، سواء علم ذلك أو ظنه..

📖 الفـوائـد

في قوله ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ دليل:

١- علىٰ عصمته ﷺ فيما يُبَلِّغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها.

٢- وأنه يشترط في الحاكم العلم والعدل لقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ ولم يقل: بما رأيت.

٣- ورتب أيضا الحكم بين الناس علىٰ معرفة الكتاب.

في قوله ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ دليل:

٤- علىٰ تحريم الخصومة في باطل.

٥- والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

٦- ويدل مفهوم الآية علىٰ جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٠٦﴾ [النساء:١٠٦]

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ مما صدر منك إن صدر..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٠٦﴾ [النساء:١٠٦] يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأناب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجِب لثوابه وزوال عقابه.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾ [النساء:١٠٧]

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾(الاختيان) و(الخيانة) بمعنىٰ الجناية والظلم والإثم.. وهذا يشمل **النهي عن المجادلة عن من أذنب وتُوُجِّه عليه عقوبة** من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب علىٰ ذلك من العقوبة الشرعية..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾ [النساء:١٠٧] كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفىٰ الحب ثبت ضده وهو البُغْض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.. ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم.

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ [النساء:١٠٨]

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة علىٰ عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم..

﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ بالعلم في جميع أحوالهم..

﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ خصوصًا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما بيتوه.. فقد جمعوا بين عدة جنايات، ولم يراقبوا رب الأرض والسماوات، المطلع علىٰ سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالىٰ بقوله..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ [النساء:١٠٨] قد أحاط بذلك علما، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنىٰ بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار علىٰ ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾ [النساء:١٠٩]

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالُكم بعض ما تحذرون من العار والفضيحة عند الخَلق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟

﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور].. فمن يجادل عنهم من يعلم السر وأخفىٰ ومن أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟

﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾ [النساء:١٠٩]..

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية إرشادٌ إلىٰ المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة علىٰ ترك أوامر الله أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يحصل من عقوباتها..

فيقول من أَمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلًا وتفريطًا فما النفع الذي انتفعت به؟

وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟

وماذا ترتب علىٰ هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟

وكذلك إذا دعته نفسه إلىٰ ما تشتهيه من الشهوات المحرمة قال لها: هَبْكَ فعلت ما اشتهيت، فإنَّ لذته تنقضي، ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات وفوات الثواب وحصول العقاب ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبدَ تدبرُه، وهو خاصة العقل الحقيقي.

بخلاف الذي يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب..والله المستعان.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾ [النساء:١١٠]

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ من تجرأ علىٰ المعاصي واقتحم علىٰ الإثم..

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ ثم استغفر الله استغفارا تاما يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم علىٰ أن لا يعود..

﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾ [النساء:١١٠] فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة.. فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلا عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه.

🕮 الفوائد

١- اعلم أن (عمل السوء) عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة.

٢- وسمي (سوءًا) لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئًا غير حسن.

٣- وكذلك (ظلم النفس) عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه.

٤- ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده.

٥- وسمي ظلم النفس (ظلما)؛ لأن نفس العبد ليست مِلكا له يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي مِلكٌ لله تعالىٰ، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها علىٰ طريق العدل، بإلزامها للصراط المستقيم علمًا وعملًا، فيسعىٰ في تعليمها ما أمر به ويسعىٰ في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء:١١١]

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية علىٰ نفسه، لا تتعداها إلىٰ غيرها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].. لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها وشمل إثمها، فلا تخرج أيضا عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.. وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحدا بذنب أحد، ولا يعاقب أحدا أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال:..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء:١١١] له العلم الكامل والحكمة التامة.. **ومن علمه وحكمته:** أنه يعلم الذنب وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة علىٰ فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء مع إنابته إلىٰ ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر له ويوفقه للتوبة.. وإن صدر منه بتجرئه علىٰ المحارم استخفافا بنظر ربه وتهاونا بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة بعيد من التوفيق للتوبة.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء:١١٢]

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ ذنبًا كبيرًا..

﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ما دون ذلك..

﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ يتهم بذنبه..

﴿بَرِيٓـًٔا﴾ من ذلك الذنب، وإن كان مذنبا..

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء:١١٢] فقد حمل فوق ظهره بهتا للبريء، وإثمًا ظاهرًا بينًا.

🕮 الفـوائـد

هذا يدل علىٰ أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها؛ فإنه قد جمع عدة مفاسد:

كَسْبُ الخطيئة والإثم.

ثم رَمْيُ مَن لم يفعلها بفعلها.

ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه، واتهام البريء.

ثم ما يترتب علىٰ ذلك من العقوبة الدنيوية التي تندفع عمن وجبت عليه، وتقام علىٰ من لا يستحقها.

ثم ما يترتب علىٰ ذلك أيضا من كلام الناس في البريء.

إلىٰ غير ذلك من المفاسد التي نسأل الله العافية منها ومن كل شر.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣]

ثم ذكر منته علىٰ رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله فقال:..

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ وذلك أن هذه الآيات الكريمات قد ذكر المفسرون أن **سبب نزولها**: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع علىٰ سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك.. واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يبرئ صاحبهم علىٰ رءوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق وإنما الذي سرق من وجدت السرقة ببيته وهو البريء.. فهَمَّ رسول الله ﷺ أن يبرئ صاحبهم..

فأنزل الله هذه الآيات تذكيرا وتبيينا لتلك الواقعة، وتحذيرا للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال.. **فإن الضلال نوعان:** ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق.. وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب.. فحفظ

الله رسوله عن هذا النوع من الضلال، كما حفظه عن الضلال في الأعمال.. وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود علىٰ أنفسهم، كحالة كل ماكر، فقال:..

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ لكون ذلك المكر وذلك التحيل لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرمان والإثم والخسران..

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾ وهذه نعمة كبيرة علىٰ رسوله ﷺ تتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.. **ثم ذكر نعمته عليه بالعلم** فقال..

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه تبيان كل شيء وعلم الأولين والآخِرين..

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ إما **السُّنَّة** التي قد قال فيها بعض السلف: إن السُّنَّة تنزل عليه كما ينزل القرآن.. وإما **معرفة أسرار الشريعة الزائدة علىٰ معرفة أحكامها**، وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كل شيء بحسبه..

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالىٰ، فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضحىٰ].. ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله حتىٰ ارتقىٰ مقاما من العلم يتعذر وصوله علىٰ الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق علىٰ الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال..

﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء:١١٣] ففضله علىٰ الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله علىٰ كل مخلوق.. وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤها، ولا يتيسر إحصاؤها.

﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء:١١٤]

﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجىٰ به الناس ويتخاطبون.. وإذا لم يكن فيه خير: فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح.. وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.. ثم استثنىٰ تعالىٰ فقال..

﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال أو علم.. أو أي نفع كان..

﴿أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة.. وكل ما عرف في الشرع، والعقل حسَّنه..

﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين.. والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره.. فلذلك حث الشارع علىٰ الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل **وفي الأديان** كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [النساء: ١٢٨].. والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة.. والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.. كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].. فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل علىٰ ذلك الاستثناء.. ولكنَّ كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال..

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء:١١٤] **فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالىٰ**، ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم.. وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين وليتم له الأجر، **سواء تم مقصوده أم لا**؛ لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكِّن من العمل.

🕮 الفوائد

لعلَّه يدخل في قوله ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ العبادات القاصرة، كالتسبيح والتحميد ونحوه، كما قال النبي ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة،

وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»[1] الحديث..

إذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك: لأن ترك المنهيات من المعروف.. وأيضًا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.. وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء:١١٥-١١٦]

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به..

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية..

﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم..

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفِّقه للخير.. لكونه رأى الحق وعلِمَه وتركه.. فجزاؤه من الله عدلًا أن يبقيه في ضلاله حائرًا، ويزداد ضلالًا إلىٰ ضلاله، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ [الأنعام: ١١٠]..

﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ نعذِّبه فيها عذابًا عظيمًا..

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ أي: مرجعا له ومآلا.. وهذا الوعيد المرتَّب علىٰ الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب، لا يحصيها إلا الله، **بحسب حالة الذنب صِغرًا وكِبرًا**، فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان.. ومنه ما هو دون ذلك.. فلعل **الآية الثانية كالتفصيل** لهذا المطلق.. وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالىٰ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لتضمنه القدح في رب العالمين، وفي وحدانيته،

---

(١) أخرجه مسلم [١٠٠٦] وغيره من حديث أبي ذر.

وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا بمن هو مالك النفع والضر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنىٰ التام بجميع وجوه الاعتبارات.. فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنىٰ شيء بل ليس له إلا العدم، عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنىٰ، والفقر من جميع الوجوه..

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ **وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذَّب عليه وعاقب بعدله وحكمته..**

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٥-١١٦].. ولهذا بيَّن الله قُبح ضلال المشركين بقوله﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا..﴾.

🕮 الفوائد

١- يدل مفهومها علىٰ: **أن من لم يشاقق الرسول ويتبع سبيل المؤمنين**، بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، **ثم صدر منه من الذنوب** أو الهمُّ بها ما هو من مقتضيات النفوس وغلبات الطباع، **فإنَّ الله لا يوليه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه،** ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء، كما قال تعالىٰ عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف]، أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل.

٢- قد استُدِل بهذه الآية الكريمة علىٰ **أن إجماع هذه الأمة حجة وأنها معصومة من الخطأ..**

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال، فإذا اتفقوا علىٰ إيجاب شيء أو استحبابه، أو تحريمه أو كراهته، أو إباحته فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم.

ويدل علىٰ ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]..

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالىٰ أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا علىٰ إيجاب شيء أو استحبابه فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفًا، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا علىٰ النهي عن شيء فهو مما نهوا عنه فلا يكون إلا منكرا..

ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]..

فأخبر تعالىٰ أن هذه الأمة جعلها الله وسطًا، أي: عدلًا خيارًا ليكونوا شهداء علىٰ الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا علىٰ حكم بأنَّ الله أمر به أو نهىٰ عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة؛ لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم ولا عالمين بها..

ومثل ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]..

يفهم منها: أن ما لم يتنازعوا فيه بل اتفقوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلىٰ الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقا للكتاب والسنة فلا يكون مخالفا.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١١٧-١٢١]

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله..

﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾أي: أوثانا وأصناما مسميات بأسماء الإناث، كـ (العزىٰ)، و(مناة) ونحوهما.. ومن المعلوم أن **الاسم دال علىٰ المسمىٰ**، فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة، **دلَّ ذلك علىٰ نقص المسميات بتلك الأسماء**، وفقدها لصفات الكمال..

كما أخبر الله تعالىٰ في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها بل ولا عن نفسها نفعًا ولا ضرًا، ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة.. فكيف يُعبد من هذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد والجلال، والعز والجمال، والرحمة والبر والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟!

هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال علىٰ نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنىٰ ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟ ومع ذلك فعبادتهم إنَّما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، **وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان** الذي هو عدوهم الذي يريد إهلاكهم ويسعىٰ في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله..

لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته يسعىٰ في إبعاد العباد عن رحمة الله ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر].. **ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد**، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسما: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾..

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨﴾ أي: مقدَّرًا.. علم اللعين أنه **لا يقدر علىٰ إغواء جميع عباد الله**، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه علىٰ من تولاه، وآثر طاعته علىٰ طاعة مولاه.. وأقسم في موضع آخر ليغوينهم ﴿ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص]، فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالىٰ بوقوعه بقوله: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠﴾ [سبأ].. وهذا النصيب المفروض الذي أقسم لله إنه يتخذهم ذكر ما يريد بهم وما يقصده لهم بقوله..

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ عن الصراط المستقيم ضلالًا في العلم، وضلالًا في العمل..

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ مع الإضلال **لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون**، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر علىٰ مجرد إضلالهم حتىٰ زين لهم ما هم فيه من الضلال.. وهذا زيادة شر إلىٰ

شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة.. واعتَبِر ذلك باليهود والنصارىٰ ونحوهم، فإنهم كما حكىٰ الله عنهم ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤ ﴾ [الكهف].. وقال تعالىٰ عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ١٤ ﴾ [الحديد]..

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام.. فنبَّه ببعض ذلك علىٰ جميعه.. وهذا نوع من الإضلال **يقتضي تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله.. ويلتحق بذلك** من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال..

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة **بالوشم والوشر والنمص والتفلج للحسن** ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان فغيروا خِلقة الرحمن.. **وذلك يتضمن**: التسخط من خلقته.. والقدح في حكمته.. واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن.. وعدم الرضا بتقديره وتدبيره..

ويتناول أيضا: تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله تعالىٰ خلق عباده حنفاء مفطورين علىٰ قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان، فإن كل مولود يولد علىٰ الفطرة ولكن أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده وحبه ومعرفته، فافترستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السَبُع والذئاب للغنم المنفردة، لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين لجرىٰ عليهم ما جرىٰ علىٰ هؤلاء المفتونين..

وهذا الذي جرىٰ عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال..

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ١١٩﴾ وأيُّ خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه وأوبقته معاصيه وخطاياه؟! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته

النعيم السرمدي.. كما أن من تولىٰ مولاه وآثر رضاه ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين.. فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.. ثم قال..

﴿يَعِدُهُمْ﴾ يعد الشيطانُ من يسعىٰ في إضلالهم.. **والوعد يشمل حتىٰ الوعيد،** كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا.. **ويخوفهم إذا جاهدوا** بالقتل وغيره، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] الآية.. **ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله** بكل ما يمكن وما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتىٰ يكسلوا عن فعل الخير..

﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة، التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال..

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من انقاد للشيطان وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه..

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مستقرهم النار..

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء:١١٧-١٢١] أي: مَخلَصًا، ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشره، علىٰ الوجه الذي أُمروا به علمًا وتصديقًا وإقرارًا..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الناشئة عن الإيمان.. **وهذا يشمل:** سائر المأمورات من واجب ومستحب، الذي علىٰ القلب، والذي علىٰ اللسان، والذي علىٰ بقية الجوارح، كل له من الثواب المرتب علىٰ ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح.. **ويفوته** ما رُتِّبَ علىٰ ذلك بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من

حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله.. ولهذا **ذكر الثواب المرتب علىٰ ذلك** بقوله..

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. **من أنواع** المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور، والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان.. **وأعلىٰ من ذلك كله** وأجل رضوان الله عليهم وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور.. **فلله ما أحلىٰ ذلك النعيم** وما أعلىٰ ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون.. **وتمام ذلك وكماله الخلود** الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢] **فصدق الله** العظيم الذي بلغ قولُه وحديثُه في الصدق أعلىٰ ما يكون.

الفوائد

لما كان كلامه صِدقًا وخبره حقًا، كان **ما يدل عليه مطابقةً وتضمنًا وملازمةً كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله** ﷺ؛ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤]

﴿لَّيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية..

﴿بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾ والأماني: أحاديث النفس المجردة عن العمل،

المقترن بها دعوىٰ مجردة لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها، وهذا عامّ في كل أمر.. فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟! فإن أماني أهل الكتاب قد أخبر الله بها أنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١١].. وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولىٰ وأحرىٰ.. وكذلك **أدخل الله في ذلك من ينتسب إلىٰ الإسلام** لكمال العدل والإنصاف.. **فإن مجرد الانتساب إلىٰ أي دين كان، لا يفيد شيئا إن لم يأت الإنسان ببرهان علىٰ صحة دعواه**.. فالأعمال تصدِّق الدعوىٰ أو تكذِّبُها.. ولهذا قال تعالىٰ..

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ وهذا شامل لجميع العاملين.. **لأن السوء شامل لأي ذنب** كان من صغائر الذنوب وكبائرها، **وشامل أيضا لكل جزاء** قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.. **والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله**، فمستقل ومستكثر: فمن كان عمله كله سوءًا وذلك لا يكون إلا كافرًا، فإذا مات من دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم.. ومن كان عمله صالحًا، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم والأذىٰ وبعض الآلام في بدنه أو قلبه أو حبيبه أو ماله ونحو ذلك فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يُجزىٰ به علىٰ عمله، **قيَّضَها الله** لطفًا بعباده.. وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.. وهذا الجزاء علىٰ عمل السوء العام **مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له**، كما دلت علىٰ ذلك النصوص..

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ لإزالة بعض ما **لعلَّه يتوهم أنَّ من استحقَّ المجازاةَ علىٰ عمله قد يكون له وليٌّ** أو ناصر أو شافع **يدفع عنه** ما استحقه.. فأخبر تعالىٰ بانتفاء ذلك، **فليس له وليٌّ** يحصل له المطلوب، **ولا نصير** يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه..

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دخل في ذلك: **سائر الأعمال** القلبية والبدنية.. ودخل أيضا: **كلُّ عامل** من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثىٰ.. ولهذا قال..

﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا **شَرطٌ لجميع الأعمال، لا تكون صالحةً** ولا تُقبل ولا يُترتب عليها الثوابُ ولا يندفع بها العقابُ **إلا بالإيمان**.. **فالأعمال بدون الإيمان** ك: أغصان

شجرة قطع أصلها.. وكبناء بني على موج الماء.. فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء.. وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أُطلق، فإنَّه مقيَّد به..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح..

﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين..

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤] لا قليلًا ولا كثيرًا مما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملًا مُوفرًا، مُضاعفًا أضعافًا كثيرة.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النساء:١٢٥]

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ لا أحد أحسن من دين من جمع بين: الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله..

﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام..

﴿مُحۡسِنٞ﴾ متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسلَه، وأنزل كتبه، وجعلها طريقًا لخواص خلقه وأتباعهم..

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: دينه وشرعه..

﴿حَنِيفٗاۗ﴾ مائلًا عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق..

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النساء:١٢٥] والخُلة: أعلى أنواع المحبة.. وهذه المرتبة حصلت للخليلين (محمد)، و(إبراهيم) عليهما الصلاة والسلام.. وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين.. وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلًا؛ لأنه: وفَّى بما أُمر به.. وقام بما ابْتُلي به، فجعله الله إمامًا للناس، واتخذه خليلًا ونوَّه بذكره في العالمين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النساء:١٢٦]

وهذه الآية الكريمة فيها بيان **إحاطة الله تعالىٰ بجميع الأشياء**..

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فأخبر أنه له ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾، أي: الجميع مُلكُه وعبيدُه، فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النساء:١٢٦] وقد **أحاط علمه** بجميع المعلومات، **وبصره** بجميع المبصِرات، **وسمعه** بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته **وقدرته** بجميع الموجودات، **ووسعت رحمته** أهل الأرض والسماوات، **وقهر بعزه وقهره** كل مخلوق، **ودانت له** جميع الأشياء.

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النساء:١٢٧]

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسئول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسئول عنه.. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم.. فتولىٰ الله هذه الفتوىٰ بنفسه فقال..

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ فاعملوا علىٰ ما أفتاكم به في جميع شئون النساء.. من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عمومًا وخصوصًا.. وهذا أمرٌ عام يشمل جميعَ ما شرَّع الله، أمرًا ونهيًا في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار.. ثم خص -بعد التعميم- الوصيَّةَ بالضِعاف من اليتامىٰ والولدان؛ اهتمامًا بهم، وزجرًا عن التفريط في حقوقهم.. فقال..

﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ ويفتيكم أيضًا بما يتلىٰ عليكم في الكتاب في شأن اليتامىٰ من النساء..

﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت.. **فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل بَخَسَها حقها وظلمها**: إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه.. أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفًا من استخراجه من يده إنْ زوَّجها..

أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغبا عنها.. أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق.. **فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص**، ولهذا قال..

﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ترغبون عن نكاحهن أو في نكاحهن، كما ذكرنا تمثيله..

﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار.. أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره.. وأن لا تستولوا علىٰ أموالهم علىٰ وجه الظلم والاستبداد..

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ بالعدل التام.. **وهذا يشمل:** القيام عليهم **بإلزامهم أمر الله** وما أوجبه علىٰ عباده.. فيكون الأولياء مكلَّفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.. **ويشمل: القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية**، بـ: تنمية أموالهم وطلب الأحظ لهم فيها.. وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن.. وكذلك لا يحابون فيهم صديقًا ولا غيره في تزوج وغيره، علىٰ وجه الهضم لحقوقهم.. **وهذا من رحمته تعالىٰ بعباده**، حيث حثَّ غاية الحث علىٰ القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه وفقد أبيه.. **ثم حثّ علىٰ الإحسان عمومًا**، فقال..

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ لليتامىٰ ولغيرهم، سواء كان الخير متعديـًا أو لازمًا..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النساء:١٢٧] قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسنا وضده.. فيجازي كُلا بحسب عمله.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء:١٢٨]

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا﴾ **إذا خافت المرأة نشوز زوجها**، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها..

﴿أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ عنها..

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ﴾ فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحًا.. بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها.. علىٰ وجه تبقىٰ مع زوجها.. إما أن ترضىٰ بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن، أو القَسم بأن تسقط حقها منه.. أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها.. فإذا اتفقا علىٰ هذه الحالة فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا علىٰ الزوج.. فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها علىٰ هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال..

﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾.. ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنىٰ: **أن الصلح بين مَن بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما علىٰ كلِّ حقه،** **لِمَا فيها من الإصلاح،** وبقاء **الأُلفةِ،** والاتصاف بصفة **السماح**.. وهو جائز في جميع الأشياء، **إلا إذا أحلَّ حراما أو حرّم حلالا،** فإنه لا يكون صلحًا وإنَّما يكون جَورًا.. واعلم أن **كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه..** فمن ذلك هذا **الحكم** الكبير الذي هو **الصلح،** فذكر تعالىٰ **المقتضي لذلك** ونبه علىٰ أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان -مع ذلك- قد أمر الله به وحثَّ عليه ازداد المؤمن طلبًا له ورغبة فيه.. **وذكر المانع** بقوله..

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ **جُبِلَت** النفوسُ علىٰ الشح، وهو: **عدم الرغبة في بذل ما علىٰ الإنسان، والحرص علىٰ الحق الذي له،** فالنفوس مجبولة علىٰ ذلك طبعًا.. أي: **فينبغي لكم أن تحرصوا علىٰ قلع هذا الخُلُق** الدنيء من نفوسكم، **وتستبدلوا به ضده وهو السماحة،** وهو **بذل الحق الذي عليك؛ والاقتناع ببعض الحق الذي لك..** فمتىٰ وُفِّقَ الإنسانُ لهذا الخُلُق الحسن **سَهُل حينئذ عليه الصلح** بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلىٰ المطلوب.. **بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه،** **فإنَّه يعسر** عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضىٰ أن يؤدي ما عليه، **فإن كان خصمه مثله اشتدَّ الأمر..** ثم قال:..

﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ تحسنوا **في عبادة الخالق** بأن يَعبُد العبدُ ربَّه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه.. **وتحسنوا إلىٰ المخلوقين** بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك..

﴿وَتَتَّقُوا﴾ **الله بفعل** جميع المأمورات، **وترك** جميع المحظورات.. **أو تحسنوا بفعل المأمور.. وتتقوا بترك** المحظور..

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء:١٢٨] **قد أحاط به علمًا وخُبرًا، بظاهره** وباطنه، **فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتمَّ** الجزاء.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء:١٢٩]

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ **يخبر تعالىٰ: أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام** بين النساء.. **وذلك لأنَّ العدلَ يستلزم:** وجود المحبة **علىٰ السواء..** والدَّاعي **علىٰ السواء..** والميل في القلب إليهن **علىٰ السواء.. ثم العمل بمقتضىٰ ذلك..** وهذا متعذر غير ممكن.. فلذلك عفا الله عما لا يستطاع.. ونهىٰ عما هو ممكن بقوله:..

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ لا تميلوا ميلًا كثيرًا بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.. فالنفقة والكسوة والقَسْم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها.. بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك..

﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فإن الزوجةَ إذا **ترك** زوجُها ما يجب لها صارت كالمعلقة: التي **لا زوج لها** فتستريح وتستعد للتزوج، **ولا ذات زوج** يقوم بحقوقها..

﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم.. بإجبار أنفسكم علىٰ فعل ما لا تهواه النفس، احتسابًا وقيامًا بحق الزوجة.. وتصلحوا أيضًا فيما بينكم وبين الناس.. وتصلحوا أيضًا بين الناس فيما تنازعوا فيه.. وهذا يستلزم **الحث علىٰ كل طريق يوصل إلىٰ الصلح مطلقا** كما تقدم..

﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور..

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ **يغفر** ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب..

﴿رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء:١٢٩] ويرحمكم، كما **عطفتم** علىٰ أزواجكم ورحمتموهن.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٣٠﴾ [النساء:١٣٠]

هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال..

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك..

﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين..

﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ من فضله وإحسانه الواسع الشامل.. فيغني الزوج بزوجة خير له منها.. ويغنيها من فضله.. وإن انقطع نصيبها من زوجها فإنَّ رزقها علىٰ المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجًا خيرًا منه..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلىٰ حيث وصل إليه علمه.. ولكنه مع ذلك..

﴿حَكِيمًا ١٣٠﴾ [النساء:١٣٠] يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة.. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان، حرمه، عدلًا وحكمةً.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ١٣١ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾ [النساء:١٣١-١٣٢]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ يخبر تعالىٰ عن عموم ملكه العظيم الواسع.. **المستلزم: تدبيره بـ:** جميع أنواع التدبير.. **وتصرفه بـ:** أنواع التصريف **قدرًا وشرعًا**..

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ **فتصرفه الشرعي:** أن وصّىٰ الأوَّلين والآخِرين أهل الكتب السابقة واللاحقة..

﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ بـ: التقوىٰ المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام.. والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب.. والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال..

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ بأن تتركوا تقوىٰ الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا.. فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئًا، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره.. ولهذا رتب علىٰ ذلك قوله..

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ له الجود الكامل، والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئا.. ذلك بأنه جواد واجد ماجد.. عطاؤه كلام وعذابه كلام.. إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.. **ومن تمام غناه: أنه كامل الأوصاف**، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلىٰ ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها.. **ومن تمام غناه:** أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا شريكا في ملكه ولا ظهيرا، ولا معاونا له علىٰ شيء من تدابير ملكه.. **ومن كمال غناه: افتقار العالم العلوي والسفلي** في جميع أحوالهم وشئونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالىٰ بتلك المطالب والأسئلة وأغناهم وأقناهم، ومَنَّ عليهم بلطفه وهداهم..

﴿حَمِيدًا ١٣١﴾ **وأما الحميد:** فهو من أسماء الله تعالىٰ الجليلة الدال علىٰ أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام.. وذلك: لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال.. ولما أنعم به علىٰ خلقه من النِّعم الجزال، فهو المحمود علىٰ كل حال.. **وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين** ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾!! فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر..

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾ [النساء: ١٣٢] وأنه علىٰ كل شيء وكيل.. أي: عالم قائم بتدبير الأشياء علىٰ وجه الحكمة.. فإنَّ ذلك من تمام الوكالة.. **فإنَّ الوكالة تستلزم: العلمَ** بما هو وكيل عليه.. **والقوة والقدرة** علىٰ تنفيذه وتدبيره.. وكون ذلك التدبير **علىٰ وجه الحكمة** والمصلحة.. فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالىٰ منزه عن كل نقص.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:١٣٣-١٣٤]

أي: هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم..

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ غيركم هم أطوع لله منكم وخير منكم.. وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عن ربهم.. فإن الله لا يعبأ بهم شيئًا إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويملي ولا يهمل..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾.. ثم أخبر أنَّ..

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ مَن كانت همته وإرادته دَنِيَّة غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنَّه قد قصُر سعيه ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها..

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة.. فليُطلبا منه، ويستعان به عليهما.. فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام.. وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:١٣٣-١٣٤]..

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء:١٣٥]

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين..

﴿كُونُوا۟﴾ أن يكونوا..

﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ والقوَّام: صيغة مبالغة.. أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده..

فالقسط في حقوق الله: أن لا يستعان بنعمه علىٰ معصيته، بل تصرف في طاعته.. **والقسط في حقوق الآدميين**: أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك كما تطلب حقوقك.. فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من الأخلاق والمكافأة وغير ذلك..

ومن أعظم أنواع القسط: القسط في المقالات والقائلين، **فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما**، بل يجعل وجهته العدل بينهما..

ومن القسط: أداء **الشهادة** التي عندك علىٰ أي وجه كان، **حتىٰ علىٰ الأحباب** بل علىٰ النفس، ولهذا قال..

﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق علىٰ من كان.. **والقيام بالقسط**: من أعظم الأمور.. وأدل علىٰ دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام.. **فيتعين علىٰ من نصح نفسه وأراد نجاتها**: أن يهتم له غاية الاهتمام.. وأن يجعله نُصْب عينيه، ومحل إرادته.. **وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.. وأعظم عائق لذلك: اتباع الهوىٰ**.. ولهذا نبه تعالىٰ علىٰ إزالة هذا المانع بقوله..

﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق.. فإنَّكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفَّقوا للعدل.. فإن الهوىٰ: إما أن يعمي بصيرة صاحبه، حتىٰ يرىٰ الحق باطلًا والباطل حقًا.. وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه.. فمن سلم من هوىٰ نفسه وفِّق للحق وهدي إلىٰ الصراط المستقيم.. ولما بيَّن أن الواجب القيام بالقسط **نهىٰ عن ما يضاد ذلك**..

﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ﴾ وهو لَيِّ اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها.. وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه.. **ويدخل في ذلك**: تحريف الشهادة وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد علىٰ أمر آخر، فإن هذا من اللَّيِّ؛ لأنه الانحراف عن الحق..

﴿أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ تتركوا القسط المنوطَ بكم.. كـ: ترك الشاهد لشهادته.. وترك الحاكم لحكمه الذي يجب عليه القيام به..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء:١٣٥] أي: **محيط بما فعلتم.. يعلم أعمالكم خفيَّها وجليَّها.. وفي هذا: تهديد شديد لـ:** الذي يُلَوِّي أو يعرض.. ومن باب أولىٰ وأحرىٰ الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور؛ لأنه أعظم جرمًا، لأنَّ الأوَّلَين تركا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء:١٣٦]

اعلم أن الأمر: إما أن يوجه إلىٰ **من لم يدخل في الشيء** ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمرًا له في الدخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم ﴾ [النساء: ٤٧] الآية.. **وإما أن يوجه إلىٰ من دخل في الشيء**، فهذا يكون أمره **ليُصَحِح ما وُجِدَ مِنه وَيَحصُل ما لم يُوجَد**، ومنه ما ذكره الله **في هذه الآية** من أمر المؤمنين بالإيمان..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ **فإنَّ ذلك يقتضي:** أمرهم بما **يصحح** إيمانهم من الإخلاص والصدق، **وتجنب** المفسدات والتوبة من جميع المنقصات.. **ويقتضي أيضا: الأمر بما لم يوجد** من المؤمن **من علوم الإيمان وأعماله،** فإنه كلما وصل إليه نص وفهم معناه واعتقده فإنَّ ذلك من الإيمان المأمور به.. **وكذلك: سائر الأعمال الظاهرة والباطنة كلها من الإيمان،** كما دلَّت علىٰ ذلك النصوص الكثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة.. **ثم الاستمرار علىٰ ذلك والثبات عليه** إلىٰ الممات كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ [آل عمران]..

﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ وأمر هنا بالإيمان به وبرسوله، وبالقرآن وبالكتب المتقدمة..

فهذا كله من **الإيمان الواجب** الذي لا يكون العبد مؤمنا إلا به.. **إجمالا**: فيما لم يصل إليه تفصيله.. **وتفصيلا**: فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدىٰ وأنجح..

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦] وأيُّ ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدىٰ المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلىٰ العذاب الأليم؟!

🕮 الفـوائـد

اعلم أن **الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها**، لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء:١٣٧]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ من تكرر منه الكفر بعد الإيمان.. فاهتدىٰ ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر واستمر علىٰ كفره وازداد منه..

﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء:١٣٧] **فإنه بعيد من التوفيق** والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة.. لكونه **أتىٰ بأعظم مانع** يمنعه من حصولها.. **فإن كفره يكون عقوبة وطبعًا لا يزول**، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

🕮 الفـوائـد

١- دلت الآية: أنهم **إن لم يزدادوا كفرًا**، بل رجعوا إلىٰ الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، **فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة.**

٢- **إذا كان هذا الحكم** في الكفر **فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولىٰ، أنَّ** العبد لو تكررت منه ثم عاد إلىٰ التوبة، **عاد الله له بالمغفرة.**

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩]

البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد كما في هذه الآية.. يقول تعالىٰ..

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر..

﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨﴾ بأقبح بشارة وأسوئها، وهو العذاب الأليم.. وذلك بسبب: **محبتهم الكفار** وموالاتهم ونصرتهم.. وتركهم لموالاة المؤمنين..

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ فأي شيء حملهم علىٰ ذلك؟!

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾؟! وهذا هو الواقع من **أحوال المنافقين**: ساء ظنهم بالله.. وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين.. ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين.. وقصر نظرهم عمّا وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون..

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] والحال أن العزة لله جميعًا.. فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم.. وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين.. ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية:

١- الترهيب العظيم من موالاة الكافرين وترك موالاة المؤمنين.

٢- وأن ذلك من صفات المنافقين.

٣- وأن الإيمان يقتضي: محبة المؤمنين وموالاتهم.. وبغض الكافرين وعداوتهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠﴾ [النساء:١٤٠]

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقد بيَّن الله لكم فيما أنزل عليكم **حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي**..

﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي: يستهان بها.. **ويدخل في ذلك:** مجادلةُ الكفار والمنافقين **لإبطال آيات الله** ونصر كفرهم.. **وكذلك: المبتدعون** على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله؛ لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقًا.. **بل وكذلك يدخل فيه: حضور مجالس المعاصي** والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده..

﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ وذلك: أن **الواجب** على كلِّ مكلف **في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها** وإجلالها وتفخيمها.. **وهذا المقصود بإنزالها**، وهو الذي **خَلَق الله الخَلق لأجله**.. **فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها** واحتقارها.. ومنتهى هذا النهي عن **القعود معهم**..

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ **غير الكفر بآيات الله** والاستهزاء بها..

﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ **إن قعدتم معهم في الحال المذكورة**..

﴿مِّثْلُهُمْ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، **والراضي بالمعصية كالفاعل لها.. والحاصل: أن من حضر مجلسًا يُعصىٰ اللهُ به، فإنَّه يتعيَّنُ عليه الإنكارُ عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء] **كما اجتمعوا على الكفر** والموالاة.. **ولا ينفع الكافرين مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين**، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] إلى آخر الآيات.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: ١٤١]

ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين ومعاداتهم للمؤمنين فقال..

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر.. قد أعدوا لكلِّ حالةٍ جوابًا بحسب نفاقهم..

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا: **ليسلموا** من القدح والطعن عليهم.. **وليشركوهم** في الغنيمة والفيء.. **وليتنصروا** بهم..

﴿وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ﴾ ولم يقل فتح؛ **لأنه لا يحصل لهم فتح** يكون مبدأً لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم **نصيب غير مستقر**، حكمة من الله.. فإذا كان ذلك..

﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: نستولي عليكم..

﴿وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة.. **ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع:** في تفنيدهم وتزهيدهم في القتال.. ومظاهرة الأعداء عليهم.. وغير ذلك مما هو معروف منهم..

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ فيجازي المؤمنين ظاهرًا وباطنًا بالجنة.. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات..

﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء:١٤١] أي: تسلطًا واستيلاء عليهم.. بل **لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة،** لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.. ولا يزال الله **يحدث من أسباب النصر** للمؤمنين، ودفعٍ لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان.. حتىٰ إن **بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين،** لا يتعرضون لأديانهم ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله.. فله الحمد أوّلا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾ [النساء:١٤٢-١٤٣]

يخبر تعالىٰ عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالىٰ..

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بما أظهروه من الإيمان وأبطنوه من الكفران.. ظنوا أنه يروج علىٰ الله ولا يعلمه ولا يبديه لعباده..

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ والحال أن الله خادعهم.. فمجرد وجود هذه الحال منهم ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم.. وأي خداع أعظم ممن يسعىٰ سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟! ويدل بمجرده علىٰ: **نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورآها حسنة**، وظنها من العقل والمكر، فلله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه.. **ومن خداعه لهم يوم القيامة**: ما ذكره الله في قوله: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ...﴾ [الحديد: ١٣-١٤] إلىٰ آخر الآيات.. وَمن صفاتهم أنهم..

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي أكبر الطاعات العملية..

﴿قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين لها، متبرمين من فعلها.. والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم.. فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلىٰ الله وإلىٰ ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل..

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: **هذا الذي انطوت عليه سرائرهم**، وهذا مصدر أعمالهم، مراءاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم ولا يخلصون لله، فلهذا..

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء.. **فإنَّ ذكر الله تعالىٰ وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته..**

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين **ظاهرًا وباطنًا**، ولا من الكافرين ظاهرًا وباطنًا.. أعطوا **باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين**، وهذا أعظم ضلال يُقَدَّر.. ولهذا قال..

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء:١٤٢-١٤٣] لن تجد طريقا لهدايته، ولا وسيلة لترك غوايته.. لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

🕮 الفـوائـد

هذه الأوصاف المذمومة تدل بتنبيهها علىٰ أن المؤمنين متصفون بضدها:

من الصدق ظاهرًا وباطنًا.. والإخلاص.. وأنهم لا يُجهل ما عندهم.. ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم.. وكثرة ذكرهم لله تعالىٰ.. وأنهم قد هداهم الله ووفقهم للصراط المستقيم..

فليعرض العاقل نفسه علىٰ هذين الأمرين، وليختر أيهما أولىٰ به، وبالله المستعان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [النساء:١٤٤]

لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهىٰ عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾..

﴿أَتُرِيدُونَ أَن﴾ فإن ذلك موجب لأن..

﴿تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [النساء:١٤٤] أي: حجة واضحة علىٰ عقوبتكم، فإنه قد أنذرنا وحذرنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفاسد، فسلوكها بعد هذا موجِب للعقاب.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية دليل علىٰ:

١- كمال عدل الله.

٢- وأن الله لا يُعَذِّب أحدًا قبل قيام الحجة عليه.

٣- وفيه: التحذير من المعاصي؛ فإنَّ فاعلها يجعل لله عليه سلطانًا مبينًا.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ

﴿يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٥-١٤٧]

يخبر تعالىٰ عن مآل المنافقين..

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار.. **لأنهم**: شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله.. **وزادوا عليهم**: المكر.. والخديعة.. والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين.. علىٰ وجه لا يشعر به ولا يحس.. ورتبوا علىٰ ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم.. واستحقاق ما لا يستحقونه.. فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب..

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ إلا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات..

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ له الظواهر والبواطن..

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم..

﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان..

﴿لِلَّهِ﴾ **فقصدوا وجه الله** بأعمالهم الظاهرة والباطنة، **وسلِمُوا من الرياء والنفاق**، فمن اتصف بهذه الصفات..

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة..

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.. ثم أخبر تعالىٰ عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه فقال..

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ هو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه.. فإذا أنبتم إليه، فأي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفىٰ بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه..

﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ والشكر: هو خضوع **القلب** واعترافه بنعمة الله.. وثناء **اللسان** علىٰ المشكور.. وعمل **الجوارح** بطاعته.. وأن **لا يستعين بنعمه علىٰ معاصيه**.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ والحال أن الله شاكر عليم.. يعطي المتحملين لأجله الأثقال، الدائبين في الأعمال، جزيلَ الثواب وواسع الإحسان.. **ومن ترك شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه..**

﴿عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٥-١٤٧] ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك.

🕮 الفوائد

١- تأمل: **كيف خص الاعتصام والإخلاص** بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾، لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح.. **لشدة الحاجة إليهما**، خصوصًا في هذا المقام الحرج، الذي **تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله**، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، **وكون الإخلاص منافيًا كل المنافاة للنفاق.. فذكرهما لـ:** فضلهما.. وتوقفِ الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما.. **ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.**

٢- وتأمل: كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين، لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا)، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.. **لأن** هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد: إذا كان **السياق في بعض الجزئيات**، وأراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابًا، وكان ذلك **مشتركًا** بينه وبين الجنس الداخل فيه، **رتَّب الثواب في مقابلة الحكم العام**، الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، **ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي**، فهذا من أسرار القرآن البديعة.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٨-١٤٩]

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يخبر تعالىٰ أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقته ويعاقب عليه.. ويشمل ذلك: جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كـ: الشتم.. والقذف.. والسب.. ونحو ذلك، فإنَّ ذلك كله من المنهي عنه، الذي يبغضه الله.. ويدل مفهومها: أنه يحب الحَسَنَ من القول، كـ: الذكر.. والكلام الطيب اللين..

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فإنه يجوز له: أن يدعو علىٰ من ظلمه.. ويتشكَّىٰ منه.. ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه ولا يزيد علىٰ مظلمته، ولا يتعدىٰ بشتمه غير ظالمه.. ومع ذلك فعفوه وعدم مقابلته أولىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت علىٰ الكلام السيئ والحسن والمباح، أخبر تعالىٰ أنه ﴿سَمِيعٌ﴾ فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم علىٰ ذلك.. وفيه أيضا ترغيب علىٰ القول الحَسَن..

﴿عَلِيمًا ١٤٨﴾ بـ: نياتكم.. ومصدر أقوالكم..

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وهذا يشمل: كل خير قوليّ وفعليّ، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب..

﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه.. فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ١٤٩﴾ [النساء:١٤٨-١٤٩] يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدِل عليهم ستره.. ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية: إرشاد إلىٰ التفقه في معاني أسماء الله وصفاته.. وأن الخلق والأمر صادر عنها.. وهي مقتضية له.. ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنىٰ، كما في هذه الآية.. لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء، رتَّب علىٰ ذلك بأن أحالنا علىٰ معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء:١٥٠-١٥٢]

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمنٌ بالله وبرسله كلِّهم وكتبه.. وكافرٌ بذلك كله.. وبقي قسم ثالث..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ﴾ وهو الذي يزعم: **أنه يؤمن ببعض الرسل** دون بعض.. فإنَّ هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله..

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ **يزعم:** أنَّ هذا سبيل ينجيه من عذاب الله.. **إنْ هذا إلا مجرد أماني: فإنَّ من تولَّىٰ اللهَ حقيقة تولَّىٰ جميعَ رسلِه؛** لأن ذلك من تمام تولِّيه.. ومن **عادىٰ أحدًا من رسلِه فقد عادىٰ الله** وعادىٰ جميع رسله، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٩٨] الآيات.. وكذلك **مَنْ كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل،** بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ وذلك **لئلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة** بين الإيمان والكفر.. **ووجه كونهم كافرين** - حتىٰ بما زعموا الإيمان به-: **أن كلَّ دليل دلهم علىٰ الإيمان بمن آمنوا به موجود** هو أو مثله أو ما فوقه **للنبي الذي كفروا به،** وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به.. فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوىٰ ومجرد الدعوىٰ التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها.. ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقا **ذكر عقابا شاملا لهم ولكل كافر** فقال..

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾ كما تكبَّروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وهذا يتضمن: الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه.. وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام..

﴿وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، **فهذا هو الإيمان الحقيقي**، واليقين المبني على البرهان..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ﴾ جزاء إيمانهم وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل.. كُلٌّ على حسب حاله.. ولعل هذا هو **السر في إضافة الأجور إليهم**..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النساء:١٥٠-١٥٢] يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ١٥٩ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١﴾ [النساء:١٥٣-١٦١]

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ **على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم**..

﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن **جملة واحدة**، كما نزلت التوراة والإنجيل.. **وهذا غاية الظلم منهم والجهل**: فإن الرسول بشر عبد مدبَّر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء علىٰ عباده، كما قال تعالىٰ عن الرسول لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين علىٰ محمد ﷺ، ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء].. وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملةً أو مفرقًا، مجرد دعوىٰ لا دليل عليها ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أنَّ الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقا فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟! بل نزول هذا القرآن مفرقا بحسب الأحوال مما يدل علىٰ عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان]..

﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، **بل سبق لهم من المقدمات القبيحة** ما هو أعظم مما سلكوه **مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به**..

﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ من سؤالهم له رؤية الله عيانًا..

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾..

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ واتخاذهم العجل إلهًا يعبدونه..

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم..

﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣﴾..

﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتىٰ رفع الطور من فوق رءوسهم، وهُدِّدوا أنهم إن لم يؤمنوا أُسقط عليهم، فقبلوا ذلك علىٰ وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري..

﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدا مستغفرين، فخالفوا القول والفعل..

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ ومن اعتداء من اعتدىٰ منهم في السبت فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة..

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم..

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وكفروا بآيات الله..

﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وقتلوا رسله بغير حق..

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وادعائهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه..

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾..

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾..

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ومن قولهم: إنهم قتلوا المسيح عيسىٰ وصلبوه..

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شُبِّه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه.. وبصدهم الناس عن سبيل الله، فصدوهم عن الحق، ودَعَوهُم إلىٰ ما هم عليه من الضلال والغي.. وبأخذهم السحت والربا مع نهي الله لهم عنه والتشديد فيه.. فالذين فعلوا هذه الأفاعيل لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمدا أن ينزل عليهم كتابا من السماء..

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾..

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ **يحتمل: أن الضمير** هنا في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ **يعود إلىٰ أهل الكتاب..** فيكون علىٰ هذا **كلُّ كِتَابِي يحضره الموت** ويعاين الأمر حقيقة، **فإنه يؤمن بعيسىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **ولكنه إيمان لا ينفع**، إيمان اضطرار..

فيكون مضمون هذا: **التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا علىٰ هذه الحال** التي سيندمون عليها قبل مماتهم، **فكيف يكون حالهم** يوم حشرهم وقيامهم؟! **ويحتمل: أن الضمير** في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ **راجع إلىٰ عيسىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ..

فيكون المعنىٰ: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ **قبل موت**

المسيح.. وذلك **يكون عند اقتراب الساعة** وظهور علاماتها الكبار.. فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر هذه الأمة، يقتل الدجال، ويضع الجزية، **ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين**..

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ ويوم القيامة يكون عيسىٰ عليهم شهيدا.. يشهد عليهم **بأعمالهم**، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟ وحينئذ **لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه**، مما هو مخالف لشريعة القرآن، وَلِمَا دعاهم إليه محمد ﷺ.. **علمنا بذلك لِعِلمِنَا بكمال عدالة المسيح** عَلَيْهِ السَّلَامُ **وصدقه**، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق وما عداه فهو ضلال وباطل..

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ثم أخبر تعالىٰ أنه حرم علىٰ أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالًا عليهم..

وهذا تحريم عقوبة بسبب ظلمهم واعتدائهم..

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ وصدهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدىٰ..

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه.. **فمنعوا المحتاجين** ممن يبايعونهم عن العدل.. **فعاقبهم الله من جنس فعلهم**، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما **التحريم الذي علىٰ هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم**..

﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء:١٥٣-١٦١]..

🕮 الفـوائـد

١- هذه الطريقة **من أحسن الطرق لمحاجة الخصم المبطل**، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، **أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة ما هو من أقبح ما صدر منه**، ليعلم كلُّ أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأنَّ له مقدماتٌ يُجعل هذا معها.

٢- وكذلك **كل اعتراض يعترضون به علىٰ نبوة محمد** ﷺ **يمكن أن يقابل بمثله أو ما هو أقوىٰ منه في نبوة من يدعون إيمانهم به**، ليكتفىٰ بذلك شرهم وينقمع باطلهم.

٣- وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا به فإنها ونظيرها وما هو أقوىٰ منها، دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ.

٤- ولما كان **المراد من تعديد ما عدَّد الله من قبائحهم هذه المقابلة لم يبسطها في هذا الموضع، بل أشار إليها**، وأحال علىٰ مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق ببسطها.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء:١٦٢]

لما ذكر معايب أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم فقال..

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ﴾ الذين ثبت العلم في قلوبهم..

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ورسخ الإيقان في أفئدتهم..

﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ فأثمر لهم الإيمان التام العام..

﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وأثمر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، اللذين هما أفضل الأعمال، وقد **اشتملتا علىٰ الإخلاص للمعبود والإحسان إلىٰ العبيد..**

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وآمنوا باليوم الآخر: فخافوا الوعيد.. ورجوا الوعد..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء:١٦٢] لأنهم جمعوا بين: العلم.. والإيمان.. والعمل الصالح.. والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة.

﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ

نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥]

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ **يخبر تعالىٰ أنه أوحىٰ** إلىٰ عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحىٰ إلىٰ هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. ولما ذَكَر اشتراكَهم بوحيه، **ذَكَر تخصيص بعضهم**، فذكر أنه آتىٰ داود الزَّبُور..

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ وهو الكتاب المعروف المَزبُورُ، الذي خصَّ الله به داودَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لفضله وشرفه..

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ وذكر أنَّ الرسل: منهم من قصه الله علىٰ رسوله.. ومنهم من لم يقصصه عليه.. وهذا **يدل علىٰ كثرتهم**..

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ مشافهة منه إليه لا بواسطة، حتىٰ اشتهر بهذا عند العالمين فيقال: (موسىٰ كليم الرحمن)..

﴿رُّسُلٗا﴾ وأن الله أرسلهم..

﴿مُّبَشِّرِينَ﴾ لمن أطاع الله واتبعهم بالسعادة الدنيوية والأخروية..

﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصىٰ الله وخالفهم بشقاوة الدارين..

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ فيقولوا ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ ﴾ [المائدة: ١٩].. فلم يبق للخَلق علىٰ الله حجة؛ لإرساله الرسل تترىٰ، يبينون لهم أمر دينهم ومراضي ربهم ومساخطه وطرق الجنة وطرق النار.. **فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه**..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥] **وهذا من كمال عزته تعالىٰ وحكمته**: أن أرسل إليهم الرسل.. وأنزل عليهم الكتب.. **وذلك أيضا من فضله وإحسانه**: حيث كان الناس مضطرين إلىٰ الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطرار.. فله الحمد وله

الشكر، ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

🕮 الفـوائـد

يخبر تعالىٰ أنه أوحىٰ إلىٰ عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحىٰ إلىٰ هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. **وفي هذا عدة فوائد:**

منها: أن محمدا ﷺ **ليس ببدع من الرسل**، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجمِّ الغفير، **فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد.**

ومنها: أنه أوحىٰ إليه كما أوحىٰ إليهم **من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه**، وأن **بعضهم يصدِّق بعضًا** ويوافق بعضهم بعضًا.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، **فليعتبره المعتَبِر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم**، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة، **فلم يقرنه بالمجهولين، ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين**.. ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، **مما يزداد به المؤمن إيمانا بهم ومحبة لهم**، واقتداء بهديهم، واستنانا بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقا لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ [الصافات]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصافات]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠﴾ [الصافات]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١﴾ [الصافات]..

فكلُّ محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل -خصوصا هؤلاء المُسَمُون- في المرتبة العُليا من الإحسان.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء:١٦٦]

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ﴾ لما ذكر أن الله أوحىٰ إلىٰ رسوله محمد ﷺ كما أوحىٰ إلىٰ إخوانه من المرسلين، **أخبر هنا بشهادته تعالىٰ علىٰ رسالته وصحة ما جاء به**، وأنه..

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ **يحتمل**: أن يكون المراد أنزله **مشتملًا علىٰ علمه**، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية ما هو من علم الله تعالىٰ الذي علَّم به عبادَه.. **ويحتمل**: أن يكون المراد: أنزله **صادرًا عن علمه**، ويكون في ذلك **إشارة وتنبيه علىٰ وجه شهادته**.. **وأن المعنىٰ**: إذا كان تعالىٰ أنزل هذا القرآن **المشتمل** علىٰ الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدَّقه كان وليه، **ومن كذبه وعاداه كان عدوه واستباح ماله ودمه**، والله تعالىٰ يمكِّنه ويوالي نصره ويجيب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أولياءه، **فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟ ولا يمكن القدح في هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم الله** وقدرته وحكمته..

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾ وإخباره تعالىٰ بشهادة الملائكة علىٰ ما أنزل علىٰ رسول: **لكمال إيمانهم ولجلالة هذا المشهود** عليه.. فإن الأمور **العظيمة** لا يستشهد عليها إلا **الخواص**، كما قال تعالىٰ في الشهادة علىٰ التوحيد: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران]..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء:١٦٦]..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾ [النساء:١٦٧-١٦٩]

لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته.. **لزم من ذلك ثبوت الأمر المقرر والمشهود به**، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.. ثم توعد من كفر بهم فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جمعوا بين: الكفر بأنفسهم.. وصدِّهم الناس عن سبيل الله.. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال..

﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ضلَّ بنفسه وأضلَّ غيرَه، فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين وفاتته الهدايتان، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا **فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه**.. والمراد **بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه**، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم.. ولهذا قال:..

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وإنما **تعذرت المغفرة لهم والهداية** لأنهم استمروا في طغيانهم وازدادوا في كفرانهم، فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]..

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء:١٦٧-١٦٩] **لا يبالي الله بهم ولا يعبأ، لأنهم لا يصلحون للخير** ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء:١٧٠]

يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ.. **وذكر: السبب الموجب للإيمان به.. والفائدة في الإيمان به.. والمضرة من عدم الإيمان به:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ **فالسبب الموجب**: هو إخباره بأنه **جاءهم بالحق**، أي: فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق.. فإن **العاقل يعرف** أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون وفي كفرهم يترددون والرسالة قد انقطعت عنهم **غير لائق بحكمة الله ورحمته**، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرِّفهم الهدى من الضلال، والغي من الرشد، **فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته**.. وكذلك النظر إلى **ما جاء به من الشرع العظيم** والصراط المستقيم، فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر ما لا يُعرف إلا بالوحي والرسالة، وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد وعدل وإحسان، وصدق وبر وصلة وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد والبغي والظلم وسوء الخلق، والكذب والعقوق، **مما يقطع به أنه من عند الله**.. وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه،

فهذا السبب الداعي للإيمان..

﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ **وأما الفائدة في الإيمان:** فأخبر أنه **خير لكم**، والخير ضد الشر.. **فالإيمان خير للمؤمنين** في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم.. وذلك **لما يترتب عليه** من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدىٰ والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.. كما أن **الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان** أو نقصه..

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ **وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ: فيعرف بضد ما يترتب علىٰ الإيمان به**، وأن العبد لا يضر إلا نفسه، **والله تعالىٰ غني عنه لا تضره معصية العاصين**، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾ [النساء:١٧٠] وَكَانَ **الله** عَلِيمًا بكل شيء، حَكِيمًا في خلقه وأمره.. **فهو العليم** بمن يستحق الهداية والغواية، **الحكيم** في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء:١٧١]

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ ينهىٰ تعالىٰ أهل الكتاب عن **الغلو** في الدين، وهو **مجاوزة الحد والقدر المشروع** إلىٰ ما ليس بمشروع.. وذلك **كقول النصارىٰ في غلوهم بعيسىٰ** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلىٰ مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله.. فكما أن **التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك**، ولهذا قال..

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ **وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما:** وهما **قول الكذب** على الله، **والقول بلا علم** في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله.. **والثالث: مأمور به**، وهو **قول الحق** في هذه الأمور.. ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان **السياق في شأن عيسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **نصَّ على قول الحق** فيه المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال..

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ غاية المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة، التي هي أعلى الدرجات وأجلّ المثوبات..

﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ وأنه كَلِمَتُهُ التي..

﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ كلمة تكلَّم الله بها فكان بها عيسى، **ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها**، وهذا من باب **إضافة التشريف** والتكريم.. وكذلك قوله..

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ من الأرواح التي خلقها وكمَّلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل اللهُ روحَه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنفخ في فرج مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، فحملت بإذن الله بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ..

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فلما بيّن حقيقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله..

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبَّحَهُم الله..

﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أنَّ ذلك خير لهم، لِأنَّه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك.. ثم نزَّه نفسه عن الشريك والولد فقال..

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له..

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزَّه وتقدَّس..

﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لِأنَّ..

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل مملوكون له مفتقرون إليه، فمحالٌ أن يكونَ له شريك منهم أو ولد..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾ [النساء:١٧١] ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالىٰ.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧٣﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣]

لما ذكر تعالىٰ غلو النصارىٰ في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر أنه عبده ورسوله، **ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه..**

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ **لا يمتنع عنها، رغبة عنها، لا هو..**

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ فنزههم عن الاستنكاف.. **وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولىٰ**، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.. أي: **فعيسىٰ والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم**، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم.. **فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم** والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.. **ولا يُظَن أن رفع عيسىٰ أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفعه عن العبادة كمالًا**، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال..

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢﴾ **فسيحشر الخلقَ كلَّهم إليه**، المستنكفين والمستكبرين وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.. **ثم فصَّل حكمه فيهم فقال..**

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ **جمعوا بين: الإيمان المأمور به.. وعمل الصالحات** من واجبات ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده..

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ **الأجور التي رتبها علىٰ الأعمال، كُلٌّ بحسب إيمانه وعمله..**

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ من الثواب **الذي لم تنله أعمالهم**، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم.. **ودخل في ذلك: كل ما في الجنة** من المآكل والمشارب والمناكح، والمناظر والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن.. **بل يدخل في ذلك: كل خير ديني ودنيوي** رُتِّب على الإيمان والعمل الصالح..

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن عبادة الله تعالى..

﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقَدة التي تطلع على الأفئدة..

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣] لا يجدون أحدًا من الخلق يتولاهم، **فيحصل لهم المطلوب**.. ولا مَن ينصرهم **فيدفع عنهم المرهوب**.. بل قد **تخلى عنهم أرحم الراحمين**، وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا رادّ لحكمه ولا مغيّر لقضائه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٤-١٧٥]

يمتن تعالى على سائر الناس بـ: ما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة.. ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾ حُجج قاطعة على الحق، تبيِّنه وتوضحه، وتبين ضدَّه.. **وهذا يشمل**: الأدلة العقلية والنقلية، والآيات الأفقية والنفسية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].. وفي قوله..

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدل على **شرف هذا البرهان وعظمته**، حيث كان من ربكم الذي **رباكم التربية الدينية والدنيوية.. فمن تربيته لكم** التي يحمد عليها ويشكر **أن أوصل إليكم البيِّنات**، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم..

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد **اشتمل على**: علوم

الأولين والآخرين.. والأخبار الصادقة النافعة.. والأمر بكل عدلٍ وإحسان وخير.. والنهي عن كل ظلم وشر.. **فالناس في ظلمة** إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم **إن لم يقتبسوا من خيره**.. ولكن **انقسم الناس** -بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به- **قسمين**..

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب..

﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ لجأوا إلىٰ الله، واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم..

﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات..

﴿وَفَضۡلٖ﴾..

﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النساء: ١٧٥] يوفقهم **للعلم والعمل**، معرفة الحق والعمل به.. أي: **ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم** من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلىٰ بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالًا مبينًا؛ عقوبةً لهم علىٰ تركهم الإيمان، فحَصَلت لهم الخيبة والحرمان.. نسأله تعالىٰ العفو والعافية والمعافاة.

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النساء:١٧٦]

أخبر تعالىٰ **أن الناس استفتوا رسوله** ﷺ..

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾ في الكلالة، بدليل قوله..

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ وهي: الميت يموت وليس له: ولد صلب.. ولا ولد ابن.. ولا أب.. ولا جد، ولهذا قال..

﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ لا ذكر ولا أنثىٰ، لا ولد صلب ولا ولد ابن.. **وكذلك ليس له والد**، بدليل: أنه ورث فيه الإخوة.. **والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد**، فإذا هلك وليس له ولد ولا والد..

﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾ شقيقة.. أو لأب.. لا لأم؛ فإنه قد تقدم حكمها..

﴿فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾ نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث وغير ذلك، وذلك **من بعد الدين والوصية** كما تقدم..

﴿وَهُوَ﴾ أخوها الشقيق أو الذي للأب..

﴿يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ ولم يقدِّر له إرثًا؛ **لأنه عاصب فيأخذ مالها كله**، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض..

﴿فَإِن كَانَتَا﴾ الأختان..

﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ فما فوق..

﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾ اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث..

﴿فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ فيسقط فرض الإناث، ويعصبهن إخوتُهُنَّ..

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها ويشرحها لكم.. فضلًا منه وإحسانًا..

﴿أَن تَضِلُّواْۗ﴾ لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم..

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النساء:١٧٦] عالم بالغيب والشهادة.. والأمور الماضية والمستقبلة.. ويعلم حاجتكم إلىٰ بيانه وتعليمه.. فيعلمُكُم من علمِه الذي **ينفعكم علىٰ الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة**.

آخر تفسير سورة (النساء) فلله الحمد والشكر

تفسير المائدة وهي مدنية

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ①﴾ [المائدة:١]

هذا أمر من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين بما **يقتضيه الإيمان** بالوفاء بالعقود..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها.. **وهذا شامل لـ: العقود التي بين العبد وبين ربه**: من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئًا.. **والتي بينه وبين الرسول**: بطاعته واتباعه.. **والتي بينه وبين الوالدين والأقارب**: ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم.. **والتي بينه وبين أصحابه**: من القيام بحقوق الصحبة في الغنىٰ والفقر، واليسر والعسر.. **والتي بينه وبين الخلق**: من عقود **المعاملات**، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود **التبرعات** كالهبة ونحوها.. **بل والقيام بحقوق المسلمين**: التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠] بالتناصر علىٰ الحق، والتعاون عليه، والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع.. **فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها**.. ثم قال ممتنا علىٰ عباده..

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم﴾ لأجلكم، رحمة بكم..

﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ من الإبل والبقر والغنم.. بل ربما دخل في ذلك: الوحشيُّ منها.. والظباء.. وحمر الوحش.. ونحوها من الصيود..

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية علىٰ: **إباحة الجنين** الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح..

﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ تحريمه.. منها في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ

أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣] **فإنَّ هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة.. ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثنىٰ منها الصيد في حال الإحرام فقال.**

﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ **أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بـ: أنكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، أي: متجرئون علىٰ قتله في حال الإحرام، وفي الحرم، فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيدًا**، كالظباء ونحوه.. **والصيد**: هو الحيوان المأكول المتوحش..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾[المائدة:١] **فمهما أراده تعالىٰ، حَكَم به حكمًا موافقًا لحكمته: كما أمركم بالوفاء بالعقود** لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم.. **وأحل لكم بهيمة الأنعام** رحمة بكم.. **وحرم عليكم ما استثنىٰ منها** من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صونًا لكم واحترامًا.. **ومن صيد الإحرام** احترامًا للإحرام وإعظامًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ **أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها.. والنهي يشمل**: النهي عن **فعلها**، والنهي عن **اعتقاد حلها، فهو يشمل**: النهي عن **فعل القبيح، وعن اعتقاده.. ويدخل في ذلك**: النهي عن محرمات **الإحرام**، ومحرمات **الحرم.. ويدخل في ذلك**: **ما نص عليه بقوله..**

﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ لا تنتهكوه بـ: القتال فيه.. وغيره من أنواع الظلم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ ولا تحلوا الهدي الذي يُهدىٰ إلىٰ بيت الله في حج أو عمرة أو غيرهما، من نَعَمٍ وغيرِها، فلا تَصدُّوه عن الوصول إلىٰ مَحَلِّه، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها.. ولا تقصُروا به، أو تُحَمِّلوه ما لا يَطيق؛ خوفًا من تلفه قبل وصوله إلىٰ محلِّه، بل عظِّموه وعظِّموا من جاء به..

﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدي، وهو **الهَدي الذي يُفتلُ له قلائدُ أو عُرىٰ،** فيُجعل في أعناقه؛ **إظهارًا** لشعائر الله، **وحملًا** للناس علىٰ الاقتداء، **وتعليمًا** لهم للسنة، **وليعرف** أنه هدي فيحترم.. ولهذا كان **تقليد الهدي من السنن** والشعائر المسنونة..

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ قاصدين له..

﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنًاۚ﴾ من قَصَد هذا البيت الحرام.. وقَصدُه: فضلُ الله بالتجارة والمكاسب المباحة.. أو قصدُه: رضوان الله بحَجِّه وعمرته والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات.. **فلا تتعرضوا له بسوء،** ولا تهينوه، **بل أكرموه** وعظِّموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم..

ودخل في هذا الأمر: الأمرُ **بتأمين الطرق** الموصلة إلىٰ بيت الله.. وجعلُ **القاصدين له مطمئنين** مستريحين **غير خائفين** علىٰ أنفسهم من القتل فما دونه، ولا علىٰ أموالهم من المَكس والنَّهب ونحو ذلك.. ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال..

﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ﴾ من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم..

﴿فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ حُلَّ لكم الاصطيادُ، وزال ذلك التحريم.. والأمر بعد التحريم يَرُدُّ الأشياءَ إلىٰ ما كانت عليه من قبل..

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدُّوكم عن المسجد، علىٰ الاعتداء عليهم، طلبًا للاشتفاء منهم.. فإنَّ العبد عليه أن **يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جُني عليه أو**

ظُلم واعتُدِي عليه، فلا يَحلُّ له أن يَكذب علىٰ من كذَبَ عليه، أو يخون من خانه..

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ ليعن بعضكم بعضًا علىٰ البر.. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين..

﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ﴾ وهو التجرؤ علىٰ المعاصي التي يأثم صاحبها، ويُحرَج..

﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ وهو التعدي علىٰ الخَلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فكلُّ معصية وظلم يجب علىٰ العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره علىٰ تركه..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾[المائدة:٢] علىٰ من عصاه وتجرأ علىٰ محارِمِه، فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابُه العاجلُ والآجلُ.

🕮 الفـوائـد

١ - الجمهور من العلماء علىٰ أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بـ:

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥].

وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقًا، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقًا.

وبـ: أن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ:

لهذه الآية.

وغيرها مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه.

وحملوا النصوص المطلقة الواردة علىٰ ذلك، وقالوا: المطلق يحمل علىٰ المقيد.

وفصَّل بعضُهم فقال:

لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوَّلُه في غيرها، فإنه يجوز.

وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف علىٰ ذلك؛ لأنَّ أول قتالهم في (حنين)، في (شوال).

وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.. فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفارُ

المسلمين بالقتال، **فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعًا عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء..**

٢- **هذه الآية الكريمة مخصوصة بـ:** قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨] **فالمشرك لا يُمكَّن من الدخول إلىٰ الحرم.**

٣- التخصيص في هذه الآية بـ: النهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه، يدل علىٰ: **أن من قَصَدَه ليُلحد فيه بالمعاصي، فإنَّ مِن تمام احترام الحَرم صَدُّ من هذه حاله عن الإفساد ببيت الله**، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج: ٢٥].

٤- **التقوىٰ في هذا الموضع:** اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة.. وكلُّ خَصلةٍ من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإنَّ العبد مأمور بفعلها بنفسه، **وبمعاونة غيره** من إخوانه المؤمنين عليها، بكلِّ قول يَبعَثُ عليها وينشط لها، وبكلِّ فعلٍ كذلك.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة:٣]

هذا الذي **حوَّلَنا الله عليه في قوله:** ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾. واعلم أن الله تبارك وتعالىٰ **لا يحرِّم ما يحرِّم إلا صيانة لعباده**، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات.. **وقد يُبيِّن للعباد ذلك وقد لا يبين..**

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ فأخبر أنه حرم ﴿ٱلۡمَيۡتَةُ﴾.. **والمراد بالميتة:** ما فُقِدَت حياتُهُ بغير

ذكاة شرعية.. فإنها تَحرُم **لضررها**: وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المُضِرُّ بآكلها، وكثيرًا ما تموت بعلة تكون سببًا لهلاكها، فتضر بالآكل.. **ويستثنىٰ من ذلك**: ميتة الجراد والسمك، فإنه حلال..

﴿وَٱلدَّمُ﴾ المسفوح، كما قُيِّدَ في الآية الأخرىٰ..

﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه.. وإنما **نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع**، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصارىٰ يزعمون أن الله أحلَّه لهم، أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ذُكِر عليه اسمُ غير الله تعالىٰ من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين.. فكما أنَّ ذِكرَ الله تعالىٰ يُطيِّب الذبيحةَ، فذكر اسم غيره عليها يفيدها خَبَثًا معنويًا، لأنه شرك بالله تعالىٰ..

﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾ الميتة بخنقٍ، بـ: يد.. أو حبل.. أو إدخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجه حتىٰ تموت..

﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ الميتة بسبب الضرب بـ: عصا.. أو حصىٰ.. أو خشبة.. أو هُدِمَ شيءٌ عليها، بقصد أو بغير قصد..

﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك..

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي تنطحها غيرُها فتموت..

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ من ذئب أو أسد أو نَمِر، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل..

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ راجع لهذه المسائل، من منخنقة، وموقوذة، ومتردية، ونطيحة، وأكيلة سبع.. إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها.. ولهذا قال الفقهاء: لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها.. وبعضهم: لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة، فإذا ذكَّاها وفيها حياة حلَّت، ولو كانت مُبانةَ الحشوة.. **وهو ظاهر الآية الكريمة**..

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ ..

﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ وحرَّم عليكم الاستقسام بالأزلام.. **ومعنىٰ الاستقسام**: طلب ما يُقسَم لكم ويقدَّرُ بها، وهي قداحٌ ثلاثةٌ كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب علىٰ أحدها (افعل) وعلىٰ الثاني (لا تفعل) والثالث غَفلٌ لا كتابة فيه، فإذا هَمَّ أحدهم بسفر أو عُرسٍ أو نحوهما، أجال تلك القداحَ المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحدًا منها، فإن خرج المكتوب عليه (افعل) مضىٰ في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه (لا تفعل) لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتىٰ يخرج أحد القَدَحَين فيعمل به.. فحرمه الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، **وعوَّضهم عنه بالاستخارة** لربهم في جميع أمورهم..

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات التي حرمها الله صيانة لعباده.. وأنها..

﴿فِسۡقٌۗ﴾ أي: خروجٌ عن طاعته إلىٰ طاعة الشيطان.. ثم امتن علىٰ عباده بقوله..

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ واليوم المشار إليه يوم عرفة.. إذ أتمَّ الله دينه، ونصر عبده ورسوله.. وانخذل أهل الشرك انخذالًا بليغًا، بعدما كانوا حريصين علىٰ ردِّ المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.. فلما رأوا عزَّ الإسلام وانتصاره وظهوره، **يئسوا كل اليأس من المؤمنين أن يرجعوا إلىٰ دينهم**، وصاروا يخافون منهم ويخشون.. ولهذا في هذه السَنة التي حج فيها النبي ﷺ -سنة عشر حجة الوداع- لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.. ولهذا قال..

﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم..

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع.. ولهذا كان **الكتاب والسنة كافيين** كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.. فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلىٰ علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدِّين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله..

﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة..

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ اخترته واصطفيته لكم دينًا، كما ارتضيتكم له، فقوموا به

شكرًا لربكم، واحمدوا الذي مَنَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها..

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ ألجأته الضرورة إلىٰ أكل شيء من المحرمات السابقة، في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ .

﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ أي: مجاعة..

﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ﴾ أي: مائل..

﴿لِّإِثۡمٖ﴾ بأن لا يأكل حتىٰ يضطر، ولا يزيد في الأكل علىٰ كفايته..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣﴾ [المائدة:٣] حيث أباح له الأكل في هذه الحال.. ورحمه بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٤﴾ [المائدة:٤]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ من الأطعمة؟

﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل.. **فدخل في ذلك**: جميع الحبوب والثمار التي في القرىٰ والبراري.. **ودخل في ذلك**: جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، **إلا ما استثناه الشارع**، كالسباع والخبائث منها.. **ولهذا دلت الآية بمفهومها**: **علىٰ تحريم الخبائث**، كما صرح به في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلىٰ آخر الآية.. **والمراد بالجوارح**: الكلاب، والفهود، والصقر، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه..

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.. وما أكل منه الجارح فإنَّه لا يعلم أنه أمسكه علىٰ صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه علىٰ نفسه..

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ .. ثم حث تعالىٰ علىٰ تقواه، وحذَّر من إتيان الحساب في يوم

القيامة، وأنَّ ذلك أمرٌ قد دنا واقترب، فقال..

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾ [المائدة:٤] ..

🕮 الفـوائـد

دلت هذه الآية علىٰ أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسَّع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يُذكوه مما صادته الجوارح.

الثاني: أنه يشترط أن تكون **معلَّمة**، بما يُعد في العرف تعليمًا، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل.

الثالث: اشتراط أن **يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما**، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾، مع ما تقدَّم من تحريم المنخنقة.. فلو خنقه الكلب أو غيره أو قتله بثقله لم يُبح، هذا **بناء علىٰ أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها**.. والمشهور أن **الجوارح** **بمعنىٰ الكواسب، أي: المحصلات للصيد والمدركات لها**، فلا يكون فيها علىٰ هذا دلالة، والله أعلم .

الرابع: جواز **اقتناء كلب الصيد**، كما ورد في الحديث الصحيح -مع أن **اقتناء الكلب محرم**- لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: **طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد**، لأنَّ الله أباحه ولم يذكر له غسلًا فدل علىٰ طهارته.

السادس: فيه **فضيلة العلم**، وأن الجارح المعلَّم -بسبب العلم- يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن **الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموما**، وليس من العبث والباطل، بل هو أمر مقصود؛ لأنَّه وسيلة لحِلِّ صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه **حجة لمن أباح بيع كلب الصيد**، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط **التسمية عند إرسال الجارح**، وأنه إن لم يسم الله متعمدا، لم يُبَح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا.. **وأنه إن أدركه صاحبه وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.**

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة:٥]

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ كرر تعالىٰ إحلال الطيبات؛ لـ: بيان الامتنان.. ودعوة للعباد إلىٰ شكره.. والإكثار من ذكره.. حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات..

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارىٰ حلال لكم يا معشر المسلمين.. دونَ باقي الكفار، فإنَّ ذبائحهم لا تحلُّ للمسلمين.. وذلك لأنَّ أهل الكتاب ينتسبون إلىٰ الأنبياء والكتب.. وقد اتفق الرسل كلهم علىٰ تحريم الذبح لغير الله؛ لأنه شرك.. فاليهود والنصارىٰ يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم..

﴿وَطَعَامُكُمۡ﴾ أيها المسلمون..

﴿حِلّٞ لَّهُمۡۖ﴾ يَحِلُّ لكم أن تطعموهم إياه..

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ وأحل لكم الحرائر العفيفات..

﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ والحرائر العفيفات..

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من اليهود والنصارىٰ.. وهذا مخَصِّص لقوله تعالىٰ ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ [البقرة: ٢٢١]..

﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أبحنا لكم نكاحهن، إذا أعطيتموهن مهورهن.. فمن عزم علىٰ أن لا يؤتيها مهرها فإنها لا تحل له.. وأمر بإيتائها **إذا كانت رشيدة تصلح للإيتاء،** وإلا

أعطاه الزوج لوليها.. وإضافة الأجور إليهن دليل علىٰ أن **المرأة تملك جميع مهرها**، وليس لأحد منه شيء، **إلا ما سمحت به** لزوجها أو وليها أو غيرهما..

﴿مُحۡصِنِينَ﴾ حالة كونكم -أيها الأزواج- محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن..

﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: زانين مع كل أحد..

﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ وهو: الزنا مع العشيقات، لأن الزناة في الجاهلية منهم من يزني مع مَن كان، فهذا المسافح.. ومنهم من يزني مع خِدنِهِ ومُحِبِّهِ.. فأخبر الله تعالىٰ أن ذلك كله ينافي العفة، وأنَّ شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفًا عن الزنا..

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ ومن كفر بالله تعالىٰ، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله **أو شيء من الشرائع**..

﴿فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ بشرط أن يموت علىٰ كفره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [البقرة: ٢١٧]..

﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة:٥] الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وحَصَلوا علىٰ الشقاوة الأبدية.

🕮 الفوائد

١- **الدليل علىٰ أن المراد بطعامهم ذبائحهم:** أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.. وأيضا فإنه أضاف الطعام إليهم، فدل ذلك علىٰ أنه كان طعامًا بسبب ذبحهم، ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون؛ لأن هذا لا يباح علىٰ وجه الغَصب، ولا من المسلمين.

٢- مفهوم الآية: **أنَّ الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار**، وهو كذلك.. **وأما الكتابيات فعلىٰ كل حال لا يبحن**، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقًا، لقوله تعالىٰ: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥].. وأما **المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار**

نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطَول وخوفُ العنت.. وأما الفاجرات **غير العفيفات** عن الزنا، **فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات،** حتىٰ يَتُبن لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [النور: ٣]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة:٦]

هذه آية عظيمة قد اشتملت علىٰ أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله.. **أحدها:** أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من **لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به،** لأنه صدَّرها بقوله..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلىٰ آخرها.. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضىٰ إيمانكم بما شرعناه لكم.. **الثاني:** الأمر بالقيام بالصلاة لقوله..

﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الثالث: **الأمر بالنية للصلاة،** لقوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: بقصدها ونيتها.. **الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة،** لأنَّ الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.. **الخامس: أن الطهارة** لا تجب بدخول الوقت، وإنما **تجب عند إرادة الصلاة..** السادس: أن **كل ما يطلق عليه اسم الصلاة،** من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، **تشترط له الطهارة، حتىٰ السجود المجرد عند كثير من العلماء،** كسجود التلاوة والشكر.. **السابع:** الأمر بغسل الوجه..

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلىٰ ما انحدر من اللحيين والذقن طولًا، ومن الأذن إلىٰ الأذن عَرضًا.. **ويدخل فيه:** المضمضة

والاستنشاق، بالسنة.. **ويدخل فيه**: الشعور التي فيه، لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلىٰ البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها.. **الثامن**: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلىٰ المرفقين..

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ و(إلىٰ) -كما قال جمهور المفسرين- بمعنىٰ (مع)، كـ: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾ [النساء: ٢].. ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.. **التاسع**: الأمر بمسح الرأس..

﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ **العاشر**: أنه يجب مسح جميعه؛ **لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة**، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.. **الحادي عشر**: أنه **يكفي المسحُ كيفما كان**، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأنَّ اللهَ أطلقَ المسحَ ولم يقيده بصفة، فدلَّ ذلك علىٰ إطلاقه.. **الثاني عشر**: أن الواجب المسح، **فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف**، لأنه لم يأت بما أمر الله به.. **الثالث عشر**: الأمر بغسل الرجلين إلىٰ الكعبين..

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ﴾ ويقال فيهما ما يقال في اليدين.. **الرابع عشر**: فيها الرد علىٰ الرافضة -علىٰ قراءة الجمهور بالنصب- وأنه لا يجوز مسحُهُما ما دامتا مكشوفتين.. **الخامس عشر**: فيه الإشارة إلىٰ **مسح الخفين**، علىٰ قراءة الجر في ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، وتكون كلٌّ من القراءتين محمولةً علىٰ معنىٰ، فعلىٰ قراءة النصب فيها: غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلىٰ قراءة الجر فيها: مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخُف.. **السادس عشر**: الأمر **بالترتيب في الوضوء**: لأن الله تعالىٰ **ذكرها مرتبة**.. ولأنه **أدخل ممسوحًا -وهو الرأس- بين مغسولين**، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.. **السابع عشر**: **أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة** المسميات في هذه الآية.. وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنىٰ واليسرىٰ من اليدين والرجلين، فإنَّ ذلك غير واجب، **بل يستحب** تقديم المضمضة والاستنشاق علىٰ غسل الوجه، وتقديمُ اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس علىٰ مسح الأذنين.. **الثامن عشر**: الأمر **بتجديد الوضوء عند كل صلاة**؛ لِتُوجَد صورةُ المأمورِ به.. **التاسع عشر**: الأمر بالغسل من الجنابة..

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن؛ **لأن الله أضاف التطهر للبدن**، ولم يخصصه بشيء دون شيء.. الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.. الثاني والعشرون: أنه **يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر**، ويكفي من هما عليه أن ينوي، ثم يعمم بدنه: لأن الله لم يذكر إلا التطهر.. ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.. الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق علىٰ من أنزل المني يقظة أو مناما، أو جامع ولو لم ينزل.. الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللا فإنه لا غُسل عليه،؛لأنه **لم تتحقق منه الجنابة**.. الخامس والعشرون: ذِكرُ مِنَّة الله تعالىٰ علىٰ العباد، **بمشروعية التيمم**..

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ السادس والعشرون: أن **من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسلُه بالماء**، فيجوز له التيمم.. السابع والعشرون: أن **من جملة أسباب جوازه السفرُ، والإتيانُ من البول والغائط إذا عدم الماء**.. فالمرض يُجوِّز التيمم مع وجود الماء لحصول التضرر به.. وباقيها يجوِّزه العدمُ للماء ولو كان في الحَضَر.. الثامن والعشرون: **أن الخارج من السبيلين** من بول وغائط، ينقض الوضوء.. التاسع والعشرون: استدل بها من قال: **لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران**، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.. الثلاثون: استحباب **التكنِيَةِ عمَّا يُستقذَر التلفظُ به**؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾. الحادي والثلاثون: أن **لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض** للوضوء.. الثاني والثلاثون: اشتراط **عدم الماء** لصحة التيمم.. الثالث والثلاثون: أن **مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم** لأنَّ الله إنما أباحه مع عدم الماء.. الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء، فإنه **يلزمه طلبه في رَحلِه وفيما قَرب منه**؛ لأنه لا يقال (لم يجد) لمن لم يطلب.. الخامس والثلاثون: أن **من وجد ماء لا يكفي** بعض طهارته، فإنه **يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك**.. السادس والثلاثون: أن الماء **المتغير بالطاهرات، مقدم علىٰ التيمم**، أي: يكون طهورًا؛ لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾. السابع والثلاثون: أنه لا بد من **نية التيمم**؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ أي: اقصدوا..

﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الثامن والثلاثون: **أنه يكفي التيممُ بكلِّ ما تصاعد علىٰ وجه الأرض من تراب وغيره**.. فيكون -علىٰ هذا- قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ إما من باب التغليب، وأن **الغالب أن يكون له غبار** يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين.. وإما أن يكون **إرشادًا للأفضل**، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولىٰ.. التاسع والثلاثون: أنه **لا يصح التيمم بالتراب النجس**، لأنه لا يكون طيبـًا بل خبيثًا..

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ الأربعون: أنه يمسح في التيمم الوجه واليدان فقط، دون بقية الأعضاء.. الحادي والأربعون: أن قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ **شامل لجميع الوجه وأنه يعممه بالمسح**، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.. الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان **إلىٰ الكوعين فقط**، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك.. فلو كان يشترط إيصال المسح إلىٰ الذراعين لقيَّده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.. الثالث والأربعون: أن الآية عامة في **جواز التيمم لجميع الأحداث كلها**، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن: لأن الله جعلها بدلًا عن طهارة الماء.. وأطلق في الآية فلم يُقيِّد.. وقد يقال: أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم؛ لأن السياق في الأحداث، وهو قول جمهور العلماء.. الرابع والأربعون: أن **محل التيمم** في الحدث الأصغر والأكبر **واحد**، وهو الوجه واليدان.. الخامس والأربعون: أنه لو نوىٰ مَنْ عليه حدثان التيمم عنهما فإنه يجزئ؛ أخذًا من **عموم الآية وإطلاقها**.. السادس والأربعون: أنه يكفي **المسح بأي شيء كان**، بيده أو غيرها، لأن الله **قال**: ﴿فَامْسَحُوا﴾ **ولم يذكر الممسوح به**، فدلَّ علىٰ جوازه بكل شيء.. السابع والأربعون: اشتراط **الترتيب في طهارة التيمم**، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله **بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين**.. الثامن والأربعون: أن الله تعالىٰ -فيما شرعه لنا من الأحكام- لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر..

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ وإنما هو رحمةٌ منه بعباده ليطهرهم..

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا هو التاسع والأربعون: أنَّ طهارة الظاهر بالماء والتراب، **تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد**، والتوبة النصوح..

الخمسون: أن **طهارة التيمم**، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن **فيها طهارة معنوية** ناشئة عن امتثال أمر الله تعالىٰ.. الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها..

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة:٦] ليزدادَ معرفةً وعلمًا، ويزدادَ شكرا لله ومحبة له علىٰ ما شرع من الأحكام التي توصل العبدَ إلىٰ المنازل العالية الرفيعة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة:٧]

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يأمر تعالىٰ عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم.. **فإن في استدامة ذكرها:** داعيًا لشكر الله تعالىٰ.. ومحبته.. وامتلاء القلب من إحسانه.. وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية.. وزيادة لفضل الله وإحسانه.

﴿وَمِيثَاقَهُ﴾ واذكروا ميثاقه..

﴿الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.. وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم **بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما**، ولهذا قال..

﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا﴾ ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد..

﴿وَأَطَعْنَا﴾ ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب.. **وهذا شامل لـ:** جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.. وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم علىٰ بال، ويحرصون علىٰ أداء ما أُمِرُوا به كاملًا غير ناقص..

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم..

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة:٧] أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر.. فاحذروا أن يطلِّع من قلوبكم علىٰ أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه.. واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده.. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر

لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات؛ لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة:٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **بما أُمِرُوا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم..**

﴿كُونُواْ﴾ بأن تكونوا..

﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ **بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم** الظاهرة والباطنة.. وأن يكون **ذلك القيام** لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية.. وأن تكونوا قاصدين للقسط الذي هو العدل، **لا الإفراط ولا التفريط**.. في أقوالكم ولا أفعالكم.. وقوموا بذلك **علىٰ القريب والبعيد**، والصديق والعدو..

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ﴾ لا يحملنكم بغض..

﴿قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط.. بل كما تشهدون لوليكم فاشهدوا عليه، وكما تشهدون علىٰ عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافرًا أو مبتدعًا.. فإنَّه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، **لأنَّه حق لا لأنه قاله**، ولا يُرَدُّ الحقُّ لأجل قوله، فإن هذا ظلمٌ للحق..

﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ كلما حرصتم علىٰ العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوىٰ قلوبكم، **فإن تمَّ العدل كمُلت التقوىٰ**..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة:٨] فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرِها وكبيرِها، جزاءً عاجلاً وآجلاً.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠﴾ [المائدة:٩-١٠]

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ الذي لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المؤمنين به وبكتبه ورسله واليوم الآخر..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من واجباتٍ ومستحباتٍ..

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ بالمغفرة لذنوبهم، بالعفو عنها وعن عواقبها..

﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عِظَمَه إلا الله تعالىٰ..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة علىٰ الحق المبين، فكذَّبوا بها بعد ما أبانت الحقائقَ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾ [المائدة:٩-١٠] الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المائدة:١٠-١١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ **يُذكِّر تعالىٰ عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم علىٰ تذكرها بالقلب واللسان..**

﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ وأنهم كما أنهم يعدُّون قتلهم لأعدائهم وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيَهم نعمةً، **فليعدوا أيضًا إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم** ورد كيدهم في نحورهم **نعمة**.. فإنهم الأعداء قد همَّوا بأمر وظنوا أنهم قادرون عليه، فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم فهو نصر من الله لعباده المؤمنين، ينبغي لهم أن يشكروا الله علىٰ ذلك، ويعبدوه ويذكروه.. **وهذا يشمل**: كلَّ من هَمَّ بالمؤمنين بِشَرٍّ، من كافر ومنافق وباغ، **كفَّ الله شرَّه** عن المسلمين، **فإنَّه داخل في هذه الآية**..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ .. **ثم أمرهم بما يستعينون به علىٰ الانتصار علىٰ عدوهم، وعلىٰ جميع أمورهم، فقال:..**

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾[المائدة:١٠-١١] أي: **يعتمدوا عليه** في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية.. **وتبرؤوا من حولهم** وقوتهم.. **ويثقوا بالله** تعالىٰ في حصول ما يحبون.. وعلىٰ **حسب إيمان** العبد يكون **توكله**.. وهو **من واجبات القلب** المتفق عليها.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة:١٢-١٣]

يخبر تعالىٰ أنه أخذ علىٰ بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال:..

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: **عهدهم المؤكد الغليظ..**

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ﴾ أي: رئيسًا وعرِّيفًا علىٰ من تحته، ليكون ناظرًا عليهم، حاثًا لهم علىٰ القيام بما أُمِرُوا به، مطالبًا يدعوهم..

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا..

﴿إِنِّى مَعَكُمْ ۖ﴾ بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة.. ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال..

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة علىٰ ذلك..

﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمستحقيها..

﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ..

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة..

﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا قمتم بذلك..

﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فجمع لهم بين: حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم.. واندفاع المكروه بتكفير السيئات.. ودفع ما يترتب عليها من العقوبات..

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالأيمان والالتزامات، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه..

﴿مِنكُمْ﴾ ..

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب.. فكأنه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟! وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه أم نكثوا؟ فبيَّن أنهم نقضوا ذلك فقال..

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات: **الأولىٰ**: أنَّا..

﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا علىٰ أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أُخِذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.. **الثانية**:..

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف.. وهذا من أعظم العقوبات علىٰ العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدىٰ، والخير إلا شرا.. **الثالثة**: أنهم..

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنىٰ غير ما أراده الله ولا رسوله.. **الرابعة**: أنَّهم ﴿نَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾.

﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ فإنهم ذُكِّروا بالتوراة، وبما أنزل الله علىٰ موسىٰ، فنسوا حظًّا منه..

وسمىٰ الله تعالىٰ **ما ذُكِّروا به حظًّا؛ لأنه هو أعظم الحظوظ**، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية، كما قال تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص]، وقال في الحظ النافع: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت].. وهذا **شامل لـ: نسيان علمه**، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبة منه لهم.. **وشامل لـ: نسيان العمل** الذي هو الترك، فلم يُوفَّقوا للقيام بما أمروا به.. **ويستدل بهذا علىٰ أهل الكتاب** بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه **مما نسوه.. الخامسة**: الخيانة المستمرة التي..

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ خيانة لله ولعباده المؤمنين.. **ومن أعظم الخيانة منهم**: كتمهم عن من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، **وإبقاؤهم علىٰ كفرهم**، فهذه خيانة عظيمة.. **وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم**، فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذُكِّر به، وأنه لا بد أن يبتلىٰ بالخيانة، نسأل الله العافية..

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ﴾ فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه، فوفقهم وهداهم للصراط المستقيم..

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ﴾ لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذىٰ، الذي يقتضي أن يعفىٰ عنهم، واصفح، فإن ذلك من الإحسان..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٢-١٣] والإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.. **وفي حق المخلوقين**: بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤]

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ لعيسى ابن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاءوا به، فنقضوا العهد..

﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ نسيانًا علميا، ونسيانًا عمليًا.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ سلَّطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحن ما يقتضي بغض بعضِهِم بعضًا، ومعاداةَ بعضهم بعضًا إلى يوم القيامة، وهذا أمر مشاهد، فإنَّ النصارى لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق..

﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة:١٤] فيعاقبهم عليه.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة:١٥-١٦]

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم، أمرهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ.. **واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي:..**

﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أنه بيَّن لهم كثيرًا مما يُخْفُون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم.. فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم، فالحريص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم.. فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بيَّن به ما كانوا يتكاتمونه بينهم، وهو أُمِّيّ لا يقرأ ولا يكتب، من أدل الدلائل على القطع برسالته.. وذلك مثل صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم ونحو ذلك..

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ﴾ يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة..

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة..

﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ لكلِّ ما يحتاج الخلقُ إليه من أمور دينهم ودنياهم، من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.. **ثم ذكر مَنْ الذي يهتدي بهذا القرآن، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك**، فقال..

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ يهدي به من اجتهد وحرص علىٰ بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسنًا ..

﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ التي تُسلِّم صاحبَها من العذاب، وتوصله إلىٰ دار السلام، وهو **العلم بالحق والعمل به**، إجمالا وتفصيلا..

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وَيُخْرِجُهُم مِّن ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة..

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلىٰ نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم، والذكر.. وكل هذه الهداية..

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن..

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾ [المائدة:١٥-١٦] ..

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾ [المائدة:١٧]

لما ذكر تعالىٰ أخذ الميثاق علىٰ أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة..

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ﴾ فذكر قول النصارىٰ، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم.. ووجه شبهتهم أنه وُلد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل، مع أن حواء نظيره، خُلِقَت بلا أم، وآدم أولىٰ

منه، خُلق بلا أب ولا أم، فهلَّا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوها في المسيح؟! فدل علىٰ أن قولهم اتباع هوىٰ من غير برهان ولا شبهة.. **فردَّ الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال..**

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم، ولا قدرة لهم علىٰ ذلك، دلَّ علىٰ **بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك**، ولا في قوته شيء من الفكاك..

﴿وَلِلَّهِ﴾ ومن الأدلة: أن للهِ وحده..

﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير إلهًا معبودًا غنيًا من كل وجه؟! هذا من أعظم المحال.. ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسىٰ ابن مريم من غير أب، فإن الله..

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم.. وإن شاء من أب بلا أم، كحواء.. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسىٰ.. وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم.. فنوعُ خليقته تعالىٰ بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال..

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾ [المائدة:١٧]..

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة:١٨]

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ ومن مقالات اليهود والنصارىٰ أن كلًّا منهما ادعىٰ دعوىٰ باطلة، يُزكُّون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما..

﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ والابن في لغتهم **هو الحبيب، ولم يريدوا البنوة الحقيقية**، فإنَّ هذا ليس من مذهبهم، إلا مذهب النصارىٰ في المسيح.. قال الله ردًّا عليهم حيث ادعوا بلا برهان..

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ ؟! فلو كنتم أحبابه ما عذبكم؛ لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه..

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل..

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب..

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[المائدة:١٨] فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة المماليك، ومن جملة من يرجع إلىٰ الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة:١٩]

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ يدعو تبارك وتعالىٰ أهل الكتاب -بسبب ما منَّ عليهم من كتابه- أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالىٰ الذي أرسله إليهم..

﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ علىٰ حين فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ وشدة حاجة إليه.. وهذا مما يدعو إلىٰ الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية..

﴿أَن تَقُولُوا﴾ وقد قطع الله بذلك حجتهم، لئلا يقولوا..

﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.. وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها..

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾[المائدة:١٩] انقادت الأشياء طوعًا وإذعانًا لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها.. ومن قدرته: أن أرسل الرسل.. وأنزل الكتب.. وأنه يثيب من أطاعهم.. ويعاقب من عصاهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ
وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ
ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ
﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن
يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟
عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ
فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ
فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ
سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦]

لما امتن الله علىٰ موسىٰ وقومه **بنجاتهم** من فرعون وقومه، وأسرهم واستعبادهم.. ذهبوا **قاصدين لأوطانهم** ومساكنهم وهي بيت المقدس وما حواليه وقاربوا وصول بيت المقدس.. وكان الله **قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم..**

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ فوعظهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وذكَّرهم ليُقدِمُوا علىٰ الجهاد، فقال لهم..

﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألسنتكم.. فإنَّ ذكرها: داع إلىٰ محبته تعالىٰ.. ومنشط علىٰ العبادة..

﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ **يدعونكم إلىٰ الهدىٰ، ويحذرونكم** من الردىٰ، **ويحثونكم** علىٰ سعادتكم الأبدية، **ويعلمونكم** ما لم تكونوا تعلمون..

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه **زال عنكم استعباد عدوكم لكم**، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم..

﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ من النعم الدينية والدنيوية..

﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٠﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالىٰ وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.. فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال:..

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرة..

﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فأخبرهم خبرًا تطمئنُّ به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدِّقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم علىٰ عدوهم..

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ أي: ترجعوا..

﴿عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝٢١﴾ قد خسرتم: دنياكم بما فاتكم من النصر علىٰ الأعداء وفتح بلادكم.. وآخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتم بمعصيتكم من العقاب.. فـ..

﴿قَالُوا﴾ قولًا يدل علىٰ: ضعف قلوبهم.. وخور نفوسهم.. وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله..

﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها..

﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝٢٢﴾ وهذا من **الجبن وقلَّة اليقين**: وإلا فلو كان معهم رشدهم لعلموا أنَّهم **كلَّهم من بني آدم**، وأنَّ **القويَّ من أعانه الله** بقوةٍ من عنده، فإنَّه **لا حول ولا قوة إلا بالله**، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، **إذ وعدهم الله بذلك وعدًا خاصًا**..

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالىٰ، مشجِّعين لقومهم، منهِّضين لهم علىٰ قتال عدوهم واحتلال بلادهم..

﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بـ: التوفيق.. وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلىٰ مثل كلامهم.. وأنعم عليهم بالصبر واليقين..

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون.. ثم أمَرَاهم

بِعِدَّةٍ هي أقوىٰ العُدَد، فقالا..

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فإنَّ في التوكل علىٰ الله -وخصوصًا في هذا الموطن- تيسيرًا للأمر، ونصرًا علىٰ الأعداء.. ودلَّ هذا علىٰ **وجوب التوكل**، وعلىٰ أنه **بحسب إيمان العبد يكون توكله**.. فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فـ..

﴿قَالُواْ﴾ قول الأذلِّين..

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتِهم لنبيِّهم في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجةُ والضرورةُ إلىٰ نصرةِ نبيِّهِم، وإعزازِ أنفسهم.. فلما رأىٰ موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عتوهم عليه..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبارٍ علىٰ هؤلاء..

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك.. ودل ذلك علىٰ أن **قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق**..

﴿قَالَ﴾ الله مجيبًا لدعوة موسىٰ..

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة..

﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وتلك المدة أيضا يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلىٰ طريق ولا يبقون مطمئنين، **وهذه عقوبة دنيوية، لعلَّ الله تعالىٰ كفر بها عنهم**، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها.. ولما علم الله تعالىٰ أن عبده **موسىٰ في غاية الرحمة علىٰ الخلق، خصوصًا قومه**، وأنه ربما رقَّ لهم، واحتملته الشفقة علىٰ الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتَّمها، قال:..

﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[المائدة:٢٠-٢٦] لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فَسَقوا، وفِسقُهُم اقتضىٰ وقوعَ ما نزل بهم، لا ظلمًا منا.

📖 الفـوائـد

١- بِهَذَا وأمثاله **يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ**، حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ -حين شاورهم في القتال يوم بدر، مع أنه لم يُحتِّم عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

٢- في قوله﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دليل علىٰ أن **العقوبة علىٰ الذنب** قد تكون **بزوال نعمة موجودة، أو دفع نقمة** قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلىٰ وقت آخر.

٣- لعلَّ **الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر** هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقيها إلىٰ ما فيه ارتقاؤها وعلوها، **ولتظهر ناشئة جديدة تتربىٰ عقولهم علىٰ طلب قهر الأعداء**، وعدم الاستعباد والذل المانع من السعادة.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا
وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ
۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ
أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ
أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ
أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ
لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ
هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة:٢٧-٣١]

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ **قُص على** الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق.. تلاوة يعتبر بها المعتبرون، صدقًا لا كذبًا، وجدًا لا لعبًا.. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين.. أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان، الذي أداهما إلىٰ الحال المذكورة..

﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا﴾ أخرج كلٌّ منهما شيئًا من ماله لقصد التقرب إلىٰ الله..

﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ **بأن عَلِم ذلك**: بخبر من السماء.. أو بالعادة السابقة في الأمم أن علامة تقبل الله لقربان أن تنزل نار من السماء فتحرقه..

﴿قَالَ﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسدًا وبغيًا..

﴿لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ فـ..

﴿قَالَ﴾ له الآخر، مترفقًا له في ذلك..

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ فأي ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟! إلا أني اتقيت الله تعالىٰ، الذي تقواه واجبة عليَّ وعليك، وعلىٰ كل أحد.. **وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا،** أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون **عملهم خالصا لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ**.. ثم قال له مخبرًا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، **لا ابتداء ولا مدافعة** فقال..

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ وليس ذلك جبنًا منِّي ولا عجزًا..

﴿إِنِّيٓ﴾ وإنما ذلك لأنِّي..

﴿أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ والخائف لله لا يُقدِم علىٰ الذنوب، خصوصًا الذنوب الكبار.. وفي هذا **تخويف لمن يريد القتل،** وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه..

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾ ترجع..

﴿بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي: إنَّه إذا دار الأمرُ بين أن أكون **قاتلًا أو تقتلني فإنِّي أُوثِر أن تقتلني، فتبوء بالوزرين..**

﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ دل هذا علىٰ أن **القتل من كبائر الذنوب،** وأنه موجب لدخول النار..

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر، **ولم يزل يعزم نفسَه ويجزمها**، حتىٰ طوَّعت له قتل أخيه **الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه**..

﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ دنياهم وآخرتهم.. وأصبح قد سنَّ هذه السنة لكل قاتل، «ومن سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة»[1]، ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه: «ما من نفس تقتل إلا كان علىٰ ابن آدم الأول شطر من دمها، لأنه أول من سن القتل».. فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم..

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يثيرها ليدفن غرابًا آخر ميتًا..

﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ بذلك..

﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة..

﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾[المائدة:٢٧-٣١] وهكذا عاقبة المعاصي، النَّدامة والخَسارة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝٣٢﴾ [المائدة:٣٢]

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم.. وقتل أحدهما أخاه.. وسنَّه القتل لمن بعده.. وأنَّ القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة..

﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أهل الكتب السماوية..

﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بغير حق..

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأنه: ليس معه داع يدعوه إلىٰ التبيين، وأنه لا يُقدِم علىٰ القتل إلا بحق.. فلما تجرأ علىٰ قتل النفس التي لم تستحق القتل، عُلِم أنه لا فرق عنده

(١) أخرجه البخاري [٣٣٣٥]، ومسلم [١٦٧٧] وغيرهما من حديث ابن مسعود.

بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء، فتجرؤه علىٰ قتله، كأنه قتل الناس جميعا..

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ وكذلك من أحيا نفسًا، أي: استبقىٰ أحدًا، **فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلىٰ قتله، فمنعه خوف الله تعالىٰ من قتله..**

﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ فهذا كأنَّه أحيا الناس جميعًا، **لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل..**

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ التي لا يبقىٰ معها حجة لأحد..

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ أي: من الناس..

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة..

﴿فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢] لَمُسْرِفُونَ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

🕮 الفـوائـد

دلت الآية علىٰ أن القتل يجوز بأحد أمرين:

إما أن يقتل نفسًا بغير حق متعمدًا في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفًا مكافئًا، ليس بوالد للمقتول..

وإما أن يكون مفسدًا في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين، والمحاربين، والدعاة إلىٰ البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل، وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصول علىٰ الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة:٣٣-٣٤]

والمشهور أن **هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق**، الذين يعرضون للناس في القرىٰ والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتنقطع بذلك..

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ **المحاربون** لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.. فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم -عند إقامة الحد عليهم- أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.. **واختلف المفسرون**: هل ذلك علىٰ **التخيير**، وأن كلَّ قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ.. أو أن عقوبتهم تكون **بحسب جرائمهم**، فكل جريمة لها قسط يقابلها، **كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالىٰ**..

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالاً: تحتم **قتلُهم وصلبهم**، حتىٰ يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم.. وإن قتلوا ولم يأخذوا مالاً: تحتم **قتلهم فقط**..

﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ وإن أخذوا مالًا ولم يقتلوا: تحتم **أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف**، اليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ..

﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالًا: **نفوا من الأرض**، فلا يتركون يأوون في بلد حتىٰ تظهر توبتهم.. وهذا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكثير من الأئمة، علىٰ اختلاف في بعض التفاصيل..

﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال..

﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فضيحة وعار..

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ فدلَّ هذا: **أن قطع الطريق من أعظم الذنوب**، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ولرسوله..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ من هؤلاء المحاربين..

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾[المائدة:٣٣-٣٤] **فيسقط عنه ما كان لله**: من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي.. **ومن حق الآدمي أيضًا**، إن كان المحارب **كافرًا ثم أسلم**..

فإن كان **المحارب** مسلمًا **فإن حق الآدمي لا يسقط عنه** من القتل وأخذ المال.

الفـوائـد

١- دل مفهوم الآية علىٰ: **أن توبة المحارب بعد القدرة عليه لا تسقط عنه شيئًا**، والحكمة في ذلك ظاهرة.

٢- وإذا كانت **التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود** -إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه- من باب أولىٰ.

٣- إذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، عُلم أن **تطهير الأرض من المفسدين وتأمين السبل والطرق** عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، **من أعظم الحسنات** وأجل الطاعات، **وأنه إصلاح في الأرض**، كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥﴾ [المائدة:٣٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ **هذا أمر من الله لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان** من تقوىٰ الله والحذر من سخطه وغضبه.. وذلك بأن يجتهد العبد ويبذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله، من معاصي القلب واللسان والجوارح، الظاهرة والباطنة.. ويستعين بالله علىٰ تركها؛ **لينجو بذلك من سخط الله وعذابه**..

﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ **أي**: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له، **وذلك بأداء فرائضه: القلبية**، كـ: الحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل.. **والبدنية**: كـ: الزكاة والحج.. **والمركبة من ذلك** كـ: الصلاة، ونحوها من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلىٰ الخلق بالمال والعلم والجاه، والبدن، والنصح لعباد الله.. فكل هذه الأعمال تقرِّب إلىٰ الله.. ولا يزال العبد يتقرب بها إلىٰ الله حتىٰ يحبه الله، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ويستجيب الله له الدعاء.. **ثم خص تبارك وتعالىٰ من العبادات** المقربة إليه، **الجهاد في سبيله**..

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ وهو: بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد.. **لأن هذا النوع من أجلّ الطاعات** وأفضل القربات، ولأن **من قام به فهو علىٰ القيام بغيره أحرىٰ وأولىٰ.**

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣٥﴾[المائدة:٣٥] **إذا اتقيتم الله** بترك المعاصي، **وابتغيتم** الوسيلة إلىٰ الله، بفعل الطاعات، **وجاهدتم** في سبيله ابتغاء مرضاته.. **والفلاح**: هو **الفوز** والظفر بكل مطلوب مرغوب، **والنجاة** من كل مرهوب، **فحقيقته السعادة الأبدية** والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٣٦﴾ [المائدة:٣٦]

يخبر تعالىٰ عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ **وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه..**

﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾ **ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات..**

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٣٦﴾ [المائدة:٣٦] **ولم يبق إلا العذاب الأليم، الموجع الدائم الذي لا يخرجون منه أبدًا، بل هم ماكثون فيه سرمدًا.**

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ۝٣٧﴾ [المائدة:٣٧]

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٣٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٠﴾ [المائدة:٣٨-٤٠]

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه.. وهو من **كبائر الذنوب** الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو **قطع اليد اليمنىٰ**، كما هو في قراءة بعض الصحابة..

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ ذلك القطع جزاءً للسارق بما سرقه من أموال الناس..

﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ تنكيلًا وترهيبًا للسارق ولغيره؛ ليرتدع السراق -إذا علموا- أنهم سيقطعون إذا سرقوا..

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ عَزَّ وحكم فقطع السارق..

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب..

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وذلك أن لله ملك السماوات والأرض..

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته..

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤٠﴾ [المائدة:٣٨-٤٠]..

🕮 الفوائد

١- **حد اليد**: عند **الإطلاق من الكوع**، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسمت في زيت لتنسد العروق فيقف الدم..

٢- السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

● منها: **الحرز**، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، **وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة**، فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.. ولعل هذا **يؤخذ من لفظ السرقة** ومعناها، فإن لفظ(السرقة) أخذ الشيء **علىٰ وجه لا يمكن الاحتراز** منه، وذلك أن يكون المال محرزًا، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

● ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق **نصابًا، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم**، أو ما

يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه.

٣- **من الحكمة أيضًا: أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه**، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصِّصًا للكتاب.

٤- **والحكمة في قطع اليد في السرقة: أن ذلك حفظ للأموال**، واحتياط لها، وليقطع **العضو الذي صدرت منه الجناية**.

٥- **فإن عاد السارق**: قطعت رجله اليسرىٰ.. **فإن عاد**: قيل: تقطع يده اليسرىٰ، ثم رجله اليمنىٰ، وقيل: يحبس حتىٰ يموت.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة:٤١]

كان الرسول ﷺ من شدة حرصه علىٰ الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ثم يرجع إلىٰ الكفر.. **فأرشده الله تعالىٰ إلىٰ أنه لا يأسىٰ ولا يحزن علىٰ أمثال هؤلاء**..

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير، إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا.. ولهذا **قال مبينًا للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم** ..

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ فإن الذين يؤسىٰ ويحزن عليهم من كان معدودًا من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهرًا وباطنًا، **وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا**، فإن الإيمان -إذا خالطت بشاشته القلوب- لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبغ به بدلًا..

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: اليهود..

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم علىٰ الكذب والضلال والغي، وهؤلاء الرؤساء المتبعون..

﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل، وهو تحريف الكلم عن مواضعه..

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ أي: جلب معان للألفاظ ما أرادها الله ولا قصدها؛ لإضلال الخلق ولدفع الحق.. فهؤلاء **المنقادون للدعاة إلىٰ الضلال**، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، **لا عقول لهم ولا همم**، **فلا تبال أيضا إذا لم يتبعوك**، لأنهم في غاية النقص، والناقص لا يؤبه له ولا يبالىٰ به..

﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ يقول بعضهم لبعض: إن حَكَم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق أهواءكم، فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به، فاحذروا أن تتابعوه علىٰ ذلك، وهذا فتنة واتباع ما تهوىٰ الأنفس.. هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، **لا قصد لهم إلا اتباع الهوىٰ**..

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ فلذلك صدر منهم ما صدر..

﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ فضيحة وعار..

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة:٤١] هو: النار وسخط الجبار.

🕮 الفوائد

دل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ :

١- **علىٰ أن من كان مقصوده بالتحاكم إلىٰ الحكم الشرعي اتباع هواه**، وأنه إن حكم له رضي، وإن لم يحكم له سخط، **فإن ذلك من عدم طهارة قلبه**.. كما أن من حاكم وتحاكم إلىٰ الشرع ورضي به، **وافق هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب**.

٢- وعلىٰ أن **طهارة القلب سبب لكل خير**، وهو أكبر داع إلىٰ **كل قول رشيد وعمل سديد**.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٢- ٤٤]

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ والسمع هاهنا **سمع استجابة**، أي: من قلّة دينهم وعقلهم، أن استجابوا لمن دعاهم إلىٰ القول الكَذِب..

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: المال الحرام، **بما يأخذونه علىٰ سفلتهم وعوامهم** من المعلومات والرواتب، التي بغير الحق، **فجمعوا بين اتباع الكذب وأكل الحرام**..

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ **فأنت مخيَّر في ذلك. وليست هذه منسوخة**، فإنه-عند تحاكم هذا الصنف إليه- يخير بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم.. بسبب أنه **لا قصد لهم في الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقا لأهوائهم**.. **وعلىٰ هذا**: فكل مستفت ومتحاكم إلىٰ عالم يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض، **لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم**.. فإن حَكَم بينهم وجب أن يحكم بالقسط، ولهذا قال..

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ ..

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ حتىٰ ولو كانوا ظلمة وأعداء، فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢﴾ وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالىٰ يحبه.. ثم قال متعجبا لهم..

﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ فإنهم -لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه- لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم، لعلهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم..

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضًا، لم يرضوا بذلك، بل أعرضوا عنه، فلم يرتضوه أيضا..

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين هذا صنيعهم..

﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣﴾ ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين **بالإيمان؛ لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم**، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم..

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ علىٰ موسىٰ بن عمران عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ..

﴿فِيهَا هُدٗى﴾ يهدي إلىٰ الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة..

﴿وَنُورٞۚ﴾ يستضاء به في ظُلَم الجهل والحَيرة والشكوك، والشبهات والشهوات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء].

﴿يَحۡكُمُ بِهَا﴾ بين الذين هادوا، أي: اليهود، في القضايا والفتاوىٰ..

﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ لله وانقادوا لأوامره، الذين **إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم**، وهم صفوة الله من العباد.. فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام قد اقتدوا بها وائتموا ومشوا خلفها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟! وما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل ظاهر وباطن، إلا بتلك العقيدة؟! هل لهم إمام في ذلك؟! نعم! لهم أئمة، دأبهم التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس، والتَّأَكُّل بكتمان الحق، وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال الذين يدعون إلىٰ النار..

﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمةُ الدين من الربانيين، أي: **العلماء العاملين المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية**، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين..

﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ أي: **العلماء الكبار الذين يُقتدىٰ بأقوالهم**، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم.. وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق..

﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ **بسبب أن الله استحفظهم علىٰ كتابه، وجعلهم أمناء** عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن **لا يعلمه**..

﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ وهم شهداء عليه، بحيث **أنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه علىٰ الناس منه،** فالله تعالىٰ قد حمَّل أهل العلم ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا.. وأن لا يقتدوا بالجهال، بالإخلاد إلىٰ البطالة والكسل.. **وأن لا يقتصروا علىٰ مجرد العبادات القاصرة،** من أنواع الذكر، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأمور، التي **إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا**.. وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم علىٰ ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصًا الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها، وأن لا يخشوا الناس، بل يخشون ربهم، ولهذا قال..

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾ فتكتمون الحق، وتظهرون الباطل، لأجل متاع الدنيا القليل..

وهذه الآفات **إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه** وسعادته، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم **أن الله قد استحفظه** ما أودعه من العلم **واستشهده** عليه، وأن يكون خائفا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له، **وأن لا يؤثر الدنيا علىٰ الدين**.. كما أن **علامة شقاوة العالم** أن يكون مُخلِدًا للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبال بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشىٰ في أحكامه، **وأخذ المال علىٰ فتاويه**، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة.. فهذا قد **من الله عليه بمنة عظيمة، كفرها**، ودفع حظًا جسيمًا، محرومًا منه غيره.. فنسألك اللهم علمًا نافعًا، وعملًا متقبلًا وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم..

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الحق المبين، وحَكَمَ بالباطل الذي يعلمه، لغَرَض من

أغراضه الفاسدة..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة:٤٢- ٤٤] فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرًا ينقل عن الملة وذلك إذا اعتقد حلَّه وجوازه.. وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ومن أعمال الكفر، قد استحق مَن فَعَلَهُ العذاب الشديد.

﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾ [المائدة:٤٥]

﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار..

﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس -إذا قتلت- تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة..

﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ والعين تقلع بالعين..

﴿وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ﴾ والأذن تؤخذ بالأذن..

﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ والسن ينزع بالسن..

ومثل هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف..

﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ والاقتصاص: أن يفعل به كما فعل.. فمن جَرَحَ غيرَه عمدًا اقتص من الجارح جرحًا مثل جرحه للمجروح، حدًا، وموضعًا، وطولًا، وعرضًا، وعمقًا.. وليُعلم أن **شرع من قبلنا شرع لنا**، ما لم يرد شرعنا بخلافه..

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بالقصاص في النفس وما دونها من الأطراف والجروح، بأن **عفا عمن جنىٰ**، وثبت له الحق قبله..

﴿فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ كفارة للجاني؛ لأن الآدمي عفا عن حقه، **والله تعالىٰ أحق وأولىٰ بالعفو عن حقه، وكفارة أيضًا عن العافي**، فإنه كما عفا عمن جنىٰ عليه، أو علىٰ من يتعلق به، فإن الله يعفو عن زلاته وجناياته..

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥﴾[المائدة:٤٥] قال ابن عباس: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، فهو ظلم أكبر عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٦ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾ [المائدة:٤٦-٤٧]

﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ وأتبعنا هؤلاء الأنبياءَ والمرسلين، الذين يحكمون بالتوراة..

﴿بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ بعبدنا ورسولنا عيسىٰ ابن مريم، روحِ الله وكلمتِه التي ألقاها إلىٰ مريم.. بعثه الله..

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ﴾ فهو شاهد لموسىٰ ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق، ومؤيد لدعوته.. وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية.. وقد يكون عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أخف في بعض الأحكام، كما قال تعالىٰ عنه أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة..

﴿فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ يهدي إلىٰ الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل..

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ بتثبيتها والشهادة لها والموافقة..

﴿وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٦﴾ فإنهم الذين ينتفعون بالهدىٰ، ويتعظون بالمواعظ، ويرتدعون عما لا يليق..

﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ يلزمُهُم التقيد بكتابهم، ولا يجوز لهم العدول عنه..

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾ [المائدة:٤٦-٤٧] ..

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٤٨-٥٠]

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ **الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها..**

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إنزالا بالحق، ومشتملًا علىٰ الحق في أخباره وأوامره ونواهيه..

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخبارُه أخبارَها، وشرائعُه الكبار شرائعَها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقًا لخبرها..**

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ مشتملًا علىٰ ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة، في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية.. فهو الكتاب الذي **تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به،** وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.. وهو الكتاب الذي **فيه نبأ السابقين واللاحقين..** وهو الكتاب الذي فيه الحُكم والحِكمة، والأحْكَام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، **فما شهد له بالصدق فهو المقبول،** وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، **وإلا فلو كان من عند الله لم يخالفه..**

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك..

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ **لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلًا عما جاءك من الحق، فتستبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير..**

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الأمم جعلنا..

﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ سبيلًا وسنة.. وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلىٰ العدل في وقت شرعتها.. وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع..

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ تبعًا لشريعة واحدة، لا يختلف متأخرها ولا متقدمها..

﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ فيختبركم، وينظر كيف تعملون، ويبتلي كلَّ أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كلَّ أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم فكلُّ أمة تحرص علىٰ سبق غيرها، ولهذا قال:..

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ بادروا إليها وأكملوها.. فإنَّ الخيرات الشاملة لكلِّ فرض ومستحب من حقوق الله وحقوق عباده لا يصير فاعلها سابقًا لغيره مستوليًا علىٰ الأمر، إلا بأمرين: **المبادرة إليها**، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها.. **والاجتهاد** في أدائها كاملة علىٰ الوجه المأمور به..

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه..

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ..

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ .. هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ [المائدة: ٤٢]. **والصحيح: أنها ليست بناسخة**، وأن تلك الآية تدل علىٰ أنه ﷺ مخيَّر بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك **لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.. وهذه الآية تدل علىٰ**: أنه **إذا حكم فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة**، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [المائدة: ٤٢]، ودل هذا علىٰ بيان **القسط**، وأن **مادته هو ما شرعه الله من الأحكام**، فإنها المشتملة علىٰ غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم..

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ **كرر النهي عن اتباع أهوائهم**: لشدة التحذير منها.. **ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى**، وهو أوسع، **وهذا في مقام الحكم وحده**، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال:..

﴿وَٱحْذَرْهُمْ﴾ إياك والاغترار بهم..

﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ وأن يفتنوك فيصدوك..

﴿عَنْ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فصار اتباع أهوائهم سببًا موصلًا إلىٰ ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه..

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن اتباعك واتباع الحق..

﴿فَٱعْلَمْ﴾ أن ذلك عقوبة عليهم..

﴿أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ وأن الله يريد..

﴿أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فإنَّ للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يُبتلىٰ العبدُ ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه..

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾ طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله..

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، **وهو كل حكم خالف ما أنزل الله** علىٰ رسوله.. فلا ثَمَّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية.. **فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني علىٰ الجهل والظلم والغي**، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالىٰ فمبني علىٰ العلم، والعدل والقسط، والنور والهدىٰ..

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[المائدة:٤٨-٥٠] فالموقن **هو الذي يعرف الفرق** بين الحكمين، **ويميز** -بإيقانه- ما في حكم الله من الحسن والبهاء، **وأنه يتعين** -عقلًا وشرعًا- اتباعه.. **واليقين**: هو العلم التام الموجب للعمل.

🕮 الفـوائـد

يستدل بقوله ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

١- على المبادرة لأداء **الصلاة** وغيرها **في أول وقتها**.

٢- وعلى أنه ينبغي أن **لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ** في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل **ينبغي أن يأتي بالمستحبات**، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها السبق.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٖ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾ [المائدة:٥١-٥٣]

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين، حين بيَّن لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء؛ فإنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖ﴾ يتناصرون فيما بينهم، ويكونون يدًا على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنَّهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئًا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال..

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم.. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى يكون العبد منهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ أي: الذين وصْفُهم الظلم، وإليه يَرجعون، وعليه يعولون.. فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك..

ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن ممن يدعي الإيمان طائفةً تواليهم، فقال..

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ شك ونفاق، وضعف إيمان..

﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ﴾ يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا..

﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارىٰ، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافئوننا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالىٰ -رادًا لظنهم السيئ-:

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام علىٰ اليهود والنصارىٰ، ويقهرهم المسلمون..

﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم..

﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ﴾ أي: أضمروا..

﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢﴾ علىٰ ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم..

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض:..

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ حلفوا..

﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات..

﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة -ظهر ما أضمروه، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله- باطلا..

﴿حَبِطَتۡ﴾ فبطل كيدهم وبطلت..

﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ في الدنيا..

﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾ [المائدة: ٥٣] حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ [المائدة: ٥٤]

يخبر تعالىٰ أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾ **وأن لله عبادًا مخلصين، ورجالًا صادقين،** قد تكفَّل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافًا، وأقواهم نفوسًا، وأحسنهم أخلاقا، أجلُّ صفاتهم أن الله..

﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه.. وإذا أحب الله عبدًا **يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير،** ووفَّقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، **وأقبل بقلوب عباده إليه** بالمحبة والوداد.. **ومن لوازم محبة العبد لربه:** أنه لا بد أن **يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا،** في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. **كما أن من لوازم محبة الله للعبد: أن يكثر العبد من التقرب إلىٰ الله بالفرائض والنوافل،** كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1].. **ومن لوازم محبة الله:** معرفته تعالىٰ، والإكثار من ذكره، فإنَّ **المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جدًا، بل غير موجودة،** وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره.. وإذا أحب الله عبدًا: **قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل..** ومن صفاتهم أنهم..

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **فهم للمؤمنين أذلة:** من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم ورحمتهم بهم، وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم..

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وعلىٰ الكافرين بالله -المعاندين لآياته المكذبين لرسله - أعزة: قد اجتمعت هممهم وعزائمهم علىٰ معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، **فالغلظة والشدة**

(١) أخرجه البخاري [٦٥٠٢] وغيره من حديث أبي هريرة.

علىٰ أعداء الله مما يقرب العبد إلىٰ الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم.. ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلىٰ الدين الإسلامي بالتي هي أحسن.. **فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم**..

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم..

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ بل يقدِّمون رضا ربهم والخوفَ من لومه علىٰ لوم المخلوقين.. وهذا يدل علىٰ: **قوة هِمَمِهم وعزائمهم**، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عذل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم علىٰ أمر الله.. **فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله حتىٰ لا يخاف في الله لومة لائم**.. ولما مدحهم تعالىٰ بما منَّ به عليهم منَ الصفات الجليلة والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير.. أخبر أن **هذا من فضله عليهم وإحسانه؛ لئلا يعجبوا بأنفسهم**، وليشكروا الذي مَنَّ عليهم بذلك؛ ليزيدهم من فضله، **وليعلم غيرُهم أن فضل الله تعالىٰ ليس عليه حجاب**، فقال..

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤] أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع علىٰ أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولكنَّه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلًا وفرعًا.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة:٥٥-٥٦]

لما نهىٰ عن ولاية الكفار من اليهود والنصارىٰ وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالىٰ مَن يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال..

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ **فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوىٰ**.. فكل من كان مؤمنا تقيًا كان لله وليًا..

﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ ومن كان وليًا لله فهو ولي لرسوله..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومن تولىٰ الله ورسوله كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون..

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الذين قاموا بالإيمان ظاهرًا وباطنًا، وأخلصوا للمعبود، بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها..

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم..

﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ خاضعون لله ذليلون.. فأداة الحصر في قوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تدل علىٰ أنه **يجب قصر الولاية علىٰ المذكورين**، والتبري من ولاية غيرهم.. ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال..

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾[المائدة:٥٥-٥٦] **فإنه** من الحزب المضافين إلىٰ الله **إضافة عبودية وولاية**، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧٣]. **وهذه بشارة عظيمة، لمن قام بأمر الله** وصار من حزبه وجنده، **أن له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض الأحيان** لحكمة يريدها الله تعالىٰ، فآخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [المائدة:٥٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ﴾ ينهىٰ عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ ومن سائر الكفار أولياء يحبونهم ويتولونهم، ويبدون لهم أسرار المؤمنين، ويعاونونهم علىٰ بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين..

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾[المائدة:٥٧] **وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم علىٰ معاداتهم..** وكذلك التزامهم لتقوىٰ الله -التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره- مما تدعوهم إلىٰ معاداتهم.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾ [المائدة:٥٨]

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ﴾ وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار

المخالفون للمسلمين، **من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزوًا ولعبًا**، واحتقاره واستصغاره، **خصوصًا الصلاة** التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجلُّ عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزوًا ولعبا..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾[المائدة:٥٨] **وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها**، ولعلموا أنَّها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس.

📖 الفـوائـد

إذا علمتم -أيها المؤمنون- حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم، **فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص**، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه **ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء**.

فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضىٰ بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا، وسخر به وبأهله من أهل الجهل والحمق؟!

وهذا فيه من **التهييج علىٰ عداوتهم** ما هو معلوم لكل من له أدنىٰ مفهوم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة:٥٩-٦٣]

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول..

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ملزمًا لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، **وإن قدحهم فيه قدح بأمر ينبغي المدح عليه..**

﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وبكتبه السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين.. وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟! فهل تنقمون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات علىٰ جميع المكلفين؟!

﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾ ومع هذا فأكثركم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون علىٰ معاصيه، **فأولىٰ لكم -أيها الفاسقون- السكوت**، فلو كان عيبكم وأنتم سالمون من الفسق -وهيهات ذلك- لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم.. ولما كان **قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم علىٰ شر**، قال تعالىٰ..

﴿قُلۡ﴾ لهم مخبرًا عن شناعة ما كانوا عليه:..

﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ الذي نقمتم فيه علينا، مع التنزل معكم..

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعده عن رحمته..

﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة..

﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة..

﴿شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم وأثابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين..

وهذا النوع من باب **استعمال أفعل التفضيل في غير بابه** وكذلك قوله..

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ وأبعد عن قصد السبيل..

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقًا ومكرًا..

﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ﴾ وهم قد دَّخلوا مشتملين علىٰ الكفر..

﴿وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر وهم يزعمون أنهم مؤمنون.. فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالا منهم؟!

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ۝٦١﴾ فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها.. **ثم استمر تعالىٰ يعدد**

معايبهم، انتصارًا لقدحهم في عباده المؤمنين، فقال:..

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود..

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ يحرصون، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان علىٰ المخلوقين..

﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ الذي هو الحرام.. فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتىٰ أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا **يدل علىٰ خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة علىٰ حب المعاصي والظلم.. هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية..**

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ وهذا في غاية الذم لهم والقدح فيهم..

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة:٥٩-٦٣]..

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤]

يخبر تعالىٰ عن مقالة اليهود الشنيعة، وعقيدتهم الفظيعة، فقال..

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ عن الخير والإحسان والبر..

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ وهذا **دعاء عليهم بجنس مقالتهم.. فإن** كلامهم متضمن لوصف الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقا عليهم.. فكانوا أبخل الناس وأقلهم إحسانا، وأسوأهم ظنًا بالله، وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي.. ولهذا قال..

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لا حِجر عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد، **فإنه تعالىٰ قد بسط فضله وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر العباد أن يتعرضوا لنفحات جوده،** وأن لا يسدوا علىٰ أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم..

فيداه سحاء الليل والنهار، وخيره في جميع الأوقات مدرارًا، يفرج كربًا، ويزيل غمًا، ويغني فقيرًا، ويفك أسيرًا، ويجبر كسيرًا، ويجيب سائلًا، ويعطي فقيرًا عائلًا، ويجيب المضطرين، ويستجيب للسائلين.. وينعم علىٰ من لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصيًا، بل خيره يرتع فيه البر والفاجر، ويجود علىٰ أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال ثم يحمدهم عليها، ويضيفها إليهم، وهي من جوده ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركه الوصف، ولا يخطر علىٰ بال العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه..

فسبحان من كل النعم التي بالعباد فمنه، وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وتعالىٰ من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده..

وقبَّح الله من استغنىٰ بجهله عن ربه، ونسبه إلىٰ ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة، ونحوهم ممن حاله كحالهم ببعض قولهم، لهلكوا، وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالىٰ، يحلم عنهم، ويصفح، ويمهلهم ولا يهملهم..

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ وهذا **أعظم العقوبات علىٰ العبد، أن يكون الذكر الذي أنزله الله علىٰ رسوله** -الذي فيه حياة القلب والروح، وسعادة الدنيا والآخرة، وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتن الله بها علىٰ عباده، توجب عليهم المبادرة إلىٰ قبولها، والاستسلام لله بها، وشكرا لله عليها، أن تكون لمثل هذا- **زيادة غي إلىٰ غيه**، وطغيان إلىٰ طغيانه، وكفر إلىٰ كفره، **وذلك بسبب إعراضه عنها**، ورده لها، ومعاندته إياها، ومعارضته لها بالشبه الباطلة..

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فلا يتآلفون، ولا يتناصرون، ولا يتفقون علىٰ حالة فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم، متعادين بأفعالهم، إلىٰ يوم القيامة..

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ ليكيدوا بها الإسلام وأهله، وأبدوا وأعادوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم..

﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ بخذلانهم وتفرق جنودهم، وانتصار المسلمين عليهم..

﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾ يجتهدون ويجدون، ولكن بالفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إلىٰ دينهم الباطل، والتعويق عن الدخول في الإسلام..

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: ٦٤] بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم علىٰ ذلك.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦]

وهذا من كرمه وجوده، حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلىٰ التوبة..

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته، وجميع كتبه، وجميع رسله، واتقوا المعاصي..

﴿لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ لكفر عنهم سيئاتهم ولو كانت ما كانت..

﴿وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥﴾ ولأدخلهم جنات النعيم التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين..

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ قاموا بأوامرهما ونواهيهما، كما ندبهم الله وحثهم..

ومن إقامتهما: الإيمان بما دعيا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن.. فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليهم، أي: لأجلهم وللاعتناء بهم..

﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ لأدر الله عليهم الرزق، ولأمطر عليهم السماء..

﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ وأنبت لهم الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿مِّنۡهُمۡ﴾ من أهل الكتاب..

﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ عاملة بالتوراة والإنجيل، عملا غير قوي ولا نشيط..

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٥-٦٦] والمسيء منهم الكثير.. وأما السابقون منهم فقليل ما هم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة:٦٧]

هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه..

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ويدخل في: هذا كلُّ أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية.. **فبلَّغ** ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر، وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتىٰ صاروا من العلماء الربانيين، وبلَّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله.. **فلم يبق خير إلا دلَّ أمته عليه**، ولا شر إلا حذرها عنه.. **وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة** من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين..

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك..

﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ فما امتثلت أمره..

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه **ينبغي أن يكون حرصك علىٰ التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين**؛ فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾[المائدة:٦٧] فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدىٰ فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإنَّ الله لا يهديهم ولا يوفقهم للخير، بسبب كفرهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة:٦٨]

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قل لأهل الكتاب، مناديًا على ضلالهم، ومعلنًا بباطلهم..

﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم، ولا بحقٍ تمسكتم، ولا على أصل اعتمدتم..

﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي: تجعلوهما قائمين، بـ: الإيمان بهما.. واتباعهما.. والتمسك بكل ما يدعوان إليه..

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ وتقيموا ما أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجلَّ إنعامه إنزالَ الكتب إليكم.. فالواجب عليكم: أن تقوموا بشكر الله.. وتلتزموا أحكام الله.. وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده..

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [المائدة:٦٨] ..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة:٦٩]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ يخبر تعالىٰ عن أهل الكتب من أهل القرآن والتوراة والإنجيل، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد، وأصل واحد..

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح.. فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر، فله النجاة..

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة..

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾[المائدة:٦٩] على ما خلفوا منها.. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾ [المائدة:٧٠]

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: عهدهم الثقيل بـ: الإيمان بالله.. والقيام بواجباته التي

تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] إلىٰ آخر الآيات..

﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجع فيهم، ولم يفد..

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة..

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾ [المائدة:٧٠] ..

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٧١﴾ [المائدة:٧١]

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ظنُّوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذابًا ولا عقوبة، فاستمروا علىٰ باطلهم..

﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ عن الحق..

﴿ثُمَّ﴾ نعشهم و..

﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا إليه وأنابوا..

﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا علىٰ ذلك حتىٰ انقلب أكثرهم إلىٰ الحال القبيحة. فَـ..

﴿عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا علىٰ توبتهم وإيمانهم..

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٧١﴾ [المائدة:٧١] فيجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ
ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة:٧٢-٧٥]

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ يخبر تعالىٰ عن كفر النصارىٰ بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾، بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد كذبهم في هذه الدعوىٰ..

﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ لهم..

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق..

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أحدًا من المخلوقين، لا عيسىٰ ولا غيره..

﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ وذلك لأنه سوَّىٰ الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له -وهو العبادة الخالصة- لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار..

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾ ينقذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم..

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ وهذا من أقوال النصارىٰ المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسىٰ، ومريم، تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.. وهذا أكبر دليل علىٰ **قلة عقول النصارىٰ**، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء، والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالىٰ رادًا عليهم وعلىٰ أشباههم ..

﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه، فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.. ثم توعدهم بقوله..

﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ .. ثم دعاهم إلىٰ التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال:..

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يرجعون إلىٰ ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، عما كانوا يقولونه..

وصدَّر دعوتهم إلىٰ التوبة بالعرض الذي هو غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ عن ما صدر منهم..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات..

ثم ذكر حقيقة المسيح وأُمِّه، الذي هو الحق، فقال..

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ هذا غايته ومنتهىٰ أمره، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع، إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلىٰ مرتبة الربوبية..

﴿وَأُمُّهُۥ﴾ مريم..

﴿صِدِّيقَةٌ﴾ هذا أيضا غايتها، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلىٰ الخلق رتبة بعد الأنبياء.. **والصديقية هي**: العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح.. فإذا كان عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلأي شيء اتخذهما النصارىٰ إلهين مع الله؟!

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ دليل ظاهر علىٰ أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلىٰ الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلىٰ شيء، فإن الإله هو الغني الحميد.. ولما بين تعالىٰ البرهان قال..

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئًا..

﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة:٧٢-٧٥] بل لا يزالون علىٰ إفكهم وكذبهم وافترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

الفـوائـد

هذا دليل علىٰ: أن مريم لم تكن نبية، بل أعلىٰ أحوالها الصديقية، وكفىٰ بذلك فضلًا وشرفًا.

وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبية، لأن الله تعالىٰ جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ [المائدة:٧٦]

﴿قُلۡ﴾ لهم أيها الرسول..

﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين..

﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع..

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات..

﴿ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ [المائدة:٧٦] بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلة، فالكامل تعالىٰ الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾ [المائدة:٧٧-٨١]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلىٰ الباطل.. وذلك كقولهم في المسيح ما تقدم حكايته عنهم..

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ كغلوهم في بعض المشايخ، اتباعًا لـ ﴿أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: تقدم ضلالهم..

﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلىٰ الدين، الذي هم عليه..

﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧﴾ قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة..

ثم قال تعالىٰ:..

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ طردوا وأبعدوا عن رحمة الله..

﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر واللعن..

﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨﴾ بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سببا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات..

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثلات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم..

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهىٰ بعضهم بعضا، فيشترك بذلك المباشر وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته علىٰ ذلك.. وذلك يدل علىٰ **تهاونهم بأمر الله**، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه..

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ وإنما كان **السكوت عن المنكر -مع القدرة- موجبا للعقوبة، لما فيه من المفاسد العظيمة**: منها: أن مجرد السكوت فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت فإنه -كما يجب اجتناب المعصية- فإنه يجب الإنكار علىٰ من فعل المعصية.. ومنها: ما تقدم أنه يدل علىٰ التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.. ومنها: أن

ذلك يجرئ العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أوَّلًا.. ومنها: أن - في ترك الإنكار للمنكر- يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية -مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها- يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرَّم الله حلالا؟! وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقا؟!.. ومنها: أن السكوت على معصية العاصين ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاقتداء بأضرابه وبني جنسه، ومنها ومنها.. **فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم..**

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالمحبة والموالاة والنصرة..

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هذه البضاعةَ الكاسدة، والصفقةَ الخاسرة..

﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء..

﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم..

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولايةِ الله والإيمانِ به، أن لا يتخذ أعداءَ الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدلَّ على انتفاء المشروط..

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة:٧٧-٨١] خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم موالاةُ أعداء الله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المائدة:٨٢-٨٦]

يقول تعالىٰ في بيان أقرب الطائفتين إلىٰ المسلمين، وإلىٰ ولايتهم ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك..

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهؤلاء الطائفتان علىٰ الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغيًا وحسدًا وعنادًا وكفرًا..

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ وذكر تعالىٰ لذلك عدة أسباب:..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ منها: أن ﴿مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي: علماء متزهدين، وعُبَّادًا في الصوامع متعبدين..

والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين..

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ومنها: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم، **فإن المتواضع أقرب إلىٰ الخير من المستكبر**..

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ومنها: أنهم ﴿ إِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ..

﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به..

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاءوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.. وهم عدولٌ، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فكأنهم ليموا علىٰ إيمانهم ومسارعتهم فيه، فقالوا..

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله..

﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب..

﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأي مانع يمنعنا؟! أليس ذلك موجبًا للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه..

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي: بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق..

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .. ولما ذكر ثواب المحسنين، ذكر عقاب المسيئين قال..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المائدة: ٨٢-٨٦] لأنهم كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

🕮 الفـوائـد

هذه الآيات نزلت في النصارىٰ الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم..

وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلىٰ دين الإسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة:٨٧-٨٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نِعَم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول علىٰ الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراما خبيثا، فإن هذا من الاعتداء.. والله قد نهىٰ عن الاعتداء فقال..

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم علىٰ ذلك.. ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال..

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالًا لا سرقة ولا غصبًا ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضا طيبًا، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه..

﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة:٨٧-٨٨] فإنَّ إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه، فإنه لا يتم إلا بذلك.

🕮 الفـوائـد

١- **دلت الآية الكريمة علىٰ: أنه إذا حرم حلالًا عليه** من طعام وشراب، وسرية وأمة، ونحو ذلك، **فإنه لا يكون حرامًا بتحريمه**، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾﴾ [التحريم] إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار.

٢- **ويدخل في هذه الآية: أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات** ويحرمها علىٰ نفسه، **بل يتناولها مستعينا بها** علىٰ طاعة ربه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩]

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسِم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك..

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم..

﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ وذلك الإطعام..

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ..

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة..

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عتق رقبة مؤمنة، كما قيدت في غير هذا الموضع، فمتى فعل واحدًا من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه..

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحدًا من هذه الثلاثة..

﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ ..

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور..

﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ تكفرها وتمحوها وتمنع من الإثم..

﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ عن الحلف بالله كاذبًا، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيرًا، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير..

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٨٩﴾[المائدة:٨٩] الله حيث علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون.. فعلىٰ العباد شكر الله تعالىٰ علىٰ ما منَّ به عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة:٩٠-٩١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ﴾ وهي: كل ما خامر العقل، أي: غطاه بسكره..

﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ وهو: جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها..

﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾ التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما يُنصب ويُعبد من دون الله..

﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ التي يستقسمون بها..

فهذه الأشياء الأربعة القبيحة خَصَّها الله تعالىٰ بالذَّمِّ، ونهىٰ عنها وزجر.. **وأخبر عن مفاسدها الداعية إلىٰ تركها واجتنابها:** فمنها: **أنَّها** ..

﴿رِجۡسٞ﴾ أي: خبث، نجس معنىٰ، وإن لم تكن نجسة حسا.. والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها.. ومنها: أنها..

﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ الذي هو أعدىٰ الأعداء للإنسان.. ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصًا الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها..

﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ اتركوه..

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠﴾ فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له، **ولا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها**، فإنَّ الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرَّم الله، **خصوصًا هذه الفواحش المذكورة.. فمن مفاسدها**

الداعية إلىٰ تركها واجتنابها أنها موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص علىٰ بثها، **خصوصًا الخمر والميسر**، ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء..

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ **فإن في الخمر** من انغلاب العقل وذهاب حجاه، ما يدعو إلىٰ البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصًا إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلىٰ القتل.. **وما في الميسر** من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء..

﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ﴾ **فمن مفاسد المحرمات الأربعة المذكورة الداعية إلىٰ تركها واجتنابها**: أن هذه الأشياء **تصد القلب ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة**، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشتغل قلبه ويذهل لبه في الاشتغال بهما، حتىٰ يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو..

فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟! فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها؟ ولهذا عرض تعالىٰ علىٰ العقول السليمة النهي عنها، عرضا بقوله..

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾[المائدة:٩٠-٩١] لأن العاقل إذا نظر إلىٰ بعض تلك المفاسد انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يحتج إلىٰ وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢﴾ [المائدة:٩٢]

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله.. **وذلك شامل لـ**: لقيام بما أمر الله به ورسوله من

الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاء عما نهىٰ الله ورسوله عنه كذلك..

وهذا الأمر **أعم الأوامر**، فإنه كما ترىٰ يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن.

﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين..

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه..

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٩٢﴾[المائدة:٩٢] وقد أدىٰ ذلك.. فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدىٰ ما عليه وما حمل به.

﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٣﴾ [المائدة:٩٣]

لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه، تمنىٰ أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا علىٰ الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالىٰ أنه ..

﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ﴾ أي: حرج وإثم..

﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.. ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها قيَّد ذلك بقوله..

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيمانًا صحيحًا، موجبًا لهم عمل الصالحات..

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ﴾ ثم استمروا علىٰ ذلك.. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر.. فلا يكفي حتىٰ يكون كذلك حتىٰ يأتيه أجله، ويدوم علىٰ إحسانه..

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٣﴾[المائدة:٩٣] فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد.

ويدخل في هذه الآية الكريمة: من طعم المحرم أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحًا، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٤-٩٥]

هذا من منن الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاءً وقدرًا، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لا بد أن يختبر الله إيمانكم..

﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة يسيرة، تخفيفًا منه تعالى ولطفًا، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به..

﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ تتمكنون من صيده، ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.. ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال..

﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ علمًا ظاهرًا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب..

﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيثيبه الثواب الجزيل.. ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه..

فالاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده، **وأما إظهار مخافة الله عند الناس**، فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، **فلا يثاب على ذلك**..

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ﴾ منكم..

﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان، الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل..

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٩٤﴾ مؤلم موجع، لا يقدر علىٰ وصفه إلا الله، **لأنه لا عذر لذلك المعتدي**.. ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ﴾ أي: محرِمون في الحج والعمرة.. **والنهي عن قتله يشمل**: النهي عن **مقدمات** القتل.. وعن **المشاركة** في القتل.. **والدلالة** عليه.. **والإعانة** علىٰ قتله.. حتىٰ إن من تمام ذلك أنه **ينهىٰ المحرم عن أكل ما قُتل أو صيد لأجله**.. وهذا كله **تعظيم لهذا النسك العظيم**، أنه يحرم علىٰ المحرم قتل وصيد ما كان حلالًا له قبل الإحرام..

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ أي: قتلَ صيدًا عمدًا..

﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ فعليه جزاء مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ، أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم.. فينظر ما يشبه شيئًا من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به.. والاعتبار بالمماثلة أن..

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عدلان يعرفان الحكم..

ووجه الشبه كما فعل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: حيث قضوا بالحمامة شاة.. وفي النعامة بدنة.. وفي بقر الوحش -علىٰ اختلاف أنواعه- بقرة.. وهكذا كل ما يشبه شيئا من النعم ففيه مثله.. فإن لم يشبه شيئا ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدي لا بد أن يكون..

﴿هَدْيَۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ يُذبح في الحرم..

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعام يطعم المساكين.. قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشترىٰ بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصفَ صاع من غيره..

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام..

﴿صِيَامًا﴾ يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا..

﴿لِّيَذُوقَ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه..

﴿وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾ ..

﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ بعد ذلك..

﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٩٥﴾ [المائدة:٩٤-٩٥] ..

📖 الفـوائـد

إنما **نص الله على المتعمد** لقتل الصيد، مع **أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ**، كما هو القاعدة الشرعية -**أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق**، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، **وهذا للمتعمد**..

وأما المخطئ: فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء.. هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله..

وطائفة من أهل العلم: يرون **تخصيص الجزاء بالمتعمد** وهو ظاهر الآية.. **والفرق** بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع: **الحق فيه لله، فكما لا إثم، لا جزاء** لإتلافه نفوس الآدميين وأموالهم.

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩٦﴾ [المائدة:٩٦]

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى تعالى الصيد البحري فقال..

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ﴾ في حال إحرامكم..

﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ وهو الحي من حيواناته..

﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ وهو الميت منها.. فدل ذلك على حل ميتة البحر..

﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾ أي: الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسيرون معكم..

﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾ يؤخذ من لفظ (الصيد): **أنه لا بد أن يكون وحشيًا**، لأن الإنسي ليس بصيد.. **ومأكولًا**؛ فإنَّ غير المأكول لا يُصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اتقوه بـ: فعل ما أمر به.. وترك ما نهىٰ عنه..

﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٦﴾[المائدة:٩٦] واستعينوا علىٰ تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون.. فيجازيكم هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾[المائدة:٩٧-٩٨]

﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ يخبر تعالىٰ أنه جعل..

﴿ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ يقوم بالقيام بتعظيمه دينُهم ودنياهم، **فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم**، وتحصل لهم -بقصده- العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتتقحم- من أجله - الأهوال.. ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون علىٰ المصالح العامة، **وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية**، قال تعالىٰ: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ [الحج: ٢٨]. ومن أجل كون البيت قياما للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله **فرض كفاية في كل سنة**، فلو ترك الناسُ حجَّه لأثم كلُّ قادر.. بل **لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة..**

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ ..

﴿وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾ وكذلك جعل الهدي والقلائد -التي هي أشرف أنواع الهدي- قيامًا للناس، ينتفعون بهما ويثابون عليهما..

﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ فمن علمه: أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية..

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم علىٰ وجه الجزم واليقين..

﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والآجل علىٰ من عصاه..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾[المائدة:٩٨-٩٩] وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه.. **فيثمر لكم هذا العلمُ:** الخوفَ من عقابه.. والرجاءَ لمغفرته وثوابه.. وتعملون علىٰ ما يقتضيه الخوف والرجاء.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝﴾ [المائدة:٩٩]

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ وقد بلَّغ كما أُمِر، وقام بوظيفته، وما سوىٰ ذلك فليس له من الأمر شيء..

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝﴾ [المائدة:٩٧-٩٩] فيجازيكم بما يعلمه تعالىٰ منكم.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ [المائدة:١٠٠]

﴿قُل﴾ للناس محذرا عن الشر ومرغبا في الخير..

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ من كل شيء: فلا يستوي الإيمان والكفر.. ولا الطاعة والمعصية.. ولا أهل الجنة وأهل النار.. ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة.. ولا المال الحرام بالمال الحلال..

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئا، بل يضره في دينه ودنياه..

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فأمر أُولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالىٰ يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم، ويرجىٰ أن يكون فيهم خير..

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ [المائدة:١٠٠] ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاتته الأرباح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ
وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝١٠٢﴾ [المائدة:١٠١-١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ **ينهىٰ عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم.. وذلك كـ: سؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آبائهم.. وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير.. وكـ: سؤالهم للأمور غير الواقعة.. وكـ: السؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أحرجت الأمة.. وكـ: السؤال عما لا يعني.. فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها.. وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك فهذا مأمور به، كما قال تعالىٰ:** ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل: ٤٣].

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ **وإذا وافق سؤالكم محله، فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم، في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء..**

﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ **تبين لكم وتظهر، وإلا فاسكتوا عمّا سكت الله عنه..**

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ **سكت معافيا لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه وعفا عنه..**

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾ **لم يزل بالمغفرة موصوفا، وبالحلم والإحسان معروفا، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.. وهذه المسائل التي نهيتم عنها..**

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ **أي: جنسها وشبهها، سؤال تعنت لا استرشاد..**

﴿ثُمَّ﴾ **فلما بينت لهم وجاءتهم..**

﴿أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝١٠٢﴾[المائدة:١٠١-١٠٢] **كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم»[1].**

(١) أخرجه البخاري [٧٢٨٨]، ومسلم [١٣٣٧] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة:١٠٣]

هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرموا ما أحله الله، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئا من مواشيهم محرما، علىٰ حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله فقال:..

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾ وهي: ناقة يشقون أذنها، ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة..

﴿وَلَا سَآئِبَةٖ﴾ وهي: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شيئا اصطلحوا عليه، سيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئا من ماله يجعله سائبة..

﴿وَلَا وَصِيلَةٖ﴾ ..

﴿وَلَا حَامٖ﴾ أي: جمل يحمىٰ ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلىٰ حالة معروفة بينهم.. فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان.. وإنما ذلك افتراء علىٰ الله، وصادرة من جهلهم وعدم عقلهم، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾[المائدة:١٠٣] فلا نَقل فيها ولا عَقل، ومع هذا فقد أعجبوا بآرائهم التي بنيت علىٰ الجهالة والظلم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة:١٠٤]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ﴾ فإذا دعوا..

﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أعرضوا فلم يقبلوا، و..

﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ من الدين، ولو كان غير سديد، ولا دينًا ينجي من عذاب الله..

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾[المائدة:١٠٤] ولو كان في آبائهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر.. ولكن آباءهم لا يعقلون شيئا، أي: ليس عندهم من

المعقول شيء، ولا من العلم والهدىٰ شيء.. **فتبا لمن قلد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله**، واتباع رسله الذي يملأ القلوب علما وإيمانا، وهدىٰ، وإيقانا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة:١٠٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم..

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ فإنكم إذا صلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم، ولم يهتد إلىٰ الدين القويم، وإنما يضر نفسه..

ولا يدل هذا علىٰ: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يضر العبدَ تركُهما وإهمالُهما، فإنه لا يتم هداه إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. نعم! **إذا كان عاجزا** عن إنكار المنكر بيده ولسانه **وأنكره بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره..**

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: مآلكم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالىٰ..

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة:١٠٥] من خير وشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة:١٠٦-١٠٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ يخبر تعالىٰ خبرا متضمنا للأمر بإشهاد اثنين علىٰ الوصية..

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ إذا حضر الإنسان مقدماتُ الموت وعلائمه..

﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما..

﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارىٰ أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين..

﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: سافرتم فيها..

﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ فأشهدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بـ..

﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ أن يُحبَسا..

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي يعظمونها..

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أنهما صدقا، وما غيَّرا ولا بدَّلا هذا..

﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما، فلا حاجة إلىٰ القسم بذلك، ويقولان:..

﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ﴾ أي: بأيماننا..

﴿ثَمَنٗا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا..

﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا..

﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ بل نؤديها علىٰ ما سمعناها..

﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ إن كتمناها..

﴿لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ أي: الشاهدين..

﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل علىٰ كذبهما وأنهما خانا..

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه..

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا وخانا..

﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾ إن ظلمنا واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.. قال الله تعالىٰ في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها وردِّها علىٰ أولياء الميت حين تظهر من الشاهدَين الخيانة..

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ أي: أقرب..

﴿أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات..

﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد علىٰ أولياء الميت..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ ..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾[المائدة:١٠٦-١٠٨] الذين وصْفُهم الفسق، فلا يريدون الهدىٰ والقصد إلىٰ الصراط المستقيم.. **وحاصل هذا:** أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين- أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين.. فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما.. ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما.. فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل علىٰ كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون..

🕮 الفوائد

١- هذه الآيات الكريمة **نزلت في** قصة (تميم الداري)، و(عدي بن بداء) المشهورة، حين أوصىٰ لهما العدوي[1].

---

(١) أخرجها الترمذي في [الجامع/ ٣٠٥٩-شاكر] ثم قال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِصَحِيحٍ، وَأَبُو النَّضْرِ الَّذِي رَوَىٰ عَنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ هَذَا الحَدِيثَ هُوَ عِنْدِي مُحَمَّدُ بْنُ السَّائِبِ الكَلْبِيُّ يُكْنَىٰ أَبَا النَّضْرِ، وَقَدْ تَرَكَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ، وَهُوَ صَاحِبُ التَّفْسِيرِ.. سَمِعْت مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ، يَقُولُ: مُحَمَّدُ بْنُ السَّائِبِ الكَلْبِيُّ يُكْنَىٰ أَبَا النَّضْرِ، وَلَا نَعْرِفُ لِسَالِمٍ أَبِي النَّضْرِ الْمَدِينِيِّ رِوَايَةً عَنْ أَبِي صَالِحٍ مَوْلَىٰ أُمِّ هَانِئٍ.. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ شَيْءٌ مِنْ هَذَا عَلَىٰ الِاخْتِصَارِ مِنْ غَيْرِ هَذَا الوَجْهِ.اهـ

ويستدل بالآيات الكريمات علىٰ عدة أحكام:

٢- منها: أن **الوصية مشروعة**، وأنه ينبغي لمن حضره الموت **أن يوصي**.

٣- ومنها: أنها **معتبرة**، ولو كان الإنسان وصل إلىٰ مقدمات الموت وعلاماته، **ما دام عقله ثابتا**.

٤- ومنها: أن شهادة الوصية **لا بد فيها من اثنين عدلين**.

٥- ومنها: أن **شهادة الكافرين في هذه الوصية** ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد.. وزعم كثير من أهل العلم: أن **هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوىٰ لا دليل عليها**.

٦- ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه: **أن شهادة الكفار -عند عدم غيرهم، حتىٰ في غير هذه المسألة- مقبولة**، كما ذهب إلىٰ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

٧- ومنها: جواز **سفر المسلم مع الكافر** إذا لم يكن محذور.

٨- ومنها: جواز **السفر للتجارة**.

٩- ومنها: أن الشاهدين إذا ارتيب منهما -ولم تبد قرينة تدل علىٰ خيانتهما، وأراد الأولياء أن يؤكدوا- عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالىٰ.

١٠- ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب **لم يكن حاجة إلىٰ حبسهما**، وتأكيد اليمين عليهما.

١١- ومنها: **تعظيم أمر الشهادة** حيث أضافها تعالىٰ إلىٰ نفسه، وأنه **يجب الاعتناء بها** والقيام بها بالقسط.

١٢- ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

١٣- ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة علىٰ كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا.. ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون **القرينة -مع أيمانهما- قائمة مقام البينة**.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة:١٠٩-١١٠]

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ﴾ **يخبر تعالىٰ عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم:..**

﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾ **أي: ماذا أجابتكم به أممكم، فـ..**

﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ﴾ **وإنما العلم لك يا ربنا، فأنت أعلم منا..**

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ **تعلم الأمور الغائبة والحاضرة..**

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ **اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرا لربك، حيث أنعم عليك نعما ما أنعم بها علىٰ غيرك..**

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ **إذ قويتك بالروح والوحي.. الذي طهرك وزكاك، وصار لك قوة علىٰ القيام بأمر الله والدعوة إلىٰ سبيله.. وقيل: إن المراد (بروح القدس) جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتثبيته في المواطن المشقة..**

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ﴾ **المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلىٰ الله.. ولعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ذلك ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلىٰ الخير، والنهي عن الشر، وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال:** ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فالكتاب **يشمل**: الكتب السابقة وخصوصا **التوراة، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل** -بعد موسىٰ- بها.. **ويشمل الإنجيل** الذي أنزله الله عليه..

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي: معرفة **أسرار الشرع وفوائده وحكمه**.. وحسن الدعوة والتعليم .. ومراعاة ما ينبغي علىٰ الوجه الذي ينبغي..

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي طيرا مصورا لا روح فيه..

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله..

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ الذي لا بصر له ولا عين..

﴿وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ فهذه آيات بيِّنات ومعجزات باهرات، **يعجز عنها الأطباء وغيرهم**، أيد الله بها عيسىٰ وقوىٰ بها دعوته..

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ لما جاءهم الحق مؤيدًا بالبينات الموجبة للإيمان به..

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠﴾[المائدة:١٠٩-١١٠] وهمّوا بعيسىٰ أن يقتلوه، وسعوا في ذلك، فكفَّ الله أيديهم عنه وحفظه منهم وعصمه.. فهذه مِنَنٌ امتنَّ الله بها علىٰ عبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم.. ودعاه إلىٰ شكرها والقيام بها.. فقام بها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أتم القيام وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝١١١ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١١٥ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١١-١٢٠]

﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ **واذكر نعمتي عليك، إذ يسرت لك أتباعا وأعوانا.. والحواريون هم: الأنصار، كما قال تعالىٰ:** ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].. فأوحيت إلىٰ الحواريين أي: **ألهمتهم**، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي.. أو أوحيت إليهم **علىٰ لسانك**، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله..

﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ **فأجابوا لذلك وانقادوا، و..**

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ **بالله..**

﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ **فجمعوا بين: الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة.. والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان..**

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ **أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله،** واستطاعته علىٰ ذلك، وإنما ذلك **من باب العرض والأدب منهم..** ولما كان **سؤال آيات الاقتراح منافيًا للانقياد للحق،** وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، **وعظهم عيسىٰ** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فـ..

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ **فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان علىٰ ملازمة التقوىٰ، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئا.. فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنىٰ،** وإنما لهم مقاصد صالحة،

ولأجل الحاجة إلىٰ ذلك فـ..

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾ وهذا دليل علىٰ أنهم محتاجون لها..

﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بالإيمان حين نرىٰ الآيات العيانية، فيكون الإيمان **عين اليقين**، كما كان قبل ذلك **علم اليقين**.. كما سأل الخليل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ربه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠].. **فالعبد محتاج إلىٰ زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت**، ولهذا قال..

﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق..

﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك.. فلما سمع عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلىٰ طلبهم في ذلك، فـ..

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: يكون وقت نزولها عيدا وموسما، يتذكر به هذه الآية العظيمة..

﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ فتحفظ ولا تنسىٰ علىٰ مرور الأوقات وتكرر السنين، كما جعل الله تعالىٰ أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرا لآياته، ومنبها علىٰ سنن المرسلين وطرقهم القويمة، وفضله وإحسانه عليهم..

﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ اجعلها لنا رزقا.. فسأل عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين: مصلحة الدين بـ: أن تكون آية باقية.. ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقا..

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادا وظلما، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد..

واعلم أن الله تعالىٰ **وعد** أنه سينزلها، **وتوعدهم** -إن كفروا- بهذا الوعيد، **ولم يذكر أنه أنزلها.. فيحتمل**: أنه **لم ينزلها** بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، **ويدل علىٰ ذلك**: أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارىٰ، ولا له وجود.. **ويحتمل**: أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذُكِّروا به

فنسوه.. **أو**: أنه لم يذكر في الإنجيل أصلًا وإنما ذلك كان متوارثا بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفىٰ الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، **ويدل علىٰ هذا المعنىٰ** قوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.. والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا **توبيخ للنصارىٰ الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة.. فيقول الله هذا الكلام لعيسىٰ..**

﴿قَالَ﴾ فيتبرأ عيسىٰ ويقول..

﴿سُبْحَانَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك..

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما الجميع عباد مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون..

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و..

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ وهذا من كمال **أدب المسيح** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **في خطابه لربه**، فلم يقل عَلَيْهِ السَّلَامُ: (لم أقل شيئا من ذلك)، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزَّه ربه عن ذلك أتم تنزيه، وردَّ العلم إلىٰ عالم الغيب والشهادة.. ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال..

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ علىٰ عظمتك..

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي..

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أشهد علىٰ من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به..

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المطلع علىٰ سرائرهم وضمائرهم..

﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر..

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم..

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة..

﴿الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ حيث كان من مقتضىٰ حكمتك أن تغفر لمن أتىٰ بأسباب المغفرة..

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مبينا لحال عباده يوم القيامة، ومَن الفائز منهم ومَن الهالك، ومَن الشقي ومَن السعيد..

﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم علىٰ الصراط المستقيم والهدْي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال..

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم، وثمرة أعمالهم الفاسدة..

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك **بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي**، ولهذا قال..

﴿وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١١١-١٢٠] فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة (المائدة) بفضل من الله وإحسان،

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأنعام وهي مكية

اعلم.. أن هذه السورة الكريمة، قد اشتملت على تقرير التوحيد، بكل دليل عقلي ونقلي، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله[1]..

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام:١-٢]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هذا إخبار عن حمده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال عموما، وعلى هذه المذكورات خصوصًا..

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير..

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك: كالليل والنهار، والشمس والقمر.. والمعنوي: كظلمات الجهل، والشك، والشرك، والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين، والطاعة.. وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة، وإخلاص الدين له.. ومع هذا الدليل ووضوح البرهان..

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادها وتنوع طرقها..

ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط

---

(١) هذه الجملة ذكرها المصنف عند تفسيره للآية الثالثة عشر.. ورأيت فائدتها هنا في مقدمة السورة أنفع، راجيًا من الله أن تكون كذلك.

المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]..

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ أي يعدلون به سواه، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساووا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه..

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ضَرَبَ لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلًا، تتمتعون به، وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكر..

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر..

﴿ثُمَّ﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة..

﴿أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام:١-٢] تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام:٣]

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله.. الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصديقون، والشهداء، والصالحون..

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وهو تعالىٰ يعلم سركم وجهركم..

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾[الأنعام:٣] **فاحذروا** معاصيه.. **وارغبوا** في الأعمال التي تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته.. **واحذروا** من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٤-٦]

هذا إخبار منه تعالىٰ عن **إعراض المشركين**، وشدة تكذيبهم وعداوتهم.. وأنهم **لا تنفع فيهم الآيات حتىٰ تحل بهم المثلات**، فقال..

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة علىٰ الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلىٰ اتباعه وقبوله..

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ لا يلقون لها بالا ولا يصغون لها سمعا، قد انصرفت قلوبهم إلىٰ غيرها، وولوها أدبارَهم..

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله علىٰ تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد..

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ فسوف يرون ما استهزؤوا به أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم.. وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل].. ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال..

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك بأن..

﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ما لَمْ نُمكِّنْ لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية..

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ فينبت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار.. يتمتعون بها ويتناولون منها ما يشتهون.. فلم يشكروا الله علىٰ نعمه، بل أقبلوا

علىٰ الشهوات وألهتهم أنواع اللذات.. فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها بل ردوها وكذبوها..

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝٦﴾[الأنعام:٤-٦] **فأهلكهم الله بذنوبهم** وأنشأ مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ.. **فهذه سنة الله ودأبه في الأمم** السابقين واللاحقين.. **فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم.**

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام:٧-٨]

هذا إخبار من الله لرسوله عن **شدة عناد الكافرين**، وأنه **ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي**، لا حيلة لكم فيه، فقال..

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وتيقنوه..

﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظلمًا وعلوًا..

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ فأي بينة أعظم من هذه البينة؟!.. وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن -مَن له أدنىٰ مسكة مِن عقل- دفعه..

﴿وَقَالُوا﴾ أيضا تعنتا مبنيًا علىٰ: الجهل.. وعدم العلم بالمعقول..

﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده علىٰ ما هو عليه.. بزعمهم **أنه بشر**، وأن **رسالة الله لا تكون إلا علىٰ أيدي الملائكة**.. قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشرًا منهم يكون الإيمان بما جاء به، عن علم وبصيرة، وغيب..

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ برسالتنا، **لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق**، ولكان إيمانا بالشهادة، الذي لا ينفع شيئا وحده، هذا إن آمنوا.. **والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة**..

﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾[الأنعام:٧-٨] فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم؛ **لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها**.. **فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات** البينات -التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم مع إمهال الله للكافرين والمكذبين- **خير لهم وأنفع**، فطلبُهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا

يعلمون.. ومع ذلك: **فالملك لو أنزل عليهم وأرسل لم يطيقوا التلقي عنه**، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقته قواهم الفانية.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٩]

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوىٰ ذلك..

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾[الأنعام:٩] ولكان الأمر مختلطا عليهم وملبوسا؛ وذلك **بسبب ما لبَّسوه علىٰ أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم علىٰ هذه القاعدة التي فيها اللَّبس**، وبها عدم بيان الحق.. فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة وقواعده التي هي قواعده **لم يكن ذلك هداية لهم إذا اهتدىٰ بذلك غيرهم**.. والذنب ذنبهم، حيث **أغلقوا علىٰ أنفسهم باب الهدىٰ**، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الأنعام:١٠-١١]

يقول تعالىٰ مسلِّيًا لرسوله ومصبرًا، ومتهددًا أعداءه ومتوعدًا..

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لما جاءوا أممهم بالبينات، **كذبوهم** واستهزأوا بهم وبما جاءوا به.. **فأهلكهم الله** بذلك الكفر والتكذيب، ووفَّىٰ لهم من العذاب أكمل نصيب..

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ فاحذروا -أيها المكذبون- أن تستمروا علىٰ تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم..

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن شككتم في ذلك أو ارتبتم، فسيروا في الأرض.. وهذا السير المأمور به **سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار**، وأما مجرد النظر من غير اعتبار، **فإن ذلك لا يفيد شيئا**..

﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾[الأنعام:١٠-١١] فلن تجدوا **إلا قومًا مهلكين**، وأممًا في المثلات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام:١٢]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿قُل﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررا لهم وملزما بالتوحيد:..

﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مَن الخالق لذلك؟ المالك له؟ المتصرف فيه؟

﴿قُل﴾ لهم..

﴿لِّلَّهِ﴾ وهم مقرون بذلك، لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟!

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالىٰ قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه.. وكتب علىٰ نفسه كتابا أن رحمته تغلب غضبه، وأن **العطاء أحب إليه من المنع**.. وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، **إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم**.. ودعاهم إليها، **إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم** وعيوبهم..

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهذا قسم منه وهو أصدق المخبِرين.. وقد أقام علىٰ ذلك من الحجج والبراهين ما يجعله حق اليقين.. ولكن أبىٰ الظالمون إلا جحودا، وأنكروا قدرة الله علىٰ بعث الخلائق.. فأوضعوا في معاصيه، وتجرءوا علىٰ الكفر به، فخسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال..

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام:١٢] ..

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ
وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن

يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٣-١٨]

هذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدىٰ، وينقمع به الشرك..

﴿وَلَهُۥ﴾ فذكر أن ﴿لَهُۥ﴾ تعالىٰ..

﴿مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وذلك هو **المخلوقات كلها**، من آدميها، وجنِّها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها.. فالكل خلق **مدبرون، وعبيد مسخرون** لربهم العظيم، القاهر المالك.. فهل يصح في عقل ونقل أن يعبد مِن هؤلاء المماليك الذي لا نفع عنده ولا ضر؟ ويترك الإخلاص للخالق، المدبر المالك، الضار النافع؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة، تدعو إلىٰ إخلاص العبادة، والحب، والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟!

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، علىٰ اختلاف اللغات، بتفنن الحاجات..

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، المطلع علىٰ الظواهر والبواطن..

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله..

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولاني، وينصرني؟!

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا أتخذ من دونه تعالىٰ وليا؛ لأنه فاطر السماوات والأرض، أي: خالقهما ومدبرهما..

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالىٰ إليهم، فكيف يليق أن أتخذ وليا غير الخالق الرزاق، الغني الحميد؟

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأني أولىٰ من غيري بامتثال أوامر ربي..

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ ونهيت أيضا، عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا **أفرض الفروض عليَّ**، وأوجب الواجبات..

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ **فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار**، وسخطَ الجبار.. وذلك اليوم هو **اليوم الذي يُخاف عذابه**، ويُحذر عقابه..

﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ **لأنه مَن صُرف عنه العذاب** يومئذ **فهو المرحوم**.. ومن **نجا** فيه **فهو الفائز** حقا، كما أن من لم ينج منه فهو الهالك الشقي.. ومن أدلة توحيده، أنه تعالىٰ **المنفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسراء**، ولهذا قال..

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ من فقر، أو مرض، أو عسر، أو غم، أوهم أو نحوه..

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية..

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته.. وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون.. فإذا كان هو القاهر وغيره مقهورا، كان هو المستحق للعبادة..

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهىٰ، وأثاب، وعاقب، وفيما خلق وقدر..

﴿ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام:١٣-١٨] المطلع علىٰ السرائر والضمائر وخفايا الأمور.. **وهذا كله من أدلة التوحيد.**

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام:١٩-٢٠]

﴿قُلۡ﴾ لهم -لما بيَّنَّا لهم الهدىٰ، وأوضحنا لهم المسالك-:

﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ علىٰ هذا الأصل العظيم..

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أكبر شهادة، فهو..

﴿شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ فلا أعظم منه شهادة، ولا أكبر.. وهو يشهد لي بإقراره وفعله،

فيقرني على ما قلت لكم، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٦].. فالله حكيم قدير، **فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذبا عليه، زاعما أن الله أرسله ولم يرسله**، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ونساءهم وهو مع ذلك يصدقه بإقراره وبفعله فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة وينصره، ويخذل من خالفه وعاداه، فأي شهادة أكبر من هذه الشهادة؟!..

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ﴾ وأوحى الله إليَّ هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم..

﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ من العقاب الأليم.. **والنذارة إنما تكون بـ**: ذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب.. وبـ: بيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التي مَن قام بها فقد قبل النذارة.. فهذا **القرآن فيه النذارة** لكم أيها المخاطبون..

﴿وَمَن بَلَغَ﴾ وكل **من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه** من المطالب الإلهية.. لمَّا بيّن تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله والمكذبين لرسله..

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ أي إن شهدوا فلا تشهد معهم.. **فوازِنْ بين**: شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أزكى الخلق، المؤيَّدة بالبراهين القاطعة والحُججِ الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له.. وشهادة أهل الشرك، الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء، بل خالفوا -بشهادة فطرهم وتناقضت أقوالهم- على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه أدنى شبهة، فضلا عن الحجج.. **واختر لنفسك أيَّ الشهادتين** إن كنت تعقل.. ونحن **نختار لأنفسنا ما اختاره الله** لنبيه الذي أمرنا الله بالاقتداء به فقال..

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير..

﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ به من الأوثان والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله.. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه.. لما بيَّن شهادته وشهادة رسوله على التوحيد

وشهادةَ المشركين الذين لا علم لديهم على ضده ذَكَر..

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى..

﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعرفون صحة التوحيد..

﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنَّهم لا يشتبهون بأولادهم، **خصوصًا البنين** الملازمين في الغالب لآبائهم.. **ويحتمل**: أن **الضمير عائد إلى الرسول محمد** ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته، ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره.. **والمعنيان متلازمان**..

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ **فوتوها** ما خلقت له من الإيمان والتوحيد.. **وحرموها** الفضل من الملك المجيد..

﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠﴾ [الأنعام:١٩-٢٠] فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر الذي يحصل لهم.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام:٢١]

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ لا أعظم ظلمًا وعنادًا..

﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ ممن كان فيه أحد الوصفين.. فكيف لو اجتمعا؟! افتراء **الكذب على الله**، أو **التكذيب بآياته**، التي جاءت بها المرسلون، فإنَّ هذا أظلم الناس..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾[الأنعام:٢١] والظالم لا يفلح أبدا.. **ويدخل في هذا**: كل من كذب على الله، بادعاء الشريك له والعوين.. أو زعم أنه ينبغي أن يعبد غيره.. أو اتخذ له صاحبة أو ولدا.. وكل من رَدَّ الحق الذي جاءت به الرسل.. أو مَنْ قام مقامهم..

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٢٢ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ۝٢٣ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنعام:٢٢-٢٤]

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يخبر تعالىٰ عن **مآل أهل الشرك** يوم القيامة، وأنهم **يسألون ويوبخون**..

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ فيقال لهم..

﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك **على وجه الزعم** منهم والافتراء..

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال..

﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ **إلا إنكارهم** لشركهم، وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين..

﴿ٱنظُرْ﴾ متعجبًا منهم ومن أحوالهم..

﴿كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ كذبوا كذبًا عاد بالخسار على أنفسهم، وضرَّهم -والله- غاية الضرر..

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام:٢٢-٢٤] من الشركاء، الذين زعموهم مع الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام:٢٥]

﴿وَمِنْهُم﴾ ومن هؤلاء المشركين..

﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ قوم يحملهم بعض الأوقات **بعض الدواعي إلى الاستماع** لما تقول.. ولكنه **استماع خال من قصد الحق** واتباعه، ولهذا **لا** ينتفعون بذلك الاستماع، **لعدم إرادتهم للخير**..

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية وأغشية..

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ لئلا يفقهوا كلام الله.. **فصان كلامه** عن أمثال هؤلاء..

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ جعلنا..

﴿وَقْرًا﴾ صممًا.. فلا يستمعون ما ينفعهم..

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾ **وهذا غاية الظلم والعناد.. أن الآيات البينات الدالة** على الحق لا ينقادون لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحقَّ ليدحضوه.. ولهذا قال:..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ..

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾[الأنعام:٢٥] أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله، ولاعن رسله.. وهذا من كفرهم، وإلا **فكيف يكون هذا الكتاب** الحاوي لأنباء السابقين واللاحقين، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل التام من كل وجه، **أساطيرَ الأولين؟!**

﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [الأنعام:٢٦]

﴿وَهُمۡ﴾ أي: المشركون بالله، المكذبون لرسوله، **يجمعون بين الضلال والإضلال..**

﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ الناس..

﴿عَنۡهُ﴾ عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه..

﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾ ويبعدون بأنفسهم عنه.. ولن يضروا الله ولا عباده المؤمنين -بفعلهم هذا- شيئا..

﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [الأنعام:٢٦] بذلك.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام:٢٧-٢٩]

يقول تعالىٰ مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النارَ..

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ليُوبَّخوا ويُقرَعوا.. لرأيت أمرًا هائلًا وحالًا مُفظَعَة.. ولرأيتهم كيف **أقروا على أنفسهم** بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردون إلىٰ الدنيا..

﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ **هم كذبة في هذه الأمنية،**

وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب..

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات.. ولكن الأغراض الفاسدة صدتهم عن ذلك، وصرفت قلوبهم عن الخير..

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا﴾ منكرين للبعث..

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها..

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام:٢٧-٢٩]..

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام:٣٠]

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الكافرين..

﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لرأيت أمرًا عظيمًا، وهَوْلًا جسيمًا..

﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا ومقرِّعًا..

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ الذي ترون من العذاب..

﴿بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فأقروا، واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك..

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام:٣٠] ..

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣١-٣٢]

﴿قَدْ خَسِرَ﴾ قد خاب وخسر، وحرم الخير كله..

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ من كذب بلقاء الله.. فأوجب له هذا التكذيب الاجتراء على المحرمات، واقتراف الموبقات..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ وهم علىٰ أقبح حال وأسوئه، فأظهروا غاية الندم، و..

﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ ولكن هذا تحسر ذهب وقته..

﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ فإن وزرهم وزر يثقلهم، ولا يقدرون علىٰ التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار..

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: **أما حقيقة الدنيا:** فإنها لعب ولهو، **لعب في الأبدان ولهو في القلوب**، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان..

﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ وأما الآخرة: فإنها..

﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها.. وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح.. ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره..

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام:٣١-٣٢] أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون، أيّ الدارين أحق بالإيثار.

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام:٣٣-٣٥]

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسوءك.. ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية.. فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك..

﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتىٰ إنهم كانوا يسمونه -قبل البعثة- الأمين..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٣٣﴾ فإن تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يديك [1] ..

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا..

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ ..

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣٤﴾ ما به يثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك..

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ أي: شق عليك، من حرصك عليهم، ومحبتك لإيمانهم.. فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك، أن تهدي من لم يرد الله هدايته..

﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ﴾ فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئا.. وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين..

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ ولكن حكمته تعالىٰ اقتضت أنهم يبقون علىٰ الضلال..

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ [الأنعام:٣٣-٣٥] الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا ينزلونها علىٰ منازلها.

﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٣٦ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٧﴾ [الأنعام:٣٦-٣٧]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ﴾ لدعوتك، ويلبي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك..

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع.. والمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر.. فكل

---

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن ومقصود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن تكذيبهم ... جحود منهم لما علموه حقًا.

المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالىٰ، باستماع آياته، **فلم يبق لهم عذر، في عدم القبول..**

﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦﴾ **يحتمل**: أن المعنىٰ مقابل للمعنىٰ المذكور، أي: **إنما يستجيب لك أحياء القلوب**، وأما أموات القلوب، الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك، ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون.. **ويحتمل**: أن المراد بالآية علىٰ ظاهرها، وأن الله تعالىٰ يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون، ويكون هذا، **متضمنا للترغيب** في الاستجابة لله ورسوله، **والترهيب** من عدم ذلك..

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: المكذبون بالرسول، تعنتًا وعنادًا..

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعنون بذلك: آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٢] الآيات..

﴿قُلۡ﴾ مجيبًا لقولهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته مذعنة لسلطانه؟!

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾[الأنعام:٣٦-٣٧] فهم لجهلهم وعدم علمهم **يطلبون ما هو شر لهم**، من الآيات التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبديل لها .. ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق وتوضح السبيل، فقد أتىٰ محمد ﷺ بكل آية قاطعة وحجة ساطعة دالة علىٰ ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين أن يجد فيما جاء به عدةَ أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقي في القلوب أدنىٰ شك وارتياب.. فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨]

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي: جميع الحيوانات، الأرضية والهوائية، من البهائم والوحوش والطيور..

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ كلها أمم أمثالكم، خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا، كما كانت نافذة فيكم..

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ ما أهملنا ولا أغفلنا، **في اللوح المحفوظ** شيئًا من الأشياء، بل جميع الأشياء صغيرها وكبيرها مثبتة في اللوح المحفوظ، علىٰ ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرىٰ به القلم.. **وفي هذه الآية**: دليل علىٰ أن الكتاب الأوَّل قد حوىٰ جميع الكائنات، وهذا **أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب: علم الله** الشامل لجميع الأشياء.. **وكتابه** المحيط بجميع الموجودات.. **ومشيئته** وقدرته النافذة العامة لكل شيء.. **وخلقه** لجميع المخلوقات، حتىٰ أفعال العباد.. **ويحتمل أن المراد بالكتاب**: هذا **القرآن**، وأن المعنىٰ كالمعنىٰ في قوله تعالىٰ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]..

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨] أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلىٰ الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمُه الذي يحمده عليه الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام:٣٩]

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله، المكذبين لرسله، أنهم قد سدوا علىٰ أنفسهم باب الهدىٰ، وفتحوا باب الردىٰ، وأنهم..

﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق..

﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بباطل..

﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ منغمسون في ظلمات الجهل، والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي.. وهذا من إضلال الله إياهم، فـ..

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾[الأنعام:٣٩] لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾ [الأنعام:٤٠-٤١]

يقول تعالىٰ لرسوله..

﴿قُلۡ﴾ للمشركين بالله، العادلين به غيره..

﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب، التي يضطر إلىٰ دفعها..

﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠﴾ هل تدعون آلهتكم وأصنامكم؟! أم تدعون ربكم الملك الحق المبين؟!

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد..

﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ ..

﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾[الأنعام:٤٠-٤١] لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرًا ولا نفعا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا.. وتخلصون لله الدعاء؛ لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر.. **فما بالكم في الرخاء تشركون به**، وتجعلون له شركاء؟! هل دلكم علىٰ ذلك عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل تفترون علىٰ الله الكذب.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام:٤٢-٤٤]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من الأمم السالفين، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا..

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالفقر والمرض والآفات، والمصائب، رحمة منا بهم..

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا..

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ استحجرت فلا تلين للحق..

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان..

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾[الأنعام:٤٢-٤٤] آيسون من كل خير.. وهذا **أشد ما يكون من العذاب**، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة، ليكون أشدَّ لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام:٤٥]

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ﴾ أي اصطلموا بالعذاب، وتقطعت بهم الأسباب..

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾[الأنعام:٤٥] على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين.. فإن بذلك: تتبين آياته.. وإكرامه لأوليائه.. وإهانته لأعدائه.. وصِدقُ ما جاءت به المرسلون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۝٤٦ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٧﴾ [الأنعام:٤٦-٤٧]

يخبر تعالىٰ، أنه كما أنه هو المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها، فإنه **المنفرد بالوحدانية والإلهية** فقال..

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فبقيتم بلا سمع ولا بصر ولا عقل..

﴿مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك، فلم عبدتم معه من لا قدرة له علىٰ شيء إلا إذا شاءه الله.. وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال:..

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نتوعها، ونأتي بها في كل فن، ولتنير الحق، وتتبين سبيل المجرمين..

﴿ثُمَّ هُمۡ﴾ مع هذا البيان التام..

﴿يَصۡدِفُونَ ٤٦﴾ عن آيات الله، ويعرضون عنها..

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ أخبروني..

﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾ مفاجأة، أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه..

﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾[الأنعام: ٤٧] الذين صاروا سببا لوقوع العذاب بهم، بظلمهم وعنادهم، فاحذروا أن تقيموا علىٰ الظلم، فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾ [الأنعام:٤٨-٤٩]

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ يذكر تعالىٰ، زُبدةَ ما أرسل به المرسلين أنه البشارة والنذارة.. وذلك مستلزم لبيان: المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة.. والمنذر، والمنذر به، والأعمال التي من عملها، حقت عليه النذارة.. ولكن الناس انقسموا -بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها- إلىٰ قسمين..

﴿فَمَنۡ ءَامَنَ﴾ آمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر..

﴿وَأَصۡلَحَ﴾ إيمانه وأعماله ونيته..

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيما يستقبل..

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾ علىٰ ما مضىٰ..

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ ينالهم، ويذوقونه..

﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾ [الأنعام:٤٨-٤٩] ..

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿قُل﴾ للمقترحين عليه الآيات، أو القائلين له: إنما تدعونا لنتخذك إلها مع الله..

﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: مفاتيح رزقه ورحمته..

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ وإنما ذلك كله عند الله، فهو الذي ما يفتح ﴿لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٍ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، وهو وحده عالم الغيب والشهادة، ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]..

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ فأكون نافذَ التصرف، قويًا، فلست أدَّعي فوق منزلتي التي أنزلني الله بها..

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ هذا غايتي ومنتهىٰ أمري وأعلاه.. إن أتبع إلا ما يوحىٰ إليَّ، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلقَ كلَّهم إلىٰ ذلك.. فإذا عرفت منزلتي، فلأي شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمرًا لست أدعيه، وهل يُلزَمُ الإنسان بغير ما هو بصدده؟! ولأي شيء إذا دعوتكم بما أوحي إلي أن تلزموني أني أدعي لنفسي غير مرتبتي؟! وهل هذا إلا ظلم منكم، وعناد، وتمرد؟!

﴿قُلۡ﴾ **لهم في بيان الفرق:** بين من قبل دعوتي، وانقاد لما أوحي إلي.. وبين من لم يكن كذلك..

﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ ..

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠] فتنزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما هو أولىٰ بالاختيار والإيثار؟

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ

وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام:٥١-٥٢]

كان سبب نزول هذه الآيات: أن أناسًا من قريش، أو من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك، فاطرد فلانا وفلانا، أناسا من فقراء الصحابة، فإنا نستحيي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك، فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها..

﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به..

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهم متيقنون للانتقال، من هذه الدار، إلىٰ دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعُون ما يضرهم..

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: لا من دون الله..

﴿وَلِيٌّ﴾ من يتولىٰ أمرهم فيحصّل لهم المطلوب، ويدفع عنهم المحذور..

﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ ولا من يشفع لهم؛ لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء..

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ الله، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.. فإنَّ الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه..

﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ عنك، وعن مجالستك..

﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أهل العبادة والإخلاص -رغبة في مجالسة غيرهم- من الملازمين لدعاء ربهم.. دعاء العبادة: بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة..

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في أول النهار وآخره..

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوىٰ ذلك الغرض الجليل.. فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل مستحقون لموالاتهم ومحبتهم، وإدنائهم، وتقريبهم، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، والأعزاء في الحقيقة وإن كانوا عند الناس أذلاء..

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ كلٌّ له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح..

﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾[الأنعام:٥١-٥٢] وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال.. فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبَّر نفسَه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه وحُسنَ خُلقِه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٤ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام:٥٣-٥٥]

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ﴾ **هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنيا وبعضهم فقيرًا**، وبعضهم شريفا وبعضهم وضيعا.. فإذا مَنَّ الله **بالإيمان علىٰ الفقير** أو الوضيع، كان ذلك **محل محنة للغني** والشريف.. فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمنعه من ذلك مشاركه الذي يراه دونه بالغِنىٰ أو الشرف، **وإن لم يكن صادقًا في طلب الحق، كانت هذه عقبة** ترده عن اتباع الحق.. وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم..

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ **فمنعهم هذا من اتباع الحق؛ لعدم زكائهم.. قال الله مجيبًا لكلامهم المتضمن الاعتراض علىٰ الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم..**

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ **الذين يعرفون النعمة ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح.. فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس بشاكر.. فإن الله تعالىٰ حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل**.. وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف من مَنَّ الله عليهم بالإيمان، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون.. ولما نهىٰ الله رسولَه، عن طرد المؤمنين القانتين، **أَمَره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام**، فقال:..

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ **وإذا جاءك المؤمنون..**

﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ **فحَيِّهم ورحِّب بهم** ولَقِّهم منك تحية وسلاما.. **وبشِّرهم** بما ينشط عزائمهم وهممهم من رحمة الله، وسَعة جوده وإحسانه.. **وحُثُّهم** علىٰ كل سبب وطريق

يوصل لذلك.. **ورَهّبْهم** من الإقامة على الذنوب.. **وأْمُرْهم** بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال..

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها من **إصلاح العمل**، وأداء ما أوجب الله، **وإصلاح ما فسد** من الأعمال الظاهرة والباطنة.. **فإذا وُجِدَ ذلك كله**..

﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ صَبَّ عليهم من مغفرته ورحمته بحسب ما قاموا به مما أمرهم به..

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي والرشاد.. لـ: **يهتدي** بذلك المهتدون، **ويتبين** الحق الذي ينبغي سلوكه..

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾[الأنعام:٥٣-٥٥] الموصلة إلى سخط الله وعذابه.. **فإنَّ** سبيل المجرمين **إذا استبانت واتضحت أمكن اجتنابها**، والبعد منها، **بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنَّه لا** يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام:٥٦-٥٨]

يقول تعالى لنبيه ﷺ..

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى..

﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان، التي لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة، ولا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال، ولهذا قال..

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ إن اتبعت أهواءكم..

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ بوجه من الوجوه.. وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة..

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ وأنا عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، أي: علىٰ يقين مبين بصحته، وبطلان ما عداه.. وهذه شهادة من الرسول جازمة، لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود علىٰ الإطلاق.. فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما مَنَّ الله به عليهم..

﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ وَلكنكم أيها المشركون ﴿كَذَّبۡتُم بِهِۦ﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم علىٰ تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء، وكيف شاء..

﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ وإن استعجلتم به، فليس بيدي من الأمر شيء..

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي فأمر ونهىٰ، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب، بحسب ما تقتضيه حكمته.. فالاعتراض علىٰ حكمه مطلقا مدفوع، وقد أوضح السبيل..

﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾ وقص علىٰ عباده الحق قصًا، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حجتهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة..

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾ بين عباده، في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلا يحمده عليه، حتىٰ من قضىٰ عليه، ووجه الحق نحوه..

﴿قُل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعنادًا وظلمًا..

﴿لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ فأوقعته بكم، ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الحليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجرئون، وهو يعافيهم ويرزقهم، ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة..

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾ [الأنعام:٥٦- ٥٨] لا يخفىٰ عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يهملهم.

﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام:٥٩]

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ هذه الآية العظيمة، **من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط**، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه.. وكثير منها **طوىٰ علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين**..

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصىٰ، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها..

﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة..

﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق، وبذور النوابت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات..

﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ هذا عموم بعد خصوص..

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾[الأنعام:٥٩] وهو اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها.. وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء.. **فدلَّ هذا علىٰ**: عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها.. وأن الخلق -من أولهم إلىٰ آخرهم- لو اجتمعوا علىٰ أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وُسْع في ذلك.. فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط، وجل مِنْ إله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.. **فهذه الآية دلت علىٰ علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث.**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام:٦٠-٦٢]

هذا كله تقرير لألوهيته، واحتجاج علىٰ المشركين به، وبيان أنه تعالىٰ المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ فأخبر أنه وحده، المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم..

﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ وهو -تعالىٰ- يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال..

﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ ويبعثهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية.. ثم لا يزال تعالىٰ هكذا، يتصرف فيهم، حتىٰ يستوفوا آجالهم.. فيُقضىٰ بهذا التدبير أجل مسمىٰ، وهو: أجل الحياة، وأجلٌ آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال..

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ لا إلىٰ غيره..

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٦٠﴾ من خير وشر..

﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ..

﴿ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئا، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه..

﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظةً من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الإنفطار]، ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق] فهذا حفظه لهم في حال الحياة..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح..

﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ في ذلك، **فلا يزيدون** ساعة مما قدَّره الله وقضاه **ولا ينقصون**، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية..

﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر..

﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب.. **ثم ردوا إليه ليتولىٰ الحكم فيهم** بالجزاء، ويثيبهم علىٰ ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم علىٰ الشرور والسيئات وَلهذا قال..

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ وحده لا شريك له..

﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾[الأنعام:٦٠-٦٢] لكمال علمه، وحفظه لأعمالهم بما أثبته في اللوح المحفوظ ثم أثبته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم.

📖 **الفـوائـد**

إذا كان تعالىٰ: هو المنفرد بالخلق والتدبير.. وهو القاهر فوق عباده وقد اعتنىٰ بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم.. **وهو** الذي له الحكم القدري والحكم الشرعي والحكم الجزائي.. فأين للمشركين العدولُ عن من هذا وصفه ونعته إلىٰ عبادة من ليس له من الأمر شيء ولا عنده مثقال ذرة من النفع ولا له قدرة وإرادة؟!

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونه بالشرك والكفران ويتجرءون علىٰ عظمته بالإفك والبهتان، وهو يعافيهم ويرزقهم.. لانجذبت دواعيهم إلىٰ معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولمقتوا أنفسهم أشد المقت حيث انقادوا لداعي الشيطان الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٦٤﴾ [الأنعام:٦٣-٦٤]

﴿قُلۡ﴾ للمشركين بالله، الداعين معه آلهة أخرىٰ، **ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، علىٰ ما أنكروا من توحيد الإلهية..**

﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: شدائدهما ومشقاتهما..

﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدْعون ربكم تضرعا بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال..

﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الشدة التي وقعنا فيها..

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣﴾ لله، أي المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته..

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ من هذه الشدة الخاصة..

﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ ومن جميع الكروب العامة..

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾[الأنعام:٦٣-٦٤] لا تفون لله بما قلتم، وتنسون نعمه عليكم.. **فأي برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك، وصحة التوحيد؟!**

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام:٦٥-٦٧]

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ هو تعالىٰ قادر علىٰ إرسال العذاب إليكم من كل جهة..

﴿مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ولكن من رحمته أن **رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم** بالرجم والحصب ونحوه، **ومن تحت أرجلهم** بالخسف..

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أي: يخلطكم..

﴿شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾ أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضًا.. فهو قادر علىٰ ذلك كله.. **فاحذروا من الإقامة علىٰ معاصيه**، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر علىٰ ذلك.. **وعاقب من هذه الأمة بأن أذاق بعضهم بأس بعض**، وسلط بعضهم علىٰ بعض، **عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العالمون**..

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نتوعها، ونأتي بها علىٰ أوجه كثيرة وكلها دالة علىٰ الحق..

﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية..

﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن..

﴿قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه..

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ..

﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾ وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر..

﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٦٧﴾ [الأنعام:٦٥-٦٧] ما توعدون به من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام:٦٨]

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ **المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بـ:** ما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها.. والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله..

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ فأمر الله رسوله أصلا وأمته تبعًا -إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر- بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار علىٰ ذلك..

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ حتىٰ يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره، زال النهي المذكور.. فإن كان مصلحة كان مأمورا به، وإن كان غير ذلك، كان غير مفيد ولا مأمور به.. **وفي ذم الخوض بالباطل، حث علىٰ البحث، والنظر، والمناظرة بالحق..** ثم قال..

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بأن جلست معهم، علىٰ وجه النسيان والغفلة..

﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾[الأنعام:٦٨] **يشمل:** الخائضين بالباطل.. وكل متكلم بمحرم.. أو فاعل لمحرم.. فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر الذي لا يقدر علىٰ إزالته.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾ [الأنعام:٦٩]

هذا النهي والتحريم لـ: من جلس معهم، ولم يستعمل تقوىٰ الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم، وعن الإنكار..

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ **فإن استعمل تقوىٰ الله تعالىٰ بـ: أن كان** يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر، والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب علىٰ ذلك **زوال الشر أو تخفيفه، فهذا** ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال.. ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾..

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾ [الأنعام:٦٩] أي: ولكن ليذكرهم، ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالىٰ.

📖 الفـوائـد

١- في هذا دليل علىٰ: أنه ينبغي أن **يستعمل المذكِّرُ من الكلام ما يكون أقرب إلىٰ حصول مقصود التقوىٰ.**

٢- وفيه دليل علىٰ: أنه إذا كان **التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شرًا إلىٰ شره، كان تركه هو الواجب؛** لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصودًا.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [الأنعام:٧٠]

المقصود من العباد: أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبذلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه.. **وذلك متضمن** لإقبال القلب علىٰ الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعا، وجدًّا لا هزلا، وإخلاصا لوجه الله، لا رياء وسمعة.. **هذا هو الدين** الحقيقي، الذي يقال له دين..

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ **فأما من زعم أنه علىٰ الحق،** وأنه صاحب دين وتقوىٰ، **وقد اتخذ دينَه لعبا ولهوا** بـ: **أنْ لَهَا** قلبُه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل علىٰ كل ما يضره، ولَهَا في باطله، ولعب فيه ببدنه، **لأن العمل والسعي إذا**

كان لغير الله، فهو لعب.. فهذا أَمَر الله تعالىٰ أن يُترك ويُحذَّر، ولا يغتر به، وتُنظَر حالُه، ويُحذَّر من أفعاله، ولا يُغترُّ بتعويقه عما يُقرِّب إلىٰ الله..

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ ذكر بالقرآن، **ما ينفع العباد:** أمرًا وتفصيلا وتحسينا له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن.. **وما يضر العباد:** نهيا عنه، وتفصيلا لأنواعه، وبيان ما فيه، من الأوصاف القبيحة الشنيعة، الداعية لتركه..

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: **قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرئه علىٰ علام الغيوب،** واستمرارها علىٰ ذلك المرهوب، فذكرها، وعظها، لترتدع وتنزجر، وتكف عن فعلها..

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قبل أن تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع..

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهبا..

﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ لا يقبل ولا يفيد..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر..

﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك..

﴿بِمَا كَسَبُوا۟ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار قد انتهىٰ حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم..

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٠]..

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧١-٧٣]

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلىٰ دينهم.. مبيِّنًا وشارحا لوصف آلهتهم، التي يكتفي العاقل بذكر وصفها، عن النهي عنها.. **فإنَّ كلَّ عاقل إذا تصوَّر مذهب المشركين جزم ببطلانه، قبل أن تقام البراهين علىٰ ذلك**، فقال..

﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ وهذا وصف يدخل فيه: كل مَن عُبِد مِنْ دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله..

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وننقلب بعد هداية الله لنا إلىٰ الضلال، ومن الرشد إلىٰ الغي، ومن الصراط الموصل إلىٰ جنات النعيم، إلىٰ الطرق التي تفضي بسالكها إلىٰ العذاب الأليم.. فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها..

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه له الموصل إلىٰ مقصده، فبقي..

﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ والشياطين يدعونه إلىٰ الردىٰ، فبقي بين الداعين حائرا.. وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالىٰ، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي متعارضة.. **دواعي الرسالة** والعقل الصحيح، والفطرة المستقيمة..

﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ والصعود إلىٰ أعلىٰ عليين.. **ودواعي الشيطان**، ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلىٰ الضلال، والنزول إلىٰ أسفل سافلين.. فمن الناس من يكون مع داعي الهدىٰ، في أموره كلها أو أغلبها.. ومنهم من بالعكس من ذلك.. ومنهم من يتساوىٰ لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع، تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة..

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ليس الهدىٰ إلا الطريق التي شرعها الله علىٰ لسان رسوله، وما عداه، فهو ضلال وردىٰ وهلاك..

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ بأن ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها علىٰ العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم..

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها..

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهىٰ..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢﴾ تُجمَعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم..

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ الذي لا مرية فيه ولا مثنوية، ولا يقول شيئا عبثا..

﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ يوم القيامة، خصه بالذكر -مع أنه مالك كل شيء- لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقىٰ مَلِكٌ إلا الله الواحد القهار..

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾[الأنعام:٧١-٧٣] الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابغة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا
جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا
ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ
٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ
مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا
تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠
وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ
سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ
يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ
إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام:٧٥-٨٣]

﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ يقول تعالىٰ: واذكر قصة إبراهيم، عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مثنيًا عليه ومعظمًا، في حال دعوته إلىٰ التوحيد، ونهيه عن الشرك.. وإذ قال لأبيه..

﴿ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء..

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٧٤﴾ حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم، ومدبركم..

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه..

﴿نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليرىٰ ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة..

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب..

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: أظلم..

﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ لعله من الكواكب المضيئة، لأن تخصيصه بالذكر يدل علىٰ زيادته عن غيره، ولهذا -والله أعلم- قال من قال: إنه الزهرة..

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ علىٰ وجه التنزُّل مع الخصم، أي: هذا ربي، فَهلُمَّ ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل علىٰ ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان..

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غاب ذلك الكوكب..

﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ٧٦﴾ الذي يغيب ويختفي عمن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده، ومدبرًا له في جميع شئونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخاذه إلهًا إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟!

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طالعا، رأىٰ زيادته علىٰ نور الكواكب ومخالفته لها..

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ تنزُّلًا..

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾ فافتقر غاية الافتقار إلىٰ هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه علىٰ طاعته، فلا معين له..

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ من الكوكب ومن القمر..

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ تقرر حينئذ الهدىٰ، واضمحل الردىٰ فـ..

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح، علىٰ بطلانه..

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ﴾ لله وحده، مقبلًا عليه، معرضًا عن من سواه..

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام علىٰ ذلك البرهان..

وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن **المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه**، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها.. وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ ..

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ أيُّ فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدىٰ؟ فأما من هداه الله ووصل إلىٰ أعلىٰ درجات اليقين، فإنه -هو بنفسه- يدعو الناس إلىٰ ما هو عليه..

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ فإنها لن تضرني، ولن تمنع عني من النفع شيئا..

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية..

﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ وحالها حال العجز، وعدم النفع..

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ إلا بمجرد اتباع الهوىٰ..

﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾ .. قال الله تعالىٰ فاصلا بين الفريقين..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾ أي: يخلطوا..

﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء..

﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ والهدايةُ إلىٰ الصراط المستقيم.. فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك، ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة.. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.. **ومفهوم الآية الكريمة**: أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.. ولما حكم لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ،

بما بين به من البراهين القاطعة قال..

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ علا بها عليهم، وفلجهم بها..

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدنيا والآخرة.. فإن **العِلمَ يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصًا العالم العامل المعلِّم،** فإنه يجعله الله إمامًا للناس بحسب حاله، ترمق أفعالَه، وتقتفىٰ آثارَه، ويستضاء بنوره، ويمشىٰ بعلمه في ظلمة ديجوره، قال تعالىٰ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]..

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام:٧٥-٨٣] فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل، وبما ينبغي له.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧]

لما ذكر الله تعالىٰ عبده وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وذكر ما مَنَّ الله عليه به من العلم والدعوة، والصبر.. ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب.. وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله.. وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال..

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضّله الله علىٰ العالمين..

﴿كُلًّا﴾ منهما..

﴿هَدَيْنَا﴾ الصراط المستقيم، في علمه وعمله..

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ وهدايته من أنواع الهدايات الخاصة، التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم، وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم..

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ **يحتمل**: أن الضمير عائد إلىٰ نوح؛ **لأنه** أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطًا، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.. **ويحتمل**: أن الضمير يعود إلىٰ إبراهيم؛ **لأن** السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط -وإن لم يكن من ذريته- فإنَّه ممن آمن علىٰ يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له..

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ بن داود..

﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب..

﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ابني عمران..

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل؛ لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق..

﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة، بحسب إحسانهم..

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه..

﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم..

﴿وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ هؤلاء..

﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم..

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ ابن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي.. ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ..

﴿وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ﴾ ابن متىٰ..

﴿وَلُوطًا﴾ ابن هاران، أخي إبراهيم..

﴿وَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين..

﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ **لأن درجات الفضائل أربع**، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل علىٰ الإطلاق، **فالرسل الذين**

قصهم الله في كتابه أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك..

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ آباء هؤلاء المذكورين..

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم..

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ اخترناهم..

﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧] ..

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام:٨٨-٩٠]

﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدىٰ المذكور..

﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي لا هدىٰ إلا هداه..

﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فاطلبوا منه الهدىٰ، فإنَّه إن لم يهدكم فلا هادي لكم غيره، وممن شاء هدايته هؤلاء المذكورون..

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ علىٰ الفرض والتقدير..

﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ فإن الشرك محبط للعمل، موجب للخلود في النار.. فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا -وحاشاهم- لحبطت أعمالهم فغيرهم أولىٰ..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المذكورون..

﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ امش -أيها الرسول الكريم- خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم.. وقد امتثل ﷺ، فاهتدىٰ بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم.. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.. وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدل

من الصحابة، أن رسول الله ﷺ **أفضل الرسل كلهم**..

﴿قُل﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك..

﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ لا أطلب منكم مغرما ومالا جزاء عن إبلاغي إياكم ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا علىٰ الله..

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾[الأنعام:٨٤-٩٠] يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيذرونه.. ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه.. ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق المفضية إليها.. فإذا كان ذكرىٰ للعالمين كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها والشكر عليها.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام:٩١]

هذا **تشنيع علىٰ من نفىٰ الرسالة**، من اليهود والمشركين، وزعم أن الله ما أنزل علىٰ بشر من شيء..

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ **فمن قال هذا:** فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته.. إذ هذا قدح في حكمته.. وزعم أنه يترك عباده هملا لا يأمرهم ولا ينهاهم.. ونفي لأعظم منة امتن الله بها علىٰ عباده وهي الرسالة، التي لا طريق للعباد إلىٰ نيل السعادة والكرامة والفلاح إلا بها.. فأي قدح في الله أعظم من هذا؟!

﴿قُلۡ﴾ لهم ملزما بفساد قولهم، وقرِّرْهم بما به يقرون..

﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة العظيمة..

﴿نُورٗا﴾ في ظلمات الجهل..

﴿وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ من الضلالة، وهاديًا إلىٰ الصراط المستقيم، علمًا وعملًا..

﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملأ ذكرُه القلوب والأسماع، حتىٰ أنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس..

﴿تُبْدُونَهَا﴾ **ويتصرفون فيه بما شاءوا**: فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه..

﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ وما خالف ذلك أخفوه وكتموه، وذلك كثير..

﴿وَعُلِّمْتُم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل..

﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فإذا سألتهم عمن أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات، فأجب عن هذا السؤال، و..

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الذي أنزله.. فحينئذ يتضح الحق وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة..

﴿ثُمَّ﴾ إذا ألزمتهم بهذا الإلزام..

﴿ذَرْهُمْ﴾ اتركهم..

﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١] يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتىٰ يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢]

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ وهذا القرآن الذي..

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إليك..

﴿مُبَارَكٌ﴾ وَصْفُه البركة؛ وذلك لكثرة خيراته، وسعة مبراته..

﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق..

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وأنزلناه أيضًا لتنذر أم القرىٰ، وهي: مكة المكرمة..

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان.. فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذه الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك..

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه، وانقاد لمراضي الله..

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢] يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها، ومكملاتها.. جعلنا الله منهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام:٩٣-٩٤]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ **لا أحد أعظم ظلمًا، ولا أكبر جرمًا، ممن كذب على الله.. بأن نسب إلى الله قولًا أو حكمًا وهو تعالى بريء منه.. وإنما كان هذا أظلم الخلق لأن** فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله -ما هو من أكبر المفاسد.. **ويدخل في ذلك**: ادعاء النبوة..

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ وأن الله يوحي إليه، وهو كاذب في ذلك، فإنه -مع كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه- يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.. **ويدخل في هذه الآية**: كل من ادعى النبوة، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف..

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، **ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع، كما شرعه الله.. ويدخل في هذا**: كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.. وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات الناقص من كل وجه مشاركةَ القوي الغني، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟! ولما ذمَّ الظالمين، **ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة**، فقال..

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكُرَبه الشنيعة.. لرأيت أمرا هائلا وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها..

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ إلىٰ أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيها للخروج من الأبدان..

﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويذلكم.. والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب..

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل..

﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ تَرَفَّعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها.. **وفي هذا دليل علىٰ**: عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.. **وفيه دليل علىٰ**: أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه.. **فهذه حالهم في البرزخ.. وأما يوم القيامة**: فإنهم إذا وردوها، وردوها مفلسين، فرادىٰ بلا أهل ولا مال، ولا أولاد ولا جنود، ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء.. فإن الأشياء إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها، وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوىٰ **العمل الصالح والعمل السيء، الذي هو مادة الدار الآخرة**، الذي تنشأ عنه، ويكون حسنها وقبحها وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال، فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار فعواري خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أي: أعطيناكم، وأنعمنا به عليكم..

﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا يغنون عنكم شيئا..

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ يوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.. فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم.. وهم كلهم لله ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيبًا من أنفسهم، وشركة في عبادتهم.. وهذا زعم منهم وظلم؛ فإن الجميع عبيد لله، والله مالكهم، والمستحق لعبادتهم،

فشركهم في العبادة وصرفها لبعض العبيد تنزيل لهم منزلة الخالق المالك..

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ تقطعت الوَصْلُ والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تُجْد شيئا..

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾[الأنعام:٩٣-٩٤] من الربح، والأمن والسعادة، والنجاة.. التي زينها لكم الشيطان، وحسنها في قلوبكم.. فنطقت بها ألسنتكم، واغتررتم بهذا الزعم الباطل.. الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٥-٩٨]

يخبر تعالىٰ عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال..

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ شامل لسائر الحبوب، **التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها،** كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، علىٰ اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومنافعها..

﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ ويفلق النوىٰ عن الأشجار، من النخيل والفواكه، وغير ذلك، فينتفع الخلق، من الآدميين والأنعام، والدواب، ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوىٰ، ويقتاتون، وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك.. ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول.. ويريهم من بدائع صنعته، وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة..

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيوانا، ومن البيضة فرخا، ومن الحب والنوىٰ زرعا وشجرا..

﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح..

﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع النوىٰ والحب، ويخرج من الطائر بيضا ونحو ذلك..

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها..

﴿ٱللَّهُ﴾ رَبُّكُمْ، أي: الذي له الألوهية والعبادة علىٰ خلقه أجمعين، وهو الذي ربىٰ جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه..

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ فأنىٰ تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلىٰ عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا؟.. ولما ذكر تعالىٰ مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلقه كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب علىٰ ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال..

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ كما أنه فالق الحب والنوىٰ، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما علىٰ وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئا فشيئا، حتىٰ تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم، ومعايشهم، ومنافع دينهم ودنياهم..

ولما كان الخلق محتاجين إلىٰ السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور..

﴿وَجَعَلَ﴾ الله..

﴿ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الآدميون إلىٰ دورهم ومنامهم، والأنعام إلىٰ مأواها، والطيور إلىٰ أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبدًا إلىٰ يوم القيامة.. وجعل تعالىٰ..

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضىٰ من الأوقات التي لولا وجود

الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما لما عرف ذلك عامة الناس واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت..

﴿ذَٰلِكَ﴾ التقدير المذكور..

﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذللة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدىٰ ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر..

﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ الذي أحاط علمه، بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.. **ومن الأدلة العقلية علىٰ إحاطة علمه:** تسخير هذه المخلوقات العظيمة علىٰ تقدير ونظام بديع، تحيُّر العقول في حسنه وكماله، وموافقته للمصالح والحكم..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ حين تشتبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، **فجعل الله** النجوم هداية للخلق إلىٰ السبل، التي **يحتاجون إلىٰ سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم**: منها: نجوم لا تزال ترىٰ، ولا تسير عن محلها.. ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيرَه أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.. **ودلت هذه الآية ونحوها علىٰ**: مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالّها الذي يسمىٰ **علم التسيير**، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك..

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي بيناها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة..

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب.. بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله، وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئا، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبسا، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلًا..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي، الذي قد ملأ الأرض ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتا لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه..

﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ وجعل الله لهم مستقرا، أي منتهىٰ ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار، التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها.. فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها..

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك علىٰ وجه الوديعة، التي لا تستقر ولا تثبت، بل ينتقل منها حتىٰ يوصل إلىٰ الدار التي هي المستقر، وأما هذه الدار، فإنها مستودع وممر..

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٥-٩٨] عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه، وبيناته.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام:٩٩]

وهذا من أعظم مننه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم..

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو أنَّه أنزل من السماء ماءً متتابعًا وقت حاجة الناس إليه..

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فأنبت الله به كل شيء، مما يأكل الناس والأنعام.. فرتع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجدب واليأس والقحط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه.. وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون.. مما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدىٰ النعم، وعبادته والإنابة إليه، والمحبة له.. ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتا لأكثر الناس فقال..

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ من ذلك النبات الخضر..

﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض، من بُر، وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع.. **وفي وصفه بأنه متراكب إشارة إلىٰ**: أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول.. **وإشارة أيضا إلىٰ**: كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقىٰ أصل البذر، ويبقىٰ بقية كثيرة للأكل والادخار..

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ أخرج الله..

﴿مِن طَلۡعِهَا﴾ وهو الكفرىٰ، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء..

﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ قريبة سهلة التناول، متدلية علىٰ من أرادها، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرب ومراقي، يسهل صعودها..

﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ وأخرج تعالىٰ بالماء جنات مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ، فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنوابت..

﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ **يحتمل**: أن يرجع إلىٰ **الرمان والزيتون**، أي: مشتبها في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.. **ويحتمل**: أن يرجع ذلك إلىٰ **سائر الأشجار والفواكه**، وأن بعضها مشتبه يشبه بعضه بعضًا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون، ويقتاتون، ويعتبرون، ولهذا أمر تعالىٰ بالاعتبار به، فقال:..

﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ نظر فكر واعتبار..

﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصًا: النخل..

﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإنَّ في ذلك عِبرًا وآيات يستدل بها علىٰ رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده، وكمال اقتداره وعنايته بعباده.. ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنىٰ المقصود.. ولهذا قيَّد تعالىٰ الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٩٩﴾[الأنعام:٩٩] فإنَّ المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان علىٰ العمل بمقتضياته ولوازمه.. التي منها **التفكر** في آيات الله، **والاستنتاج** منها ما يراد منها وما تدل عليه عقلاً وفطرةً وشرعًا.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام:١٠٠-١٠١]

يخبر تعالىٰ: أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات.. أن المشركين به من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء..

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يدعونهم، ويعبدونهم..

﴿ٱلْجِنَّ﴾ من الجن والملائكة..

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم..

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ﴾ وكذلك خرق المشركون، أي: ائتفكوا، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله..

﴿بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم.. ومن أظلم ممن قال علىٰ الله بلا علم، وافترىٰ عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه؟! ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال..

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فإنه تعالىٰ، الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، وآفة وعيب..

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ومتقن صنعتهما علىٰ غير مثالٍ سَبَق بأحسن خلقٍ ونظام وبهاء.. لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك..

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ كيف يكون لله الولد..

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ وهو الإله السيد الصمد الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده..

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ والله خالق كل شيء، وليس شيء من المخلوقات مشابهًا لله بوجه من الوجوه.. ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها فقال..

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾[الأنعام:١٠٠-١٠١] **وفي ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلىٰ الدليل العقلي إلىٰ ثبوت علمه**، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر، فإن في ذلك دلالة علىٰ **سعة علم الخالق، وكمال حكمته**، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١﴾ [يس] ذلكم الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٧]

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل ونهاية الحب..

﴿رَبُّكُمۡۖ﴾ الذي ربىٰ جميع الخلق بالنعم، وصرف عنهم صنوف النقم..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو..

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ..

﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه.. فإن هذا هو المقصود من الخلق، الذي خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات]..

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره، خلقًا، وتدبيرًا، وتصريفًا.. ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه وكمال انتظامه بحسب حال الوكيل عليه.. ووكالته تعالىٰ علىٰ الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق.. فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله.. وأما الباري تبارك وتعالىٰ فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل.. فلا يمكن لأحد أن

يستدرك علىٰ الله، ولا يرىٰ في خلقه خللًا ولا فطورًا، ولا في تدبيره نقصًا وعيبًا.. ومن وكالته: أنه تعالىٰ توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات والمغيرات.. وأنه تولىٰ حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم..

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لعظمته وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار.. وإن كانت تراه، وتفرح بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، **فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم**، فإنه إذا نفىٰ الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل علىٰ أن الرؤية ثابتة، فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال: (لا تراه الأبصار)، ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل علىٰ نقيض قولهم..

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن.. وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية.. وبصره بجميع المبصرات، صغارها، وكبارها.. ولهذا قال..

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ الذي لطف علمه وخبرته ودق، حتىٰ أدرك السرائر والخفايا، والخبايا والبواطن.. **ومن لطفه**: أنه يسوق عبده إلىٰ مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد ولا يسعىٰ فيها، ويوصله إلىٰ السعادة الأبدية والفلاح السرمدي من حيث لا يحتسب، حتىٰ أنه يقدِّر عليه الأمور التي يكرهها العبد ويتألم منها ويدعو الله أن يزيلها؛ لعلمه أن دينه أصلح وأن كماله متوقف عليها.. فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.. لما بين تعالىٰ من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة علىٰ الحق في جميع المطالب والمقاصد، نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال..

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار؛ لِمَا اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة..

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ لأنها صادرة من الرب، الذي ربىٰ خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبيين الآيات، وتوضيح المشكلات..

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها..

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فإن الله هو الغني الحميد..

﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بأن بُصِّر فلم يتبصر، وزُجِر فلم ينزجر، وبين له الحق، فما انقاد له ولا تواضع..

﴿فَعَلَيْهَا﴾ فإنما عماه مضرته عليه..

﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ أي: الرسول..

﴿عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام، إنما عليَّ البلاغ المبين، وقد أديته، وبلغت ما أنزل الله إليَّ، فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فلست موظفا فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٧]

...[1]

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام:١٠٨]

ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزًا، بل مشروعًا في الأصل، وهو سب آلهة المشركين..

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التي اتخذت أوثانًا وآلهة مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتِها وسبِّها..

---

(١) انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: (ولا تسبوا ...) فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: (وكذلك نصرف الآيات) إلى قوله: (وما أنت عليهم بوكيل) ذات الأرقام (١٠٥-١٠٧) فقام النجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ انظر طبعة النجار (٢/ ٤٥٠-٤٥٢) .اهـ من هامش المطبوع الأصل.

﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ ولكن لما كان هذا السب طريقا إلىٰ سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب وآفة وسب وقدح، نهىٰ الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يحمون لدينهم، ويتعصبون له..

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ لأنَّ كلَّ أمة زين الله لهم عملهم، فرأوه حسنا، وذَبُّوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتىٰ إنهم ليسبون الله رب العالمين -الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار- إذا سب المسلمون آلهتهم..

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ﴾ ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلىٰ الله يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم..

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾ [الأنعام:١٠٨] من خير وشر.

📖 الفـوائـد

في هذه الآية الكريمة: دليل للقاعدة الشرعية وهو أن **الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها**، وأن وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلىٰ الشر.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام:١٠٩-١١٠]

﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ..

﴿بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ قسمًا اجتهدوا فيه وأكدوه..

﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ تدل علىٰ صدق محمد ﷺ..

﴿لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ وهذا الكلام الذي صدر منهم **لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم**، ورد ما جاء به الرسول قطعًا.. فإنَّ الله أيَّد رسوله ﷺ بالآيات البينات، والأدلة الواضحات، التي -عند الالتفات لها- لا تبقي أدنىٰ شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به.. فطلبهم -بعد ذلك- للآيات من باب التعنت، **الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من**

إجابتهم أصلح لهم.. فإن الله جرت سنته في عباده أن المقترحين للآيات على رسلهم إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال..

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء.. فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك.. وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به، وتصديقه، وقد حصل.. ومع ذلك، فليس معلوما أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله، أنه لا يؤمن، ولهذا قال..

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ ..

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ **ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا** أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بـ: تقليب القلوب.. والحيلولة بينهم وبين الإيمان.. وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم..

﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾[الأنعام:١٠٩-١١٠] **وهذا من عدل الله وحكمته بعباده؛ فإنَّهم** الذين **جَنُوا على أنفسهم**، وفُتِح لهم الباب **فلم يدخلوا**، وبيَّن لهم الطريق **فلم يسلكوا**، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسبا لأحوالهم.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ۝١١١﴾ [الأنعام:١١١]

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم، ومشيئتهم وحدهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط..

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدون للرسول بالرسالة..

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم..

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم..

﴿قُبُلًا﴾ ومشاهدة، ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول..

﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ ما حصل منهم الإيمان..

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ **إذا لم يشأ الله إيمانهم..**

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾[الأنعام:١١١] ولكن أكثرهم يجهلون.. **فلذلك رتبوا إيمانهم، علىٰ مجرد إتيان الآيات**.. وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، **ولا يتكل علىٰ نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.**

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾ [الأنعام:١١٢-١١٣]

يقول تعالىٰ مسليًّا لرسوله محمد ﷺ..

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ **وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا..**

﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ **أن نجعل لكل نبي نرسله إلىٰ الخلق أعداء..**

﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ **من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل..**

﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ **يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل.. ويزخرفون** له العبارات حتىٰ يجعلوه في أحسن صورة،، **ليغتر** به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلًا والباطل حقًّا، ولهذا قال تعالىٰ ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾..

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ **من حكمة الله تعالىٰ، في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه:** أن يحصل لعباده **الابتلاء والامتحان،** ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمىٰ.. ومن حكمته أن في ذلك بيانًا للحق، وتوضيحًا له، فإن **الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه،** فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة

الحق، وشواهده الدالة علىٰ صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون..

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ ..

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ ولتميل إلىٰ ذلك الكلام المزخرف..

﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم علىٰ ذلك.. **أما أهل الإيمان بالآخرة وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة**: فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات.. بل همتهم مصروفة إلىٰ معرفة الحقائق، فينظرون إلىٰ المعاني التي يدعو إليها الدعاة.. فإن كانت حقًا قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عباراتٍ ردية، وألفاظًا غير وافية.. وإن كانت باطلًا ردوها علىٰ من قالها، كائنا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولًا، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزُيِّن في قلوبهم.. وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة..

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال..

﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾[الأنعام:١١٢-١١٣] يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة.. فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام:١١٤-١١٥]

قل يا أيها الرسول..

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه.. فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم.. وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل علىٰ النقص والعيب والجور.. وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكمًا فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ موضَّحا فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلىٰ من برهانه، ولا أحسن منه حكمًا ولا أقوم قيلًا لأن أحكامه مشتملة علىٰ الحكمة والرحمة..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وأهل الكتب السابقة، من اليهود والنصارىٰ، يعترفون بذلك..

﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ولهذا، تواطأت الإخبارات..

﴿فَلَا﴾ تشُكَّنَّ في ذلك ولا..

﴿تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾ ثم وصف تفصيلها فقال:..

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأمر والنهي.. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه..

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلىٰ أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها..

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات علىٰ تفنن الحاجات..

﴿ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام:١١٤-١١٥] الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل.

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ [الأنعام:١١٦-١١٧]

يقول تعالىٰ، لنبيه محمد ﷺ، محذرا عن طاعة أكثر الناس..

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فإنَّ أكثرهم قد **انحرفوا في أديانهم وأعمالهم، وعلومهم**.. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق..

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ بل غايتهم أنهم يتبعون الظن، الذي لا يغني من الحق شيئًا..

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾ ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون..

ومن كان بهذه المثابة، فحريٌّ أن يحذِّر اللهُ منه عبادَه، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا -وإن كان خطابا للنبي ﷺ- فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ والله تعالى أصدق قيلًا وأصدق حديثًا، و..

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١١٧﴾[الأنعام:١١٦-١١٧] وأعلم بمن يهتدي ويهدي.. فيجب عليكم -أيها المؤمنون- أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه؛ لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

🕮 الفـوائـد

دلت هذه الآية، على أنه **لا يستدل على الحق بكثرة أهله**، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، **بل الواقع بخلاف ذلك**، فإنَّ أهل الحق هم الأقلون عددًا، الأعظمون -عند الله- قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾ [الأنعام:١١٨]

يأمر تعالى عباده المؤمنين، بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين..

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما يفعل أهل الجاهلية من تحريم كثير من الحلال، ابتداعا من عند أنفسهم، وإضلالا من شياطينهم..

﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾ [الأنعام:١١٨] فذكر الله أن **علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية** في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ۝١١٩﴾ [الأنعام:١١٩]

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأيُّ شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه..

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد فصَّل اللهُ لعباده ما حرَّم عليهم وبينه ووضحه؟! فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفًا من الوقوع في الحرام.. ومع ذلك، فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة..

﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾ [المائدة: ٣].. ثم حذر عن كثير من الناس، فقال..

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾ أي: بمجرد ما تهوىٰ أنفسهم..

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولا حجة.. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتُهم -كما وصفهم الله لعباده- أن دعوتهم غير مبنية علىٰ برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ۝١١٩﴾ [الأنعام:١١٩] فهؤلاء معتدون علىٰ شرع الله وعلىٰ عباد الله، والله لا يحب المعتدين.. بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلىٰ الحق والهدىٰ، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

🕮 الفـوائـد

دلت الآية الكريمة، علىٰ أن **الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة**، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق علىٰ الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فصله الله، فما لم يفصله الله فليس بحرام.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ۝١٢٠﴾ [الأنعام:١٢٠]

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ **المراد بالإثم**: جميع المعاصي، التي تؤثِّم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده.. **فنهىٰ الله عباده عن**

اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب.. ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها **ومعرفة معاصي القلب والبدن والعلمُ بذلك واجبًا متعينًا** علىٰ المكلف.. وكثير من الناس **تخفىٰ عليه كثير من المعاصي، خصوصًا معاصي القلب**، كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك، حتىٰ إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة.. ثم أخبر تعالىٰ..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾ الظاهر والباطن..

﴿سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ۝١٢٠﴾ [الأنعام:١٢٠] علىٰ حسب كسبهم، وعلىٰ قدر ذنوبهم، قلَّت أو كثرت.. وهذا الجزاء يكون في الآخرة.. وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعام:١٢١]

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ **ويدخل تحت هذا المنهي عنه، ما ذكر عليه اسم غير الله** كـ: الذي يذبح للأصنام وآلهتهم، فإنَّ هذا مما أُهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصًا.. **ويدخل في ذلك**: متروك التسمية مما ذبح لله، كالضحايا، والهدايا، أو للحم والأكل **إذا كان الذابح متعمدًا ترك التسمية**، عند كثير من العلماء.. **ويخرج من هذا العموم: الناسي** بالنصوص الأخر، الدالة علىٰ **رفع الحرج عنه.. ويدخل في هذه الآية: ما مات بغير ذكاة من الميتات**، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه، ونص الله عليها بخصوصها، في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣] ولعلها سبب نزول الآية؛ لقوله..

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ بغير علم.. فإنَّ المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتةَ وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة، قالوا -معاندة لله ورسوله ومجادلة بغير حجة ولا برهان-: **أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟!** يعنون بذلك: الميتة.. وهذا رأي فاسد لا يستند علىٰ حجة ولا دليل، بل يستند إلىٰ آرائهم الفاسدة

التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن.. فتبًا لمن قدَّم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة.. ولا يستغرب هذا منهم؛ **فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين**، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير..

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال..

﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام:١٢١] لأنَّكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم، طريقهم.

📖 الفوائد

دلت هذه الآية الكريمة على أن **ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف**، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، **لا تدل بمجردها على أنها حق**، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله..

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب..

لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان..

وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٢٢-١٢٤]

﴿أَوَمَن كَانَ﴾ من قبل هداية الله له..

﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي..

﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة..

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير، مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر، مبغضًا له، مجتهدًا فيتركه وإزالته عن نفسه وعن غيره..

﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي..

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء..

فنبه تعالىٰ العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات..

فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنىٰ مسكة من عقل أن يكون بهذه الحالة وأن يبقىٰ في الظلمات متحيرا؟! فأجاب بـ:

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتىٰ استحسنوها ورأوها حقا.. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح.. وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون، غير متساوين: فمنهم: القادة، والرؤساء، والمتبوعون، ومنهم: التابعون المرءوسون، والأولون منهم الذين فازوا بأشقىٰ الأحوال، ولهذا قال..

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم..

﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بالخديعة والدعوة إلىٰ سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم، بالقول والفعل..

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وإنما مكرهم وكيدهم يعود علىٰ أنفسهم..

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ١٢٣﴾ لأنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.. وكذلك يجعل الله كبار **أئمة الهدىٰ وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين**، ويردون عليهم أقوالهم، ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلىٰ ذلك، **ويعينهم الله ويسدد رأيهم**، ويثبت أقدامهم، **ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم**، حتىٰ يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم، **والعاقبة للمتقين**.. وإنما **ثبت أكابر المجرمين علىٰ باطلهم** وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل، **حسدًا منهم وبغيًا**، فـ..

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة.. وفي هذا اعتراض منهم علىٰ الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر علىٰ الحق الذي أنزله علىٰ أيدي رسله، وتحجر علىٰ فضل الله وإحسانه.. فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلا أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال..

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فمَن عَلِمَه يصلحُ لها ويقوم بأعبائها وهو متصف بكل خلق جميل ومتبرئ من كل خلق دنيء أعطاه الله منها ما تقتضيه حكمته أصلًا وتبعًا.. ومن لم يكن كذلك لم يضع أفضل مواهبه عند من لا يستأهله، ولا يزكو عنده.

وفي هذه الآية، دليل علىٰ **كمال حكمة الله تعالىٰ**؛ لأنه وإن كان تعالىٰ رحيمًا واسع الجود كثير الإحسان، **فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله**..

ثم توعد المجرمين فقال:..

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إهانة وذل.. كما تكبَّروا علىٰ الحق، أذلهم الله..

﴿وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأنعام:١٢٢-١٢٤] بسبب مكرهم، لا ظلما منه تعالىٰ.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام:١٢٥]

يقول تعالىٰ مبينا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله..

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذا به غير مستثقل، فإنَّ هذا علامة علىٰ أن الله قد هداه، ومَنَّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق..

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وأن علامة من يرد الله أن يضله، أن يجعل صدره ضيقًا حرجًا، أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير..

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلىٰ السماء، الذي لا حيلة له فيه..

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[الأنعام:١٢٥] وهذا سببه عدم إيمانهم، هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدُّوا علىٰ أنفسهم باب الرحمة والإحسان.. وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن من أعطىٰ واتقىٰ، وصدق بالحسنىٰ، يسره الله لليسرىٰ، ومن بخل واستغنىٰ وكذب بالحسنىٰ، فسييسره للعسرىٰ.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام:١٢٦-١٢٧]

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ معتدلًا موصِلًا إلىٰ الله، وإلىٰ دار كرامته..

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز الخير من الشر.. ولكن هذا التفصيل والبيان، ليس لكل أحد، إنما هو..

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل، فلهذا قال..

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات.. ويلزم من ذلك: أن يكون نعيمها في غاية

الكمال، ونهاية التمام، بحيث **لا يقدر علىٰ وصفه الواصفون**، ولا يتمنىٰ فوقه المتمنون، من نعيم الروح والقلب والبدن.. ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون..

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ الذي يتولىٰ تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم علىٰ طاعته، ويسر لهم كلَّ سبب موصل إلىٰ محبته..

﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾[الأنعام:١٢٦-١٢٧] وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن مولاه، واتبع هواه، فإنه سلَّط عليه الشيطان فتولَّاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام:١٢٨-١٣١]

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضلَّ منهم، ومن أضلَّ غيرَه، فيقول موبخًا للجنِّ الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزُّوهم إلىٰ المعاصي:..

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ أي: من إضلالهم، وصدِّهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم علىٰ محارمي، وتجرأتم علىٰ معاندة رسلي؟! وقمتم محاربين لله ساعين في صدِّ عباد الله عن سبيله إلىٰ سبيل الجحيم؟! فاليوم حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم.. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع.. فلا تسأل حينئذ عما

يحل بهم من النكال، والخزي والوبال.. **ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذارًا.. وأما أولياؤهم من الإنس فأبدوا عذرًا غير مقبول ..**

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ تمتع كل من الجِنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به.. فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته وتعظيمه واستعاذته به.. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بسبب خدمة الجِنّي له بعض شهواته.. فإن الإنسي يعبد الجِنّي فيخدمه الجِنّي، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية، أي: حصل منَّا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك..

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وقد وصلنا المحل الذي نجازي فيه بالأعمال، **فافعل بنا الآن ما تشاء**، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك.. **وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه**.. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فـ..

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ولما كان هذا الحكم من مقتضىٰ حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله..

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمّها، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها..

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما ولَّينا الجن المردة وسلطناهم علىٰ إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.. كذلك من سنتنا أن..

﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ نولي كل ظالم ظالما مثله، يؤزه إلىٰ الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه..

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرها.. والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر علىٰ نفسه، وعلىٰ نفسه جنىٰ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].. ومن ذلك: **أن العباد إذا كثر ظلمهم** وفسادهم ومنْعهم الحقوق الواجبة، **ولَّىٰ عليهم ظلمة** يسومونهم سوء العذاب، **ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله**، وحقوق عباده، علىٰ وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين..

كما أن العباد **إذا صلحوا واستقاموا أصلح الله رعاتهم**، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف.. **ثم وبخ الله جميع من أعرض عن الحق** وردَّه، من الجن والإنس، وبين خطأهم، فاعترفوا بذلك، فقال..

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ الواضحات البينات، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي، والخير والشر، والوعد والوعيد..

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه، والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، فـ..

﴿قَالُوا۟﴾ بلىٰ..

﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخرفها، ونعيمها فاطمأنوا بها ورضوا، وألهتهم عن الآخرة..

﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد، حتىٰ هم بأنفسهم عدل الله فيهم.. فقال لهم: حاكما عليهم بالعذاب الأليم ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ٣٨] صنعوا كصنيعكم، واستمتعوا بخلاقهم كما استمعتم، وخاضوا بالباطل كما خضتم، إنهم كانوا خاسرين، أي: الأولون من هؤلاء والآخرون.. وأي خسران أعظم من خسران جنات النعيم، وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟! ولكنهم وإن اشتركوا في الخسران، فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتًا عظيمًا..

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣١]..

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: ١٣٢-١٣٥]

﴿وَلِكُلٍّ﴾ منهم..

﴿دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرءوس كالرئيس.. كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم، قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وقنعوا بما حباهم.. فنسأله تعالىٰ أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلىٰ، التي أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفوة من أهل وداده..

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾ فيجازي كلًا بحسب علمه، وبما يعلمه من مقصده..

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ وإنَّما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم، وقصدًا لمصالحهم، وإلا فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين..

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ بالإهلاك..

﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار، كما انتقل غيركم، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم..

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلمَ اتخذتموها قرارا؟! وتوطنتم بها ونسيتم أنها دار ممر لا دار مقر، وأن أمامكم دارًا هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟! وهي الدار التي يسعىٰ إليها الأولون والآخرون، ويرتحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها فثَمَّ الخلود الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب.. هنالك والله ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ويتنافس فيه المتنافسون، من لذة الأرواح، وكثرة الأفراح، ونعيم الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب.. فلله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلىٰ أعلىٰ الدرجات!!.. وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنىٰ همة من اختار صفقة المغبون" ولا يستبعد المعرض الغافل، سرعة الوصول إلىٰ هذه الدار.. فـ..

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤﴾ لله، فارين من عقابه، فإن نواصيكم تحت

قبضته، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه..

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلىٰ الله، وبينت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه، فامتنعوا من الانقياد لأمره، واتبعوا أهواءهم، واستمروا علىٰ شركهم..

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ علىٰ حالتكم التي أنتم عليها، ورضيتموها لأنفسكم..

﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ علىٰ أمر الله، ومتبع لمراضي الله..

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أنا أو أنتم.. وهذا من **الإنصاف بموضع عظيم**، حيث بيَّن الأعمال وعامليها، وجعل الجزاء مقرونا بنظر البصير، ضاربًا فيه صفحا عن **التصريح الذي يغني عنه التلويح**، وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبىٰ الدار، وأن كل معرض عما جاءت به الرسل، عاقبته سوء وشر، ولهذا قال:..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١٣٥﴾[الأنعام:١٣٢-١٣٥] **فكل ظالم وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته فيه الاضمحلال والتلف، «إن الله ليملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته»**[1].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝١٣٦ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١٣٧﴾ [الأنعام:١٣٦-١٣٧]

يخبر تعالىٰ، عمَّا عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ من **سفاهة العقل**، وخفة الأحلام، والجهل البليغ..

وعدَّد تبارك وتعالىٰ شيئا من خرافاتهم لـ: ينبه بذلك علىٰ ضلالهم.. والحذر منهم.. وأن معارضة أمثال هؤلاءالسفهاء للحق الذي جاء به الرسول لا تقدح فيه أصلًا؛ فإنهم لا أهلية لهم

---

(١) أخرجه البخاري [٤٦٨٦]، ومسلم [٢٥٨٣] وغيرهما من حديث أبي موسىٰ الأشعري.

في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾..

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ ولشركائهم من ذلك نصيبًا.. والحال أن الله تعالىٰ هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقًا..

﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ **فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير: منَّتهم علىٰ الله** في جعلهم له نصيبًا مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع..

﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ **وإشراك الشركاء** الذين لم يرزقوهم ولم يوجدوا لهم شيئًا في ذلك.. **وحكمهم الجائر** في أن ما كان لله لم يبالوا به، ولم يهتموا ولو كان واصلًا إلىٰ الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلىٰ الله منه شيء.. وذلك أنهم إذا حصل لهم -من زروعهم وثمارهم وأنعامهم، التي أوجدها الله لهم- شيء، جعلوه قسمين: **قسمًا قالوا**: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه، ولا يقبل عمل مَن أشرك به.. **وقسمًا**: جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد..

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ﴾ فإن وصل شيء مما جعلوه لله واختلط بما جعلوه لغيره لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه.. وإن وصل شيء مما جعلوه لآلهتهم إلىٰ ما جعلوه لله، ردوه إلىٰ محله، وقالوا: إنها فقيرة، لا بد من رد نصيبها..

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق يُجتهد فيه ويُنصح ويُحفظ أكثر مما يفعل بحق الله.. **ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة**، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالىٰ أنه قال: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئا تركته وشركه»(١)، وأن معنىٰ الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله -علىٰ زعمهم- فإنه لا يصل إليه لكونه شركًا، بل يكون حظ الشركاء والأنداد؛ لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أُشرِك به معه أحد من الخلق..

---

(١) اخرجه مسلم [٢٩٨٥] وغيره من حديث أبي هريرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ومن سفه المشركين وضلالهم، أنه زيَّن لكثير من المشركين..

﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ وهو: الوأد، الذين يدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار..

﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أي: رؤساؤهم وشياطينهم.. وكل هذا من خدع الشياطين..

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ الذين يريدون أن يُرْدُوهم بالهلاك..

﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح..

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتىٰ تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة.. ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم، ما فعلوه.. ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجًا منه لهم، وإمهالا لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال..

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١٣٧﴾ [الأنعام:١٣٦-١٣٧] دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئا.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٣٩ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٤٠﴾ [الأنعام:١٣٨-١٤٠]

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموما وجعلها رزقًا ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بِدعًا وأقوالًا من تلقاء أنفسهم..

﴿وَقَالُواْ﴾ فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها..

﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ أي: محرَّم..

﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ﴾ لا يجوز أن يطعمه أحد..

﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف من عندهم..

﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ وكل هذا بزعمهم، لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة..

﴿وَأَنۡعَٰمٌ﴾ ليست محرمة من كل وجه..

﴿حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام..

﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها..

﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ وينسبون تلك الأفعال إلىٰ الله، وهم كذبة فُجَّار في ذلك..

﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨﴾ علىٰ الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل، والمنافع.. ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعينونها محرمًا ما في بطنها علىٰ الإناث دون الذكور..

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء..

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حيا..

﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ﴾ وإن يكن ما في بطنها يولد ميتًا..

﴿فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ فهو حلالٌ للذكور والإناث..

﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾ الله..

﴿وَصۡفَهُمۡۚ﴾ حين وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلىٰ الله..

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال..

﴿عَلِيمٞ ١٣٩﴾ بهم، لا تخفىٰ عليه خافية، وهو تعالىٰ يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافيهم ويرزقهم جل جلاله.. ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم فقال..

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم..

﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وصار وصْفُهم -بعد العقول الرزينة- السفهُ المُردِي، والضلال..

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقًا لهم.. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أَحَلِّ الحلال، وكل هذا..

﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ كذبًا يكذب به كل معاند كَفَّار..

﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ قد ضلوا ضلالًا بعيدًا..

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام:١٣٨-١٤٠] ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام:١٤١]

لما ذكر تعالىٰ تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالىٰ نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام، فقال..

﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة..

﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ بعض تلك الجنات مجعول لها عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض..

﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ وبعضها خال من العروش، تنبت علىٰ ساق، أو تنفرش في الأرض.. **وفي هذا تنبيه: علىٰ كثرة منافعها**، وخيراتها.. وأنه تعالىٰ **علَّم العباد كيف يعرشونها**، وينمونها..

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ وأنشأ تعالىٰ النخل وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ، أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه علىٰ بعض في الأكل..

وخص تعالىٰ النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق..

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا﴾ وأنشأ تعالىٰ الزيتون وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا، في شجره..

﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ في ثمره وطعمه.. كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه **أنشأها لمنافع العباد** فقال..

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ النخل والزرع..

﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع..

﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ أمرهم أن يعطوها يوم حصادها؛ وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حَوَلان الحول؛ لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه علىٰ أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهرًا لمن أخرجها، حتىٰ يتميز المُخرِج ممن لا يُخرج..

﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾[الأنعام:١٤١] يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلًا يضر بالزكاة.. والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أوغرماءه.. فكل هذا من الإسراف الذي نهىٰ الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه ويمقت عليه.

🕮 الفوائد

في هذه الآية دليل علىٰ:

١- وجوب الزكاة في الثمار.

٢- وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزروع، وجذاذ النخيل.

٣- وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالًا كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

٤- وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمنها.

٥- وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقىٰ بعده.

٦- وقد كان النبي ﷺ، يبعث خارصًا، يخرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره، من أهلها وغيرهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام:١٤٢-١٤٤]

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً﴾ وخلق وأنشأ من الأنعام حَمُولَةً، أي: بعضها تحملون عليه وتركبونه..

﴿وَفَرْشًا ۚ﴾ وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرها، كالفصلان ونحوها، وهي الفرش.. فهي من جهة الحمل والركوب، تنقسم إلىٰ هذين القسمين..

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع، فإنها كلها تؤكل وينتفع بها.. ولهذا قال..

﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ أي: طرقه وأعماله، التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله..

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدي..

وهذه الأنعام التي امتن الله بها علىٰ عباده، وجعلها كلها حلالًا طيبًا، فصَّلها بأنَّها..

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثىٰ..

﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ كذلك.. فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها، فـ..

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المتكلفين، الذين يحرمون منها شيئا دون شيء، أو يحرمون بعضها علىٰ الإناث دون الذكور، ملزِمًا لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا..

﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ من الضأن والمعز..

﴿حَرَّمَ﴾ الله، فلستم تقولون بذلك وتطردونه..

﴿أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ حرم الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم، لا تحريم الذكور الخلص، ولا الإناث الخلص من الصنفين.. بقي إذا كان الرحم مشتملًا علىٰ ذكر وأنثىٰ، أو علىٰ مجهول فقال..

﴿أَمَّا﴾ أَمْ تحرمون ما..

﴿ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ أي: أنثىٰ الضأن وأنثىٰ المعز، من غير فرق بين ذكر وأنثىٰ، فلستم تقولون أيضًا بهذا القول.. فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك، فإلىٰ أي شيء تذهبون؟!

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾ في قولكم ودعواكم.. ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولًا سائغًا في العقل، إلا واحدًا من هذه الأمور الثلاثة، وهم لا يقولون بشيء منها.. إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم، حرام علىٰ الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال.. التي يعلم علما لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب، والعقول المختلة المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن الله، ما أنزل -بما قالوه- من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان.. ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك..

﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ فلما بين بطلان قولهم وفساده، قال لهم قولًا لا حيلة لهم في الخروج من تبعته، إلا في اتباع شرع الله..

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ أي: لم يبق عليكم إلا دعوىٰ لا سبيل لكم إلىٰ صدقها وصحتها، وهي أن تقولوا: إن الله وصَّانا بذلك، وأوحىٰ إلينا كما أوحىٰ إلىٰ رسله، بل أوحىٰ إلينا وحيًا مخالفًا لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهذا افتراء لا يجهله أحد، ولهذا قال..

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ أي: مع كذبه وافترائه علىٰ الله، قصده بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله، بغير بينة منه ولا برهان، ولا عقل ولا نقل..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأنعام:١٤٢-١٤٤] الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والجور، والافتراء علىٰ الله.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام:١٤٥-١٤٦]

لما ذكر تعالىٰ ذم المشركين علىٰ ما حرموا من الحلال ونسبوه إلىٰ الله، وأبطل قولهم. أمر تعالىٰ رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال، مَنْ نسب تحريمه إلىٰ الله فهو كاذب مبطل، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله علىٰ لسان رسوله، وقد قال لرسوله..

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ أي: محرمًا أكله..

﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه..

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ والميتة: ما مات بغير ذكاة شرعية، فإن ذلك لا يحل، كما قال تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣]..

﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن، فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم.. ومفهوم هذا اللفظ: **أن الدم الذي يبقىٰ في اللحم والعروق بعد الذبح، أنه حلال طاهر**..

﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس، أي: خبث نجس مضر، حرمه الله لطفًا بكم، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث..

﴿أَوۡ﴾ إلا أن يكون..

﴿فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله، من الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلىٰ معصيته..

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ ومع هذا، فهذه الأشياء المحرمات، من اضطر إليها، أي: حملته الحاجة والضرورة إلىٰ أكل شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء وخاف علىٰ نفسه التلف..

﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي: مريدٍ لأكلها من غير اضطرار..

﴿وَلَا عَادٖ﴾ وَلا متعد، أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته..

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ فالله قد سامح من كان بهذه الحال..

فإذا كان الله تعالىٰ لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله، دل ذلك علىٰ أن المشركين الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون علىٰ الله، متقولون عليه ما لم يقل..

فهذا المحرم علىٰ هذه الأمة كله من باب التنزيه لهم والصيانة.. وأما ما حرم علىٰ أهل الكتاب، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال..

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ وذلك كالإبل، وما أشبهها..

﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ وَحرمنا عليهم مِنَ البَقَرِ وَالغَنَمِ بعض أجزائها، وهو: شُحُومَهُمَا، وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل **شحم الألية والثرب**، ولهذا استثنىٰ الشحم الحلال من ذلك فقال..

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ ..

﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ أي: الشحم المخالط للأمعاء..

﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾ ..

﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم علىٰ اليهود..

﴿جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾ أي: ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالًا..

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام:١٤٥-١٤٦] في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثًا، ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون.

📖 الفـوائـد

اختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثَمَّ محرمات لم تذكر فيها، كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك:

فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد علىٰ ما ذكر فيها، **فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك**؛ لأنه لم يجده فيما أوحي إليه في ذلك الوقت..

وقال بعضهم: **إن هذه الآية مشتملة علىٰ سائر المحرمات**، بعضها صريحًا، وبعضها يؤخذ من المعنىٰ وعموم العلة..

فإن قوله تعالىٰ في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ وصف شامل لكل محرم، فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقذرة التي حرمها الله علىٰ عباده، صيانة لهم، وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السُّنَّة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه..

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو: أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في الآية، الميتة منها، وما أهل لغير الله به، وما سوىٰ ذلك فحلال.

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا علىٰ هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارىٰ وأشباههم، فينمونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ
وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام:١٤٧]

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ﴾ أي: **فإن كذبك هؤلاء المشركون، فاستمر علىٰ دعوتهم**، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله..

﴿ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ عامة شاملة لجميع المخلوقات كلها، فسارعوا إلىٰ رحمته بأسبابها، التي رأسها وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به..

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[الأنعام:١٤٧] الذين كثر إجرامهم وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍۢ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام:١٤٨-١٤٩]

هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون علىٰ شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم..

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ﴾ وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۢ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥]..

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ﴾ فأخبر تعالىٰ أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئًا ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتىٰ أهلكهم الله، وأذاقهم بأسه.. فلو كانت حجة صحيحة لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه.. **فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة، من عدة أوجه**: منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة، لم تحل بهم العقوبة.. ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلىٰ العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلىٰ مجرد الظن والخرص، الذي لا يغني من الحق شيئًا، فإنها باطلة، ولهذا قال..

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فلو كان لهم علم -وهم خصوم ألداء- لأخرجوه، فلما لم يخرجوه عُلِم أنه لا عِلمَ عندهم..

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾ ومَنْ بَنىٰ حججه علىٰ الخرص والظن، فهو مبطل خاسر، فكيف إذا بناها علىٰ البغي والعناد والشر والفساد؟!

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ ومنها: أن الحجة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذرًا، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعُلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة القاطعة باطل، لأن نقيض الحق، لا يكون إلا باطلًا..

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾[الأنعام:١٤٨-١٤٩]..

🕮 الفـوائـد

ومن أوجه فساد حجتهم وكسادها:

أن الله تعالىٰ **أعطىٰ كل مخلوق قدرة وإرادة**، يتمكن بها من فعل ما كلف به، فلا أوجب الله علىٰ أحد ما لا يقدر علىٰ فعله، ولا حرم علىٰ أحد ما لا يتمكن من تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعناد صرف..

ومنها: أن الله تعالىٰ **لم يجبر العباد علىٰ أفعالهم**، بل جعل أفعالهم تبعا لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر، وأنكر المحسوسات، فإن كلَّ أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلًا في مشيئة الله، ومندرجًا تحت إرادته..

ومنها: أن المحتجين علىٰ المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك، **فإنَّهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك**، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب، فيا عجبًا! كيف يحتجون به علىٰ معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودًا، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما **المقصود منه دفع الحق**، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠]

﴿قُلْ﴾ لمن حرَّم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله:..

﴿هَلُمَّ﴾ أحْضِروا..

﴿شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ فإذا قيل لهم هذا الكلام، **فهم بين أمرين**: إما أن لا يحضروا أحدًا يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذًا باطلة، خالية من الشهود والبرهان.. وإما: أن يحضروا أحدًا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى ناهيا نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة..

﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى اللهُ خيارَ خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة..

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠] أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿۞ قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله..

﴿تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ تحريمًا عامًا شاملًا لكلِّ أحد، محتويًا علىٰ سائر المحرمات، من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال..

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا.. وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أويصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدًا، مخلصًا لله في جميع أحواله، فهذا حق الله علىٰ عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.. ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال..

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة.. فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفىٰ العقوق..

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم﴾ من ذكور وإناث..

﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجودًا في الجاهلية القاسية الظالمة.. وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، **فنهيهم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولىٰ وأحرىٰ..**

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق..

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة..

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ لا تقربوا الظاهر منها والخفي، أو المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن.. **والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها،** فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها..

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وهي: النفس المسلمة، من ذكر وأنثىٰ، صغير وكبير، بر وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق..

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ كالزاني المحصن، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة..

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ المذكور..

﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾[الأنعام:١٥١] عن الله وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها وتقومون بها.. ودلت الآية علىٰ أنه **بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به.**

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام:١٥٢-١٥٣]

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ بأكل، أو معاوضة علىٰ وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب..

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم، وينتفعون بها.. فدل هذا علىٰ أنه **لا يجوز قربانها، والتصرف بها علىٰ وجه يضر اليتامىٰ**، أو علىٰ وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة..

﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ﴾ اليتيم..

﴿أَشُدَّهُۥۚ﴾ حتىٰ يبلغ ويرشد، ويعرف التصرف، فإذا بلغ أشده، أُعطي حينئذ مالُه، وتصرف فيه علىٰ نظره.. وفي هذا دلالة علىٰ أن **اليتيم قبل بلوغ الأشُد محجور عليه**، وأن وليه يتصرف في ماله بالأحظ، وأن هذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشُد..

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: بالعدل والوفاء التام، فإذا اجتهدتم في ذلك، فـ..

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ أي: بقدر ما تسعه، ولا تضيق عنه.. فمَن حرَص علىٰ الإيفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصير لم يفرط فيه، ولم يعلمه، فإن الله عفو غفور..

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولًا تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به علىٰ المقالات والأحوال..

﴿فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ في قولكم، **بمراعاة الصدق في من تحبون ومن تكرهون،** والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه.. فإنَّ الميل علىٰ من تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرم.. بل إذا تكلم العالم علىٰ مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبُعدها منه.. وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين، في لَحظِهِ ولَفظِهِ..

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاقد به بين الخلق، فالجميع يجب الوفاء به، ويحرم نقضه والإخلال به..

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة..

﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم حق القيام، وتعرفون ما فيها، من الحكم والأحكام.. ولما بين كثيرا من الأوامر الكبار، والشرائع المهمة، أشار إليها وإلىٰ ما هو أعم منها فقال..

﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ أي: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله في كتابه، ووضحه لعباده..

﴿صِرَٰطِى﴾ صراط الله الموصل إليه، وإلىٰ دار كرامته.. ووحد الصراط وأضافه إليه لأنه سبيل واحد موصل إليه، والله هو المعين للسالكين علىٰ سلوكه..

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ المعتدل السهل المختصر..

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح، وتدركوا الآمال والأفراح..

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق..

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: تضلكم عنه وتفرقكم يمينًا وشمالًا، فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم فليس ثَمَّ إلا طرق توصل إلىٰ الجحيم..

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام:١٥٢-١٥٣] فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علمًا وعملًا صرتم من المتقين، وعباد الله المفلحين.

الفـوائـد

بهذه الآية ونحوها **استدل الأصوليون بأن الله لا يكلف أحدًا ما لا يطيق**، وعلىٰ أن من اتقىٰ الله فيما أمر، وفعل ما يمكنه من ذلك، فلا حرج عليه فيما سوىٰ ذلك.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام:١٥٤-١٥٧]

﴿ثُمَّ﴾ في هذا الموضع ليس المراد منها الترتيب الزماني، فإن زمن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ متقدم علىٰ تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب.. وإنما المراد **الترتيب الإخباري**..

﴿ءَاتَيْنَا﴾ فأخبر أنه آتىٰ..

﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة..

﴿تَمَامًا﴾ لنعمته، وكمالًا لإحسانه..

﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ من أُمة موسىٰ.. فإنَّ الله أنعم علىٰ المحسنين منهم بنِعَم لا تحصىٰ، من جملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم، فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها..

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاجون إلىٰ تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها..

﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلىٰ الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع..

﴿وَرَحْمَةً﴾ يَحصُلُ به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير..

﴿لَّعَلَّهُم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم..

﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾ فإنَّه اشتمل من الأدلة القاطعة علىٰ البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم والاستعداد له..

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم..

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات.. فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه.. وما من شر إلا وقد نهىٰ عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة..

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهىٰ، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه..

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الله تعالىٰ أن تخالفوا له أمرا..

﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ إن اتبعتموه..

﴿تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب، علما وعملا..

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعًا لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب علىٰ طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارىٰ..

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ تقولون لَمْ تنزل علينا كتابًا، والكتب التي أنزلتها علىٰ الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتابًا لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه..

﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم.. وإما أن تعتذروا، بعدم كمالها وتمامها.. فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال..

﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهذا اسم جنس، يدخل فيه كل ما يبين الحق..

﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة..

﴿وَرَحۡمَةٞۚ﴾ سعادة لكم في دينكم ودنياكم.. فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأسا وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال..

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض ونأىٰ بجانبه..

﴿سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه..

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام:١٥٤-١٥٧] لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم علىٰ عملهم السيء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

📖 الفوائد

في هذه الآيات دليل علىٰ:

١- أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها.

٢- وأنه به تحصل الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلىٰ تخرص المتكلمين، ولا إلىٰ أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

٣- وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا علىٰ الطائفتين، من اليهود والنصارىٰ، فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

٤- وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم، وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام:١٥٨]

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم..

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة، بأن تأتيهم..

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلىٰ تلك الحال، لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال..

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين..

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ الدالة علىٰ قرب الساعة..

﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت.. وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويُغلق حينئذ بابُ التوبة..

﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمنَ المقصر أن يزداد خيرُه بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجوِّ قبل أن يأتي بعض الآيات.. **والحكمة في هذا ظاهرة**: فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانا بالغيب، وكان اختيارا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأىٰ الموت، أقلع عما هو فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].. ولما كان هذا وعيدًا للمكذبين بالرسول ﷺ منتظَرًا وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور قال..

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام:١٥٨] فستعلمون أينا أحق بالأمن.

📖 الفوائد

١- في هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في **إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالىٰ**، كالاستواء والنزول والإتيان لله تبارك وتعالىٰ، من غير تشبيه له بصفات المخلوقين، وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير.

٢- أن من جملة أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها.

٣- أن الله تعالىٰ حكيم قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريًا لا اضطراريًا كما تقدم.

٤- أن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه فالطاعة، والبر والتقوىٰ إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان، فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام:١٥٩-١٦٠]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ يتوعد تعالىٰ الذين فرّقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكلٌّ أخذ لنفسه نصيبًا من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئًا، كاليهودية والنصرانية والمجوسية.. أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئًا ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولىٰ منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة..

ودلت الآية الكريمة أن **الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف**، وينهىٰ عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية.

وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال..

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك..

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم..

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ .. ثم ذكر صفة الجزاء فقال..

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه..

﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف..

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالىٰ وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال..

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام:١٥٩-١٦٠] ..

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٥]

يأمر تعالىٰ نبيه ﷺ، أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلىٰ الصراط المستقيم..

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح..

﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصًا إمام الحنفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ..

﴿حَنِيفًا﴾ وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من أديان أهل الانحراف..

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ كاليهود والنصارىٰ والمشركين..

وهذا عموم، ثم خَصَّصَ من ذلك أشرف العبادات فقال..

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ أي: ذبحي.. وذلك لـ: شرف هاتين العبادتين وفضلهما.. ودلالتهما علىٰ محبة الله تعالىٰ.. وإخلاص الدين له.. والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح.. وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالىٰ.. ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله..

﴿وَمَحْيَاىَ﴾ ما آتيه في حياتي، وما يجريه الله عليَّ..

﴿وَمَمَاتِى﴾ وما يقدر عليَّ في مماتي، الجميع..

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعًا مني، وبدعًا أتيته من تلقاء نفسي، بل..

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرًا حتمًا، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله..

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ من هذه الأمة..

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ من المخلوقين..

﴿أَبۡغِي رَبّٗا﴾ أي: يحسن ذلك ويليق بي أن أتخذ غيره مربيًا ومدبرًا..

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، منقادون لأمره؟! فتعين علي وعلىٰ غيري أن يتخذ الله ربًا، ويرضىٰ به، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين.. ثم رغب ورهب بذكر الجزاء فقال..

﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ﴾ من خير وشر..

﴿إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦]..

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحدٌ قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإنَّ عليه وزر التسبب، من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء..

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ يوم القيامة..

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾ من خير وشر، ويجازيكم علىٰ ذلك أوفىٰ الجزاء..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يخلف بعضكم بعضًا، واستخلفكم الله في الأرض، وسخَّر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم، لينظر كيف تعملون..

﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ في القوة والعافية، والرزق والخَلق والخُلُق..

﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ فتفاوتت أعمالكم..

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن عصاه وكذّب بآياته..

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٥] لمن آمن به وعمل صالحا، وتاب من الموبقات.

آخر تفسير سورة (الأنعام)

فلله الحمد والثناء وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد

وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين

تفسير سورة الأعراف وهي مكية

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:١-٧]

يقول تعالىٰ لرسوله محمد ﷺ مبينًا له عظمة القرآن..

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ كتاب جليل حوىٰ كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكمًا مفصلًا..

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائما ومعارضا..

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجة علىٰ المعاندين..

﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ وليكون ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥] يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد، وبين سلوكه.. ثم خاطب الله العباد، وألفتهم إلىٰ الكتاب فقال..

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو..

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي، إن اتبعتموه كملت تربيتكم، وتمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها..

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: تتولونهم، وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق..

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة لما آثرتم الضار على النافع، والعدو على الوليِّ.. ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم، لئلا يشابهوهم، فقال..

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ عذابنا الشديد..

﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ في حين غفلتهم، وعلى غِرَّتِهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم.. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي..

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾ [الأنبياء: ١١- ١٥]..

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا به رسلهم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص: ٦٥]..

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أممهم..

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الخلق كلهم ما عملوا..

﴿بِعِلْمٍ﴾ منه تعالى لأعمالهم..

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾[الأعراف:١-٧] في وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾ [المؤمنون: ١٧].. ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال..

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف:٨-٩]

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه ولا ظلم بوجه..

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت كفة حسناته علىٰ سيئاته..

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم، والسعادة الدائمة..

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها..

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم..

﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف:٨-٩] فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف:١٠]

يقول تعالىٰ ممتنا علىٰ عباده بذكر المسكن والمعيشة..

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هيأناها لكم، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها، ووجوه الانتفاع بها..

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ﴾ مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها، وسخر أسبابها..

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف:١٠] الله، الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف:١١]

يقول تعالىٰ مخاطبا لبني آدم:..

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أصلكم ومادتكم التي منها خرجتم: أبيكم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ..

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في أحسن صورة، وأحسن تقويم، وعلمه الله تعالىٰ ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء..

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم، إكرامًا واحترامًا، وإظهارًا لفضله، فامتثلوا أمر ربهم..

﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم أجمعون..

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أبىٰ أن يسجد له..

﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف:١١] تكبرًا عليه وإعجابًا بنفسه.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝١٥﴾ [الأعراف:١٢-١٥]

فوبخه الله علىٰ ذلك و..

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لما خلقت بيديَّ، أي: شرفته وفضلته بهذه الفضيلة، التي لم تكن لغيره..

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فعصيت أمري وتهاونت بي..

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضًا لربه..

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ثم برهن علىٰ هذه الدعوىٰ الباطلة بقوله..

﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝١٢﴾ **وموجب هذا:** أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين، لعلو النار علىٰ الطين وصعودها.. **وهذا القياس من أفسد الأقيسة، فإنه باطل من عدة أوجه: منها:** أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل؛ لأن المقصود بالقياس أن يُكَوِّن الحكم الذي لم يأت فيه نص يقارب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعًا لها، فأما قياس يعارضها ويلزم من اعتباره إلغاءُ النصوص، فهذا القياس

من أشنع الأقيسة.. **ومنها:** أن قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص: ٧٦] بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث، فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره، والقول على الله بلا علم، وأي نقص أعظم من هذا؟! **ومنها:** أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإنَّ مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق.. ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين.. فـ..

﴿قَالَ﴾ **الله له..**

﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ **من الجنة..**

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ **لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم..**

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ **المهانين الأذلِّين، جزاء على كبره وعجبه بالإهانة والذل.. فلما أعلن عدو الله بعداوة الله، وعداوة آدم وذريته، سأل اللهَ النَّظِرَةَ والإمهال إلى يوم البعث..**

﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤﴾ **ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.. ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ممن يطيع عدوه، أجابه لما سأل، فـ..**

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف:١٢-١٥] ..

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف:١٦-١٧]

﴿قَالَ﴾ **إبليس، لما أبلس وأيس من رحمة الله..**

﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾ **أي: للخلق..**

﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ **أي: لألزمن الصراط ولأسعى غاية جهدي على صدِّ الناس عنه وعدم سلوكهم إياه..**

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم.. ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة علىٰ كثير منهم، وكان جازما ببذل مجهوده علىٰ إغوائهم، ظن وصدَّق ظنه فقال..

﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾[الأعراف:١٦-١٧] فإنَّ القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدَّهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].. وإنما نبهنا الله علىٰ ما قال وعزم علىٰ فعله، لنأخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطريق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالىٰ علينا بذلك، أكمل نعمة.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف:١٨]

﴿قَالَ﴾ الله لإبليس لما قال ما قال..

﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام بل..

﴿مَذۡءُومٗا﴾ مذمومًا..

﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾ مبعدا عن الله وعن رحمته وعن كل خير..

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ﴾ منك وممن تبعك منهم..

﴿أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف:١٨] وهذا قَسم منه تعالىٰ، أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا

سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:١٩-٢٢]

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال..

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أمر الله تعالىٰ آدم وزوجته حواء، التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا..

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها.. والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا.. وحرم عليهما أكلها بدليل قوله..

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ فلم يزالا ممتثلَيْن لأمر الله، حتىٰ تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره..

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وسوسة خدعهما بها، وموه عليهما..

﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ من جنس الملائكة..

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]..

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله..

﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ من جملة الناصحين، حيث قلت لكما ما قلت، فاغترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال علىٰ العقل..

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ نزّلهما عن رتبتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلىٰ التلوث بأوضارها..

﴿بِغُرُورٍ﴾ فأقدما علىٰ أكلها..

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ظهرت عورة كلٍّ منهما بعد ما كانت مستورة.. فصار للعري الباطن من التقوىٰ في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتىٰ انخلع، فظهرت

عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خَجِلا..

﴿وَطَفِقَا﴾ وجعلا..

﴿يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ يخصفان علىٰ عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليسترا بذلك..

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ وهما بتلك الحال، موبخًا ومعاتبًا..

﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ فَلِمَ اقترفتما المنهيَّ، وأطعتما عدوَّكُما؟ فحينئذ مَنَّ الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فـ..

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ قد فعلنا الذنب الذي نهيتنا عنه، وأضررنا أنفسنا باقتراف الذنب..

﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف:١٩-٢٣] وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا.. فغفر الله لهما ذلك ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه: ١٢١- ١٢٢].. هذا وإبليس مستمر علىٰ طغيانه غير مقلع عن عصيانه.. فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه ربه وهداه.. ومن أشبه إبليس -إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي- فإنه لا يزداد من الله إلا بُعْدًا.

﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٥ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف:٢٤-٢٦]

﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ ..

﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلىٰ الأرض، أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوها الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء،

وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتىٰ يأتيهم الموت، فيدفنون فيها..

﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ٢٥﴾ ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلىٰ الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة..

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ ثم امتن عليهم بما يَسَّرَ لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي المقصود منه الجمال.. وهكذا سائر الأشياء، كالطعام والشراب والمراكب، والمناكح ونحوها، قد يسر الله للعباد ضروريها، ومكمل ذلك.. وبيَّن لهم أن هذا ليس مقصودًا بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم علىٰ عبادته وطاعته، ولهذا قال:..

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ من اللباس الحسِّي.. **فإنَّ لباس التقوىٰ** يستمر مع العبد، ولا يبلىٰ ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.. **وأما اللباس الظاهري**، فغايته أن يستر العورة الظاهرة، في وقت من الأوقات، أو يكون جمالًا للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع.. **وأيضا فبتقدير عدم هذا اللباس**، تنكشف عورته الظاهرة، التي لا يضره كشفها مع الضرورة.. **وأما بتقدير عدم لباس التقوىٰ**، فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة..

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور لكم من اللباس..

﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف:٢٤-٢٦] مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم وتشبهون باللباس الظاهر علىٰ الباطن.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف:٢٧]

يقول تعالىٰ، محذرا لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم..

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بأن يُزَيِّنَ لكم العصيان، ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتنقادون له..

﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ﴾ وأنزلهما من المحلِّ العالي إلىٰ أنزل منه، فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم، حتىٰ يفتنكم، إن استطاع، فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم، وأن تلبسوا لأْمَةَ الحرب بينكم وبيْنه، وأن لا تغفُلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.. فـ..

﴿إِنَّهُۥ﴾ يراقبكم علىٰ الدوام، و..

﴿يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ من شياطين الجن..

﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾[الأعراف:٢٧] فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان، ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل].

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾ [الأعراف:٢٨-٣٠]

يقول تعالىٰ مبينا لقبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، وينسبون أن الله أمرهم بها..

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ وهي: كل ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة..

﴿قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وصَدَقُوا في هذا..

﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ وكَذَبُوا في هذا.. ولهذا رد الله عليهم هذه النِسبَةِ فقال..

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره..

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ وأيُّ افتراء أعظم من هذا؟ ثم ذكر ما يأمر به، فقال..

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور..

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصا (الصلاة) أقيموها، ظاهرًا وباطنًا، ونَقُّوها من كل نقص ومفسد..

﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له.. **والدعاء يشمل**: دعاء المسألة، ودعاء العبادة.. أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوىٰ عبودية الله ورضاه..

﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ﴾ أول مرة..

﴿تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ للبعث، فالقادر علىٰ بدء خلقكم، قادر علىٰ إعادته، بل الإعادة، أهون من البداءة..

﴿فَرِيقًا﴾ منكم..

﴿هَدَىٰ﴾ الله، أي: وفقهم للهداية، ويسر لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها..

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية، فـ..

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ۝١١٩﴾ [النساء: ١١٩]، فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووُكِّلوا إلىٰ أنفسهم، فخسروا أشدَّ الخسران..

﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٣٠﴾ [الأعراف:٢٨-٣٠] وَهم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ؛ لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًا والحق باطلًا.

📖 الفوائد

١- في هذه الآيات دليل علىٰ أن **الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة**، حيث ذكر تعالىٰ أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص.

٢- وفيه دليل علىٰ أن **الهداية بفضل الله ومَنِّه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد**، إذا تولىٰ -بجهله وظلمه- الشيطانَ، وتسبب لنفسه بالضلال.

٣- وأن **من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ، أنه لا عذر له**، لأنه متمكن من الهدىٰ، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلىٰ الهدىٰ.

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف:٣١]

يقول تعالىٰ بعد ما أنزل علىٰ بني آدم لباسا يواري سوءاتهم وريشا..

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ استروا عوراتكم..

﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها.. فإنَّ سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحا مشوها.. **ويحتمل أن المراد بالزينة هنا** ما فوق ذلك، من اللباس النظيف الحسن..

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ مما رزقكم الله من الطيبات..

﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ في ذلك.. **والإسراف: إما أن يكون** بالزيادة علىٰ القدر الكافي والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم.. **وإما أن يكون** بزيادة الترفه والتنوق في المآكل والمشارب واللباس.. **وإما بتجاوز** الحلال إلىٰ الحرام..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف:٣١] فإنَّ السَرَف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتىٰ إنه ربما أدت به الحال إلىٰ أن يعجز عما يجب عليه من النفقات.

🕮 الفوائد

في هذه الآية الكريمة:

١- الأمر بستر العورة في الصلاة.

٢- وباستعمال التجميل فيها.

٣- ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس.

٤- الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما.

٥- والنهي عن الإسراف فيهما.

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟
بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٢-٣٣]

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ من تعنت، وحرَّم ما أحل الله من الطيبات..

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: مَن هذا الذي يقدم علىٰ تحريم ما أنعم الله به علىٰ العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسَّعه الله.. من أنواع اللباس علىٰ اختلاف أصنافه..

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ من مأكل ومشرب، بجميع أنواعه.. وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم **ليستعينوا به علىٰ عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين**، ولهذا قال..

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا تبعة عليهم فيها.. **ومفهوم الآية: أن من لم يؤمن بالله** -بل استعان بها علىٰ معاصيه- **فإنها غير خالصة له ولا مباحة**، بل يعاقب عليها وعلىٰ التنعم بها، ويُسأل عن النعيم يوم القيامة..

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نوضحها ونبينها..

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصَّله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.. **ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال**..

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الذنوب الكبار التي تستفحش وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما..

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الفواحش التي تتعلق بحركات البدن..

﴿وَمَا بَطَنَ﴾ والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك..

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي: الذنوب التي تؤثِّم وتوجب العقوبة في حقوق الله..

﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والبغي علىٰ الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.. **فدخل في هذا**: الذنوبُ المتعلقةُ بحق الله، والمتعلقةُ بحق العباد..

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة.. بل أنزل الحجة والبرهان علىٰ التوحيد.. **والشركُ هو:** أن يشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق.. **وربما دخل في هذا الشرك الأصغر** كالرياء والحلف بغير الله، ونحو ذلك..

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف:٣٣] في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه.. **فكلُّ هذه قد حرَّمها الله، ونهىٰ العباد عن تعاطيها:** لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة.. ولما فيها من الظلم والتجري علىٰ الله.. والاستطالة علىٰ عباد الله.. وتغيير دين الله وشرعه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف:٣٤]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ﴾ وقد أخرج الله بني آدم إلىٰ الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلًا مسمىٰ..

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾[الأعراف:٣٤] لا تتقدم أمة من الأمم علىٰ وقتها المسمىٰ، ولا تتأخر.. لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦]

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ **لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم..**

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ **يقصون عليهم آيات الله، ويبينون لهم أحكامه.. ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال..**

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما حرَّم الله، من الشرك والكبائر والصغائر..

﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة..

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم..

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ على ما مضى.. وإذا انتفى **الخوف والحزن** حصل **الأمن التام، والسعادة**، والفلاح الأبدي.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦] كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف:٣٧-٣٨]

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ لا أحد أظلم..

﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل..

﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ الواضحة المبيِّنة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم **نصيبهم مما كان مكتوبًا لهم في اللوح المحفوظ**، فليس ذلك بمغن عنهم شيئًا، يتمتعون قليلًا ثم يعذَّبون طويلًا..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم..

﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم في تلك الحالة توبيخًا وعتابًا..

﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة..

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء..

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ مستحقين للعذاب المهين الدائم..

﴿قَالَ﴾ فقالت لهم الملائكة..

﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ في جملة أمم..

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ مضوا علىٰ ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار..

﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ فاستحق الجميع الخزي والبوار..

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾ من الأمم العاتية النار..

﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولين والآخرين، والقادة والرؤساء والمقلدين الأتباع..

﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي: متأخروهم، المتبعون للرؤساء..

﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ لرؤسائهم، شاكين إلىٰ الله إضلالهم إياهم..

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ عذِّبهم عذابًا مضاعفًا؛ لأنهم أضلونا، وزيَّنوا لنا الأعمال الخبيثة..

﴿قَالَ﴾ الله..

﴿لِكُلّٖ﴾ منكم..

﴿ضِعۡفٞ﴾ ونصيب من العذاب..

﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: ٣٧-٣٨]..

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ [الأعراف: ٣٩]

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم..

﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قد اشتركنا جميعا في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأي: فضل لكم علينا؟!

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف:٣٩]..

📖 الفـوائـد

١- من المعلوم أن **عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ** وأشنع من عذاب الأتباع.. كما **أن نعيم أئمة الهدىٰ ورؤسائه أعظم** من ثواب الأتباع، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

٢- هذه الآيات ونحوها دلت علىٰ أن **سائر أنواع المكذبين بآيات الله، مخلدون في العذاب**، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا **متفاوتين في مقداره**، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم.

٣- وأن **مودتهم التي كانت** بينهم في الدنيا **تنقلب يوم القيامة عداوة** وملاعنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤١]

يخبر تعالىٰ عن عقاب من كذَّب بآياته فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ واستكبر عنها، فلم يَنْقَد لأحكامها، بل كذَّب وتولىٰ..

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنهم آيسون من كل خير.. فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلىٰ الله، فتستأذن فلا يؤذن لها، **كما لم تصعد في الدنيا إلىٰ الإيمان بالله** ومعرفته ومحبته **كذلك لا تصعد بعد الموت**، فإن الجزاء من جنس العمل.. **ومفهوم الآية**: أن **أرواح المؤمنين** المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته، **تفتح لها أبواب السماء** حتىٰ تعرج إلىٰ الله، وتصل إلىٰ حيث أراد الله من العالم العلوي، وتبتهج بالقرب من

ربها والحظوة برضوانه.. وقوله عن أهل النار..

﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف..

﴿فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ أي: حتىٰ يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسمًا، في خِرق الإبرة، الذي هو من أضيق الأشياء.. وهذا من باب **تعليق الشيء بالمحال**، أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذِّبون بآيات الله محال دخولهم الجنة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال هنا..

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾ الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم..

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ فراش من تحتهم..

﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ ظلل من العذاب، تغشاهم..

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ [الأعراف:٤٠-٤١] لأنفسهم، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٤٢ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأعراف:٤٢-٤٣]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لما ذكر الله تعالىٰ عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات.. ولما كان قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لفظا عاما يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالىٰ..

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر علىٰ قدرتها، فعليها في هذه الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي

يقدر عليها غيرها سقطت عنها كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بالإيمان والعمل الصالح..

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلا لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلىٰ منه..

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وهذا من كرمه وإحسانه علىٰ أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجودا في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله حتىٰ يكونوا إخوانا متحابين، وأخلاء متصافين،قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر]، ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرىٰ أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم. فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه..

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ يفجرونها تفجيرا، حيث شاءوا، وأين أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجري في غير أخدود، وخيرات ليس لها حد محدود..

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾

وَلهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ بأن منَّ علينا وأوحىٰ إلىٰ قلوبنا، فآمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلىٰ هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتىٰ أوصلنا بها إلىٰ هذه الدار، فنعم الرب الكريم، الذي ابتدأنا بالنعم، وأسدىٰ من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يحصيه المحصون، ولا يعده العادون..

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ﴾ ليس في نفوسنا قابلية للهدىٰ، لولا أنه تعالىٰ منَّ بهدايته واتباع رسله..

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم، قالوا لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين، لا مرية فيه ولا إشكال..

﴿وَنُودُوٓاْ﴾ تهنئة لهم، وإكراما، وتحية واحتراما..

﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعا لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها..

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾[الأعراف:٤٢-٤٣] قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة وهي من رحمته، بل من أعلىٰ أنواع رحمته.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝٤٥﴾ [الأعراف:٤٤-٤٥]

يقول تعالىٰ لما ذكر استقرار كلٍّ من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب من الثواب والعقاب..

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ بأن قالوا..

﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ حين وعدنا علىٰ الإيمان والعمل الصالح الجنة فأدخلناها وأرانا ما وصفه لنا..

﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ علىٰ الكفر والمعاصي..

﴿حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ قد وجدناه حقا، فبين للخلق كلهم، بيانا لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلا وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا علىٰ أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب..

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال..

﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ أي: بُعْدُه وإقصاؤه عن كل خير..

﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدوا أنفسهم عنها ظلما..

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم، وصدوا غيرهم، فضلوا

وأضلوا، والله تعالىٰ يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير السالكين إليه..

﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ وهؤلاء يريدونها..

﴿عِوَجًا﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل..

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾ [الأعراف:٤٤-٤٥] وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال علىٰ شهوات النفوس المحرمة، عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله علىٰ المؤمنين، وبرَّه شامل لهم، وإحسانَه متواتر عليهم.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف:٤٦-٤٩]

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له الأعْرَاف.. لا من الجنة ولا من النار، يشرف علىٰ الدارين، ويَنظر مَنْ عليه حالَ الفريقين..

﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ وعلىٰ هذا الحجاب رجال..

﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا﴾ من أهل الجنة والنار..

﴿بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ أي: علاماتهم، التي بها يعرفون ويميزون..

﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ فإذا نظروا إلىٰ أهل الجنة نَادَوْهم..

﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ يحيونهم ويسلمون عليهم..

﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾ وهم - إلىٰ الآن - لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته..

﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا منظرا شنيعا، وهَوْلا فظيعا..

﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فأهل الجنة إذا رآهم أهل الأعراف يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا علىٰ وجه العموم.. ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال..

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف، وأموال وأولاد..

﴿قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رأوهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا مغيث: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به المكاره، وتتوسلون به إلىٰ مطالبكم في الدنيا، فاليوم اضمحل، ولا أغني عنكم شيئا..

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وكذلك، أي شيء نفعكم استكباركم علىٰ الحق وعلىٰ من جاء به وعلىٰ من اتبعه..

ثم أشاروا لهم إلىٰ أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار..

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين أدخلهم الله الجنة..

﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ احتقارًا لهم وازدراءً وإعجابًا بأنفسكم، قد حنثتم في أيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب..

﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ بما كنتم تعملون، أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكراما واحتراما: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة..

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيما يستقبل من المكاره..

﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف:٤٦-٤٩] علىٰ ما مضىٰ، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير.. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلىٰ أن قال ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المطففين].

🕮 الفـوائـد

اختلف أهل العلم والمفسرون من هم أصحاب الأعراف وما أعمالهم؟

والصحيح من ذلك: أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالىٰ يدخلهم برحمته الجنة، فإنَّ رحمته تسبق وتغلب غضبه ورحمته وسعت كل شيء.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١]

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ حين يبلغ منهم العذاب كلَّ مبلغ، وحين يمسهم الجوع المفرط والظمأ الموجع، يستغيثون بهم، فيقولون..

﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من الطعام..

﴿قَالُوٓاْ﴾ فأجابهم أهل الجنة بقولهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ ماء الجنة وطعامها..

﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ وذلك جزاء لهم علىٰ كفرهم بآيات الله..

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه..

﴿لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخريا.. أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيِّم..

﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها..

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نتركهم في العذاب..

﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء..

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥٠-٥١] والحال أن جحودهم هذا، لا عن قصور في آيات الله وبيناته.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف:٥٢-٥٣]

﴿وَلَقَدْ﴾ بل قد..

﴿جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيَّنا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق..

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكمًا غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء..

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغيّ والرشد.. ويحصل أيضا لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.. وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا انقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن، ولهذا قال..

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: وقوع ما أخبر به كما قال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين وقعت رؤياه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]..

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم، مقرين بما أخبرت به الرسل..

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلىٰ الدنيا..

﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلىٰ الدنيا، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].. وسؤالهم الرجوع إلىٰ الدنيا ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حلَّ بهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]..

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح، وسلكوا بها سبيل الهلاك.. وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه..

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف:٥٢-٥٣] في الدنيا مما تمنيهم أنفسهم به، ويعدهم به الشيطان، قدموا علىٰ ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤]

يقول تعالىٰ مبينا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له..

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما، علىٰ عِظَمِهما وسِعَتِهما، وإحكامهما، وإتقانهما، وبديع خلقهما..

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة..

﴿ثُمَّ﴾ فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع..

﴿اسْتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالىٰ..

﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما.. استوىٰ استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوىٰ علىٰ العرش، واحتوىٰ علىٰ الملك، ودبر الممالك، وأجرىٰ عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال..

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ﴾ المظلم..

﴿النَّهَارَ﴾ المضيء، فيظلم ما علىٰ وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوىٰ المخلوقات

إلىٰ مساكنها، ويستريحون من التعب، والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار..

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب الليل، وهكذا أبدا علىٰ الدوام، حتىٰ يطوي الله هذا العالم، وينتقل العباد إلىٰ دار غير هذه الدار..

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بتسخيره وتدبيره، الدال علىٰ ما له من أوصاف الكمال: فخلقُها وعِظَمُها دالٌّ علىٰ **كمال قدرته**.. وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال علىٰ **كمال حكمته**.. وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال علىٰ **سعة رحمته**.. وذلك دال علىٰ **سعة علمه**.. وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له..

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية..

﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء..

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤] **عظم** وتعالىٰ وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر:٦٤].

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٥-٥٦]

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب علىٰ أنه وحده، المعبود المقصود في الحوائج كلها أمر بما يترتب علىٰ ذلك، فقال..

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه..

﴿تَضَرُّعًا﴾ إلحاحًا في المسألة، ودُءُوبا في العبادة..

﴿وَخُفْيَةً﴾ لا جهرًا وعلانية، يخاف منه الرياء.. بل خفية وإخلاصًا لله تعالىٰ..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ المتجاوزين للحد في كل الأمور.. **ومن الاعتداء**: كون

العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له.. أو يتنطع في السؤال.. أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء.. فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه..

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي..

﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ بالطاعات.. **فإنَّ المعاصي تفسد الأخلاق** والأعمال والأرزاق، كما قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].. كما أن **الطاعات تصلح** بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة..

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفا من عقابه، وطمعا في ثوابه.. طمعا في قبولها، وخوفا من ردها.. لا دعاء عبد مدل علىٰ ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته.. أو دعاء من هو غافل لاهٍ.. **وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء**: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية.. وإخفاؤه وإسراره.. وأن يكون القلب خائفًا طامعًا.. لا غافلًا ولا آمنًا.. ولا غير مبال بالإجابة.. وهذا من إحسان الدعاء، فإن **الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها**، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال..

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأعراف:٥٥-٥٦] في عبادة الله، المحسنين إلىٰ عباد الله.. فكلما كان العبد أكثر إحسانًا كان أقرب إلىٰ رحمة ربه، وكان ربه قريبًا منه برحمته.. وفي هذا من **الحث علىٰ الإحسان** ما لا يخفىٰ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف:٥٧]

يبين تعالىٰ أثرا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ الرياح..

﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرىٰ، وألحقه ريح أخرىٰ..

﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله..

﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ﴾ بذلك البلد الميت..

﴿ٱلۡمَآءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحا تدره وتفرقه بإذن الله..

﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله..

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك..

﴿نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ نخرج الموتىٰ من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين.. وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادًا له - مع أنه يرىٰ ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾[الأعراف:٥٧] وفي هذا الحث علىٰ التذكر والتفكر في آلاء الله والنظر إليها **بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال.**

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ۝٥٨﴾ [الأعراف:٥٨]

ثم ذكر تفاوت الأراضي، التي ينزل عليها المطر، فقال..

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر..

﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ الذي هو مستعد له..

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ بإرادة الله ومشيئته، **فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء**، حتىٰ يأذن الله بذلك..

﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ من الأراضي..

﴿لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ إلا نباتًا خاسًا لا نفع فيه ولا بركة..

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: نَنوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها..

﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ۝٥٨﴾[الأعراف:٥٨] الله بالاعتراف بنعمه، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله.. **فهم الذين ينتفعون** بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية؛ **لأنهم** يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها

ويتأملونها، فيَبِينُ لهم من معانيها بحسب استعدادهم.. **وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحياة: فإنَّ القلوب الطيبة:** حين يجيئها الوحي تقبله وتعلمه وتنبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.. **وأما القلوب الخبيثة:** التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلًا قابلًا، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئا، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ [الرعد: ١٧].

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف:٥٩-٦٤]

لما ذكر تعالى من **أدلة توحيده** جملة صالحة.. **أيَّد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده** مع أممهم المنكرين لذلك.. **وكيف أيد الله أهل التوحيد**، وأهلك من عاندهم ولم يَنْقَدْ لهم.. **وكيف اتفقت دعوة المرسلين** على دين واحد ومعتقد واحد.. فقال عن نوح أول المرسلين..

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان..

﴿فَقَالَ﴾ لهم..

﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَحْدَه..

﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبِّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبَّر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال..

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾﴾ وهذا من نصحه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين

الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد..

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت **العادة باستكبارهم على الحق**، وعدم انقيادهم للرسل..

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ فلم يكفهم - قبَّحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال.. ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالا مبينا واضحا لكل أحد.. **وهذا من أعظم أنواع المكابرة**، التي لا تروج على أضعف الناس عقلًا.. وإنما **هذا الوصف منطبق على قوم نوح**، الذين جاءوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئًا، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات.. فلولا أن لهم أذهانا تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن **المجانين أهدى منهم**، بل هم أهدى منهم وأعقل.. فردَ نوح عليهم ردًا لطيفًا، وترقق لهم لعلهم ينقادون له فـ..

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ لست ضالًا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾ ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربى جميع الخلق بأنواع التربية، الذي **من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلًا**، تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة، وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال..

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وظيفتي تبليغكم ببيان توحيده وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم..

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾ فالذي يتعين: أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون..

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو..

﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة،

علىٰ يد رجل منكم؟! تعرفون حقيقته وصدقه وحاله، فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه، الذي يتلقىٰ بالقبول والشكر..

﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ العذاب الأليم..

﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ وتفعلوا الأسباب المنجية، من استعمال تقوىٰ الله ظاهرًا وباطنًا..

﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣﴾ وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة.. فلم يفد فيهم، ولا نجح..

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي السفينة التي أمر الله نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بصناعتها، وأوحىٰ إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها..

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾[الأعراف:٥٩-٦٤] عن الهدىٰ، أبصروا الحق، وأراهم الله -علىٰ يد نوح- من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولوا الألباب، فسخروا منه، واستهزءوا به وكفروا.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠
لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟
ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ
رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٧٢﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢]

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا إِلَىٰ عَادٍ الأولىٰ، الذين كانوا في أرض اليمن..

﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب..

﴿هُودًا﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يدعوهم إلىٰ التوحيد وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض، فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم..

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ سخطه وعذابه، إن أقمتم علىٰ ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا انقادوا، فـ..

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ رادين لدعوته، قادحين في رأيه..

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ ما نراك إلا سفيهًا غير رشيد..

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ويغلب علىٰ ظننا أنك من جملة الكاذبين.. **وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحكم عماهم: حيث رموا نبيهم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **بما هم متصفون به،** وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقًا الكاذبون، وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبَّر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من لا يغني عنه شيئا من الأشجار والأحجار؟! وأي كَذِبٍ أبلغ من كَذِبِ مَن نَسَب هذه الأمور إلىٰ الله تعالىٰ؟!

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد..

﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد..

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ كيف تعجبون من أمر لا يُتَعَجب منه، وهو..

﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أن الله أرسل إليكم رجلًا منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم علىٰ ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين..

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟﴾ واحمدوا ربكم واشكروه..

﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذَّبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا

علىٰ التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم..

﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ واذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن زَادَكُمْ فِي الخَلقِ بَسْطَةً في القوة وكبر الأجسام، وشدة البطش..

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمه الواسعة، وأياديه المتكررة..

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها..

﴿تُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المرهوب.. فوعظهم وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدرار الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا، فـ..

﴿قَالُوٓاْ﴾ متعجبين من دعوته، ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه:..

﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ قبحهم الله؛ **جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات** وأكمل الأمور، **من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم،** فقدَّموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام، علىٰ ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم، وقالوا..

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ وهذا استفتاح منهم علىٰ أنفسهم، فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ﴾ لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وحان وقت الهلاك..

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ كيف تجادلون علىٰ أمور، لا حقائق لها، وعلىٰ أصنام سميتموها آلهة، وهي لا شيء من الآلهة فيها، ولا مثقال ذرة، و..

﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطانا، فعدم إنزاله له دليل علىٰ بطلانها، فإنه ما من **مطلوب ومقصود -وخصوصا الأمور الكبار- إلا وقد بين الله فيها من الحجج، ما يدل عليها،** ومن السلطان ما لا تخفىٰ معه..

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما يقع بكم من العقاب، الذي وعدتكم به..

﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾ وفرقٌ بين الانتظارين، انتظار من يخشىٰ وقوع العقاب،

ومن يرجو من الله النصر والثواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال:..

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: هودًا..

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ آمنوا..

﴿مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سببًا ينالون به رحمته، فأنجاهم برحمته..

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ﴾ استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يُبق منهم أحدًا، وسلَّط الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرىٰ إلا مساكنهم.. فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، الذين أقيمت عليهم الحجج، فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والخزي والفضيحة، ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود]، وقال هنا ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ﴾..

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢] بوجه من الوجوه، بل وَصفُهُم التكذيب والعناد، ونعتهم الكِبر والفساد.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ

ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:٧٣-٧٩]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحِجر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل الله إليهم..

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ نبيًا يدعوهم إلىٰ الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد، فـ..

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ دعوته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **من جنس دعوة إخوانه من المرسلين**، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله..

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية، لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله..

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلىٰ الله تعالىٰ إضافة تشريف..

﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ لكم فيها آية عظيمة.. وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥].. وكان عندهم بئر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يَرِدُونَها، وتصدر الناقة عنهم.. فقال لهم نبيهم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ فلا عليكم من مُؤُونَتِها شيء..

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بعقر أو غيره..

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم..

﴿مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم..

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مكَّن لكم فيها، وسهَّل لكم الأسباب الموصلة إلىٰ ما تريدون وتبتغون..

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا﴾ من الأراضي السهلة التي ليست بجبال..

﴿قُصُورًا﴾ تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة..

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ كما هو مشاهد إلىٰ الآن من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحُجَر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال..

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمه، وما خَوَّلكم من الفضل والرزق والقوة..

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن **المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع**، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم..

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق..

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ ولما كان **المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين**، قالوا..

﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟

﴿قَالُوٓا۟﴾ فقال المستضعفون..

﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونهيه..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ حملهم الكِبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء..

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ التي توّعدهم إن مسُّوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم..

﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد.. لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم..

﴿وَقَالُوا۟﴾ مع هذه الأفعال متجرئين علىٰ الله، معجزين له، غير مبالين بما فعلوا، بل مفتخرين بها..

﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب..

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ إن كنت من الصادقين، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥]..

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ علىٰ ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم..

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين أحلَّ الله بهم العذاب..

﴿وَقَالَ﴾ مخاطبًا لهم توبيخًا وعتابًا بعد ما أهلكهم الله..

﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ جميع ما أرسلني الله به إليكم قد أبلغتكم به..

﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ وحرصت علىٰ هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم..

﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف:٧٣-٧٩] بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كلَّ شيطان رجيم.

🕮 الفـوائـد

اعلم أنَّ كثيرًا من المفسرين يذكرون في هذه القصة:

أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها علىٰ صالح..

وأنها تمخضت تمخض الحامل فخرجت الناقة وهم ينظرون..

وأنَّ لها فصيلًا، حين عقروها رغىٰ ثلاث رغيات، وانفلق له الجبل، ودخل فيه..

وأن صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله..

وليس في القرآن ما يدل علىٰ شيء منها بوجه من الوجوه..

بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالىٰ؛ لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالىٰ ويدع ذكره، حتىٰ يأتي من طريق من لا يوثق بنقله.

بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحًا قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ [هود: ٦٥] أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدًا، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوىٰ هذا، وأيُّ لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوقعت يومًا فيومًا، علىٰ وجه يعمهم ويشملهم، هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟! **فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.**

نعم! لو صح شيء عن رسول الله ﷺ مما لا يناقض كتاب الله فعلىٰ الرأس والعين،

وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]..

وقد تقدم أنه **لا يجوز تفسيرُ كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية**، ولو علىٰ تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، **فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.**

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤]

﴿وَلُوطًا﴾ واذكر عبدنا لوطًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ..

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ إذ أرسلناه إلىٰ قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال..

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الخصلة التي بلغت -في العِظَمِ والشناعة- إلىٰ أن استغرقت أنواع الفحش..

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضًا.. ثم بيَّنها بقوله..

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون علىٰ أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخُبُث، ومحل تخرج منه الأنتان والأخباث، التي يُستحيا من ذكرها فضلًا عن ملامستها وقربها..

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ متجاوزون لما حدَّه الله، متجرئون علىٰ محارمه..

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يتنزهون عن فعل الفاحشة ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]..

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أمره الله أن يسري بأهله ليلًا، فإنَّ العذاب مصبِّح قومه، فسرىٰ بهم..

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أصابها ما أصابهم..

﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الباقين المعذبين..

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حجارةً حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها..

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف:٨٠-٨٤] الهلاك والخزي الدائم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ
جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ
أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ
وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا
فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ
رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾
وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:٨٥-٩٣]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا إلىٰ القبيلة المعروفة بـ(مدين)..

﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب..

﴿شُعَيْبًا﴾ يدعوهم..

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له..

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ..

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان..

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم..

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال..

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فإنَّ ترك المعاصي امتثالًا لأمر الله وتقربًا إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار..

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾ للناس..

﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و..

﴿تُوعِدُونَ﴾ من سلكها..

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من أراد الاهتداء به..

﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تبغون سبيل الله تكون معوجة وتميلونها، اتباعًا لأهوائكم.. وقد كان الواجب عليكم وعلىٰ غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلىٰ مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتَصَدَّون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون علىٰ من سلكها..

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ نعمة الله عليكم..

﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدرار الأرزاق وكثرة النسل..

﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا

الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبتات، ولم يورثوا ذِكرا حسنًا، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة..

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ وهم الجمهور منهم..

﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل..

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم، الذين اتبعوا أهواءهم، ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين..

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ استعملوا قوتهم السبعية في مقابلة الحق.. ولم يراعوا دينًا ولا ذمةً ولا حقًّا.. وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفيهة، التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا.. فـ(شعيب) عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يدعوهم طامعًا في إيمانهم، والآن لم يَسلَم من شرهم، حتى توعدوه إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.. فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم شعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ متعجبا من قولهم..

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها؛ لعلمنا ببطلانها.. فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها؟!

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولدا ولا صاحبة، ولا شريكا في الملك..

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال..

فآيسهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **من كونه يوافقهم من وجوه متعددة: من جهة** أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك.. **ومن جهة** أنه جعل ما هم عليه كذبا، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.. **ومنها:** اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.. **ومنها:** أن عودهم فيها -بعد ما هداهم الله- من المحالات، بالنظر إلىٰ حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالىٰ والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال، وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدىٰ والضلال.. وأما من حيث النظر إلىٰ مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوىٰ، فإنهم لا يحكمون علىٰ أنفسهم أنهم سيفعلون شيئا أو يتركونه، ولهذا استثنىٰ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعراف: ٨٩]..

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ **فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد..**

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ **فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه..**

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ **اعتمدنا أنه سيثبتنا علىٰ الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل علىٰ الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه..**

﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ **انصر المظلوم، وصاحب الحق، علىٰ الظالم المعاند للحق..**

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ **وفتحه تعالىٰ لعباده نوعان: فتح العلم** بتبيين الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، ومن هو من المستقيمين علىٰ الصراط، ممن هو منحرف عنه.. **والنوع الثاني: فتحه بالجزاء** وإيقاع العقوبة علىٰ الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين.. فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره ما يكون فاصلا بين الفريقين..

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ **محذِّرين عن اتباع شعيب..**

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾ **هذا ما سولت لهم أنفسهم، أن الخسارة والشقاء**

في اتباع الرشد والهدىٰ، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال..

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة..

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ صرعىٰ ميتين هامدين.. قال تعالىٰ ناعيا حالهم..

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ كأنَّهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفيئوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب.. فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلىٰ مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات ولهذا قال..

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، لا من قالوا لهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾..

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ فحين هلكوا تولىٰ عنهم نبيهم شعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ..

﴿وَقَالَ﴾ معاتبًا وموبخًا ومخاطبًا بعد موتهم..

﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أوصلتها إليكم، وبينتها حتىٰ بلغت منكم أقصىٰ ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم..

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم تقبلوا نصحي، ولا انقدتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم..

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:٨٥-٩٣] فكيف أحزن علىٰ قوم لا خيرَ فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحقهم.. فعياذًا بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأيُّ شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلىٰ حالةٍ يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥]

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ يدعوهم إلىٰ عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له..

﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾ إلا ابتلاهم الله..

﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالفقر والمرض وأنواع البلايا..

﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ إذا أصابتهم..

﴿يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ أخضعت نفوسهم فتضرعوا إلىٰ الله واستكانوا للحق..

﴿ثُمَّ﴾ إذا لم يفد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم..

﴿بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ فأدرَّ عليهم الأرزاق، وعافىٰ أبدانهم، ورفع عنهم البلاء..

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثروا، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء..

﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح.. علىٰ حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام.. وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والنكير.. حتىٰ إذا اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا أسر ما كانت إليهم..

﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ أخذناهم بالعذاب..

﴿بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾[الأعراف:٩٤-٩٥] لا يخطر لهم الهلاك علىٰ بال، وظنوا أنهم قادرون علىٰ ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩]

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ لما ذكر تعالىٰ أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذارا، وبالسراء استدراجا ومكرا،

ذكر أن أهل القرىٰ، لو آمنوا بقلوبهم إيمانا صادقا صدقته الأعمال، واستعملوا تقوىٰ الله تعالىٰ ظاهرا وباطنا بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا..

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: ٤١]..

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ المكذبة، بقرينة السياق..

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا الشديد..

﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧﴾ في غفلتهم، وغرتهم وراحتهم..

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾ أي شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة، ما يوجب بعضه الهلاك؟!

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين..

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾[الأعراف:٩٦-٩٩] فإن من أمن من عذاب الله، فهو لم يصدق بالجزاء علىٰ الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

🕮 الفوائد

هذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، علىٰ أن العبد **لا ينبغي له أن يكون آمنا علىٰ ما معه من الإيمان**، بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلىٰ ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيًا بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»، وأن يعمل ويسعىٰ في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإنَّ العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس علىٰ يقين من السلامة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠-١٠٢]

يقول تعالىٰ منبها للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين..

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض..

﴿مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟!

﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أو لم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإنَّ هذه سنته في الأولين والآخرين..

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ إذا نبههم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، **فإن الله تعالىٰ يعاقبهم ويطبع علىٰ قلوبهم**، فيعلوها الران والدنس، حتىٰ يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم..

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ الذين تقدم ذكرهم..

﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين..

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولقد جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم تدعوهم إلىٰ ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبينات المبينات للحق بيانًا كاملًا، ولكنهم لم يفدهم هذا، ولا أغنىٰ عنهم شيئا..

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بسبب تكذيبهم وردهم الحق أول مرة، ما كان الله ليهديهم للإيمان، جزاء لهم علىٰ ردهم الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]..

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٠١﴾ عقوبة منه، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم..

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصىٰ بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم علىٰ ألسنة رسله..

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ۝١٠٢﴾ خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدىً من الله، فالله تعالىٰ امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.. وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدىٰ، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٠٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨﴾ [الأعراف:١٠٣-١٠٨]

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسىٰ الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلىٰ قوم عتاة جبابرة، وهم فرعون وملؤه، من أشرافهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقد له فهو ظالم، بل استكبروا عنها..

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٠٣﴾ كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بئس الرفد المرفود، وهذا مجمل فصله بقوله..

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلىٰ فرعون يدعوه إلىٰ الإيمان..

﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدىٰ، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.. فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فـ..

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ حقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق.. فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر.. فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصًا وقد جاءهم ببينة من الله واضحة علىٰ صحة ما جاء به من الحق..

﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته.. **ولها مقصودان عظيمان**: إيمانهم به، واتباعهم له.. وإرسال بني إسرائيل..

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ الشعب الذي فضله الله علىٰ العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، الذي موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واحد منهم.. فـ..

﴿قَالَ﴾ له فرعون..

﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ﴾ موسىٰ..

﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض..

﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧﴾ أي: حية ظاهرة تسعىٰ، وهم يشاهدونها..

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه..

﴿فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾[الأعراف:١٠٣-١٠٨] من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان علىٰ صحة ما جاء به موسىٰ وصدقه، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتىٰ يروا العذاب الأليم.. فلهذا..

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن
كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ
إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٦]

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة..

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ ماهر في سحره.. ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه..

﴿يُرِيدُ﴾ موسىٰ بفعله هذا..

﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يريد أن يجليكم عن أوطانكم..

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسىٰ، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس.. فحينئذ انعقد رأيهم إلىٰ أن..

﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرعون..

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ احبسهما وأمهلهما..

﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ وابعث في المدائن أناسا يحشرون أهل المملكة و..

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسىٰ.. فقالوا: يا موسىٰ اجعل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٥٨- ٦٠]، وقال هنا..

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا فـ..

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾؟ فـ

﴿قَالَ﴾ فرعون..

﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر..

﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده، ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسىٰ.. فلما حضروا مع موسىٰ بحضرة الخلق العظيم..

﴿قَالُواْ﴾ علىٰ وجه التألي وعدم المبالاة بما جاء به موسىٰ..

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ ما معك..

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ١١٥﴾ ف..

﴿قَالَ﴾ موسىٰ..

﴿أَلْقُواْ﴾ لأجل أن يرىٰ الناس ما معهم وما مع موسىٰ..

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعىٰ، ف..

﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ١١٦﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٦] لم يوجد له نظير من السحر.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢]

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها..

﴿فَإِذَا هِىَ﴾ حية تسعىٰ، ف..

﴿تَلْقَفُ﴾ جميع..

﴿مَا يَأْفِكُونَ ١١٧﴾ يكذبون به ويموهون..

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع..

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ ..

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام..

﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشىٰ سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.. وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر،

الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته، ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها..

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [الأعراف:١٢٢] وصدقنا بما بعث به موسىٰ من الآيات البينات.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾ [الأعراف:١٢٣-١٢٦]

﴿قَالَ﴾ لَهُمْ..

﴿فِرْعَوْنُ﴾ متهددا علىٰ الإيمان:..

﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ كان الخبيث حاكمًا مستبدًا علىٰ الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قولَه هو المطاع، وأمرُه نافذٌ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وقال هنا: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عَليَّ.. ثم موَّه علىٰ قومه وقال..

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ إنَّ موسىٰ كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو علىٰ أن تنغلبوا له، فيظهر، فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم فتخرجوا منها أهلها.. وهذا كذب، يعلم هو ومن سبر الأحوال أن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا علىٰ نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسىٰ آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسىٰ، حتىٰ عجزوا، وتبيَّن لهم الحق، فاتبعوه.. ثم توعدهم فرعون بقوله..

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣﴾ ما أحلَّ بكم من العقوبة..

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ..

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ في جذوع النخل، لتختزوا، بزعمه..

﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب..

﴿قَالُوٓا۟﴾ فقال السحرة، الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم..

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقىٰ، فاقض ما أنت قاض..

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تعيب منا علىٰ إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب..

﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ فإن كان هذا ذنبًا يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.. ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا..

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ أفِض..

﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ عظيمًا، كما يدل عليه التنكير؛ لأن هذه محنةٌ عظيمة، تؤدي إلىٰ ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلىٰ شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن علىٰ إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير..

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[الأعراف:١٢٣-١٢٦] منقادين لأمرك، متبعين لرسولك.. والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالىٰ ثبتهم علىٰ الإيمان.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٧-١٢٩]

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ هذا وفرعون وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا

عن آيات الله، وجحدوا بها ظلمًا وعلوًا، وقالوا لفرعون مهيجين له علىٰ الإيقاع بموسىٰ، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد..

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالدعوة إلىٰ الله، وإلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.. التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكنَّ الظالمين **لا يبالون بما يقولون**..

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ يدعك أنت وآلهتك، وينهىٰ عنك، ويصد الناس عن اتباعك، فـ

﴿قَالَ﴾ فرعون مجيبا لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسىٰ بحالة لا ينمون فيها، ويأمن فرعون وقومه -بزعمه- من ضررهم..

﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: نستبقيهن فلا نقتلهن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم علىٰ ما نشاء من الأعمال..

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة، فـ..

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موصيًا لهم في هذه الحالة - التي لا يقدرون معها علىٰ شيء، ولا مقاومة- بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية..

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله، أنه سيتم أمركم..

﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ الزموا الصبر علىٰ ما يحل بكم، منتظرين للفرج..

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتىٰ يتحكموا فيها..

﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يداولها بين الناس علىٰ حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم..

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ الحميدة لهم علىٰ قومهم.. وهذه **وظيفة العبد: أنه عند القدرة أن يفعل** من الأسباب الدافعة عنه أذىٰ الغير ما يقدر عليه.. **وعند العجز أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج**..

﴿قَالُوٓا۟﴾ لموسىٰ متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون، وأذيته..

﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ فإنهم يسوموننا سوء العذاب، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا..

﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ كذلك فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم موسىٰ مرجيا لهم الفرج والخلاص من شرهم..

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها..

﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف:١٢٧-١٢٩] هل تشكرون أم تكفرون؟ وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراده الله.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا
جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ
إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ
ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ
وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣
وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا
ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ
وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ
وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٧]

قال الله تعالىٰ في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة، **أنها علىٰ عادته وسنته في الأمم**، أن يأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضرعون..

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ بالدهور والجدب..

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠﴾ يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم **معاتبة من الله لهم.. لعلهم يرجعون عن كفرهم**.. فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد..

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ أي: الخصب وإدرار الرزق..

﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها..

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ قحط وجدب..

﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسىٰ، واتباع بني إسرائيل له.. قال الله تعالىٰ..

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك..

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بل..

﴿أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣١﴾ فلذلك قالوا ما قالوا..

﴿وَقَالُواْ﴾ مبينين لموسىٰ أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن باطلهم..

﴿مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢﴾ قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق.. **وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلىٰ أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل**..

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضرَّ بهم ضررًا كثيرًا..

﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾ فأكل ثمارهم وزروعهم، ونباتهم..

﴿وَٱلۡقُمَّلَ﴾ قيل: إنه الدباء، أي: صغار الجراد.. والظاهر أنه القمل المعروف..

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وآذتهم أذية شديدة..

﴿وَٱلدَّمَ﴾ إما أن يكون الرعاف.. أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دمًا، فكانوا لا يشربون إلا دمًا، ولا يطبخون إلا بدم..

﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ أدلة وبينات علىٰ أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلىٰ أن ما جاء به موسىٰ، حق وصدق..

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ لما رأوا الآيات..

﴿وَكَانُواْ﴾ في سابق أمرهم..

﴿قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالىٰ، بأن أبقاهم علىٰ الغي والضلال..

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ أي: العذاب.. يحتمل أن المراد به: **الطاعون**، كما قاله كثير من المفسرين.. **ويحتمل** أن يراد به **ما تقدم من الآيات**: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.. فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها..

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ تشفعوا بموسىٰ بما عهد الله عنده من الوحي والشرع..

﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره..

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلىٰ مدة قدَّر الله بقاءهم إليها، وليس كشفًا مؤبدًا، وإنما هو مؤقت..

﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسىٰ، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا علىٰ كفرهم يعمهون، وعلىٰ تعذيب بني إسرائيل دائبين..

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسىٰ أن يسري ببني إسرائيل ليلًا وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣﴾ [الشعراء: ٥٣] يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ [الشعراء].. وقال هنا..

﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله

وإعراضهم عما دلت عليه من الحق..

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ في الأرض.. أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله..

﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ والمراد بالأرض هاهنا **أرض مصر**، التي كانوا فيها مستضعفين، أذلّين، أي: ملكهم الله جميعًا، ومكنهم فيها..

﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ حين قال لهم موسىٰ: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]..

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من الأبنية الهائلة، والمساكن المزخرفة..

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٧] ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥٢].

﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤١]

﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ بعد ما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنوا إسرائيل ينظرون..

﴿فَأَتَوْا۟﴾ مرُّوا..

﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ﴾ يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها.. ف..

﴿قَالُوا۟﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسىٰ بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم..

﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ اشرع لنا أن نتخذ أصنامًا آلهة كما اتخذها هؤلاء.. ف..

﴿قَالَ﴾ لهم موسىٰ..

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ وأي جهلٍ أعظم من جهلِ من جَهَلَ رَبَّه وخالقه، وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا؟! ولهذا قال لهم موسىٰ..

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها، فالعمل باطل وغايته باطلة..

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أأطلب لكم إلهًا غير الله المألوه، الكامل في ذاته، وصفاته وأفعاله..

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٤٠﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر.. وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر بما يُدعىٰ من دونه.. ثم ذكَّرهم بما امتن الله به عليهم فقال..

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من فرعون وآله..

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا..

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم﴾ النجاة من عذابهم..

﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝١٤١﴾[الأعراف:١٣٨-١٤١] نعمة جليلة، ومنحة جزيلة.. أو: وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم.. فلمَّا ذكرهم موسىٰ ووعظهم انتهوا عن ذلك.

﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ
شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ
ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ
سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٢-١٤٧]

ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالىٰ أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسىٰ ثلاثين ليلة..

﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ وأتمها بعشر.. فصارت أربعين ليلة..

﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ ليستعد موسىٰ، ويتهيأ لوعد الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتَشَوُّق إلىٰ إنزالها..

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ ولما ذهب موسىٰ إلىٰ ميقات ربه قال لهارون موصيًا له علىٰ بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته..

﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل..

﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ اتبع طريق الصلاح..

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي..

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب..

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بما كلّمه من وحيه وأمره ونهيه.. تشوّق إلىٰ رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حبًا لربه ومودة لرؤيته، فـ..

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ﴾ الله..

﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ لن تقدر الآن علىٰ رؤيتي.. فإن الله تبارك وتعالىٰ أنشأ الخلق في هذه الدار

علىٰ نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية الله.. وليس في هذا دليل علىٰ أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلَّت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية علىٰ أنَّ أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالىٰ، ويتمتعون بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها علىٰ رؤية الله تعالىٰ.. ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية علىٰ ثبوت الجبل، فقال مقنعا لموسىٰ في عدم إجابته للرؤية..

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ إذا تجلىٰ الله له..

﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ الأصمِّ الغليظ..

﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ انهال مثل الرمل، انزعاجا من رؤية الله وعدم ثبوته لها..

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ حين رأىٰ ما رأىٰ..

﴿صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ فتبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسىٰ أولىٰ أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه لِمَا صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعًا.. ولذلك..

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك، وتعظيمًا عما لا يليق بجلالك..

﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك..

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ جدد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إيمانه بما كمَّل الله له مما كان يجهله قبل ذلك.. فلما منعه الله من رؤيته -بعدما ما كان متشوقًا إليها- أعطاه خيرًا كثيرًا ف..

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اخترتك واجتبيتك وفضلتك وخصصتك بفضائل عظيمة، ومناقب جليلة..

﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق..

﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ إياك من غير واسطة.. وهذه فضيلة اختص بها موسىٰ الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين..

﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ من النعم، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانشراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد..

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ لله علىٰ ما خصك وفضلك..

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه العباد..

﴿مَّوۡعِظَةً﴾ تُرَّغب النفوس في أفعال الخير، وتُرَهبهم من أفعال الشر..

﴿وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق والآداب..

﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد علىٰ إقامتها..

﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها أحسنها.. وفي هذا دليل علىٰ أن أوامر الله - في كل شريعة - كاملة عادلة حسنة..

﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ بعد ما أهلكهم الله، وأبقىٰ ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون.. وأما غيرهم، فقال عنهم..

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية، والفهم لآيات الكتاب..

﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ يتكبرون علىٰ عباد الله وعلىٰ الحق، وعلىٰ من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمه الله خيرًا كثيرًا وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح..

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ لإعراضهم واعتراضهم، ومحادتهم لله ورسوله..

﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾ أي: الهدىٰ والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلىٰ الله، وإلىٰ دار كرامته..

﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه..

﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلىٰ دار الشقاء..

﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾ والسبب في انحرافهم هذا الانحراف..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يراد بها، واحتقارهم لها، هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشد ما أوجب..

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العظيمة الدالة علىٰ صحة ما أرسلنا به رسلنا..

﴿وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ لأنَّها علىٰ غير أساس، وقد فقد شرطها، وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه..

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ﴾ في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم..

﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾[الأعراف:١٤٢-١٤٧] فإنَّ أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو فيها ثوابًا، وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك اضمحلت وبطلت.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ
لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ
فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ
بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ
ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ
وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ [الأعراف:١٤٨-١٥٤]

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ صاغه السامري وألقىٰ عليه قبضة من أثر الرسول فصار..

﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ وصوت، فعبدوه واتخذوه إلها.. وقال ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: ٨٨] موسىٰ، وذهب يطلبه.. وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم.. كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسماوات، بعجل من أنقص المخلوقات؟! ولهذا قال مبيِّنًا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية ما يوجب أن يكون إلهًا..

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ﴾ وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم..

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ لا يدلهم طريقًا دينيًا، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية؛ لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه، ولهذا قال..

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا.. وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى؛ لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية..

﴿وَلَمَّا﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا، و..

﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ من الهم والندم على فعلهم..

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ فتنصلوا، إلى الله وتضرعوا، و..

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ فيدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال..

﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل..

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة..

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ ممتلئًا غضبًا وغيظًا عليهم؛ لتمام غيرته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكمال نصحه وشفقته..

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ بئس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنَّها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي..

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب، فبادرتم -برأيكم الفاسد- إلى هذه الخَصلة القبيحة..

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ رماها من الغضب..

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ولحيته..

﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وقال له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه] لك بقولي: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف] فـ ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه]..و..

﴿قَالَ﴾ هنا..

﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ هذا ترقيق لأخيه بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه..

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ احتقروني حين قلت لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝٩٠﴾ [طه: ٩٠]..

﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ فلا تظن بي تقصيرًا..

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ بنهرك لي، ومسك إياي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجدوا عليَّ عثرة، أو يطلعوا لي على زلة..

﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥٠﴾ فتعاملني معاملتهم.. فندم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظنه فيه من التقصير، و..

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ هارون..

﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين، من جميع الشرور، وثَمَّ كلُّ الخير وسرور..

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٥١﴾ أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا، وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا.. قال الله تعالى مبينًا حالَ أهل العجل الذين عبدوه..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا..

﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره..

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ۝١٥٢﴾ فكل مفتر على الله كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإنَّ له نصيبًا من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا.. وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك.. فقتل بعضهم بعضًا، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى.. ثم تاب الله عليهم بعد ذلك.. ولهذا ذكر حكمًا عامًّا يدخلون فيه هم وغيرهم، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من شرك، وكبائر، وصغائر..

﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ بأن ندموا على ما مضى، وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا..

﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ بالله وبما أوجب الله من الإيمان به.. ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة علىٰ الإيمان..

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلىٰ الطاعات..

﴿لَغَفُورٞ﴾ يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض..

﴿رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ بقبول التوبة، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها..

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، فـ..

﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ التي ألقاها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة..

﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ مشتملة ومتضمنة..

﴿هُدٗى﴾ فيها الهدىٰ من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدىٰ لأحسن الأعمال، والأخلاق، والآداب..

﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها.. ولكن ليس كل أحد يقبل هدىٰ الله ورحمته..

﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ﴾ وإنما يقبل ذلك وينقاد له ويتلقاه بالقبول الذين هم..

﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾[الأعراف:١٤٨-١٥٤] يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المُقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا عتوًا ونفورًا.. وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ

فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٨]

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ ولما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلىٰ رشدهم ﴿ٱخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ منهم..

﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم..

﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ ووعدهم الله ميقاتًا يحضرون فيه، فلما حضروه قالوا ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فتجرأوا علىٰ الله جراءة كبيرة، وأساءوا الأدب معه، فـ ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ فصعقوا وهلكوا..

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو لم يزل يتضرع إلىٰ الله ويتبتل ويقول..

﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ أن يحضروا، ويكونون في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين..

﴿وَإِيَّٰىَ﴾ ..

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام.. فتضرع إلىٰ الله واعتذر بأن المتجرئين علىٰ الله ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال..

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ أنت خير من غفر، وأولىٰ من رحم، وأكرم من أعطىٰ وتفضل.. فكأن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان

بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتمَّ علىٰ ما وهبته من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيمًا، وأما من **ضعف عقله وسفه رأيه، وصرفته الفتنة**، فهو الذي فعل ما فعل لذينك السببين.. ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.. فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم ذنوبهم.. وقال موسىٰ في تمام دعائه..

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح..

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب..

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ رجعنا مقرين بتقصيرنا، منيبين في جميع أمورنا..

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ..

﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ ممن كان شقيًا، متعرضًا لأسبابه..

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه.. ولكنَّ الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها..

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، صغارها وكبارها..

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة مستحقيها..

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ **ومن تمام الإيمان بآيات الله**: معرفة معناها.. والعمل بمقتضاها.. ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا، في أصول الدين وفروعه..

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ احتراز عن سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ.. **والسياق في أحوال بني إسرائيل وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان**، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة، التي كتبها الله لهم.. ووصفه بالأمي لأنَّه من العرب الأمة الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب..

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه، وينهىٰ عنه، وأنه..

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه..

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفِطَر.. **فيأمرهم بـ:** الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلىٰ الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك.. **وينهىٰ عن:** الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.. **فأعظم دليل يدل علىٰ أنه رسول الله ما دعا إليه وأمر به، ونهىٰ عنه، وأحلَّه وحرَّمه، فإنَّه..**

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المطاعم والمشارب، والمناكح..

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح، والأقوال والأفعال..

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه، ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقال..

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ عظموه وبجلوه..

﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدىٰ به إذا تعارضت المقالات..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.. **وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي**، ويعزره، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، **فأولئك هم الخاسرون**.. ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلىٰ اتباعه، وكان **ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم**، أتىٰ بما يدل علىٰ العموم فقال..

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ عربيكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم..

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جملتها: أن أرسل إليكم رسولا عظيمًا يدعوكم إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه، ومن دار كرامته..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله..

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ من جملة تدابيره: الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسرًا ومعبرًا يعبر منه إلىٰ دار البقاء، التي من آمن بها صدق الرسول محمدا ﷺ قطعًا..

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ إيمانًا في القلب، متضمنًا لأعمال القلوب والجوارح..

﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله..

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٨] في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتم ضلالًا بعيدًا.

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف:١٥٩]

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ﴾ جماعة..

﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم..

﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف:١٥٩] ويعدلون به بينهم، في الحكم بينهم بقضاياهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة].. وفي هذا فضيلة لأمة موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن الله تعالىٰ جعل منهم هداة يهدون بأمره.

🕮 الفـوائـد

كأن الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم، فإنَّه تعالىٰ ذَكر فيما تقدم جملة من معايب بني إسرائيل المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالىٰ أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف:١٦٠]

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾ قسمناهم..

﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ اثنتي عشرة قبيلة متعارفة متوالفة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة..

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ طلبوا منه أن يدعو الله تعالىٰ أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم -والله أعلم- في محل قليل الماء.. فأوحىٰ الله لموسىٰ إجابة لطلبتهم..

﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس، يشمل أي حجر كان، فضربه..

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ﴾ انفجرت من ذلك الحجر..

﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ جارية سارحة..

﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ قد قُسِّم علىٰ كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينًا، فعلموها، واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحمة والمخاصمة.. وهذا من تمام نعمة الله عليهم..

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ فكان يسترهم من حر الشمس..

﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ﴾ وهو الحلوىٰ..

﴿وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ وهو لحم طير من أنواع الطيور وألذها.. فجمع الله لهم بين: الظلال، والشراب، والطعام الطيب من الحلوىٰ واللحوم، علىٰ وجه الراحة والطمأنينة.. وقيل لهم..

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ ..

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم..

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف:١٦٠] حيث فوَّتوها كلَّ خير، وعرَّضوها للشر والنقمة.. وهذا كان مدة لبثهم في التيه.

﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١﴾

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف:١٦١-١٦٢]

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ادخلوها لتكون وطنًا لكم ومسكنًا، وهي (إيلياء)..

﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار، غزيرة الثمار، رغيدة العيش، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاءوا..

﴿وَقُولُواْ﴾ حين تدخلون الباب..

﴿حِطَّةٌ﴾ احطط عنا خطايانا، واعف عنا..

﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ خاضعين لربكم مستكينين لعزته، شاكرين لنعمته.. فأمرهم بالخضوع، وسؤال المغفرة.. ووعدهم علىٰ ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل فقال..

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ من خير الدنيا والآخرة، فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي، بل..

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ عصوا الله واستهانوا بأمره..

﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل طلب المغفرة وقولهم ﴿حِطَّةٌ﴾: (حبة في شعيرة).. وإذا بدلوا القول -مع يسره وسهولته- **فتبديلهم للفعل من باب أولىٰ**، ولهذا دخلوا وهم يزحفون علىٰ أستاههم..

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه..

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا شديدًا، إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية.. وما ظلمهم الله بعقابه وإنما كان ذلك..

﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف:١٦١-١٦٢] يخرجون من طاعة الله إلىٰ معصيته، من غير ضرورة ألجأتهم ولا داع دعاهم سوىٰ **الخبث والشر الذي كان كامنًا في نفوسهم**.

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ
تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ
مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟
بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٦]

﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ اسأل بني إسرائيل..

﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ علىٰ ساحله.. في حال تعديهم وعقاب الله إياهم..

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ وكان الله تعالىٰ قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله وامتحنهم..

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ فكانت الحيتان تأتيهم..

﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ كثيرة طافية علىٰ وجه البحر..

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ إذا ذهب يوم السبت..

﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ تذهب في البحر فلا يرون منها شيئا..

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكون لهم هذه المحنة.. وإلا فلو لم يفسقوا لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر.. فتحيلوا علىٰ الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرًا، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك.. وانقسموا ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجرؤوا، وأعلنوا بذلك.. وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم.. وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ونهيهم لهم..

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ وقالوا لهم..

﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيح، بل استمَرَّ علىٰ اعتدائه وطغيانه..

﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فإنَّه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد..

﴿قَالُوا﴾ فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم..

﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لنُعذَرَ فيهم..

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما نجع فيهم الوعظ، وأثَّر فيهم اللوم.. **وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر**: ليكون معذرة، وإقامة حجة علىٰ المأمور المنهي.. ولعل الله أن يهديه، فيعمل بمقتضىٰ ذلك الأمر، والنهي..

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ تركوا ما ذكروا به، واستمروا علىٰ غيهم واعتدائهم..

﴿أَنجَيْنَا﴾ من العذاب..

﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر..

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت..

﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد ..

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.. **وأما الفرقة الأخرىٰ التي قالت للناهين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين**، لأن الله خص الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون.. فدلَّ علىٰ أن **العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت**.. ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **فرض كفاية**، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك.. **ولأنهم أنكروا عليهم** بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون أشدَّ الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشدَّ العقوبة..

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ قسوا فلم يلينوا، ولا اتعظوا..

﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولًا قدريًا..

﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾[الأعراف:١٦٣-١٦٦] فانقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته.. ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال..

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف:١٦٧-١٧٠]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أعلم إعلامًا صريحًا..

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يهينهم، ويذلهم..

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا..

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ لمن تاب إليه وأناب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب.. ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويثيبه عليها بأنواع المثوبات.. وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، **فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم**، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم عَلَمٌ..

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرّقناهم ومزّقناهم في الأرض بعد ما كانوا مجتمعين..

﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ القائمون بحقوق الله، وحقوق عباده..

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم..

﴿وَبَلَوْنَاهُم﴾ على عادتنا وسنتنا..

﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالعسر واليسر..

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد..

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ حتىٰ خلف من بعدهم خلف، زاد شرهم..

﴿وَرِثُواْ﴾ بعدهم..

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة..

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ﴾ مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة:..

﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنَّه ليس استغفارًا وطلبًا للمغفرة علىٰ الحقيقة.. فلو كان ذلك لندموا علىٰ ما فعلوا، وعزموا علىٰ أن لا يعودوا، ولكنهم إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرىٰ يأخذوه..

﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ فاشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا واستبدلوا الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير.. قال الله -تعالىٰ- في الإنكار عليهم، وبيان جراءتهم..

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعًا لأهوائهم، وميلًا مع مطامعهم..

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ والحال أنهم قد دَرَسُوا مَا فِيهِ، فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أَتَوْا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين.. وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة.. وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم، بإيثار الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، ولهذا قال..

﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ ما حرَّم الله عليهم من المآكل التي تصاب وتؤكل، رشوةً **علىٰ الحكم بغير ما أنزل الله**، وغير ذلك من أنواع المحرَّمات..

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولىٰ بالسعي إليه، والتقديم له علىٰ غيره.. **فخاصية العقل النظر للعواقب**.. وأما من نظر إلىٰ عاجل طفيف منقطع، يفوِّت نعيمًا عظيمًا باقيًا فأنَّىٰ له العقل والرأي؟! وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله..

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ يتمسكون به علمًا وعملًا فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار، التي علمها أشرف العلوم.. ويعلمون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون

وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.. ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات، إقامة الصلاة..

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا.. **ولهذا خصها الله بالذكر لـ:** فضلها وشرفها.. وكونها ميزان الإيمان.. وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.. ولما كان عملهم كله إصلاحًا قال تعالىٰ..

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾[الأعراف:١٦٧-١٧٠] في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.. وهذه الآية وما أشبهها دلت علىٰ أن الله **بعث رسله عليهم الصلاة والسلام** بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا **بصلاح الدارين**، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلىٰ اتباعهم.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١﴾ [الأعراف:١٧١]

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ حين امتنعوا من قبول ما في التوراة.. فألزمهم الله العمل ونتق فوق رءوسهم الجبل، فصار فوقهم..

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ .. وقيل لهم..

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد..

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ دراسةً، ومباحثةً، واتصافًا بالعمل به..

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١﴾ [الأعراف:١٧١] إذا فعلتم ذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٧٤﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٤]

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم

يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن..

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وحين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار، بأنَّه ربهم وخالقهم ومليكهم..

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قالوا: بلىٰ قد أقررنا بذلك، فإنَّ الله تعالىٰ فَطَر عباده علىٰ الدين الحنيف القيِّم.. فكلُّ أحد فهو مفطور علىٰ ذلك، ولكنَّ الفطرة قد تغيَّر وتبدَّل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾..

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ إنما امتحناكم حتىٰ أقررتم بما تقرر عندكم من أن الله تعالىٰ ربكم، خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون.. فاليوم قد انقطعت حجتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم..

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ أو تحتجون أيضا بحجة أخرىٰ، فتقولون..

﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم..

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ **فقد أودع الله في فطركم، ما يدلكم علىٰ أن ما مع آبائكم باطل**، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه.. **نعم!** قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيناته، وآياته الأفقية والنفسية، **فإعراضه عن ذلك وإقباله علىٰ ما قاله المبطلون، ربما صيَّره بحالة يفضِّل بها الباطل علىٰ الحق**، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات..

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبينها ونوضحها..

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٤] إلىٰ ما أودع الله في فطرهم، وإلىٰ ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح.

🕮 الفوائد

قد قيل: إنَّ هذا يوم أخذ الله الميثاق علىٰ ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم علىٰ أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا به في ذلك الوقت علىٰ ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة..

ولكن ليس في الآية ما يدل علىٰ هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالىٰ، والواقع شاهد بذلك، فإن هذا العهد والميثاق الذي ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم كالذر، لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر؟! ولهذا لما كان هذا أمرًا واضحًا جليًا.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٨]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ علمناه كتاب الله، فصار العالم الكبير والحبر النحرير.. وهذا الذي آتاه الله آياته: يحتمل: أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقصَّ الله قصته تنبيها للعباد.. ويحتمل: أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها..

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله.. فإن العلم بذلك يصير صاحبه متصفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقىٰ إلىٰ أعلىٰ الدرجات وأرفع المقامات.. فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها

كما يخلع اللباس..

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: **تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين**، وصار إلىٰ أسفل سافلين، **فأزَّه إلىٰ المعاصي أزًّا**..

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين.. وهذا **لأن الله تعالىٰ خذله ووكله إلىٰ نفسه**، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه..

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فَـ..

﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلىٰ الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية..

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وترك طاعة مولاه..

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ في شدة حرصه علىٰ الدنيا وانقطاع قلبه إليها..

﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ لا يزال لاهثًا في كل حال، وهذا لا يزال حريصًا، حرصًا قاطعًا قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا..

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذَّبوا بها وردُّوها لهوانهم علىٰ الله، واتباعهم لأهوائهم بغير هدىً من الله..

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكَّروا علموا، وإذا علموا عملوا..

﴿سَآءَ﴾ وقَبُح..

﴿مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مثل من كذب بآيات الله..

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧﴾ وظلم نفسه بأنواع المعاصي.. فإنَّ مثلهم مثل السوء..

ثم قال تعالىٰ مبينا أنه المنفرد بالهداية والإضلال..

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم..

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ حقا لأنه آثر هدايته تعالىٰ..

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ فيخذله ولا يوفقه للخير..

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٨] لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

📖 **الفـوائـد**

١- في هذه الآيات: الترغيب في **العمل بالعلم**، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان.. **والترهيب من عدم العمل به**، وأنه نزول إلىٰ أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه..

٢- وفيه: أن اتباع الهوىٰ **وإخلاد العبد إلىٰ الشهوات**، يكون سببا **للخذلان**.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩]

يقول تعالىٰ مبينا كثرة الغاوين الضالين، المتبعين إبليس اللعين..

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أنشأنا وبثثنا..

﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم..

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة..

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها..

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ﴾ سماعًا يصل معناه إلىٰ قلوبهم..

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة..

﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ، فسلبوا خاصية العقل..

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالا منهم..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:١٧٩] الذين **غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله** وطاعته وذكره.. خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عونًا لهم علىٰ القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها علىٰ ضد هذا المقصود.. فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.. وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبته، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء، أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف:١٨٠]

هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنىٰ..

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: له كل اسم حسن.. **وضابطه: أنه كل اسم دال علىٰ صفة كمال عظيمة**، وبذلك كانت حسنىٰ.. فإنها لو دلت علىٰ غير صفة، بل كانت عَلَمًا محضًا **لم تكن حسنىٰ**.. وكذلك لو دلت علىٰ صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلىٰ المدح والقدح، **لم تكن حسنىٰ.. فكل اسم من أسمائه دال علىٰ جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها** وذلك نحو: (العليم) الدال علىٰ أن له عِلمًا محيطًا عامًا لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.. و(كالرحيم) الدال علىٰ أن له رحمة عظيمة، واسعة لكل شيء.. و(كالقدير) الدال علىٰ أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء.. ونحو ذلك.. **ومن تمام كونها (حسنىٰ)** أنه لا يدعىٰ إلا بها، ولذلك قال..

﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.. فيدعىٰ في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلا: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عَلَيَّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف.. ونحو ذلك..

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ **وحقيقة الإلحاد**: الميل بها عما جعلت له، **إما بأن يسمىٰ بها من لا يستحقها**، كتسمية المشركين بها لآلهتهم.. **وإما بنفي معانيها وتحريفها**، وأن

يجعل لها معنىٰ ما أراده الله ولا رسوله.. **وإما أن يشبه بها غيرها.. فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها..** وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة»[١]..

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠] **عقوبةً وعذابًا علىٰ إلحادهم في أسمائه.**

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف:١٨١-١٨٦]

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ ومن جملة من خلقنا..

﴿أُمَّةٌ﴾ أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها..

﴿يَهْدُونَ﴾ أنفسهم وغيرهم..

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلِّمونه، ويدعون إليه وإلىٰ العمل به..

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات وغير ذلك.. **وهؤلاء هم أئمة الهدىٰ**، ومصابيح الدجىٰ.. وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.. وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة.. وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته.. فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم..

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ والذين كذبوا بآيات الله الدالة علىٰ صحة ما جاء به محمد ﷺ، من الهدىٰ فردوها ولم يقبلوها..

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ بأن يدر لهم الأرزاق..

---

(١) اخرجه البخاري [٢٧٣٦]، ومسلم [٢٦٧٧] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ أُمْهِلُهُم حتىٰ يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرًا وطغيانًا، وشرًا إلىٰ شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال..

﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ قوي بليغ..

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ..

﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أَوَ لَمْ يُعْمِلُوا أفكارهم، وينظروا: هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفىٰ عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه ودَلِّهِ وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمَّها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكلِّ خير، ولا ينهىٰ إلا عن كل شر.. أفبهذا يا أولي الألباب من جِنَّة؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين، والماجد الكريم، والرءوف الرحيم؟! ولهذا قال..

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾ يدعو الخلق إلىٰ ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب..

﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنَّهم إذا نظروا إليها وجدوها أدِلَّةً دالةً علىٰ توحيد ربِّها، وعلىٰ ما له من صفات الكمال..

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ وكذلك لينظروا إلىٰ جميع ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ فإنَّ جميع أجزاء العالم، يدلُّ أعظمَ دلالة علىٰ الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة علىٰ تفرده بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب..

﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ، من استدراك الفارط..

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾ إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟! أبكتب الكذب والضلال؟! أم بحديث كل مفتر دجال؟! ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلىٰ هدايته، ولهذا قال تعالىٰ ..

﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾[الأعراف:١٨١-١٨٦] متحيرين يترددون، لا يخرجون منه ولا يهتدون إلىٰ حق.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف:١٨٧]

يقول تعالىٰ لرسوله محمد ﷺ..

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ المكذبون لك، المتعنتون..

﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ متىٰ وقتها الذي تجيء به، ومتىٰ تحل بالخلق؟

﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ إنه تعالىٰ مختص بعلمها..

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو..

﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خفي علمها علىٰ أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضا عليهم، فهم من الساعة مشفقون..

﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيأوا لقيامها..

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ هم حريصون علىٰ سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها.. ولم يعلموا أنك -لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه- **غير مبال بالسؤال عنها**، ولا حريص علىٰ ذلك.. **فلم لا يقتدون بك**، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذَّر علمه..

﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾[الأعراف:١٨٧] فلذلك حرصوا علىٰ ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصًا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم، ويدعون ما **يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلىٰ ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.**

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨]

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ **فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو..**

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ **وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالىٰ..**

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ **لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلىٰ سوء ومكروه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه.. ولكني -لعدم علمي- قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها.. فهذا أدل دليل علىٰ أني لا علم لي بالغيب..**

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ **أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلىٰ ذلك، وأحذر منها..**

﴿وَبَشِيرٞ﴾ **بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها..**

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨] **ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون..**

🕮 الفـوائـد

هذه الآيات الكريمات: مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر..

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالىٰ، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك..

فهذا نفعه ﷺ الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان، بما حث العباد علىٰ كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٣]

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض علىٰ كثرتكم وتفرقكم..

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ..

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خلق من آدم زوجته حواء..

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ لأجل أن يسكن إليها؛ لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلىٰ الآخر، فانقاد كلٌّ منهما إلىٰ صاحبه بزمام الشهوة..

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ تجللها مجامعا لها..

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ قدَّر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، وحينئذ حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا..

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثىٰ، ولا يثقلها..

﴿فَلَمَّآ﴾ استمرت به، و..

﴿أَثْقَلَت﴾ به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة علىٰ الولد، وعلىٰ خروجه حيًا صحيحًا سالمًا لا آفة فيه كذلك فـ..

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ ولدًا..

﴿صَٰلِحًا﴾ صالح الخلقة تامها، لا نقص فيه..

﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ ..

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ علىٰ وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه..

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به، وأقرَّ به أعينَ والديه.. **فَعَبَّدَاه لغير الله:** إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ (عبد الحارث)، و(عبد العزىٰ)، و(عبد الكعبة) ونحو ذلك.. أو يشركا بالله في العبادة، بعد ما منَّ الله عليهما بما منَّ من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد.. وهذا **انتقال من النوع إلىٰ الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلىٰ الكلام في الجنس،** ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرًا.. فلذلك قررهم الله علىٰ بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم..

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجًا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكِّن بعضهم إلىٰ بعض، ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلىٰ ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل.. ثم **أوجد الذرية في بطون الأمهات،** وقتًا موقوتًا، تتشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجه سويًا صحيحًا، فأتمَّ الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم..

﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدا، ويخلصوا له الدين.. ولكن الأمر جاء علىٰ العكس، فأشركوا بالله من لا..

﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾ ..

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ﴾ لعابديها..

﴿نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ فإذا كانت لا تخلق شيئًا، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن أنفسها، فكيف تتخذ مع الله آلهة؟ إن هذا إلا أظلم الظلم، وأسفه السفه..

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ وإن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام، التي عبدتم من دون الله..

﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾[الأعراف:١٨٩- ١٩٣] فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تهدِي ولا تُهدىٰ.. وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورًا مجردًا، جزم ببطلان إلهيتها، وسفاهة من عبدها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف:١٩٤-١٩٥]

وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان، يقول تعالىٰ..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئا..

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم..

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوىٰ، مفترون علىٰ الله أعظم الفرية، وهذا لا يحتاج إلىٰ التبيين فيه، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها دالة علىٰ أنه ليس لديها من النفع شيء..

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها.. فهي عادمة لجميع الآلات والقوىٰ الموجودة في الإنسان.. فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها، وهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوىٰ علىٰ كثير من الأشياء، فلأي شيء عبدتموها..

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ اجتمعوا أنتم وشركاؤكم..

﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ علىٰ إيقاع السوء والمكروه بي..

﴿فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾[الأعراف:١٩٤-١٩٥] من غير إمهال ولا إنظار فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦]

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار..

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ الذي فيه الهدىٰ والشفاء والنور، وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصة الدينية.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦] الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].. فالمؤمنون الصالحون - لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوىٰ، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر- تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم علىٰ ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه، كما قال تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف:١٩٧]

وهذا أيضا في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة.. لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة..

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ فلو دعوتها إلىٰ الهدىٰ لم تهتد..

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك..

﴿وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾[الأعراف:١٩٨] حقيقة، لأنهم صوروها علىٰ صور الحيوانات من الآدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصارًا وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة.. فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟! ولأي مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟! فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها لو اجتمعوا، وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسماوات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدروا علىٰ كيده بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتمىٰ بجلاله وتوكَّل عليه.

🕮 الفـوائـد

قيل: إن معنىٰ قوله ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ أن الضمير يعود إلىٰ المشركين المكذبين لرسول الله ﷺ..

فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب..

ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩]

هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو..

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق.. **فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم،** بل يشكر من كلِّ أحدٍ ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك.. **ويتجاوز عن تقصيرهم** ويغض طرفه عن نقصهم.. **ولا يتكبر** علىٰ الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره.. بل **يعامل الجميع باللطف** والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم..

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ بكل قولٍ حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد.. **فاجعل ما يأتي إلىٰ الناس منك،** إما تعليم علم، أو حث علىٰ خير، من صلة رحم، أو برِّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة علىٰ بر وتقوىٰ، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلىٰ تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية.. ولما كان لا بد من أذية الجاهل، **أمر الله تعالىٰ أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله..**

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[الأعراف:١٩٩] فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه.. وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالىٰ..

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الأعراف:٢٠٠-٢٠٢]

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ في أيِّ وقت، وفي أيِّ حال ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي: تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر، وإيعاز إليه..

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ التجئ واعتصم بالله، واحتم بحماه فـ..

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لما تقول..

﴿عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحميك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس].. ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطًا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالىٰ علامة المتقين من الغاوين..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ وأن المتقي..

﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب..

﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ تذكَّر من أي باب أُوتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان..

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ فأبصر واستغفر الله تعالىٰ، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيرًا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه..

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب لا يزالون..

﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ ذنبًا بعد ذنب..

﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الأعراف:٢٠٠-٢٠٢] ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصِّر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم، حين رأتهم سَلِسِي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣﴾ [الأعراف:٢٠٣]

لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالة علىٰ الهدىٰ والرشاد، فإذا جئتهم بشيء من الآيات الدالة علىٰ صدقك لم ينقادوا..

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها..

﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ هلَّا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدبِّر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنَّه ليس لك من الأمر شيء، أو أنَّ المعنىٰ: لولا اخترعتها من نفسك..

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ فأنا عبدٌ متبع مدبَّر، والله تعالىٰ هو الذي ينزل الآيات ويرسلها علىٰ حسب ما اقتضاه حمده، وطلبتْه حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل علىٰ تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآنات، فـ..

﴿هَٰذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم..

﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ يُستبصرُ به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول، فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة علىٰ كل من بلغه..

﴿وَهُدٗى﴾ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.. وإلا فمن آمن، فهوهُدًىٰ له من الضلال..

﴿وَرَحۡمَةٞ﴾له من الشقاء..

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣﴾[الأعراف:٢٠٣] فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه.. وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف:٢٠٤]

هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلىٰ..

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ **فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات.. والفرق بين الاستماع والإنصات**: أن **الإنصات** في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.. **وأما الاستماع** له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع.. فإنَّ من لازم علىٰ هذين الأمرين حين يتلىٰ كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدىً متزايدًا، وبصيرةً في دينه.. ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما..

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤﴾[الأعراف:٢٠٤] فدلَّ ذلك علىٰ أن من **تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة**، قد فاته خير كثير.

📖 الفـوائـد

من أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له **وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه**، فإنه مأمور بالإنصات..

حتىٰ إن أكثر العلماء يقولون: إن **اشتغاله بالإنصات أولىٰ من قراءته الفاتحة**، وغيرها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف:٢٠٥-٢٠٦]

الذكر لله تعالىٰ يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله.. فأمر الله عبده ورسوله محمدًا أصلا وغيره تبعًا، بذكر ربه في نفسه..

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ مخلصًا خاليًا..

﴿تَضَرُّعًا﴾ متضرعًا بلسانك، مكررًا لأنواع الذكر..

﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفًا من الله، وَجِلَ القلب منه، خوفًا أن يكون عملك غير مقبول.. **وعلامة الخوف** أن يسعىٰ ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به..

﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ كن متوسطًا، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلا..

﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أول النهار..

﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزيَّة وفضيلة علىٰ غيرهما..

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا علىٰ من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به.. ثم ذكر تعالىٰ أن له عبادًا مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته، وهم الملائكة.. **فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم**، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين، وحملة العرش والكروبيين..

﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم..

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ الليل والنهار لا يفترون..

﴿وَلَهُۥ﴾ وحده لا شريك له..

﴿يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف:٢٠٥-٢٠٦] فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا علىٰ عبادة الملك العلام.

🕮 الفـوائـد

هذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي: الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، **خصوصا طَرَفَي النهار**.. مخلصًا **خاشعًا متضرعًا، متذللًا ساكنًا**، وتواطئا عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال علىٰ الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

تم تفسير سورة (الأعراف)

ولله الحمد والشكر والثناء

وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة الأنفال وهي مدنية

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:١-٤]

الأنفال هي: الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار.. وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة (بدر) أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين.. فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله..

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ كيف تُقَسّم وعلىٰ من تُقَسّم؟

﴿قُلِ﴾ لهم..

﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا.. فلا اعتراض لكم علىٰ حكم الله ورسوله.. بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما.. وذلك داخل في قوله..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه..

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب والتواصل.. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل بسبب التقاطع من التخاصم، والتشاجر والتنازع.. **ويدخل في إصلاح ذات البين**: تحسين الخُلُق لهم، والعفو عن المسيئين منهم، فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابر..

والأمر الجامع لذلك كله قوله..

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ فإن الإيمان يدعو إلىٰ طاعة الله ورسوله،.كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن.. ومن نقصت طاعته لله ورسوله فذلك لنقص إيمانه.. **ولمَّا كان الإيمان قسمين:** إيمانا كاملا يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيمانا دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال..

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان..

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالىٰ الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالىٰ أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب..

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم.. **لأن التدبر من أعمال القلوب**، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنىٰ كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقًا إلىٰ كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان..

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له..

﴿يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ يعتمدون في قلوبهم علىٰ ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالىٰ سيفعل ذلك.. والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به..

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها..

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة علىٰ الزوجات والأقارب، وما ملكت أيمانهم.. والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير..

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات..

﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.. ثم ذكر ثواب

المؤمنين حقًا فقال..

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عالية بحسب علو أعمالهم..

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم..

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾[الأنفال:١-٤] وهو ما أعدَّ الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. ودل هذا علىٰ أن من يصل إلىٰ درجتهم في الإيمان -وإن دخل الجنة- فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

🕮 الفـوائـد

١- قدَّم تعالىٰ أعمال القلوب؛ لأنها أصلٌ لأعمال الجوارح وأفضل منها.

٢- فيها دليل علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها.

٣- ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه.

٤- وأن أولىٰ ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالىٰ والتأمل لمعانيه.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥
يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ
يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ
تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ
۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال:٥-٨]

قدَّم تعالىٰ -أمام هذه الغزوة الكبرىٰ المباركة- الصفات التي علىٰ المؤمنين أن يقوموا بها.. لأن من قام بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله..

﴿كَمَآ﴾ فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به.. كذلك..

﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ أخرج اللهُ رسولَه ﷺ.. وكان أصل خروجهم: يتعرضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلىٰ الشام قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام،

ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، معهم سبعون بعيرًا، يعتقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم قريش، فخرجوا لمنع عيرهم، في عَدَدٍ كثير وعُدَّةٍ وافرة من السلاح والخيل والرجال، يبلغ عددهم قريبًا من الألف..

﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ من بيته إلىٰ لقاء المشركين في (بدر)..

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي يحبه الله تعالىٰ، وقد قدَّره وقضاه..

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾ وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال..

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك..

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾ ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون.. **والحال أن هذا لا ينبغي منهم**، خصوصًا بعد ما تبين لهم أن خروجهم بالحق، ومما أمر الله به ورضيه، فبهذه الحال ليس للجدال محل؛ لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضح وبان فليس إلا الانقياد والإذعان.. هذا **وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء**، ولا كرهوا لقاء عدوهم.. وكذلك **الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد**، وثبتهم الله، وقيَّض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها..

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ **فوعد الله المؤمنين إحدىٰ الطائفتين**: إما أن يظفروا بالعير، أو بالنفير..

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ **فأحبوا العير** لقلة ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات شوكة، ولكن الله تعالىٰ أحب لهم وأراد أمرًا أعلىٰ مما أحبوا.. أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم..

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فينصر أهله..

﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ يستأصل أهل الباطل، ويُرِيَ عباده من نصره للحق أمرا لم يكن يخطر ببالهم..

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين علىٰ صحته وصدقه..

﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد علىٰ بطلانه..

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال:٥-٨] فلا يبالي الله بهم.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾ [الأنفال:٩-١٤]

اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم..

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ استغثتم بربكم، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم..

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأغاثكم بعدة أمور.. منها..

﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ أن الله أمدكم..

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ يردف بعضُهم بعضًا.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنزال الملائكة..

﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ لتستبشر بذلك نفوسكم..

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عَددٍ ولا عُددٍ..

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا..

﴿حَكِيمٌ ۝١٠﴾ حيث قدَّر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها..

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسًا يُغَشِّيكُمُ..

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون أَمَنَةً لكم وعلامة علىٰ النصر والطمأنينة..

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطرًا ليطهركم به من الحدث والخبث..

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وليطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه..

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يثبتها، فإنَّ ثبات القلب أصل ثبات البدن..

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ فإنَّ الأرض كانت سهلة دهسة، فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام..

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ومن ذلك: أن الله أوحىٰ إلىٰ الملائكة..

﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد..

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ألقوا في قلوبهم وألهموهم الجراءة علىٰ عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله..

﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الذي هو أعظم جند لكم عليهم، فإنَّ الله إذا ثبَّت المؤمنين وألقىٰ الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون علىٰ الثبات لهم ومنحهم الله أكتافهم..

﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ علىٰ الرقاب..

﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ أي: مِفصَل.. وهذا خطاب: إما للملائكة الذين أوحىٰ الله إليهم أن يثبِّتوا الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر.. أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله، أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة..

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣﴾ ومن عقابه تسليط أوليائه علىٰ

أعدائه وتقتيلهم..

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب المذكور..

﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها المشاققون لله ورسوله عذابا معجلا..

﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ١٤﴾ [الأنفال:٩-١٤].

🕮 الفوائد

في هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حقًا:

منها: أن الله وعدهم وعدا، فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ١٣﴾ [آل عمران: ١٣].

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب، وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته، وييسرها بأسباب داخلية وخارجية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال:١٥-١٦]

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم من بعض..

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإنَّ في ذلك نصرةً لدين الله، وقوةً لقلوب المؤمنين، وإرهابًا للكافرين..

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ **ومفهوم الآية: أن المتحرف** للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوِّه، فإنه **لا بأس بذلك**؛ لأنه لم يول دبره فارًا، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين..

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ وأن **المتحيز** إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار، **فإن ذلك جائز**.. فإن كانت **الفئة في العسكر**، فالأمر في هذا واضح.. وإن كانت **الفئة في غير محل المعركة** كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين، أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن **هذا جائز**.. ولعل هذا **يقيَّد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة**، وأبقى عليهم.. أما **إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم**، فيبعد -في هذه الحال- أن تكون من الأحوال المرخص فيها؛ لأنه -على هذا- لا يتصور الفرار المنهي عنه.. **وهذه الآية مطلقة**، وسيأتي في آخر السورة **تقييدها بالعدد**..

﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أي: رجع..

﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾ أي: مقره..

﴿جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾[الأنفال:١٥-١٦] وهذا يدل على أن **الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر**، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وكما نصَّ هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧
ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ [الأنفال:١٧-١٩]

يقول تعالىٰ - لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون ..

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم علىٰ ذلك بما تقدم ذكره..

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقْتَ القتال دخل العريش وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته.. ثم خرج منه، فأخذ حفنةً من تراب فرماها في وجوه المشركين.. فأوصلها الله إلىٰ وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجْهَه وفمه وعينيه منها.. فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا..
يقول تعالىٰ لنبيه: لست بقوتك -حين رميت التراب- أوصلته إلىٰ أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا..

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ إن الله تعالىٰ قادر علىٰ انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكنَّ الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلىٰ أعلىٰ الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجرًا حسنًا وثوابًا جزيلًا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧﴾ يسمع تعالىٰ ما أسرَّ به العبد وما أعلن.. ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها.. فيقدِّر علىٰ العباد أقدارًا موافقةً لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلاً بحسب نيته وعمله..

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النصر من الله لكم..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ مضعف كلَّ مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقًا بهم..

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ أيها المشركون، أي: تطلبوا من الله أن يوقع بأسه وعذابه علىٰ المعتدين الظالمين..

﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ﴾ حين أوقع الله بكم من عقابه، ما كان نكالا لكم وعبرة للمتقين..

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن الاستفتاح..

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾ لأنه ربما أُمهِلتُم، ولم يُعَجِّل لكم النِّقمة..

﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلىٰ الاستفتاح وقتال حزب الله المؤمنين..

﴿نَعُدْ﴾ في نصرهم عليكم..

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ أي: أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون وتقاتلون معتمدين عليهم..

﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾[الأنفال:١٧-١٩] ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفًا قليلًا عدده.. وهذه المعية التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين تكون **بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان**.. فإذا أديل العدو علىٰ المؤمنين في بعض الأوقات فليس ذلك إلا تفريطًا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما انهزم لهم راية، ولا أديل عليهم عدوهم أبدًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:٢٠-٢١]

لما أخبر تعالىٰ أنه مع المؤمنين، أمرهم أن يقوموا بمقتضىٰ الإيمان الذي يدركون به معيته، فقال..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما..

﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله..

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ما يتلىٰ عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال..

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾[الأنفال:٢٠-٢١] لا تكتفوا بمجرد الدعوىٰ الخالية التي لا حقيقة لها، فإنَّها حالةٌ لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال.

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣]

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم..

﴿ٱلصُّمُّ﴾ عن استماع الحق..

﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن النطق به..

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه علىٰ ما يضرهم، فهؤلاء شرٌّ عند الله من جميع الدواب؛ لأن الله أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه وعدموا -بذلك- الخير الكثير، فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية، فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية.. **والسمع الذي نفاه الله عنهم**، سمع المعنىٰ المؤثر في القلب.. **وأما سمع الحجة**، فقد قامت حجة الله تعالىٰ عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته..

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ علىٰ الفرض والتقدير..

﴿لَتَوَلَّوا﴾ عن الطاعة..

﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الأنفال:٢٢-٢٣] لا التفات لهم إلىٰ الحق بوجه من الوجوه.. وهذا دليل علىٰ أن الله تعالىٰ **لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه**، الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده.. وله الحمد تعالىٰ والحكمة في هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٤-٢٥]

يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلىٰ ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه..

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه.. **وبيان لفائدته وحكمته**، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالىٰ ولزوم طاعته وطاعة رسوله علىٰ

الدوام.. ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال..

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فإياكم أن تَرُدُّوا أمر الله أَوَّل ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإنَّ الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنىٰ شاء.. فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلىٰ طاعتك..

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه..

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره.. وتقوىٰ هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يُمكَّنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن..

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال:٢٤-٢٥] لمن تعرَّض لمساخطه، وجانب رضاه.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال:٢٦]

يقول تعالىٰ ممتنا علىٰ عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العَيلَة..

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مقهورون تحت حكم غيركم..

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يأخذونكم..

﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فجعل لكم بلدًا تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم علىٰ أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال:٢٦] الله علىٰ منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٧-٢٨]

يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ **فإنَّ الأمانة قد عرَضها الله** ﴿عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فمن **أدَّىٰ الأمانة** استحق من الله الثواب الجزيل، ومن **لم يؤدها** بل خانها استحقَّ العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله وللرسول **ولأمانته**، منقصًا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، **وهي الخيانة**، مفوِّتًا لها أكمل الصفات وأتمَّها، وهي الأمانة..

ولما كان العبد ممتحنا بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك علىٰ تقديم هوىٰ نفسه علىٰ أداء أمانته، **أخبر الله تعالىٰ أن الأموال والأولاد فتنة**..

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدىٰ لمن أعطاها، وترد لمن استودعها..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[الأنفال:٢٧-٢٨] **فإن كان لكم عقل ورأيٌ، فآثروا فضله العظيم** علىٰ لذةٍ صغيرة فانية مضمحلة، فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩]

امتثال العبد لتقوىٰ ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح.. وقد رتب الله علىٰ التقوىٰ من خير الدنيا والآخرة شيئًا كثيرًا، فذكر هنا أن من اتقىٰ الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها.. الأول: الفرقان..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ **الفرقان هو العلم والهدىٰ الذي**

يفرق به صاحبه بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة..

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر..

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩] الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه علىٰ هوىٰ نفسه.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠]

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأذكر أيها الرسول، ما منَّ الله به عليك، ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ..

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ويوثقوه..

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ وإما أن يقتلوه فيستريحوا -بزعمهم- من شره..

﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم..

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ فكلٌّ أبدىٰ من هذه الآراء رأيًا رآه، فاتفق رأيهم علىٰ رأي رآه شريرهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كلِّ قبيلة من قبائل قريش فتىٰ ويعطوه سيفًا صارمًا، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل.. فيرضىٰ بنو هاشم ثَمَّ بديته، فلا يقدرون علىٰ مقاومة سائر قريش.. فترَّصدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه..

﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذرَّ علىٰ رءوسهم التراب وخرج، وأعمىٰ الله أبصارهم عنه، حتىٰ إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذَرَّ علىٰ رءوسكم التراب.. فنفض كل منهم التراب عن رأسه، ومنع اللهُ رسولَه منهم، وأذِن له في الهجرة إلىٰ المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين

والأنصار.. ولم يزل أمره يعلو حتىٰ دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج مستخفيًا منهم، خائفا علىٰ نفسه..

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾[الأنفال:٣٠] فسبحان اللطيف بعبده الذي لا يغالبه مغالب.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال:٣١-٣٣]

يقول تعالىٰ في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ..

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة علىٰ صدق ما جاء به الرسول..

﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم.. وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا علىٰ ذلك، وتبين عجزهم.. فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوىٰ، كذبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتىٰ بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد..

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ الذي يدعو إليه محمد..

﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ قالوه علىٰ وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب.. فلو أنهم إذ أقاموا علىٰ باطلهم من الشبه والتمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا علىٰ بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعىٰ أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، لكان أولىٰ لهم وأستر لظلمهم.. فمنذ قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقىٰ منهم باقية، ولكنه تعالىٰ دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال..

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فوجُودُه ﷺ بين أظهرهم أَمَنَةً لهم من العذاب.. وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رءوس الأشهاد يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله تعالىٰ فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال:٣١-٣٣] فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعد ما انعقدت أسبابه ثم قال..

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ [الأنفال:٣٤]

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام..

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ خصوصًا صدهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولىٰ به منهم، ولهذا قال..

﴿وَمَا كَانُوٓا۟﴾ أي: المشركون..

﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ **يحتمل**: أن الضمير يعود إلىٰ الله، أي: أولياء الله.. **ويحتمل**: أن يعود إلىٰ **المسجد الحرام**، أي: وما كانوا أولىٰ به من غيرهم..

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ [الأنفال:٣٤] فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمرا غيرهم أولىٰ به.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾ [الأنفال:٣٥]

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني أن الله تعالىٰ إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة.. فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات..

﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ صفيرًا وتصفيقًا.. فِعلُ الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها.. **فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟!.. فبأي شيء كانوا أولىٰ بهذا البيت من المؤمنين** الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، إلىٰ آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة.. لا جرم أورثهم الله بيته الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم بعد ما مكن لهم فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وقال هنا..

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: ٣٥]..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧]

يقول تعالىٰ مبينا لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليبطلوا الحق وينصروا الباطل، ويبطل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان..

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ فسيصدرون هذه النفقة.. وتخف عليهم لـ: تمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق..

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ولكنها ستكون عليهم حسرة، أي: ندامة وخزيًا وذلا..

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يجمعون إليها، ليذوقوا عذابها.. وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء..

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ والله تعالىٰ يريد أن يميز الخبيث من الطيب..

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ويجعل كل واحدة علىٰ حدة، وفي دار تخصه، فيجعل الخبيث بعضه علىٰ بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص...

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الأنفال:٣٦-٣٧] الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال:٣٨-٤٠]

هذا من لطفه تعالىٰ بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلىٰ طريق الرشاد والهدىٰ، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردىٰ، فقال..

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ عن كفرهم وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له..

﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم من الجرائم..

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلىٰ كفرهم وعنادهم..

﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما حل بالمعاندين، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين، فقال..

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك وصد عن سبيل الله، ويذعنوا لأحكام الإسلام..

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتىٰ يكون هو العالي علىٰ سائر الأديان..

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن ما هم عليه من الظلم..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾ **لا تخفىٰ عليه منهم خافية..**

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ **عن الطاعة وأوضعوا في الإضاعة..**

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ **الذي يتولىٰ عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم، وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية..**

﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال:٤٠] **الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.. ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عِزَّ له ولا قائمة له.**

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢﴾ [الأنفال:٤١-٤٢]

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ **أخذتم من مال الكفار قهرًا بحق، قليلًا كان أو كثيرًا..**

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ وباقيه لكم أيها الغانمون.. لأنه **أضاف الغنيمة إليهم**، وأخرج منها خمسها، فدل علىٰ أن الباقي لهم، يقسم علىٰ ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهم، وللفارس سهمان لفرسه، وسهم له.. **وأما هذا الخمس فيقسم خمسة أسهم**: سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعُلِم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفًا، دلَّ علىٰ أن مصرفه **للمصالح العامة..**

﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ **والخمس الثاني: لذي القربىٰ**، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب.. وأضافه الله إلىٰ القرابة دليلًا علىٰ أن العلَّة فيه مجرد القرابة، **فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكَرهم وأنثاهم..**

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ **والخمس الثالث: لليتامىٰ**، وهم الذين **فُقِدَت** آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فُقِد من يقوم بمصالحهم..

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ **والخمس الرابع: للمساكين**، أي: المحتاجين الفقراء، من صغار وكبار، ذكور وإناث..

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ **والخمس الخامس: لابن السبيل**، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده.. وبعض المفسرين يقول إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه علىٰ السواء بل ذلك تبع للمصلحة وهذا هو الأولىٰ.. وجعل الله أداء الخمس علىٰ وجهه شرطًا للإيمان فقال..

﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ وهو يوم (بدر) الذي فرق الله به بين الحق والباطل. وأظهر الحق وأبطل الباطل..

﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ جمع المسلمين، وجمع الكافرين، أي: إن كان إيمانكم بالله، وبالحق الذي أنزله الله علىٰ رسوله يوم الفرقان، الذي حصل فيه من الآيات والبراهين، ما دل علىٰ أن ما جاء به هو الحق..

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾ لا يغالبه أحد إلا غلبه..

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بعدوة الوادي القريبة من المدينة..

﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ جانبه البعيدة من المدينة، فقد جمعكم واد واحد..

﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره..

﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ مما يلي ساحل البحر..

﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾ أنتم وإياهم علىٰ هذا الوصف وبهذه الحال..

﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ لا بد من تقدم أو تأخر أو اختيار منزل، أو غير ذلك مما يعرض لكم أو لهم، يصدفكم عن ميعادكم..

﴿وَلَٰكِن﴾ الله جمعكم علىٰ هذه الحال..

﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ مقدَّرًا في الأزل، لا بد من وقوعه..

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ ليكون حجة وبينة للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله..

﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ يزداد المؤمن بصيرةً ويقينًا، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الألباب..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات..

﴿عَلِيمٌ ۝٤٢﴾ [الأنفال:٤١-٤٢] بالظواهر والضمائر والسرائر، والغيب والشهادة.

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤٤﴾ [الأنفال:٤٣-٤٤]

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾ كان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عددًا قليلًا فبشَّر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم وتثبتت أفئدتهم..

﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا﴾ ولو أراكهم الله إياهم كثيرًا فأخبرت بذلك أصحابك..

﴿لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم.. ومنكم من لا يرى ذلك.. فوقع من الاختلاف والتنازع ما يوجب الفشل..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ فلطف بكم..

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣﴾ بما فيها من ثبات وجزَع، وصدق وكذب.. فعلم الله من قلوبكم ما صار سببًا للطفه وإحسانه بكم، وصدقِ رؤيا رسولِه..

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ فأرى اللهُ المؤمنين عدوَّهم قليلًا في أعينهم..

﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ ويقللكم -يا معشر المؤمنين- في أعينهم.. فكلٌّ من الطائفتين ترى الأخرى قليلة، لتُقْدِم كلٌّ منهما على الأخرى..

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يَبق منهم أحدٌ له اسم يذكر.. فيتيسر بعد ذلك انقيادُهم إذا دُعوا إلىٰ الإسلام، فصار أيضًا لطفًا بالباقين الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام..

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[الأنفال:٤٣-٤٤] جميع أمور الخلائق ترجع إلىٰ الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل، الذي لا جورَ فيه ولا ظلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفةً من الكفار تقاتلكم..

﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لقتالها، واستعمِلوا الصبرَ وحبسَ النَّفس علىٰ هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتُها العزُّ والنَّصر..

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ واستعينوا علىٰ ذلك بالإكثار من ذكر الله..

﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الأنفال:٤٥] تدركون ما تطلبون من الانتصار علىٰ أعدائكم.. فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٦-٤٩]

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في استعمال ما أمَرا به، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال..

﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ﴾ تنازعًا يوجب تشتت القلوب وتفرقها..

﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ تجبنوا..

﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ تنحل عزائمكم، وتُفرق قوَّتكم، ويرفع ما وُعدتم به من النصر علىٰ طاعة الله ورسوله..

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ نفوسكم علىٰ طاعة الله..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ٤٦﴾ بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم واخضعوا له..

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا﴾ هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم، لقصد الأَشَر والبطر في الأرض..

﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وليراهم الناس ويفخروا لديهم..

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدُّوا عن سبيل الله من أراد سلوكه..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ٤٧﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تَشَبَّهوا بهم، فإنه سيعاقبهم علىٰ ذلك أشدَّ العقوبة.. فليكن قصدكم في خروجكم: وجه الله تعالىٰ.. وإعلاء دين الله.. والصد عن الطرق الموصلة إلىٰ سخط الله وعقابه.. وجذب الناس إلىٰ سبيل الله القويم الموصل لجنات النعيم..

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَعۡمَـٰلَهُمۡ﴾ حسَّنها في قلوبهم وخدعهم..

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنَّكم في عَدَدٍ وعُدَدٍ وهيئة لا يقاومكم فيها محمدٌ ومن معه..

﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ من أن يأتيكم أحدٌ ممن تخشون غائلتَه.. لأنَّ إبليسَ قد تبدَّىٰ لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جَعشَم المُدلِجيّ، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.. فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم وأتوا علىٰ حَرد قادرين.. ومن المحتمل: أن يكون الشيطان قد سوَّل لهم ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم، فلما أوردهم مواردهم..

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ المسلمون والكافرون، فرأىٰ الشيطانُ جبريلَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يَزع

الملائكة، خاف خوفًا شديدًاوتبرأ منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦]، و..

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ ولىٰ مدبرًا.. ونكص عنهم..

﴿وَقَالَ﴾ لمن خدعهم وغرَّهم..

﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ أرىٰ الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم..

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا..

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ ..

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ للمؤمنين حين أقدموا - مع قِلَّتهم - علىٰ قتال المشركين مع كثرتهم..

﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان..

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ أوردهم الدينُ الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يَدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها.. يقولونه احتقارًا لهم واستخفافًا لعقولهم.. وهم -والله- الأخِفَّاءُ عقولًا، الضعفاء أحلامًا.. فإن **الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام** علىٰ الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام.. فإنَّ **المؤمن المتوكل** علىٰ الله الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالىٰ، وأن الخلق لو اجتمعوا كلُّهم علىٰ نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، **وعلم أنه علىٰ الحق**، وأن الله تعالىٰ حكيم رحيم في كل ما قدَّره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، **وكان واثقًا بربه، مطمئنَ القلب**، لا فزعًا ولا جبانًا، ولهذا قال..

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب قوَّته قوة..

﴿حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٦-٤٩] فيما قضاه وأجراه.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ

لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال:٥١-٥٢]

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ الذين كفروا بآيات الله..

﴿إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حين توفاهم الملائكة الموكَّلون بقبض أرواحهم وقد اشتدَّ بهم القلقُ وعَظُمَ كَربُهم، و..

﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم.. ونفوسهم متمنعة مستعصية علىٰ الخروج؛ لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.. ولهذا قال..

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ العذاب الشديد المحرق..

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب حصل لكم..

﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت.. وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، فإنَّ دأب هؤلاء المكذبين -أي: سنتهم- ما أجرىٰ الله عليهم من الهلاك بذنوبهم..

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم المكذبة..

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالعقاب..

﴿بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال:٥١-٥٢] لا يعجزه أحد يريد أخذه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: ٥٦].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال:٥٣-٥٤]

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين، وأزال عنهم ما هم فيه من النِّعم والنَّعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم..

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾ فإنَّ الله لم يك مغيرًا نعمةً أنعمها علىٰ قومٍ من نعم الدين والدنيا.. بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرًا..

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ من الطاعة إلىٰ المعصية، فيكفروا نعمة الله ويبدِّلوها كفرًا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم، كما غيروا ما بأنفسهم.. ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلىٰ عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به..

﴿عَلِيمٞ ٥٣﴾ ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري علىٰ عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته..

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: فرعون وقومه..

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ ..

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ حين جاءتهم..

﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ كل بحسب جرمه..

﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ﴾ من المهلكين المعذبين..

﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾[الأنفال:٥٣-٥٤] لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه.. فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال:٥٥-٥٧]

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه **الخصال الثلاث: الكفر**، وعدم **الإيمان، والخيانة**، بحيث لا يثبتون علىٰ عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله..

فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها؛ لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم.. فإذهاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين، لئلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال..

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تجدنَّهم..

﴿فِي الْحَرْبِ﴾ في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق..

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ نكِّل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم..

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من خلفهم..

﴿يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[الأنفال:٥٥-٥٧] صنيعَهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم.

📖 الفـوائـد

١- من **فوائد العقوبات والحدود** المرتبة علىٰ المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرًا لمن عملها أن لا يعاودها.

٢- دل تقييد هذه العقوبة في الحرب: أن الكافر -ولو كان كثيرَ الخيانة سريعَ الغدر- إذا أُعْطِيَ عهدًا لا يجوز خيانته وعقوبته.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال:٥٨]

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق علىٰ ترك القتال.. فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل علىٰ خيانتهم، من غير تصريح منهم بالخيانة..

﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم..

﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ حتىٰ يستوي علمك وعلمهم بذلك.. ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعىٰ في شيء مما منعه موجب العهد، حتىٰ تخبرهم بذلك..

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال:٥٨] بل يبغضهم أشد البغض.. فلا بد من أمر بيِّنٍ يبرئكم من الخيانة.

الفـوائـد

١- دلت الآية علىٰ: أنه **إذا وجدت الخيانة المحققة** منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم؛ **لأنه**: لم يخف منهم، بل علم ذلك.. ولعدم الفائد.. ولقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وهنا قد كان معلومًا عند الجميع غدرهم.

٢- دل مفهومها أيضًا: أنه **إذا لم يُخَفْ منهم خيانة**، بأن لم يوجد منهم ما يدل علىٰ ذلك، أنه **لا يجوز نبذ العهد إليهم**، بل يجب الوفاء إلىٰ أن تتم مدته.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال:٥٩]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ **لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون بآياته، أنهم..**

﴿سَبَقُوٓاْۚ﴾ **الله وفاتوه، فـ..**

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾[الأنفال:٥٩] ـه، **والله لهم بالمرصاد.. وله تعالىٰ الحكمة البالغة في إمهالهم** وعدم معاجلتهم بالعقوبة.. **التي من جملتها**: ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه ما يصلون به المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها.. فلهذا قال لعباده المؤمنين..

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال:٦٠]

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم..

﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين علىٰ قتالهم.. **فدخل في ذلك**: **أنواع الصناعات**: التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، **والرأي والسياسة**:

التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، **وتَعَلُّم الرَّمْي، والشجاعة والتدبير،** ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرَّمْيُ»(١)، **ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب** المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ وهذه العلة موجودة فيها (٢) في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء.. **والحُكم يدور مع علته،** فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية المعدَّة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتىٰ إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب..

﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم..

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به..

﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم.. ومن أعظم ما يعين علىٰ قتالهم بذلك **النفقات المالية** في جهاد الكفار.. ولهذا قال تعالىٰ مرغبا في ذلك..

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قليلًا كان أو كثيرًا..

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفًا أضعافًا كثيرة، حتىٰ إن النفقة في سبيل الله تضاعف إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة..

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠] لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦١]

﴿۞ وَإِن﴾ الكفار المحاربون..

﴿جَنَحُوا۟﴾ مالوا..

---

(١) أخرجه مسلم [١٩١٧] وغيره من حديث عقبة بن عامر.

(٢) يعني: في الخيل.

﴿لِلسَّلۡمِ﴾ الصلح وترك القتال..

﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أجبهم إلىٰ ما طلبوا متوكلًا علىٰ ربك، **فإن في ذلك فوائد كثيرة: منها:** أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولىٰ لإجابتهم.. **ومنها:** أن في ذلك إجمامًا لقواكم، واستعدادًا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.. **ومنها:** أنكم إذا أصلحتم وأَمِن بعضكم بعضًا، وتمكَّن كلٌّ من معرفة ما عليه الآخر، فإنَّ الإسلام يعلو ولا يُعلىٰ عليه، فكلُّ من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره علىٰ غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، **فصار هذا السلم عونًا للمسلمين علىٰ الكافرين..**

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦١﴾ [الأنفال:٦١] ..

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال:٦٢-٦٤]

ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم.. فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال..

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ **كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك، فـ..**

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ **أعانك بمعونة سماوية،** وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء..

﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢﴾ ومعونة بالمؤمنين، بأن قيَّضهم لنصرك..

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فـ..

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهبٍ وفضةٍ وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة..

﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ **لأنَّه لا يقدر علىٰ تقليب القلوب إلا الله تعالىٰ..**

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].. ثم قال تعالىٰ..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك..

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:٦٢-٦٤] وكافي أتباعك من المؤمنين.. وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين -المتبعين لرسوله- بالكفاية والنصرة علىٰ الأعداء.. **فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال:٦٥-٦٦]

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم، من: الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء.. والترهيب من ضد ذلك.. وذكر فضائل الشجاعة والصبر.. وما يترتب علىٰ ذلك من خير في الدنيا والآخرة.. وذكر مضار الجبن.. وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة.. وأن الشجاعة بالمؤمنين أولىٰ من غيرهم ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]..

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون..

﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار..

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ وذلك بأن الكفار..

﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ لا علم عندهم بما أعدَّ الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها.. **وأنتم تفقهون المقصود من القتال**، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذَّبِّ عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله.. وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.. ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال..

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف..

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[الأنفال:٦٥-٦٦] بعونه وتأييده.

📖 الفوائد

هذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن الله **أمر المؤمنين -في أول الأمر- أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة**، والعشرة من المائة، والمائة من الألف.. **ثم إن الله خفف ذلك**، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، **فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار**.

ولكن يَرِدُ على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، **والأصل في الخبر أن يكون على بابه**، وأن **المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع**.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا **متدربين على الصبر**.. **ومفهوم هذا**: أنهم **إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم**، إذا غلب على ظنهم الضرر، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بـ: أن قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلىٰ آخرها، دليل علىٰ أن هذا أمر لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلىٰ ذلك العدد، فهذا **ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.. وقد يقال:** إن في إتيانه **بلفظ الخبر نكتة بديعة** لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي **تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة** بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن **المقصود بتقييد ذلك بالصابرين أنه حث علىٰ الصبر**، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك، **فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة** بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال:٦٧-٦٩]

هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم (بدر) إذ أَسَروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء.. وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستئصالهم..

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخماد دينه، وأن لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض من يعبد الله..

﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ أن يتسرع إلىٰ أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عَرَض قليل بالنسبة إلىٰ المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصولة، فالأوفق أن لا يؤسروا..

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإذا أُثخِنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرىٰ منهم وإبقائهم..

﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم..

﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ لا لمصلحة تعود إلىٰ دينكم..

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلىٰ ذلك..

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة.. ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل، لكنه..

﴿حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ يبتلي بعضكم ببعض..

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم -أيها الأمة- العذاب..

﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٦٨﴾ وفي الحديث: «لو نزل عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر»..

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ وهذا من لطفه تعالىٰ بهذه الأمة، أن أحلَّ لها الغنائم ولم يحلها لأمة قبلها..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكرا لنعم الله عليكم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب.. ويغفر لمن لم يشرك به شيئًا جميع المعاصي..

﴿رَّحِيمٞ ۝٦٩﴾ [الأنفال:٦٧-٦٩] بكم.. حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالًا طيبًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [الأنفال:٧٠-٧١]

وهذه نزلت في أسارىٰ يوم بدر.. وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ.. فلما طُلِب منه الفداء، ادَّعىٰ أنه مسلم قبل ذلك.. فلم يسقطوا عنه الفداء.. فأنزل الله تعالىٰ جبرًا لخاطره ومن كان علىٰ مثل حاله..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ أي: من المال، بأن ييسر لكم من فضله، خيرًا وأكثر مما أخذ منكم..

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم.. ويدخلكم الجنة.. وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له -بعد ذلك- من المال شيء كثير، حتىٰ إنه مرة لما قدم علىٰ النبي ﷺ مال كثير أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حَمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠﴾..

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ في السعي لحربك ومنابذتك..

﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ ..

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالىٰ قادر عليهم وهم تحت قبضته..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء..

﴿حَكِيمٌ ۝٧١﴾[الأنفال:٧٠-٧١] يضع الأشياء مواضعها.. ومن علمه وحكمته: أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة.. وأن تكفل بكفايتكم شأن الأسرىٰ وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢﴾ [الأنفال:٧٢]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **هذا عقد موالاة ومحبة، عقدها الله بين المهاجرين:** الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ **وبين الأنصار:** الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه، وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فهؤلاء بعضهم أولياء بعض؛ لكمال إيمانهم وتمام اتصال بعضهم ببعض..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلىٰ الرجال، فلما لم يهاجروا..

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء، لكنهم..

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم..

﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم..

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢﴾ [الأنفال:٧٢] يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرِّع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ٧٣﴾ [الأنفال:٧٣]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لمَّا عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أنَّ الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء لبعض فلا يواليهم إلا كافر مثلهم..

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين.. بـ: أن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين..

﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ٧٣﴾[الأنفال:٧٣] فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر: من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ٧٥﴾ [الأنفال:٧٤-٧٥]

الآيات السابقات في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار.. وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار..

﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض، وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين..

﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ من الله تمحىٰ بها سيئاتهم، وتضمحل بها زلاتهم..

﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾ ولهم رِزْقٌ كَرِيمٌ، أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.. وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقرُّ به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.. **فهذه الموالاة الإيمانية -وقد كانت في أول الإسلام- لها وقع كبير وشأن عظيم**، حتىٰ إن النبي ﷺ آخىٰ بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتىٰ كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله..

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض.. فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة..

﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ في حكمه وشرعه..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال:٧٤-٧٥] ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة (الأنفال) ولله الحمد

فهرس المحتويات

الإهداء ٥

مقدمة المُعتَنِي ٧

تعريف مختصر بالمصنف ١١

مقدمة المؤلف ١٥

تفسير سورة الفاتحة ٣٢

تفسير سورة البقرة ٣٧

تفسير سورة آل عمران ٢٦٩

تفسير سورة النساء ٣٩٦

تفسير سورة المائدة ٥٤٥

تفسير سورة الأنعام ٦٣٣

تفسير سورة الأعراف ٧٢٥

تفسير سورة الأنفال ٨١٩

فهرس المحتويات ٨٥٦